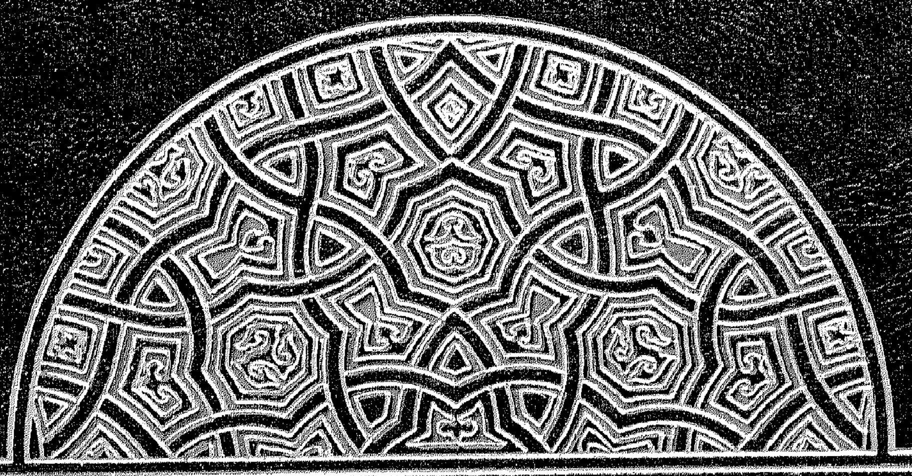
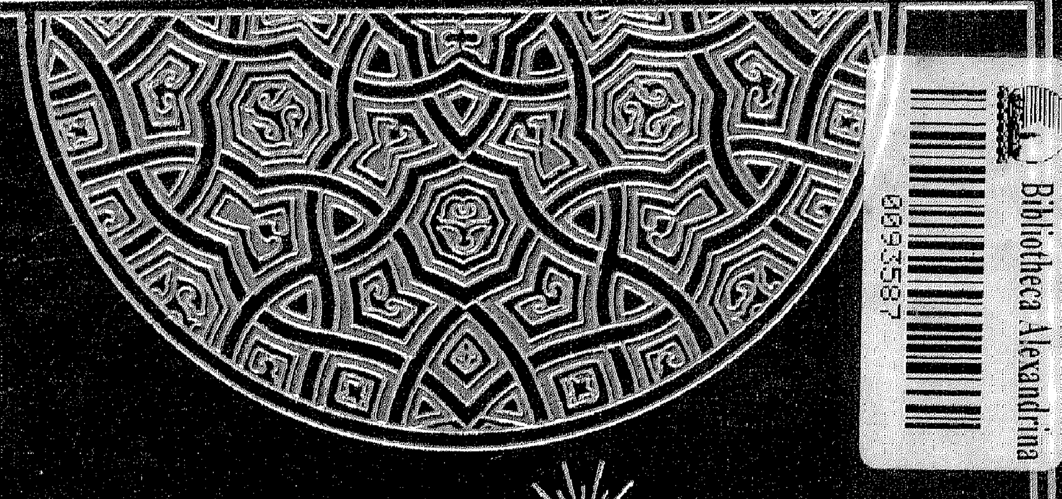
موسوعة الحكومة العالمية المثلى «١»



الحكومة العالمية المثلى

تأليف
د. جواد جعفر الخليلي



دار الأضواء




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الحكومة العالمية المثلى

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك - شارع دكاش - ص.ب: ٢٥/٤٠ - برقيا: غبيري - حسنكو - بيروت - لبنان

موسوعة الحكومة العالمية المثلى

«١»

الحكومة العالمية المثلى

تأليف

د. جواد جعفر الخليلي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصـــديـر

بقلم : د. محمد عبدالمنعم خفاجى
أستاذ وعميد بجامعة الأزهر الشريف ـ القاهرة

حمـداً لله عـز وجـلَّ ، والفضـل منـه وإليـه ؛ وصلَّىٰ الله على أشـرف خلقـه ، وأعظم رسله ، وخـاتم أنبيـائـه ، محمـد صلَّىٰ الله عليـه وعلى آلـه وذريته وصحبه وسلَّم . .

وبـعـــد :

فبيني وبين أُسـرة الخليلي صلة مودة وصـداقة قـديمة ؛ ومن أجـلِّ من عـرفتهم من أعلامهـا وعلمائهـا : جعفـر الخليلي ، وابن عمّـه جـواد جعفـر الخليلي .

وجـــواد جعفـــر الخليـلي أديب ، وكـــاتـب ، وشـــاعـــر ، وطبـيب ، وقـانوني . . وهـو قبل كـل شيء مفكر إسـلامي جليل بحكم ثقـافته العـربية الإسلامية الـواسعة ، وبـأصولـه الجليلة الخالـدة الماجـدة العريقـة ؛ وبطول تجـاربـــه وممـــارستـــه للحيـــاة ولشؤون الفكـــر في مـختـلف المـجـــالات والاتجاهات .

وبين يـــديَّ هـــذا الكتـــاب النفيس العميق ، الـــذي يـــدلُّ على سعـــة اطلاع ، وعمق فهم وتصور ، وعظمة فكر ، وشمول نظرة . .

عنوان الكتاب : (**الحكومة العالمية المثلى**) .

وهـو بصفحاتـه الأربعمائـة ، وأبوابـه الخمسة ، التي سمّى كـل بـاب

منها : كتاباً . . وعادته العلمية العالية الرفيعة . . جدير بالقراءة ، بل بأن يطبع على نطاق واسع ويوزع في كل مكان ، ويترجم إلى كل اللغات .

لقد بحث المؤلف في أصول الحياة والاجتماع والمذاهب والعقائد والأديان والرسالات . . ورأى أن الحكومة العالمية المثلى هي من أقدم أمنيات المفكرين والفلاسفة ، بل سعى إلى تحقيقها أولو العزم من الرسل وجاء الإسلام ، فكان أعظم رسالة يصح أن تكون هي دستور هذه الحكومة العالمية المثلى ، يقول المؤلف : « الإسلام اذن جاء ديناً وشريعةً كاملة أصلح ما وجدناه على حد ما جاء به أهل الأديان السماوية من أهل الكتاب وأهل الآراء والأهواء من الناحية العقلية والفطرية الطبيعية ، وأيدته التجارب العملية ، ديناً جمع أحدث ما قال به أفلاطون وجماعته من الموحدين نظرياً ، وعجز من تطبيقه عملياً ، وقد طبقه صاحبه محمد عملياً فأخرجه كأصلح ما يمكن أن يسير عليه البشر لإقامة حكومة عالمية ـ ص ٢٠٦ .

والمؤلف يرى أنه في وسع العالم اليوم إقامة الحكومة العالمية المثلى ، إذا توفرت بين حكام البشر حسن النية واتباع المنطق السليم ، ونبذ الخلافات العقائدية والعنصرية (ص ٤) .

إن المؤلف يسلك بالبحث بهذا المؤلف العظيم منهجاً جيداً لم يسبق لأحد أن سَلَكَهُ ، وهو يقيم آراءه على أسس قوية من البحث العلمي الجاد ، والفكر المنطقي العالي ، والنظرة النافذة العميقة إلى الحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وإني لأحيي هذا الكتاب الرائد ، ومؤلفه العظيم . . وأقول له في غربته : حيَّ على الفلاح ، وبارك الله في خطواتك الرائدة ، وإننا معك ، نشدُّ على يديك ، بكل حب وتقدير وإكبار . . وفقك الله تعالى .

د. محمد عبدالمنعم خفاجي

تقديم

من الطموحات الإنسانية التي شغلت الفلاسفة والمفكرين منذ عهود بعيدة ، ذلك الطموح الذي يتشوف ويتطلع إلى إقامة حكومة عالمية واحدة تأخذ بيدها زمام أمور البشرية جمعاء ، وتجد هذه الطموحات من تناظر الجنس البشري وتماثله مسوغاً لوحدة النظام العام تساوقاً مع وحدة الجنس الذي يراد له ذلك النظام ، مع أن الإنسان في حركته وتوجهاته التطبيقية لم يظهر تعاطفاً مع الداعين إلى توحيد نظامه ، فهو يؤصّل دائماً التقسيم على أسس عرقية أو لونية أو دينية أو أي فوارق تستطيع أن تظهره في حالة انقسام يتطلب التشرذم والتوزع بين نظم يخترعها هو للاستقلال التام عن حقيقة كونه بشراً لا بد له من نظام عام معبر عن وحدة البشرية في جانبها التكويني .

إن وحدة البشر التكوينية ليست موضوع خلاف بين الأمم ، فتلك بديهية علمية يعرفها حتى الذين لا علم لهم ، ولكن موضوع الخلاف هو في ما يترتب على ذلك الموضوع ، فالعلماء والمفكرون « المتحررون من التبعية » يؤكدون على ضرورة قيام نظام عام لا يفرق ولا يمزق بل يجمع الناس على صعيد واحد كما جمعهم الله سبحانه على صورة واحدة يوم خلقهم .

إن وحدة التكوين البشري سهلت مهمة العلوم المتصلة بالكائن

البشـري ، جسمـه وعقله ونفسـه ، فلم تكن هنـاك فـوارق في الـدراسـات الطبية تقتضيهـا أصول تكـوين الإنسان ، اللهم إلاّ مـا يتعلق بفوارق البيئـات الجغرافية كـدراسة أمـراض المناطق الحـارة أو الصحراويـة ، وتلك لم تكن لاختلاف الإنسان في خلقه بل لاختلاف البيئات التي يعيش فيها فحسب .

لقد عالجت الأديان السماويـة والدين الإسـلامي على وجه الخصـوص مـوضوع وحـدة البشر وحـدة تقتضي وحدة النـظام ، ولكي لا تلعب الأهـواء بالنظام الـواحد المقتـرح فقد أنـزل الله سبحانـه ذلك النـظام وأحكمه وكلف الناس باتباعه إلى يوم الدين ، تـأكيداً من الخـالق العظيم على صـلاح الدين لكـل زمان وكـل مكان ، وكـانت مهمة المصلحين بيـان الحقائق التشـريعيـة الضـابطة لحـركة الإنسـان في عباداتـه ومعـامـلاتـه ، للحيلولـة دون تسـرب الإنسان في مسارب القـوانين الوضعيـة التي أفسدت ولم تصلح وخـربت ولـم تعمر .

وهـذا الكتاب الـذي بين يـديـك ، أيهـا القـارىء الكـريم ، يـواصـل التشبث بالطموحات الإنسانية التي تعلق بهـا الفلاسفـة والمفكرون وجـاهدوا في سبيلهـا وما زالـوا يجاهـدون ، فمؤلف الكتـاب مفكـر صـرف جهـده في استقصاء الحياة الإنسانية وما فيها من شقـاء وتعاسـة يرجعهـا المؤلف الجليل إلى انصـراف الناس عن منـابـع السعـادة الحقيقيـة ، وهـو في هـذا الكتـاب القيم يقدم اطروحة علمية مـوسعة بمسـاحة الأهميـة التي للموضـوع الخطيـر الـذي يعالجـه ، ويلاحظ القـارىء الكريم النفس المـوسوعي في الكتـاب ، وهو واحد من أجزاء أخرىٰ .

إن المنهـج الذي ارتضـاه المؤلف الجليـل لا يتخلص من مـلاحـظات المتتبعين من حيث التبـويب والتـرتيب ومن حيث الإحـالات إلى مصـادره ومـراجعه ، إذ يخلو الكتـاب منها تمـاماً ، ممـا يفـوت على القـارىء فـرص التعرف عليها والإفادة والاستزادة منها .

ومهما تكن الملاحظات حول لغة الكتاب وبعض شواهده ، فإنه كتاب غني وغزير ، ومن شأنه أن يعطي الكثير من الثمرات للمهتمين بالدراسات الإنسانية عامة والاجتماعية خاصة ، وحسب القارىء من هذا البحث أن مؤلفه رجل خبر الحياة وتجاريبها وتزود من العلوم القديمة والحديثة حتى صار عطاؤه عظيم القيمة كبير الأهمية ، فحياه الله ونفع بعلمه هذا الجيل والأجيال القادمة إنه سميع مجيب .

مونتريال في منتصف
شهر رمضان المبارك ١٤٠٨هـ
٢ - ٥ - ١٩٨٨

د. عبدالصاحب الموسوي
رئيس مركز البحوث
الإسلامية العربية في كندا



الحكومة العالمية المثلى

هي من أقدم أمنيات مثقفي وعلماء الاجتماع وفلاسفة البشر وحكمائهم ، كلما صادفتهم وأقلقتهم الحروب الطاحنة والنعرات العقائدية والطائفية والتعصبات العنصرية ، وعلى أثر النزعات التوسعية ، بدافع بسط العدالة ورفع الحيف والظلم عن كاهل الأفراد والمجتمعات ، ونشر السلام والطمأنينة في كافة الربوع والأمصار ، وبغية إغاثة المنكوبين والمضطهدين ، وسوق البشرية أفراداً وجماعات من عالم الذلة والفقر والمسكنة والجهل ، إلى السعادة والثروة المادية والمعنوية ، وحفظ حقوقهم الطبيعية والمكتسبة ، والقضاء على المفاسد الأخلاقية والاقتصادية والسياسية . بهذا نزلت الكتب السماوية ، وعنه عبّرت الآية القرآنية : ﴿ **يا أيُّها النَّاس إنـا خلقناكم من ذَكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شعوباً وَقَبائل لِتَعارفوا ، إنَّ أكرمكم عند الله أتْقاكم إن الله عليم خبير**﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. وبهذا أراد القرآن جمع شتات الموحدين بقوله : ﴿ **قل تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلاَّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٦٤] .

وهكذا دعا النـاسَ أولو العزم من الرسل وأعاظم الرجال من كافة الأديان والملل في تعاليمهم وتوصياتهم إلى المحبة والعلم والمعرفة معتبرين أن بهذا يمكن انقاذ البشرية من ويلاتها ، وسوقها إلى السعادة والسلام ، وانقاذها من الحروب والمجازر الوحشية والتعديات ، ووقايتها

من الجهل والفقر والمرض . لذلك لفتوا البشر إلى الثروة العقلية والبدنية والسلامة الجسمية والفكرية الكامنة فيهم . ولم يفلح الكل فلاحاً كاملاً مطلقاً لتحقيق هذه الأمنية ، فالناس أصناف في تحقيق ذلك من حيث التخطيط والتصميم العلمي والعملي ؛ فمنهم من يرى أن ذلك لا يتم إلاّ بحد السيف ، ومنهم من يرى أنه يمكن تحقيق ذلك بالتوجيه والتربية والتعليم ، ومنهم من يراه بالجمع بين الاثنين ، فمنهم من وضع هذه الأمنية وصاغها صياغة أدبية وفلسفية وخيالية كأفلاطون ، وعاد بعد حين وخطّأ قسماً منها ، إلاّ أنها لم تتجاوز حدود الأدب ، ومنهم من وضعها وصاغها بخطط عملية مقرونة بالقوة ولفترة قصيرة فانتهت بموته ، مثل الإسكندر المقدوني واضرابه . ومنهم من أقامها على المنطق والعقل ، ودافع عنها بالمنطق لمن أقره ، وبحد السيف لمن اعتدى وتجاوز عن ادراك وقبول المعقول ، كمحمد (ص) . ووضع لها أسساً عالمية وشريعة كاملة فطرية سماوية[1] ، ومنهم من اكتفى ببعض ذلك وحث على الأخلاق السامية ، والمسامحة والبر والإحسان كعيسى (ص) ، ومنهم من قال بالارستقراطية كأفلاطون ، ومنهم بالديمقراطية ، وآخرون بالفاشية وبالشيوعية وهكذا . . .

ومن الطبيعي أن يسعى كل صاحب نظرية برهنة صحة نظريته وخطأ النظريات الأخرىٰ ، وعند تطبيقها يكون هناك المستفيد وهناك المتضرر . لذلك يقبلها البعض ويرفضها البعض الآخر . ولم تخل أية نظرية أو عقيدة في جميع ما مر ، من موافق ومخالف ، وظالم ومظلوم ، وغاصب ومغصوب ، وشبعان وجائع . لذا فإني أُقدم قبل التفصيل بضع أسئلة :

---

(٣) الآية ٥٣ من سورة فصلت : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ﴾ والآية : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. . . ﴾ [الروم ، الآية : ٣٠] .

١ ــ هل بالامكان إقامة حكومة عالمية دائمة تفرض سيطرتها وتسن القوانين وتطبيقها على أسس عادلة وكيف ذلك؟ .

٢ ــ هل بالإمكان منع الحروب ونشر السلام بصورة دائمة؟ .

٣ ــ إذا أمكن فما هي السبل للوصول إليها ؟ .

٤ ــ وإذا لم يمكن ذلك هل بالإمكان تخفيف هذه المخاصمات ونشر سلام نسبي؟ .

٥ ــ ما هو أقرب سبيل وأوضح طريقة لهذا؟ .

٦ ــ من أين يجب أن نستمد قوانيننا كي تكون عادلة وثابتة ، ولا يحق لفرد أن يغيرها أو يتلاعب بها؟ .

٧ ــ هل هناك قوانين جزائية فردية وجماعية؟ ومثلها حقوقية من مدنية وأخلاقية واقتصادية وإدارية . . الخ ، ثابتة كالقوانين الطبيعية؟ . وإذا صحّ وجود مثل هذه القوانين ، أليس الأجدر البحث عنها للاستفادة منها والسير عليها ؟ وهل بالإمكان الاستفادة من سلوك وحياة الاحياء؟ وأقربها لنا هي حكومة أنفسنا؟ .

٨ ــ هل بإمكاننا المقارنة بين جسم الفرد الإنساني ، وما يحويه من عناصر طبيعية وقوى مختلفة جسمية وفكرية ، وما يضمه من حجيرات وأنسجة ، وما يحويه من أعضاء رئيسية باطنية ، مثل عضلات الحس والحركة ، الجهاز البولي والهضمي ، الدورة الدموية وأعضاء التناسل ، والجهاز التنفسي ، والجهاز العصبي ، أجهزة السمع ، البصر ، الشم ، الذوق ، المخ ، والمخيخ والنخاع الشوكي ، الغدد الصماء وغيرها؟ وما يختص كل جهاز وعضو من الأعضاء الخاصة والعامة به ، وكيف تتعاون هذه الأجهزة مع بعضها؟ ، وحسن قيامها بأعمالها وحركاتها وتأثير سلامة كل واحدة على الأخرىٰ؟ ومن ثم وهو الأهم سلامة هذه الأعضاء ، والأجهزة وأمراضها ، وتأثيرها في السلامة العامة للجسم ، مناطق الهجوم

المكروبي وغير المكروبي ومنافذ ولوجها في الجسم ، وطرق الدفاع والهجوم البدني والعقلي . الأمراض المادية والأمراض الروحية وتأثير الأمراض في الجسم والنسل ، تأثير كل مرض وعواقبه في البدن والفكر ، طرق الوقاية ، طرق العلاج ، وكيف يجب أن نقارن بين هذا الجسم الصغير وما يحويه من ود وضد ومساعد ومعاند ، مادة ومعنى ، وكيف أن حسن الوقاية تبقيه نشطاً قوياً سعيداً ، والمعالجة تعيد له صحته ، ثم نعود لنفصل كل قسم وجهاز ونقسمه إلى أجزائه الصغيرة حتى نبلغ الحجيرة الصغيرة ، وكيف تفنى هذه افراداً وجماعات ليبقى الجسم سالماً . وهذا الفناء على قسمين : قسم طبيعي لا بد منه ، وقسم مرضي يكون على أثر هجوم ودفاع مرضي . ونقارن كل ذلك مع الإنسان ، ونقر ونطبق القسم العملي الطبيعي الموجود في الجسم لتشكيل الحكومة العالمية . وكلما احتجنا إلى إصلاح أو إنشاء أمر للمجتمع الإنساني ، عدنا إلى مثله في البدن الإنساني وطبقناه ونظرنا كيف أن الطبيعة أحسنت سيرها وأبدعت سبيلها ، فنتخذ من ذلك درساً بليغاً : بل وأبعد من ذلك نفصل كل أمر يؤدي إلى حياة فردية أفضل ، وكيفية التعاون الجسمي ، فنسير على مثله في التعاون الجماعي في المجتمع الإنساني .

إن ما أقوله هو المثل العملي الذي أرى بلزوم السير عليه وهو حقيقة واقعية ، وإن بعملنا هذا نتوصل إلى طريقة أصح إلى تكوين حكومة عالمية ، وسوف نسهب في بحثنا هذا مفصلين فيما بعد ما يقربنا أكثر إلى حل رموز هذا الشكل .

الحل العملي لإقامة حكومة عالمية تضمن من كل الوجوه في إقامتها وسيرها الحثيث وادامتها . هل يمكن ذلك؟ على الأخص في العصر الذي قرب فيه البعيد واتصل البشر سمعاً وبصراً وحركة ببعضهم ، واتصلوا وتقاربوا عقلاً ومنطقاً ، هل يمكن ذلك؟ .

لا شك بإمكان ذلك ، إذا توفرت بين حكام البشر حسن النية ،

وأجمعوا على اتباع المنطق السليم ونبذ المنابزات العقائدية والعنصرية والأنانية الفطرية[1] ؛ اعتقد بإمكان ذلك . وإن بناء هذه الحكومة سيبقى سالماً وقوياً وسعيداً بقدر ما يبدي قادته من التدابير الوقائية لمجابهة الأخطار الوبائية والعوارض الطبيعية من جهة ، وما يبدونه لمعالجة وصد هجمات الأوباء المنطقية المحلية والقضاء عليها بمقرها وقبل تأزمها ، بحصر منطقي من جهة ونفير عام في الجسم كله من جهة ثانية ، مثلما يعمله الجسم الإنساني تجاه العوارض الخارجية والداخلية .

ولا بد لنا إذا أردنا التوصل إلى كل ذلك أن نتخصص في كل داء وعارضة كما في البدن الإنساني ؛ أن نجهز أطباء متخصصين لوقاية وعلاج المجتمع الإنساني[2] ، ومن جهة العمل على التقوية الوقائية الدفاعية والهجومية[3] ، لأن التقوية العامة بالطعام والنظام للبدن ، والعلم للفكر ، أهم السبل لحفظه وابقائه سعيداً ، وعندئذٍ نأمن بقاء المجتمع الإنساني قوياً سعيداً إلى الأبد ، إنْ لم يُصَبْ بعارضة طبيعية خارجة عن نطاق إرادته وقدرته .

ولا ننسى أن السمنة في البدن آفة تجب الوقاية منها وعلاجها ، ومثله في المجتمع الإنساني اتخاذ الوقاية والعلاج لهذه السمنة ، بتحديد النسل وما يلزم لاتقاء وعلاج ذلك الذي سنفصله في محله .

والآن وبعد هذا علينا أن نبحث عن العناصر التي تحكم البدن الإنساني ككتلة واحدة والعناصر التي تحفظه قوياً وسعيداً ، ولا يهمنا أبداً أي عقيدة ولو خالفت عقائد الأكثرية القوية ، علينا اتباعها ولو كان منبتها مجاهل أفريقيا الوحشية . لذا نقسم بحثنا إلى :

---

(١) راجع القرآن ، وبخاصة سورة الحجرات .

(٢) ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إنْ كُنتم لا تعلمون** ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٥، وسورة الأنبياء، الآية : ٧].

(٣) الآية ٦٢ من سورة الأنفال ، قوله تعالى : ﴿ **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ .

الكتاب الأول : حكومة الطبيعة ، وأقرب مصداق لها ، الجسم الإنساني .

الكتاب الثاني : أمثلة تطبيقية .

الكتاب الثالث : أهم مَنْ بحث وسعى لإقامة حكومة عالمية بما في ذلك من حكماء وساسة وقواد وأنبياء .

الكتاب الرابع : البحث والتحقيق في أرقى المجتمعات الحيوانية ذات الحياة المنظمة كالنحل والنمل والأرضة .

الكتاب الخامس : الجنسية والتابعية .

الكتاب الأول

حكومة الطبيعة، وأقرب مصداق لها
الجسم الإنساني



حكومة الطبيعة[1]

تعلموا الحياة من الطبيعة ، من الحياة الفطرية الطبيعية ، من الأحياء وكافة القوانين الطبيعية الأخرى . وقد أعدت الطبيعة لكل تجاوز قصاصاً ، ولكل داء دواءً ، ولكل أمر علّة ومعلولاً وقواعد وأصولاً ولم تتركه سدى . فهناك قوانين طبيعية وغرائز فطرية لا تعد ولا تحصى ، وحيث نجهلها نترك الأمر ونؤوله باسم الصدفة والظروف . وما علينا لكي توجد القواعد والأصول والقوانين والأنظمة بين البشر إلاّ أن نذهب باحثين عن تلك الحقائق الموجودة ، تلك التي فيها الشفاء الخَلقي والخُلقي ، المادي والمعنوي ، ولكي نتقرب إلى الموضوع يلزمنا البحث في المواضيع التالية :

حد القوانين الاجتماعية بعد تطبيقها على القوانين الطبيعية :

القوانين الاجتماعية : بما فيها الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والحقوقية والعرفية والشرعية . . الخ .

---

(١) حكومة الطبيعة هي حكومة الفطرة وما تحويه من أنظمة وقوانين كما أشارت إليه الآيات المارة في حاشية الصفحة الأولى مما ورد في القرآن الكريم ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم . . .** ﴾ ، و﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . . .** ﴾ [سورة الروم ، الآية : ٣٠] .

القوانين الطبيعية : لقد استطاع الكائن البشري منذ الفطرة أن يدرك القوانين الطبيعية الملموسة لحد ما ، أكثر من معرفة القوانين الاجتماعية ، باعتباره كان بعيداً عن المجتمعات ويعيش عيشة بدائية . لذا نراه وهو في إبان حياته يتوقى خطرها ويستغلها لأغراضه . فهو يتقي من القاء نفسه من أعلى الجبل الشاهق إذا ما أراد أن ينزل ، لأنه يعرف بالفطرة أنه سيتحطم . وهو يتوقى من القاء نفسه في نار مستعرة ، ويرهب الأصوات الصاخبة والرياح العاصفة . لذا نراه بالنظر للحاجة الماسة والرغبة الملحة يتوصل شيئاً فشيئاً لكشف القوانين الطبيعية بما فيها من فيزيائية وكيميائية ، مثل : قانون الجاذبية ، وقوانين السوائل والغازات ، وقوانين النور والصوت والحرارة ، ووو . . . الخ . من القوانين الطبيعية التي بنى عليها وشاد حضارته ، وتقدم في الآونة الأخيرة بخطواته الواسعة ، هذا التقدم العظيم . فالمحركات بما فيها في أعماق البحار وسطح الغبراء وكبد السماء ، بما فيها من غواصات ومراكب وسيارات وطائرات بأنواعها وأصنافها ، والأدوات الكهربائية على اختلاف أصنافها وأشكالها ، ومختلف ما استخدم من الأجهزة البصرية والصوتية والحسية وغيرها ، تلك مما توصل إليه من القوانين الفيزيائية . وأما ما أدركه من تركيب وخلط وتفريق في علم الكيمياء فلا يقل أهمية عمّا سبقه .

وقد توصل البشر إلى كل تلك القوانين الطبيعية واستخدمها ، ووضع لها أُسساً وقواعد لا تحيد قيد شعرة ، عندما يضع تصميماته في بناء سفينة أو آلة أو عمارة أو أي عمل وصناعة ، حصل لكل فرع منها متخصصون ومهندسون وعلماء ، ولا زالوا يوماً بعد يوم يتوصلون إلى حقائق جديدة وكشف قوانين أُخرىٰ بعد أن أجهدوا أنفسهم في وضع النظريات ، فخاب جمع وتوصل آخرون إلى الحقيقة ، فكانت نظريته بعد تمحيصها ودرسها قانوناً ثابتاً يسير عليها الناس من بعده . وقد أدرك البشر أن هناك قوانين تشد أزر بعضها البعض ، وأُخرىٰ تخالف بعضها بعضاً ، ومنها ما لا رابطة

خلاف أو وفاق بينها ، فكان له في ذلك العلم أيضاً وسائل جديدة لحل مشاكله الحيوية في مختلف أعماله وشؤونه .

القواعد الاجتماعية : توصل البشر للقواعد الطبيعية الثابتة التي تسير طبق أسس وأنظمة لا تتغير ، بيد أنه لا زال يتخبط في سيره في وضع القواعد والقوانين الاجتماعية الثابتة ، رغم ما بحثه الفلاسفة ورجال القانون والشرائع ، وما جاء به الأنبياء والحكماء والأدباء . وقد أشار كثير منهم على سبيل المثال بتشبيه القضايا المعنوية بالمادية . قال الشاعر :

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته   فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذة فيما تمر به   نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

وقال ابن الوردي :

خذ بنصل السيف واترك غمده   واعتبر فضل الفتى دون الحلل

أو تشبيه حياة اجتماعية على حياة مادية كقول الشاعر :

اضرب حديداً حامياً   لا خير فيه إن برد

ولابن الوردي :

حبك الأوطان عجز ظاهر   فاغترب تلقى عن الأهل بدل
فبمكث الماء يبقى آسناً   وسري البدر به البدر اكتمل

وجاء في الأمثال : ما لذغ العاقل من جحر مرتين . وما خفق الشراع على رأس عاقل مرتين .

وقول الشاعر :

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة   إلى أين يسعى من يغص بماء

وقول الآخر :

يقولون إن الملح يصلح فاسداً   فما حيلتي يا قوم إن فسد الملح

ومن التشابيه البديعية في القرآن المجيد ، قوله تعالى لتمثيل حالة اجتماعية بحالة مادية الآية الكريمة : ﴿ **كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة** ﴾[١] .. الخ .

وقوله تعالىٰ أيضاً في كتابه المجيد :

﴿ **فمثله كمثل الكلب إنْ تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾[٣] .. الخ .

ومن الأمثال أيضاً : لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

« كن في الفتنة كابن لبون ، لا ظهر فيركب ، ولا ضرع فيحلب ، ولا وبر فيسلب » .

وما أكثر الأشعار والأمثال والروايات والآيات التي طبق فيها الأُمور المعنوية على المادية لتقرب الأذهان ويؤخذ بها .

الغاية من تطبيق الشؤون الاجتماعية على الطبيعية :

الغاية من هذا البحث هو تطبيق كافة الشؤون المعنوية الاجتماعية باختلاف أنواعها وفروعها على الأُمور الطبيعية والمادية المحسوسة ، ومن ثم وضع قاعدة ثابتة كالأُصول والقواعد الثابتة في الشؤون الطبيعية ، مهما جاءت تلك منفردة قائمة بالذات دون معارض ، آخذين بذلك المصادر الطبيعية الأصلية ، ثم تطبيق ما يناسبها من المعنوية[٤] ، ثم المضي بما

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٦ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٤) اذكر القارىء الكريم ، ان القوانين المكتوبة في الأُمور الجزائية مثلاً في الضرب أو =

يحصل عند حصول عوارض تغير المجرى الطبيعي من تقويته أو تضعيفه أو توقيفه أو تغييره ، إلى غير ذلك ، وتطبيق الأمور المعنوية المماثلة والمشابهة على كل منها .

وعلى سبيل المثال نضرب مثلاً ، وما أكثر الأمثال الفيزيائية والكيماوية ، كقانون الجاذبية ، وقانون أرخميدس ، والقوى المركزية ، وقوانين الحرارة والنور والصوت وغيرها . وكذلك القواعد التي تحصل بها المركبات من العناصر أو العناصر من المركبات . فمثلاً : إن الأصل في حركة جسم من سرعة واتجاه أن يبقى مستمراً في حركته واتجاهه إلى الأبد ما لم يطرأ عليه طارىء . ومن الطوارىء قوة جاذبية الأرض أو القوى والاجرام السماوية الأخرى ، ومن العوائق فوق سطح الأرض ، الهواء والذرات والأجسام والقوى الأخرىٰ . وللحرارة والرطوبة أثر في تغيير تلك الحركة ، كما أن هناك قوى مخالفة لقوة جاذبية الأرض كالمطبقة والمستخرجة من قانون أرخميدس على الأجسام الغازية ، والاستفادة من البالونات أو قوانين الحركات اللولبية ، كما في الطائرات أو القوى الاندفاعية الحاصلة من مفرقعات ، كما في القنابل . أو الاندفاعية كما في الصواريخ والطائرات النفّاثة .

ولا ننسى كم هناك في آن واحد من قوانين تتضارب مع بعضها ولا تكون النتيجة إلّا للأشد أثراً ، وذلك أيضاً له قواعد وأصول . ونحن نريد

= السرقة ، لها قصاص ذو حدين لا يستطيع القاضي تحديها ، ولها موارد محدودة مهما تعددت ، بينما ان الضرب والسرقة قد يمكن القول بأنها لا تعتبر من حيث درجتها وكيفيتها من الفاعل (المجرم) والمجني عليه وظروف القضية وتأثيرها الاجتماعية والباعث على تكوينها ، وكلما يتعلق بها من مطابقة ومشابهة كل الانطباق لغيرها ، حتى نجعل لها الحد والقصاص الخاص بها ، كما نعمل ذلك في الأمور الطبيعية ، وها إننا نبحث هنا عن سد هذه النقيصة والاختلال الاجتماعي من كافة وجوهه والقيام بعلاج واقعي لا يحصل لنا بعده نتائج مشينة قريبة ولا بعيدة .

في كل مرة وفي كل قضية طبيعية ايجاد قضية اجتماعية ومعنوية مشابهة لها وتطبيقها على مثيلتها ، وعندئذٍ نتوصل إلى حل محكم ودقيق ومضبوط ونتيجة أكيدة .

وإذا بدأنا بذلك فسوف نتوصل إلى مقاييس تضبط لنا الحلول والنتائج ، كما يعمل ذلك المهندسون في شتىٰ الأُمور ومختلف الأعمال والصناعات ، لهذا أقدم الأسئلة الآتية وأبحث عنها كمقدمة للبحث ، وهي من المشاكل التي تواجه كل فرد مفكر في مثل هذه الأبحاث :

١ ــ هل توافق القوانين الاجتماعية القوانين الطبيعية في جميع المراحل والشؤون ؟ .

٢ ــ هل توافق القوانين الطبيعية جميعها أو بعضها المنطق؟ وما هو المنطق؟ أهو ما يلائم عاداتنا أو عقولنا ونحن متباينون؟ أم ما يلائم المنطق السليم لمجموع العقلاء أو غالبيتهم؟ .

٣ ــ هل توافق القوانين الاجتماعية الفعلية جميعها المنطق؟

٤ ــ هل من القوانين الاجتماعية ما تخالف الطبيعة والفطرة؟

٥ ــ كيف نفسر الحالة الطبيعية الفطرية في الحيوانات . في حياة الضواري ، وانها تعيش على سلب حياة الآخرين؟[1] .

---

(١) هل نستدل بهذا ونقول طالما الطبيعة أجازت هذا وجعلته قانوناً ، فيجب قبوله على علاته ، أم نجعل له حداً . ولا بد من حد . فالحيوان الضاري يكتفي بسد جوعه وحسب ، كالأسد الذي يشبعه اقتناص ضبية وأكلها لا يتجاوز على أُخرىٰ إلاَّ متىٰ جاع ولا يعتدي بعدها على غيره إلاَّ في مقام الدفاع وما شاكل . بيد أن الإنسان العاقل لا يكتفي بسد رمقه ولا يسد جشعه ما في الأرض ، وعندئذٍ لا بد وأن يتجاوز ويعتدي ، فيجب وضع قانون يستمده من ذلك العقل الذي به ميّز الله الإنسان عن باقي مخلوقاته .

٦ ــ كيف تسيطر الواحدة على الأُخرىٰ ، الكبيرة على الصغيرة أو قل القوية على الضعيفة ، إذ ربما كانت الصغيرة أقوىٰ وبالعكس؟ وتطبيق ذلك في الأحياء وغيرها؟ .

٧ ــ هل يطبق ذلك في الأرواح والعقول والآراء؟ وما تأثير ذلك؟ وكيف يجب أن يوضع الحل المعقول لذلك؟ .

٨ ــ ما هو الجزاء لمن يخالف ذلك طبيعياً ومنطقياً؟ وهل يجب أن توافق الطبيعيةُ المنطقيةَ أو المنطقيةُ الطبيعيةَ ؟ وهل يجب أن توافق هذه تلك أو تلك هذه؟ .

وقبل أن نجيب عن هذه الأسئلة نسأل : هل ان النتيجة الواقعية ، كافتراس القوي للضعيف (وهو أمر طبيعي إذ لا يمكن لآكلة اللحوم الحياةُ بدون ذلك) ، هو أمر منطقي ومقبول؟ على العقل أن لا ينكره ولا يستنكره؟ .

فإذا كان الجواب إيجابياً فمن العبث وضع قوانين تخالف هذا السلوك في البشر أو وضع قصاص له ، وما هي إذن فائدة العقول؟ ونجيب عن هذا السؤال الأخير مستشهدين بقول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنىٰ ضيغم　　　أدنىٰ إلى شرف من الإنسان

فالعقل أثمن ما في الوجود ، لذا رفعت هذه العقول الإنسان عن مصاف الكائنات والأحياء وأعطته زمام قيادها ، زمام قيادة كل ما على وجه البسيطة ، واستثمارها ، فهو أقوىٰ قوىٰ الكون بعقله الجبار . وجميع القوىٰ الكونية من صغيرها إلى كبيرها إنْ هي إلاّ تحت إمرته ، إنْ لَمْ تكن اليوم فغداً ، أو بعد غد .

فالإنسان بعقله يخالف الحيوانات الضارية بطموحه ، وسيطرته وأنانيته التي لا تحد ، فقد يسد جوع الحيوان المفترس أسداً كان في الغاب سائراً ، أو نسراً كان في الأجواء طائراً ، الأول « وعلاً أو نعامة » ، والثاني

« أرنباً أو حمامة وحسب » . والبعوضة قد تكتفي بامتصاص كمية من الدم يكفي لسد جوعها . ولكن الإنسان العاقل لا يسد جشعه ما في الأرض ، ولا السيطرة على خزائنها . فهو اليوم يحاول مد نفوذه إلى الفضاء الخارجي وإلى الكواكب ، غافلاً أو متناسياً قول الشاعر :

ملك كسرى عنه تغني كسرة   وعن البحر اكتفاءاً بالوشل

لقد أُعطي الإنسانُ العقل الجبار ، ولكن أُعطي غرائزَ فطرية تُسخّر العقول لسد جشعه ونهمه وغرائزه . والعقل ، رغم سلطانه ، لا يستطيع المقاومة أمام هذا التيار الجارف ، والقوى المفكرة الجياشة ، فالعقل السليم لا يرضى الاعتداء أو لا يقبل إنهاك القوى لجمع المال ، وبسط النفوذ غير المشروع ، والتكالب والتضارب والمعارك والحروب والقضاء على الافراد والجماعات البشرية ، بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان باسم القومية والوطنية والعقائدية والدين ، وحتى باسم الإنسانية ، وبشتىٰ الكلمات والمعاني التي خلقها هو ، فما هي الحيلة؟ وما هي القوانين الاجتماعية التي يجب اتباعها للقضاء على هذه الخصومات؟[1] . ولكي يستطيع الإنسان أن يحيا قرير العين ، آمناً شر غيره ، قانعاً بما يأتيه ويحصل عليه بحق؟ .

الجواب على الأسئلة المارة :

نجيب أولاً على الأسئلة المارة ، ثم نعود بعدها لتطبيق القوانين الطبيعية على الاجتماعية ، والاجتماعية على الطبيعية في مختلف الشؤون ، ويكون ذلك بطريقين :

إما بشرح القضايا والقوانين الطبيعية ثم العود إلى ما يقابلها من الاجتماعية ، والاستفادة من الحدود والمقاييس لضبطها ، أو طرح قضية اجتماعية ثم العود إلى ما يقابلها من الطبيعة .

---

(١) راجع سورة الحجرات في القرآن الكريم وانظر الحد من وقاية وعلاج .

وبعد معرفة حدودها وأوضاعها ونتائجها القيام بالعمل اللازم .

● **السؤال الأول :**

هل توافق القوانين الاجتماعية الطبيعية في جميع المراحل والشؤون؟ .

الجواب :

ندرس المواضيع الطبيعية والاجتماعية المارة الذكر من وجوه عدة لنعرف :

أولاً : ماذا يحصل من شأن عند حدوث الحادث الطبيعي والاجتماعي؟ .

ثانياً : طريقة اجرائه أو الوقاية منه .

ثالثاً : طريقة الاستفادة من الأعمال الاصلاحية ، وأُصول مجازاة المضرة عند حدوثها.

فالجرائم أو المكارم من الحوادث الاجتماعية التي نبحثها ونريد أن نجد لها مشابهات في الأُمور الطبيعية كالضرب مثلاً . والضرب لجماد أو حيوان أو إنسان ، عمداً وغير عمد ، بقصد التأديب أو التأنيب أو الاصلاح أو التخريب ، والضرب من إنسان أو حيوان أو جماد ، بسبب الغير أو الذات وغير ذلك ، ولكل بحثه . ونبدأ بقانون الجزاء .

فالأُمور الاجتماعية التي لا يمكن أن تجد لها مثيلاً في الموارد الطبيعية (كتلك الفاقدة للعقل أو الفكر النامي أو التي عند غير الإنسان) ، تلك التي من الفكر ، أمثال جرائم النصب والاحتيال والخيانة وسبق الاصرار في القتل ، وجميع الموارد المسبوقة بتفكير سابق ، أو المكارم التي هي عكس الجرائم كالبر والإحسان والعفو والكرم والصدق والأمان والمعونات المادية والمعنوية ، وطبعاً لكل واحدة من سيئة وحسنة رد فعل وانعكاس .

لقد عثرنا على أهم المميزات بين الطبيعية والاجتماعية ، وذلك إنما هو وجود الفكر والعقل النامي في الاجتماعية . وإذن عندما يخالف العقلُ الفطرةَ ، أو الفطرةُ الطبيعيةُ العقلَ ، فبأيهما يجب أن نأخذ؟ .

فإذا أخذنا بما يدليه العقل دون أن نهتم بالفطرة الطبيعية أو بالعكس ، فماذا سينتج من رد فعل وما هو الانعكاس؟ وما هي الأضرار والعواقب الضارة أو النافعة؟ وكيف نتلافى الأمر بالوقاية أولاً قبل العمل ، أو العلاج أخيراً بعد حصوله؟ وهل في الإمكان وضع حد وسط ؟ وهل أن لمخالفة كل منها رد فعل وانعكاس .

لو عدنا للفطرة الواقعية لوجب أن نبحث عنها ، مثلاً في الحيوان وفي الحيوان غير المدرب وغير المعلم ، في الحيوان غير العاقل[1] ، فالحيوان إنما يقتل أو يؤذي بقصد إشباع غريزة من غرائزه الفطرية ، وكفىٰ . فهو يقتل حيواناً آخر بقصد سد الجوع أو للدفاع وما شاكل فحسب ، وبعد أن يشبع أو يأمن شر غيره لا يتعب نفسه لاقتناص فريسة أخرىٰ ، إلاَّ متىٰ شعر مرة أُخرىٰ بالجوع أو اضطر للدفاع .

ويقوم بالدفاع عن نفسه من ضرر مداهم كما لو غلقت باب الغرفة على هر لضربه ، فقد يهم بالدفاع بمهاجمة الضارب تخلصاً من شره مدفوعاً بغريزة حب البقاء والدفاع عن النفس ، أو ضغطت على ذيل كلب أو رميته بحجر فهو قد يعضك ، هذا وضع طبيعي . أما الكلاب المدربة عند الرعاة أو الحيوانات الأُخرىٰ المدربة ، فعملها التدريبي غير فطري ، أو الإنسان نفسه الذي لا يسد جشعه وأنانيته ما في الأرض لا من مال ولا

---

(١) لا يمكننا أن نقول عن الحيوان كما نقول عن الجماد واصفين إياه بعدم العقل لأن الحيوان يختلف عن الجماد بغرائزه وعقله المحدود ، ولهذا عند وضع قصاص أو حد أو مقياس لجرم أو سلوك يجب اعتبار درجة تلك الغريزة والعقل والإدراك عنده . وقد تبلغ الغريزة في خدمة بعض الحيوانات والحشرات كما في النحل والنمل والأرضة درجة ربما لم يتوصل لغورها الدقيق البديع أقوى العقول .

من جـاه ، أو سطوة أو نفـوذ . فالتي في الحيـوان بحكم التـطبـع والتـدريب الذي دربه عليه الإنسان ، وهـذه التي في البشر فبحكم الفكـر والعقل الـذي امتـاز به الإنسـان على النمو والتـوسع ومـازجت من نفسه غـرائزه الفـطرية ، فاستخدمت هذه الغرائز الفطرية تارة الفكر والعقل لحـدود بعدت عن الفـطرة الطبيعية ، أو استخدم العقل الغـرائز الفـطرية الـطبيعية تـارة أُخرىٰ وحكمهـا لحدود تجاوزت الحالة الفطرية .

العـــلاج في الاثنين ، الحـل الـوسط والعـودة مـا أمكن إلى الفـطرة الطبيعية .

وإذا حصـل خـلاف ذلـك حصلت عـوارض رد الفعــل ، وهـذا مـا نشاهده في الأمراض الروحية (النفسية والعقليـة) من الإفراط في الغـرائز أو الأحجـام فيها ، كـأنواع النـورستانيـا والهستـريـا والقلق[1] . هـذا في الفـرد ويقابل ذلك أمراض مماثلة عامة في المجتمع .

فـالطبيعـة دوماً تعـطي الفرد الحـل الوسط الـطبيعي ، إلاَّ في الإنسـان فقد تركت فيه الغرائز وأعطته هذه الفكرة المتوقدة والعقل النامي .

الـعـــلاج :

يجب دومـاً العودة إلى الحقـائق الفطريـة والطبيعيـة المشابهـة وتـطبيق الأُمور عليها ، ومـا جاء المصلحـون والأنبياء إلاَّ ليـرجع الإنســان إلى حالتـه الطبيعية ، وليفهموه اضرار جشعه وتعسفه وافراطه في استعمال غرائزه .

قـال الإمام البـاقـر محمـد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طـالب عليهم السلام وهو أعلم أهـل زمانـه ، قال لابنـه الإمام جعفـر الصادق عليـه السلام : (وهو أعلم الأُمة بعد أبيه) .

---

(١) تجـد ذلك في كتـابي مجموع العلوم النفسيـة . فالنـورستانيـا تـأتي في الافـراط من استعمال الغريـزة الجنسية ومن ثم انهـاك الأعصاب . والهستـريا والقلق يتـولدان من العقد النفسية والامتناع عن استعمال الغريزة الجنسية .

قال : يا بني خذ الحسنة من بين السيئتين[1] .

يريد بذلك الحل الوسط وهو حد الاعتدال وهي الحسنة ، إذ ان كل أمر زاد أو نقص أصبح سيئة .

نعم تلك هي الحقيقة التي يجب أن نبني عليها آراءنا ، ولا تخلو من صعوبة في أكثر الموارد التي نريد بها تعيين الوضع الطبيعي أو الحل الوسط الذي يجب أن يتبع .

ونورد مثلاً عن رد فعل ينتج من التمسك بالعقل الأسمى ونبذ الحالة الفطرية والطبيعية .

إن لهذا نتائج قريبة وبعيدة ، فالقريبة هي الحاصلة من مخالفة الحالة الطبيعية الفطرية ، والنتائج البعيدة هي الحاصلة من رد فعل الافراط بالمثل العليا والعقل الأسمى ، وهذا الافراط بالمثل العليا إنما جاء نتيجة الافراط بالغرائز الفطرية التي استخدمت لمآربه الافكار ، وأحسن شاهد على مثل هذه في القضايا الاجتماعية العامة هي مثل النهضة الفكرية لسقراط الحكيم ، والحملات الوجدانية المنطقية للسيد المسيح عليه السلام ، وقيام أبي عبدالله الحسين عليه السلام ، أمام مظالم بني أمية وطغيانهم ، وأمثالهم الذين أفرطوا باتباع العقل الأسمىٰ ، وتجاوزوا الحل الوسط للفطرة الطبيعية ، عندما وجدوا أمتهم أفرطت في استعمال الغرائز الفطرية النفسية ، وهم يعلمون أي خطر يواجهون . وكان لا بد من التضحية الفردية للمجتمع ، فكان عاقبة الأمر اندحار وتحطيم فردي آني لهم أحياناً وانتصار آني لأعدائهم . ولكن عقب تلك النتيجة القريبة ، نتائج أعظم هو انتصار للمجتمع وانتصار أبدي لهم، واندحار أبدي لأعدائهم .

---

(١) الآية القرآنية : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ٢٩] .

وكانت أعمالهم المجيدة ، وما بذلوه من تضحية وبسالة ، وآراؤهم وأعمالهم موضع التمجيد والخلود ، وأصبحوا قدوة للأبطال والأفذاذ[1] .

وتختلف الحيوانات في أحوالها الفطرية الطبيعية ، فحياة الوعل تختلف عن حياة الأسد ، وهذا عن حياة الحوت ، والثاني عن النمل ، وتلك عن الذباب والصراصر والنحل ، وكل تختلف في طرز معيشتها وسلوكها وأعمالها . فمنها ما تعيش فرادىٰ وأُخرى جماعات متعاونة وغير متعاونة ، ومنها من تدخر من صيفها لشتائها أو تدخر لفراخها ، ومنها من لا تعرف معنى الادخار . ولكن كل نوع وصنف إنما يسير في حياته على نمط واحد وسلوك له لم يتغير ولا يتغير منذ بدء الخليقة ، والإنسان إن أراد فبإمكانه أن يستفيد من حياة كل منها ، وعليه أن يجعل لنفسه الشروط المناسبة لتلك التي يسلك سلوكها ، لكي يكون قريباً من الفطرة الواقعية والحياة الطبيعية التي لا يشوبها ضير ، ولا بد لنا بعد التلميح إلى ذلك من الاسهاب والتفصيل في الفصول القادمة .

صفات الإنسان هناك صفتان في الإنسان :

١) الحالات الفطرية التي توجد أيضاً في الحيوانات .

٢) الصفة العقلية والفكرية .

---

(١) وربما معترض يقول : متى اندحرت قوى الشر في المجتمع الإسلامي؟ ومتى قامت دول شرعية بعد بني أُمية؟ وهل إذا استطاع يوماً ما الصحابة المخلصون قبيل مقتل عثمان فضح الأعمال المنكرة والنهوض في وجه الظلم الذي زحزح كيان الحقيقة التي أمر الرسول الأعظم باتباعه هما سنته وآل بيته وبدأوا بقتل عثمان وإقامة الحق بتسليم الأمر إلى علي في تلك الفترة التي تألبت عليه قوى الشر وانتهت بقتله ولم تقم دولة إسلامية واقعية إلى هذا اليوم بعده .

الجواب : لا ينكر الانتصار المعنوي الدنيوي بكشف الحقائق ، والانتصار الأبدي الأُخروي ، هذا إلى أن الحياة تتقدم ولا بد وأن تعود بعد هذه الفترات العصيبة لعودة دولة الحق المنتظرة تلك هي الحكومة العالمية المثلى التي تتسلم زمامها النخبة المرموقة من صفوة البشر .

هاتان الصفتان قد تؤيد الواحدة الأُخرىٰ أو تناقضها ، فإذن الحوادث والتصرفات الناتجة إما مادية أو معنوية أو مشتركة . فالإنسان بقدر ما يهتم بأحدها قد يصل إلى ذلك الهدف ، فالأهداف المادية غالباً تعود إلى الغرائز الفطرية ، والمعنوية تعود للفكر والعقل ، والوسطى ما جمعت من هنا وهناك . وإن زادت مرة من واحدة على أُخرىٰ ، وإن لكلٍ محاسناً ومساوئاً ، وإن كانت موافقة أو مخالفة ، فلكل محاسن من جهة ومساوىء من جهة معاكسة . كما أن الموافقة والمخالفة لكل جهة لهما نتائج ، وهي مادية في المادية ، ومعنوية في المعنوية ، وكلاهما في كليهما ، وأشدها في أشدها . وتختلف وجهتها في الإنسان من حيث الشدة والضعف بحسب أنواع البشر من حيث الطبيعة والتربية والمحيط ، وما يتأثر به الفرد من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطقس وغير ذلك . ونتائج تلك إما آنية أو بعيدة أو متوسطة مختلفة المدىٰ يختلف أمدها من لحظة إلى شهور وسنين وقرون وأحقاب . وقد تسبب الحوادث نتائج وحوادث أُخرىٰ متشعبة ، وهذه تنتج وتعكس نتائج وحوادث أقوىٰ وأشد أو أقل وأدنىٰ ، كما تحصل تموجات من حجر يسقط في حوض ماء أو غدير أو بحيرة أو محيط ، تبقىٰ تستمر حتىٰ تصطدم بعائق يوقفها وتموت بعد فترة من الزمن ، وهذه في المادية ، أما المعنوية أطول بقاء وأمد حياة ، وربما أمكنني القول بعدم فناء المعنوية[1] .

---

(١) إن القوي يتغلب على الضعيف حتى في الجماد ، فالحجر الكبير إذا اصطدم بأصغر منه ، وكانا متساويين في الخواص المادية والسرعة حطمه ، ولكن الأشد صلابة وقساوة أكثر مقاومة أمام الأضعف ، ولهذا نجد المعادن الصلبة تستعمل لطرق الأقل صلابة ، وإذا تساوت في الصلابة واختلفت في درجة الحرارة تغلبت الباردة الصلبة على الحارة الأقل صلابة ، إلاّ إذا كانت الصلبة لها قابلية التفتيت ، فقد تتحطم قبل الثانية أو كلاهما معاً . كذلك البشر كالمعادن ، ورب معترض يقول : وهل المجتمع الإنساني مجموعة من المواد والمركبات الكيميائية حتى تطبق عليها

نحاول تنظيم قوانين اجتماعية شتىٰ من القواعد والقوانين المادية. تكون قوانين واقعية مستخلصة من قانون أرخميدس والجاذبية وغيرها، نطبقها في الأصول القضائية والاقتصادية والسياسية والادارية والأدبية والصحية وغيرها، مستمدة جميعها من القوانين الطبيعية التي فرضتها الطبيعة.

قوانين لا يمكن أن يحيد عنها البشر أو ينكرها، كما لا يستطيع أن ينكر النتائج الرياضية من جمع ١ + ١ = ٢، ولا الرد على قانون الجاذبية وأمثالها ما أمكن. قوانين تسير طبق مقاييس ومعايير، وبهذا نكون قد وفقنا في حل المشاكل الاجتماعية، تلك التي لا زلنا نتعثر لوضع قواعد أقرب إلى الواقع لها.

ولا أظن أن ذلك مستحيل، حتىٰ لو تعسر كشفه اليوم كشفاً تاماً فسيكشفه الإنسان إن اهتم بذلك وشعر بالحاجة الماسة إليه، وعندئذٍ تستقر به الأمور[1]. وإذا أردنا أن نضع قواعد وقوانين لتنظيم أمر، فلا بد

= النظريات والقوانين الطبيعية مع اغفال الطبيعة النفسية والنزعات الروحية في الإنسان؟.

فأقول: من ينكر أن في الأرواح تمايزاً واضحاً من حيث القوة والضعف والكبر والصغر والتوافق والتنافر والمرونة والصلابة ومثلها العقول؟ ومن ينكر من تأثير القوية على الأضعف من تحطيمها أو تفتيها أو صقلها أو ضمها أو ابعادها؟ وكم وجدنا رجالاً تغلبوا بأرواحهم القوية على أرواح متجمعات؟ بل وامتدت بقدرتها إلى أزمنة بعيدة وخضعت لها مجتمعات لا تكاد تحصى. وما هو إذن معنى التشابه؟.

(١) لا يشابه قانون الجاذبية من حيث ثبوته واستمراره بالقانون الرياضي كجمع ٥ + ٥ = ١٠ ولا يشابه قانون أرخميدس. فالقانون الرياضي ثابت في كل الظروف ولكن قد يطرأ طارىء على قانون الجاذبية لتأثيرات أخرىٰ يغير مسيرها، وكذلك قانون أرخميدس وما شابهها، فالجاذبية شيء فرضته الطبيعة في الأجسام، بأن تجذب الكبيرة الصغيرة وهذا الإبداع الذي أودعته الطبيعة إذا عرفنا تأثيره فلا نزال لا نعرف كنهه، ومثلها الضياء وقوانينه المودعة الموجودة التي هي في الحالة الواقعية ثبتت =

وأن نحسب لكل ما مر من قوانين طبيعية وغرائز حيوانية وبشرية ، كأمور واقعية ثابتة يجب أن يحسب حساب كل منها ، فإذا أهملنا وصرفنا النظر عن القوانين الطبيعية والغرائز البشرية وقمنا بعمل يخالف أي منها ، فلا بد أن يكون لكل منها إنعكاس ورد فعل فيما خالف لماهيته وأصوله قد يؤدي إلى نتائج يلزم اجتنابها ، وعلينا مراعاة الدقة من التورط في ما يوافق جهة ويناقض أخرى ، كأن يوافق غريزة ويناقض العقل ، وعندها ستظهر آثار رد الفعل من الجهة المخالفة ، فإن أمكن اتخاذ الحل الجامع بين الاثنين فيا حبذا ، والا اتخذنا اهونها انعكاسا ، ولا بد لنا هنا العود الى الحلول الطبيعية في الجوامد ما أمكن ، والاستمداد من القوانين الطبيعية الأخرى لتطبيقها على الأوضاع الحية ثم العودة بها اليها .

وأرى أن القوانين الطبيعية الموجودة في الجمادات أقل إشكالاً من التي في ذوات الحياة ، ومن الاحياء تأتي النباتات وتلي هذه في التعقد تلك التي في الحيوانات ، واشدها تلك التي في الانسان ، ولكل منها أنواع واقسام ، ولكلٍ غرائزه وحياته ، منها البسيطة ومنها المعقدة ، وأعظمها تعقيدا الانسان .

فالغرائز والمؤون والقواعد الطبيعية ، منها ما توافق العقل والمنطق السليم ، ومنها ما تخالفها ، وحتى انها تتضارب فيما بينها في الجماد

= قوانينها ، بيد أننا لم ندرك كنهها . أو الحرارة كذل . وكلها بالنسبة لنا مجهولة المبدأ ولكنها من حيث الواقع والتأثير لها قواعدها الثابتة والنسبية ، ونتقرب فننقل ما أودعته الطبيعة في الجماد إلى ما أودعته في النبات والحيوان ، فالغرائز الموجودة في كل حيوان حقائق واقعية موجودة وثابتة وباقية بالنسبة لحواسنا ، ولكننا لم نتوصل إلى كنهها ، وهذه لا تشابه ما جاء في الجماد إلاّ من حيث حقيقتها الواقعية الثابتة . ومثلها الغرائز البشرية والعقول البشرية وأفكار البشر ، وكل تلك بصرف النظر عن مبدأها وكنهها ومنشأها ، فهي حقائق موجودة وواقعية بالنسبة لنا يجب أن يعتد بها ويحسب حسابها إلى الساعة التي تمكننا فيه أدمغة البشر لحل لغز يتغلب به على ما كان مستحيلاً كما عمل في الناحية المادية .

والاحيــاء ، وفي كـل منهـا على انفــراد ، وفي كـل صنف تتضـارب في افـراده ، ففي الحيـوان تختلف بـاختـلاف الحيـوانـات ، وحتى في النــوع الـواحد اختـلاف ، وحتى في الذات الـواحدة كـذلك ، فـالانسان تتضـارب امنياته وآماله واحواله ، فـالانسان يحب الـراحة ويكـره العناء ويحب نفسـه ، فلا يريـد ان يضيره التعب والنصب والجـوع والحر ، وتحـركه غـريزة أخـرى كحب الـظهور وغـريزة حب البقـاء للتخاصم والتكـالب والجمـع والاثـراء ، والتسـابق والعناء والتعب ، يـريد أن تـطول حياتـه ، ومن جهة أخـرى ينتـظر بفـارغ الصبر انقضـاء الايام والليـالي للقاء أو الـوصول الى غـاية أو رغبـة أو هدف ، يحب الراحة والسكينة والاقتصـاد ، ويحب نفسه ويخشى ان يعتـوره الضعف والـوهن ، ويفرط من جهـة أخرى في الغـريزة الجنسيـة ويزيـد سنه يوما بعد يوم وينجب أولادا يزيدونه هما وكـدحا وعنـاء ، ويحب الحريـة واذا بيـده يغـل يـده في العيـال والاطفـال ، فـإذا بـه مسلوب الـراحـة البـدنيــة والفكـرية ، أسيـر قيود ومكبـل بأصفـاد نفسية ، في حـالة تضـارب وتخاصم نفسي بين غـرائـزه فيمـا بينهـا وبين وغـرائـزه وعقله من جهـــة أخـرى ، في تخـاصم وتخالف مـع أفراد آخـرين ، وفي معرض خصـوم حيـوانيـة ونبـاتيـة وجماد وعوارض الـطبيعة بمـا فيها ، تعينـه وتوافقـه هذه ، وتخـاصمه تلك ، وكيف يمكن توافق الموارد الاجتماعية الطبيعية وقـد وقفت الاجتماعيـة باسم المنطق والعدل والعرف وامثالها ، امام أكثر الغرائـز الطبيعيـة وكبلتها وضيقت عليهـا الخناق وحـرمتها في أكثـر الاحيان من القيـام بأيـة بادرة تنهنـه بها عن ضيقها ، وإذا ما خـالفتها يـوما لمجـرد انها تـريد أن تنـطلق حرة الى حيـاتها الـطبيعيـة لتسعى وراء أغـراضهـا التي خلقهـا لهـا الله كمـا خلق ذلـك في غيـرها ، قـام بإيقـاظها حـراس العقل والاجتمـاع بأسمـاء ذكرنـاها سـابقـاً ، ووضعت لكـل منها جـزاء وحـدّاً ، وقـد يكـون هـذا الكبت الـذي لا يمكن تحمله يوماً من الأيام قد بلغ مبلغاً ينفجر في أحـد جوانبـه ، فيحطم صـاحبه أو ينقصـه أو يمرضـه ، وقـد يسـري هـذا الضـرر الى غيـره ، فهـلا يلزم أن نتقي شر تلك الأضرار ؟ وكيف ذلك ؟

● **السؤال الثاني :**

هل توافق القوانين الطبيعية جميعها أو بعضها المنطق ؟

الجواب :

سؤال يحتاج الى دقة وبحث ماذا نعني بالمنطق هنا ؟ وأي منطق نعنيه ؟ إذ في أكثر الأحيان يتبع المنطق العرف والعادة ، وأحياناً يتبع العدل والوجدان ، وفي أخرى يتبع السلوك الطبيعي الذي تقوم عليه النفوس ، فهو متأصل في كل حي ، فمثلاً من غير العدالة مجازاة الأسد لأنه اقتنص ارنباً أو ضبياً ، أو ابن آوى لانه اقتنص دجاجة أو وزا ، إذ ان حياته وادامتها تتوقف على هذا ، والمنطق يقبل ذلك ضرورة واقعية ، فلماذا يستنكر ذلك في الإنسان ؟

نعم انما يستنكر ذلك في الإنسان متى ثبت أنه مميز عاقل ، وأما المجنون وغير المميز فلا يعاقبه المجتمع . لماذا ؟ كلنا ندرك أن الإنسان بعقله يتجاوز حدود الغريزة والفطرة غالباً ، ولهذا يلزم وضع حد وجزاء لما تحداه ، وأما الذي ليس فيه تجاوز فلا .

فالانسان يختلف عن الحيوان بعقله [1] وحبه للاجتماع وغير ذلك ، وبقدرته على الإبتكار والإختراع ، وأن له غرائز أبعد مدى من جميع الحيوانات ، وهو لا يقتنع كالحيوان بالقليل ، وليست دوماً أفكاره بنت

---

(١) وعلى هذا لا يمكن تطبيق الشؤون الاجتماعية على الطبيعة حذو النعل بالنعل لوجود الفرق الموجود فيها ، وأخص عند الإنسان ذي العقل والفكر إذا اعتبرنا ما عدا الإنسان من حيوان ونبات يدخل ضمن الموارد الطبيعية ، مع العلم بأن الحيوانات تختلف عن بعضها عقلاً وتفكيراً كالقرد بأنواعه والكلب والهر وغيرها . حتىٰ أن البعض منها لها تفكير لحد ما ، فهي إذا عملت مخالفة تبقى لأمد ما حذرة خائفة ، تخاف القصاص كالقرد والهرة ، وهي أحياناً تتأثر بالتشجيع وتنتظر الاحسان على عمل مجيد قامت به دليل التفكير.

الساعة كالحيوان ساعة توعز له غرائزه من جنسية وجوع أو عطش أو الدفاع عن النفس فيجيبها ، وتنتهي بإتصال جنسي أو أكلة أو شربة وأمثال ذلك لا ، ليس لإنسان كهذا الحيوان ، فهو واسع الفكر كثير الجشع والطمع ينظر للماضي والحاضر والمستقبل ، وما حوله من قريب وبعيد ، ولا تقف مطامعه عند حد ، ولو ملك الأرض بما فيها من مال وطعام وزينة ، فهو يحاول مد سلطته على غيره بقصد إشباع رغباته ، فإذا ترك كل يعمل ما يشاء فما هي النتيجة ؟ وهل يمكن القضاء على ذلك وايقافه عن التجاوز على حقوق الآخرين وكيف ذلك ؟

فالطبيعة أوجدت قوانينها في الجماد والحيوان والنبات وحددت لكل منها حدوداً وجعلت لكل تجاوز قصاصاً فإذا اعتدى وتجاوز فإعتداؤه محدود الضرر عليه وعلى غيره وبصورة محدودة ، لا تتجاوز الأفراد ، والقصد من ذلك حفظ النوع والتكاثر في الأحياء .

ولقوانين الطبيعة من حرارة وجاذبية وضياء وغيرها ، محاسنها ومساوئها ، بالنسبة للبشر ، ولكن إذا وافق بعضها منطق البشر واقتنع بضرورتها ، فإن كثيراً منها لا يوافقه منطقياً ولا يرتضيه ، فهو على الأكثر يحسب كل شيء يرى به بدنيا ومالياً وعقلياً غير صحيح ، وبعضها مجهول منه . فإذن لا توافق جميعها المنطق . في حين أنها حوادث واقعية ، سواء كانت طبيعية محضة في الجماد ، أو غرائز وشمائل وصفات في الحيوان . إلا أنها لا توافق ميزان العقل ومنطقه عند الإنسان فيسعى لتعديلها وتهذيبها .

● **السؤال الثالث :**

هل توافق القوانين الاجتماعية جميعها المنطق والمعقول ؟

الجواب :

ونقصد بالمنطق المنطق السليم . الذي يعتبره العقلاء في كل مكان وزمان صحيحاً ، ولا نريد به أن تجمع عليه الأذواق والأهواء ، إذ أن لكل

قوم منطقاً يوافق عرفهم وعاداتهم ودينهم ، وفي كـل فرقـة شواذ واختـلاف ، ولا تتبـع أي طبقة من طبقـات اليوم ولا أي زمـان ومكـان سلوكـاً اجتمـاعيـاً يوافق العقل السليم الموزون من كل الوجوه حتى أحياناً وهم يعلمـون بذلـك علم اليقين ، إن في خلافه سداً لرغبـاتهم واستجابـة لغرائـزهم ، فانـظر الى أرقى طبقـات البشر أفـراداً وجماعـات من نواح سيـاسية واقتصـادية ودينيـة ، وكـل النـواحي الأخـرى ، فتـرى المنـازعـات والمضـاربـات والمخـالفـات والخروج عن المنطق السليم والاستدلال الغلط والكذب والتـزوير وكثيـر غير ذلك ، فلماذا هذه العزة بالإثم ؟ ولماذا هذا الجدال والمغـالطة والنفـاق أيها الساسة والقـواد ؟ وأنتم يا رجـال الدين المهـذبون العـالمون بـالحقائق ، مـا هذا التمويه ؟ وما هـذه السفاسف ؟ لمـاذا تركتم اللبـاب وأخذتم بـالقشور ؟ وهؤلاء رجـال الاقتصاد ، الكـل منحرفـون عن سبيل الحق والعـدالة والعقـل والمنطق السليم ، لأن لهم في ذلك مـآرب ومصالـح ، ويحسبون فيـه منافـاة مع أطماعهم وغرائزهم ، من حب الذات وحب الظهـور والغريـزة الجنسية ، وحب البقـاء وحب المـال . لهـذا نجيب على هـذا السؤال أن القـوانين الاجتمـاعية من خـاصة وعـامة والتي يحكمْ بهـا فرد أو أفـراد أو جماعـات أو دول ، فيهـا خلاف كثيـر مع المنـطق السليم للعدالـة والمسـاواة والـوجـدان لغـايات شتى ، أمـا لجهل وعـدم إدراك الحقيقة أو لغـايات فـردية وجمـاعية أخرى .

● **السؤال الرابع :**

هل من القوانين الاجتماعية ما تخالف الطبيعية والفطرة ؟

الـجـواب :

ان القـوانين الاجتماعيـة مجموعـة أطلق عليها المجتمـع هذا الاسم ، وهي تختلف باختلاف الـزمان والمكـان ، فمنذ القـديم الى هذا اليـوم ، في كـل بقعة ومنـطقة ، في كـل دولة وأمـة ، قواعـد وأعـراف وعـادات خـالفت وتخـالف الأخرى ، في حين أن القـوانين الطبيعيـة والغرائـز ثابتـة لا تتغير ،

وفي حين ان العقل السليم وما يضعه لا يغيره الزمان والمكان ، إذن أليس هذا كافياً للاستدلال على أن القوانين الاجتماعية تخالف في كثير منها الطبيعة والفطرة ؟

وإذا سميناها قوانين اجتماعية فهي في الواقع ليست بقوانين ، فالقوانين والقواعد هي ما كانت ثابته بذاتها لا تتغير ، ولكن هذه قابلة للتغير بارادة الجماعة أو الحكومة أو السلطان ، وتستمد قوتها من القوة الآمرة أو العرف أو الدين ، وليست مخلوقة مع الذات أو وضعتها الطبيعة كما وضعت الغرائز في الأحياء ، أو القوانين الطبيعية في غير الأحياء .

●السؤال الخامس :

كيف نفسر الحالة الطبيعية الفطرية في الحيوانات ، في حياة الضوارى وإنها تعيش على سلب حياة الآخرين ؟ .

الجواب :

نبحث هنا في الأمور الواقعية الحقيقية فنتقبلها كحقائق لنستعين بها في حياتنا ما أمكننا الإستعانة ، ونعالج ما يمكن علاجه ، ونترك مالا طاقة لنا على علاجه الى اليوم الذي يمكننا ذلك . وإذن ما هو تفسيرنا أمام أمر قائم فرضته الطبيعة وحصرته في هذا الوجه ؟ نحن لا نريد أن نفسر الأمر تفسيراً فلسفياً أو حكمياً ، فنقول هل ان الطبيعة غلطت في هذا أو لم تغلط ؟ وهل ان ذلك صحيح أو غلط ؟ إذ ان هذا البحث لا يجدينا في الحاضر نفعاً ، ولا ان نقول ان علينا القيام بعلاج هذا الأمر وفرض نظام يخالف ما هو عليه بين الأحياء ، لأن ذلك ظلم محض . وإذا بنا نقوم بظلم آخر .

فإذا منعنا حيوانا من افتراس حيوان وهو يتوقف نموه وحياته على ذلك ، فقد قضينا عليه وأمتناه جوعا وخالفنا بذلك ناموس الطبيعة ، واتعبنا أنفسنا دون جدوى ونحن لمّا نتوصل الى كنه وحقائق بعيده عن العلل

الواقعية التي قام عليه نظام الطبيعة هذا ، وقد لا يكون بإمكاننا ولا يكون ذلك الا لحد ما ، وإن تفسيرنا هذا لا يقل عن تفسيرنا عن حياة الحشرات التي تعيش على دم الآخرين ، ومنها ما تسبب لنا آلاماً وأمراضاً ، من بعوض وذباب وبرغوث وأمثالها ، ومنها الطفيليات والمكروبات وغيرها ، وان هذا أمر واقعي لا جدال فيه . ولا يجدينا الجدال في الحاضر ، لماذا خلقت هكذا ؟ أو ما هي العلل لخلقتها ؟ بل نكتفي بالاستفادة من منافعها واجتناب مضارها ، كما نستفيد مما تحمله كل واحدة منها من خواص ومميزات وسلوك ، فنستعين بذلك كله لحل مشاكلنا حلا واقعياً حقيقياً لا يخالف جانباً فيخلق عيباً يلزمنا في الحين علاجه .

فإذن يجب ان يكون الجزاء طبيعياً والثواب كذلك ، وأن يكون العقاب له صلة واقعية بالجريمة ومستخرجاً منها ، وإذا شئت معرفة ذلك فعد الى الطبيعة في الجماد والنبات والحيوان ، وانظر الى كل واحد منها على انفراد ، ثم انظر الى مخالفتك لقانون طبيعي مثلاً ، فإنك إذا نظرت الى مرآة وضحكت ضحكت لك صورتك المنعكسة في المرآة ، وإذا بكيت بكت ، وكلما عملته عملت مثلك .

وانك اذا رميت حجراً الى السماء بصورة عمودية وبقيت في مكانك سقط عليك : أو غير عمودي ولم تحذر عواقبه ، فربما سقط على شيء فتسبب بأذى . وإذا صرخت بين الاطلال والآثار عاد اليك صدى صوتك ، وأنت إذا تقربت من النار دون وعي احرقتك ، وآذا خاطرت بنفسك فقاومت وحشاً دون سلاح وأعتديت عليه رد عليك حتى القطة والفأرة أو الكلب . وبالعكس إذا أكرمت مثلاً كلباً أو قطاً أظهر مقابل عطفك عطفاً مماثلاً .

● **السؤال السادس :**

كيف تسيطر الواحدة على الأُخرىٰ ، مرة الصغيرة على الكبيرة وأُخرىٰ الكبيرة على الصغيرة ، ومرة القوي على الضعيف ، وأُخرىٰ

الضعيف (بكثرته أو دراكته في تدبيره وما شاكل) على القوي ، وتطبيق ذلك في الأحياء وغيرها؟ .

الجــواب :

من نواميس الطبيعة هو أن الأجسام الكبيرة تجذب إليها الأصغر . ومن نواميسها تغلب القوي على الضعيف دائماً ، وقد يتشكل القوي من أجزاء ضعيفة ويتكون من المجموع طاقة أقوىٰ من القوي بمفرده ، كالنمل الذي يعيش بطبيعته جماعات ، على حشرات تفوق النملة بل عشرات ومئات وألوف النملة قوة ، أو تغلب الضعيف المجهز بسلاح مهما كان ، كذباب النوم (ذبابة تسي تسي) أو المكروبات غير المرئية والفطريات وأمثالها على الاحياء .

هذه أُمور واقعية ، لذا لا نضع تجاه ما قلناه كلمة (لماذا ؟) وكلّ ما نحتاجه إنما هو طريقة الوقاية والعلاج الحقيقي الدائم الخالي من العواقب الضارة . كما نريد أن نستفيد من وسائل التغلب وأساليب المقاومة والعلاج لكل واحدة منها تجاه الأُخرىٰ ، وطرق حياتها نحو الكمال والرقي . وكل ما نستفيد منه لخدمة الإنسان ذاته أو ما له علاقة به من الكائنات الحية ، من حيوانية ونباتية كبيرة وصغيرة ، مرئية وغير مرئية ، ما يعيش منها على الغبراء أو داخل الماء ، لكل منها أساليب للدفاع والهجوم والوقاية ووسائل لبقائها وتكثيرها ، وغرائزها ، وصفات خاصة لكل واحدة وفصيلة ونوع منها ، بإمكان الإنسان الاستفادة من كل منها في مهمات حياته المماثلة ، سواء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية وغيرها .

● **السؤال السابع :**

هل ينطبق ذلك التنازع في الأرواح والأفكار والعقول وهل تتغلب على بعضها؟ ما تأثير ذلك؟ ما هو الحل المعقول؟

الجــواب :

قيل في المثل (ان من البيان لسحراً) وهذا يكاد يكون بديهياً ، إن

للبيان سحراً على الآخرين . والمنوِّمون المغناطيسيون إنما يسيطرون على الآخرين سيطرة عقلية .

وقد أثبت كثير من علماء النفس أن للأفكار آثاراً وحدوداً وانها تؤثر من واحد على الآخر ، وإن لها اتجاهاً تسير فيه ، وقد وضعت في ذلك مؤلفات من قراءة الأفكار والايحاء والتلقين ، أي نقل الافكار ، والتغلب الفكري والعقلي بشتىٰ الطرق والوسائل .

كما قلت سابقاً أن هناك قوياً وضعيفاً ، وان هناك نواميس لتغلب القوي على الضعيف ، وان هناك نواميس تخص كل منهما ، فكثيراً ما سمعنا أن ذلك يكون في الآراء والعقول ، وأن من الناس من يسيطر بأفكاره وآرائه على زمرة أو قبيلة أو أُمة أو أُمم ، وربما كانت هذه الغلبة ممتدة إلى قرون ودهور ، كما يتضح ذلك في كثير من المذاهب والأديان والمسالك الفلسفية والحكمية ، وكان لتغلب رأي على آراء جماعة أثر بالغ في اتجاهات تاريخية اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وغيرها ، ويختلف نوع هذه الآراء ، والمجتمع المتأثر منها والأمر القائم به . فقد يستطيع صاحبها القيام بنهضة إصلاحية علمية أو أدبية أو حربية أو غيرها .

إن الإنسان الذي تَفوَّق على أعظم المخلوقات التي تفوقه هيكلاً وقوة ، إنما تغلب بجوهره العقلي والفكري ونفسه العظيمة التي تصاغرت أمامه جميع الأحياء ، وبقواه العقلية سخر ما سخر وأدرك ما أدرك من تقدم في شتىٰ شؤون الحياة ، وإن تفوُّق أفراده البعض على الآخر إنما هو بفضل أفكاره وعقله .

فإذا فرضنا أن الأنبياء لم ينالوا ما نالوا بقوتهم الفكرية وإنما هو أمر الله وهداه ، فماذا نقول بأساتذة وأساطين العلم والأدب والمهن وقدوة البشر من القواد والساسة والمخترعين والمبتدعين والفنانين؟ تلك حقائق لا يمكن إنكارها . ما قولنا في بوذا وبراهما بوترا وكونفوشيوس وأمثالهم؟ .

● السؤال الثامن :

ما هو الجزاء لمن يخالف قانوناً طبيعياً؟ أو يخالف المنطق السليم والمعقول؟ وهل يمكن أن تتفق الوقائع الطبيعية والعقلية؟ وهل يجب ذلك؟

الجــواب :

هنا نرد بعض الأسئلة الفرعية :

أ ــ ماذا يحدث لو سرنا بما تقتضيه الطبيعة والغرائز البشرية وضربنا بالعقل صفحاً؟ .

ب ــ ماذا يحدث لو عملنا عكس ذلك ، وهو أن نتجه بما يوحيه العقل فحسب؟ .

قبل كل شيء نعود لنكرر أن الإنسان يجمع بين الغرائز الحيوانية وصفات العقل والفكر والمنطق وهما في أكثر الحالات على طرفي نقيض .

فإذا أخذنا طبق الفقرة (أ) وسرنا كما توحيه الغرائز والطبيعة الفطرية ، ولا يمكننا أن ننكر أننا في الحين الذي نسمح بهذا فإننا ولا شك وبدون تردد قد وضعنا أفكارنا وقوانا العقلية في خدمة هذه الغرائز . أليس ذلك صحيحاً؟ فإذن لسنا بهائم ولسنا كبقية الحيوانات الأُخرىٰ بل لا نزال نتمتع بقوانا العقلية وأفكارنا الواسعة ، فما قولنا إذن في هذا؟ إن الحيوان لا يفرق في الأُمور الجنسية مثلاً كالإنسان الذي يختار ، لنفسه القرينة الجميلة المحيا ، يهتز طوراً لجمالها وأُخرىٰ لكمالها وصفاتها الخلقية والخلقية ، كما أن الإنسان لا يكتفي بواحدة ، ولا برزق يومه وبما تحت نظره ، بينما الحيوان يكتفي بذلك .

لا ، فالمرء يستخدم أفكاره وعقله لبلوغ ما تخالج نفسه من حرارة الشهوة الجنسية ، تلك التي ينظر أكبر علماء النفس الحديثين مثل فرويد المثير الوحيد لتوجيه أفكاره ومشاعره في الحياة ، وهي وحدها الباعثة

لتجديد أهدافه وبلوغها ، وهناك من يرى مشاركة الغرائز الأُخرىٰ في ذلك وينتقد فرويد ويقول : إن في ذلك إغراقاً ، وأن للغرائز الأُخرىٰ آثاراً لا تقل عن الغريزة الجنسية ، وما علينا الآن أن نبحث في قوة كل غريزة وأثرها وخطرها ، وإنما علينا أن نعرف أن الغرائز بمجموعها هي المثير والمحرك الفردي والجماعي في هذه الحياة وهي حقيقة واقعية لا يمكن إنكارها ، وهي من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن التغاضي عن أي منها ، فإذا تركنا الأمر للغرائز البشرية وأعطينا الحرية لاستعمالها ومنعنا معاقبة من استعمل غرائزه الطبيعية لجميع أفراد البشر كما تستعمل ذلك الحيوانات الوحشية والطيور والبهائم والحشرات ، فماذا سينتج ؟ .

هل يكون الإنسان بذلك سعيداً أو شقياً وما عسىٰ أن يحصل من هذه الحرية المطلقة؟ .

هل يجب مقابل هذه الحرية والسماح باستعمال الغرائز ترك الافراد يتمتعون بها ويستخدمون عقولهم لأغراضها ، أم يجب شل هذه العقول وحدها والقضاء عليها ، لما لها من الخطر العظيم ان هي استخدمت في غير ما وضعت له؟ .

هل من الصالح ذلك ؟ وما هي عواقب تركها ان شلها ؟ فالغدر والخيانة والاستهتار والقتل والهتك والتنكيل والكذب والنفاق وكل رذيلة يعملها البشر إنما يأتي بها لغرض اشباع غرائزه ، وفيها استعمل عقله ، وإلا لما استطاع أن يعمل أكثر من حيوان وحشي ، ولما استطاع أن يدبر المكائد والمصائد وأي شيء آخر من آلات الفتك والجورو الاعتداء .

هل أن ذلك من صالح البشر ؟ وهل هو من صالح طبقة دون طبقة او صالحهم جميعاً ؟ وإذا كان من صالح طبقة فأي طبقة ستمنى بذلك ؟

لا يستطيع مفكر عاقل متأمل أن يقبل ذلك ، وما دام للعقل سلطان فهو يأبى أن يستخدم إلا قسراً لأغراض الغرائز ، وكلما توسع وَسَّع من

سلطانـه على سلطان الغريـزة ، وهو في جـدال وخصام دائم معهـا منـذ بـدء الخليقـة [1] . فلو فرضنـا أن الإنسان سن لنفسـه قانـوناً هـو إستعمال جميـع غرائزه كما يهوى ، ولا عقـاب ولا حكم ولا قصاص لـه على ذلك ، وتجـرد من أي رادع حكـومي .وديني في إستعمـال كـافـة غـرائـزه من جنسيـة وغيـر جنسيـة يسنبيح مـا لغيره ويسيـطر على غيره ويجمـع ما تصـل له يـده ، وكل أراد التغلب واظهـار القدرة واستعمـال جميـع مـا يمكن عمله للتمتـع بهـا ، اليس ذلـك يؤدي حتماً الى الفـوضى وغلبـة القـوي على الضعيف واخضـاع القـوي للضعيف ، وبـالنتيجـة هضم حقـوق الضعفـاء ومنعهم من التمتـع بغـرائـزهم ، ومن ثم الى العـداء والخصـام ؟ ومن ثم الى الحيلة والنفـاق والى كـلٍّ ما يعـود الى سلب الحريـة للأكثـريـة الضعيفـة والى القضـاء على أفـراد وجماعـات والى منازعـات فرديـة وجماعيـة بين الزعمـاء الانتهازيين ؟ اليس هـذا النزاع الكـوني بين الافراد والـطبقـات والشعـوب الا بسبب عـدم الانصياع الى وحي العقل والمنطق السليم والوجدان والضمير ؟

أليس ذلـك الا من خلق الغـرائـز التي لا تـزال مسيـطرة على بعض العقول من حب الذات وحب الجاه والحرص والـطمع والجشـع والكبريـاء ، تلك التي يستعملهـا ويـريـد أن يتمتـع بهـا أفـراد بيـدهم القـوة والسلطة ولا يستعملونها طبق المنطق السليم ؟

ب ــ ماذا يحدث لو عملنا بما يوحيه العقل السليم وحسب ؟

لا يمنع العقل من التمتع بالغـرائز المـوروثة ولا يقـوم بما يـرهق الفرد والجمـاعة ، وإذا قلنـا العقـل السليم فـانمـا نعني بـذلـك المـرشـد الحكيم البصير والهادي الواعي على مصالح الفرد والجمـاعة ، والبـاعث بعين العبرة

---

(1) إن استعمـال الإنسان عقله قـد يتوصـل للمطلوب ، إذا اتجـه الاتجاه الصحيح مـع الشعور بالحـاجة أن يبتكـر يومـاً من الأيام لإشبـاع غرائـزه في نفس الوقت الـذي لا ينحرف عن سلطان العقل .

في الماضي وواقع الحال وما يقتضيه سعادة المستقبل لاقصى ما تقتضيه الحقيقة دون تأثر وتحيز ، والرامي للحصول على أكبر وأبعد ما يمكن أن يجلب الخير والنفع للفرد والجماعة ويدفع عنهم ما يمكن دفعه من ضرر وحرمان ، ومهما كان ذلك النفع والخير وذلك الضرر والحرمان مادياً أو معنوياً فهو يسمح للتمتع بالغرائز لحد أكبر من حصول اللذة ودرجة أقل من وقوع الضرر ، واذا كان غير ذلك فلا نقبل به عقلاً سليماً ، لهذا فإن الشاعر يقول :

لو كنت أجهل ما علمت لسرني	جهلي كما قد ساءني ما أعلم
كالصحو يرتع في الرياض وانما	حبس الهزار لأنه يتكلم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله	واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ان ذلك غاية الخطأ ولا يعتبر العقل عقلاً اذا لم يؤدِّ الى السعادة والسلامة ، ومن المستحيل أن يقول أحد أن الاعمى والاصم خير ممن يسمع ويرى ، وان الابكم خير من المنطيق ، وان الذي لا يهتدي طريقه خير ممن يهتديه . فاذا صادف في الحياة أن أعمى ساعده الحظ ووافقته الصدف ونال قسطاً من السعادة ، فلا يجوز قياسه بغيره الذي يرى لأن هذا قد يكون فقد الوعي الحقيقي والبصيرة والحكمة .

ثم نعود سائلين : طالما غايتنا الوصول الى الحقيقة والوصول الى ما يتطلبه المرء واشباع رغبته مهما كان مصدر هذه الرغبة ، ونحن ندري أن الصد من بلوغ هذه البغية أو عدم اشباع الرغبة يولد في النفس رد فعل لما يظهر من العقد النفسية أو الآثار الصادرة عن افراد محرومين من ناحية ما من حياتهم الغريزية ، وهو بحَدِّ ذاته مرض يلزم اتقاؤه ، وقد ولد ذلك فيه من الحد الذي حده العقل من أمر ونهي صدرت من جانبه ، فكيف السبيل بنا ونحن لا نريد أن يشعر الفرد أو الجماعة بالحرمان من أي جانب من الجوانب كيلا يحدث لهذا رد فعل يصدر عملاً ارادياً أو غير إرادي ، يسبب له مرضاً نفسياً يعود عليه أو على غيره بضرر جسمي أو روحي .

فـالعقل السليم وهـو الجوهـرة النقيـة من شـوائب الغـرائـز النفسيـة والهـوى والهـواجس ، أو الكوكب الـدرى الذي لا يحـول دون اشعاعـه على مختلف الحواس كدرات الغرائز وعـابثات الهـوى النفسية يجب أن يـراعي في أوامره وسلطانه على الفرد والجماعة كـل المصالـح الآنية والمقبلة لخيـر هذا الفـرد وتلك الجمـاعة ، أو لخيـر الافراد فـرادي وجماعـات دون أن يأمـر وينهي ، ولا يحسب ان الـرغبة النفسيـة لا يمكن أن تسد بقـوة النفس أو الغير دون أن يكـون لها آثـار ، ولا بد لـه من اتخاذ سبيـل لمحو هـذه الآثار قبـل ظهورهـا بصـورة لا تؤدي الى عاهـة جسمية أو روحيـة . فكيف اذن نمنع الفـرد عقلياً عن اشباع رغبته الجنسيـة ؟ اتقول لـه أن القوانين تمنـع ذلك ؟ او الاديـان ؟ أو ان في ذلك ضرراً صحيـاً وأخلاقيـاً أو شيئاً آخـر ؟ واذا بهذا الفـرد تطفـح عليـه الغـرائـز وينفجـر ولا يبقى للميـزان العقلي من مقـاومـة فيسبب ضـرراً عاجلاً لنفسه وغيره ، أو أنه يكافحهـا فتثير فيـه من حين لآخر بمـا تحمله من قوة الكبت الى انحرافات وزلل عن الطريق السوي في نـاحية مـا من نواحيـه الاجتمـاعيـة ، وأن أكثـر الأدواء الأجتمـاعيــة من كـذب وسـرقـة واعتــداء واختـلاس من جنايـات وجنـح ومخـالفـات ، إنمـا هي من تلك المصـادر ، وليس الترغيب بالثواب والتخويف من العقـاب دون الامعان في العـواقب إلا عوامل قد تكون أحياناً مخربة ومثبطة للعزائم . فـالجائـع يجب ان يشبع واذا منع عن الطعام والشراب فإما أن يمـوت جوعـاً أو يتحوّل الى نمـر مفترس أو سارق أو محتال وامثـال ذلك ، لإشبـاع نفسه . فمـا هو السبيـل الى اشباعـه لا منعـه ؟ ولا يهمنا هـذا المنع أكـان من طريق القـوة البـدنيـة أو النفسيـة ، بالحبس الجسمي أو الروحي ، بالمنع المادي أو المعنوي .

فـالعقل السليم يجب أن يعلم ان للغـرائز سلطانـاً ، ويجب أن تؤخـذ قـدرتها بعين الاعتبـار وارضاؤهـا والسير معهـا كما يـرعى الأب الحكيم ولده الجاهل ، فالفرد يمكن منعه قانـوناً بـالعقاب الـدنيوي أو غضب الجمـاعة أو الخجل والحياء ، ومنعه شرعاً بالتخويف الأخروي والـدنيوي والتخـويف من غضب الله ، بيد أنه اذا امتنع يا تـرى هل انتهت المشكلة ؟ كـلا ، فالغـريزة

عمياء صماء تريد ولا تصغي ، فاذا منعت بأي وسيلة امتدت اطرافها الى جوانب وجهات أخرى خارجية ، فاذا منعت اطرافها من الخارج عاثت بالنفس ذاتها وخلقت لها مشاكل وانحرافات عضوية مادية أو معنوية ، وحرفت صاحبها عن الصراط السوى والاعتدال ، وقد يزيد ذلك التربية والمحيط او يخففها ، وهذا ما يجب على العقل السليم مراعاته ، وقد تعجز بعض العقول ذاتها عن الوقاية والعلاج ، ولذا يلزم على الجماعة من جمهور العقلاء الدقة ووضع الأسس اللازمة لذلك دون ارهاق واجحاف ، مستمدين في ذلك ما أودعته الطبيعة في أفرادها المشابهة نوع الداء ونوع العلاج وطرق الاصلاح [1] . فالانسان الطبقة العاقلة من الحيوان قد يتجاوز بعقله الاصول الطبيعية باستعمال الشهوة وزيادتها وتقويتها والترغيب اليها بالأدوية تارة وبالمأكولات والمطالعة والصور والمناظر والرفض واللمس وما شاكل ، ولا زال يبتكر المهيجات والمحركات ، من مشروبات روحية وغير روحية ومخدرات ومنبهات ، تلك التي تخرجه عن نطاقه الطبيعي وتثير فيه روحاً لا تأتلف وروحه الواقعية ، أو بالتلقين النفسي من غيره وترغيبه الى عمل لا يعد من الاعمال الطبيعية في الحالة العادية .

ولا ينكر ان هناك أموراً طبيعية في الحيوانات المشابهة للانسان كالقرد مثلاً ، وهو اجتماع الجنسين الذكر مع الذكر والانثى مع الانثى والانثى مع الذكر ، وهذا أمر طبيعي ، ولكن الانسان تجاوز عن ذلك الى أمور أخرجته من الحالة الطبيعية وهو تزويج الذكر بالذكر وعمل ما يثير العقل السليم ، وذلك أن يحرم الذكر من الحاسة الجنسية بصورة عملية ليتزوجه ذكر آخر يبقى معه مدى الحياة يرضخ تحت سيطرته كما يجري في بعض البلدان الأجنبية وغيرها . أو وأد البنات ودفنهن وطمرهن أحياء .

---

(١) لهذا نرى البحث عن آراء العباقرة والأنبياء دون تحيّز واباء بما نحمله من عادات باطلة وقبول المنطق السليم .

خـوف الاملاق [1] أو العـار ، وأي عمل لا يصـدر من أي حيوان ممـاثـل لا يستخـدم العقل لاغـراض وغـايـات الغـرائـز . فـاذن سيـطرة العقـل السليم الـواعي على أعمال الفـرد والجماعـة ، ذلـك العقـل الـذي يـراعي الحـالـة الطبيعية الغريزية في الفرد والجماعة ، والقـاضي الحكيم في حكمه وعـدالته دون أن تتغلب عليه العزة بالاثم أو العرف أو العادة الاجتماعيـة او الدينيـة أو عادات أخرى ، هو خير مدير وقائد ، يـراعي من جهة طلبـات الغرائـز كالتي في الحيـوانـات غيـر العـاقلة ، من مثيـرات الغـرائـز واخـراجهـا من الحـد الـطبيعي ، اكانت تلك مـادية أو معنـوية من طـريق الحواس السمـع والنـظر واللمس ، أو الـطعام او المـطالعة وغيـره ، والعود دومـاً الى نظائـر ذلك في الحيوانات الطبيعية الأقرب تشابهاً ، والاستفادة من استنتـاج القانـون الطبيعي الأقـرب الى الطبيعـة والفطرة في أي مـورد اصلاحي ، سـواء اجتمـاعي من أمـور الجزاء والحقـوق والادارة والمال ، أو في الامـور الصحيـة والـطبيـة ، وفي كل أمر نريد أن نضع فيه قانوناً ثابتاً مستدلاً يمكن أن نسميـه قانـوناً كمـا تحـدثنا سـابقاً ، لا تلك المـواد التي يضعهـا المقنن والمشـرع والـدولـة من الناس . وبالنظر لالزامهـا القهري من السلطات يـطلق عليها اسم القـانون ، وتأتي سلطة أخرى وتغيرها أو تحذفها أو تـزيد فيهـا حسب ما تـرتئي . وبهذه المناسبة لا يكون لها التأثير الفطري الطبيعي القاطع ، لذا نعود لنتساءل :

أ ــ هل يمكن أن نعتبر الفكرة غريزة بشرية ؟

ب ــ هل يمكن فصل العقل عن الفكر واعتباره غريزة أخرى ؟

ج ــ كيفيـة استحصال القـوانين الطبيعيـة . ومـا هي القـوانين الممكن استحصـالها ؟ الجـزائية ، الحقـوقية ، الإداريـة والسياسيـة ، والاقتصـاديـة وغيرها .

---

(١) ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ [سورة الإسراء ، الآيـة : ٣١] .

كيف نجري الاختبار ؟

في كل أمر مادي ومعنوي مهما كبر وبلغ من الأهمية سواء أكان اقتصادياً أو أخلاقياً أو أي نوع من الفروع الاجتماعية والطبيعية والسياسية وغير ذلك، يلزم ارجاعه للمختبر الفني الدقيق للتحليل والتركيب والتجزئة والمزج ، بادئين لمعرفة ذلك من أدق المواد أو الأمور المشابهة بغية الدقة والسرعة للفهم وعدم التبذير بالمادة والوقت . فاذا أمكننا الاكتفاء ببضع قطرات من الدم لوضعه تحت عدسة المكروسكوب من جهة والاستفاده منه لتعيين درجة محتوياته المؤدية والشؤون الأخرى ، كان خير لنا من أن نستنزف دم المريض الذي هو بحاجة الى الدم ، هذا مع ضياع الوقت وما يحصل من ذلك من الارتباك .

وفي مختبر الصيدلي للتوصل الى مركب ملائم ووضع النسبة المعينة من كل دواء وتجزيته ، اليس أحرى بنا أن نبدأ ما أمكننا بأصغر الكميات الممكنة حتى اذا ما تأكدنا من المركب المطلوب عدنا الى صنع الاطنان منه ، بعد أن مرت تجربتنا على أجزاء الغرام والسانتغرام والملغرام .

لحل المشاكل العالمية : ألا يجدر بنا أن نعود الى أصغر مجتمع مشابه مثل العائلة ونرى مشاكلها الاقتصادية والاخلاقية ، ما قولكم بأب يأمر ابناءه بأمر ويناقضه ولا يقوم به ، والاطفال اما عندهم المجال والشجاعة ليتساءلوا : لماذا يقوم والدنا بما نهانا عنه ؟ . أو وصلت بهم الاوضاع بدرجة من الخوف حتى لا يسمح لهم بذلك ، فهم يتساءلون في أنفسهم هذا ما يأمرنا به أبونا أو ينهانا عنه ، وهو نفسه يخالف أمره ونهيه . ماذا تكون العاقبة في مثل هذه الموارد غير التدليس والنفاق ؟ اطاعة ظاهرة وعصيان باطن .

ان المربى الحقيقي من أب أو معلم أو رئيس وزعيم وأمير ورجل دين ، وكل من له سلطان ، عليه أن يكون بنفسه بقوله وبعمله قدوة لما يأمر وينهي ، وأن تكون العدالة والانصاف والصدق والصراحة نشأت معه

في نفسه وشبت مع جوارحه ، اذا شاء أن يطاع طاعة يعاقب عليها بعدالة ، ويصغي ويستجيب له ذوو الآذان والقلوب . وإذا شاء أن ينفذ ذلك بالقوة والقدرة فيطاع ظاهراً ويخالف باطناً . هذا على أن تكون أوامره محققة وممكنة للأكثرية وعادية وغير قاسية ، إذ لا تكلف نفس إلاً وسعها ولا يمكن أن يقاس على الشاذ ، فرب أمر يطيقه فرد من بين مائة أفراد فلا يلزم فرضه على الجميع ، والذي يلزم فرضه هو الممكن للجميع ، والذي هو من صالح الفرد والمجتمع ، واذا نفذ الاب أوامره على أولاده بصفة قاهرة فوق طاقتهم ودون وعي وارشاد ، أو لم يتقبل افراد العائلة قبولا حسناً أو رأوا تعسفاً وتمييزاً فيما بينهم مهما كان ، ولو لفرد ، فلا بد أن يخلق هذا في نفوسهم ضغنا وحسداً ، وعلى أقل تقدير هرباً من الامتثال والانصياع كلما سمحت الفرص ، وخلقت جوا من الكذب والنفاق والتذبذب كلما عنت الظروف ، وهكذا الامر في القبيلة والدولة ، وعلى الشركة التجارية اذا أراد أفرادها ان تسير نحو التقدم والتوسع ان يخلص هؤلاء الافراد ويوازوا الواحد الاخر ، وتجري بينهم أصول العدالة والرعاية في أصول الخرج والصرف ، وايجاد الدخل الكافي لذلك ، وعدم رعاية ذلك لا بد أن يطيح بالشركة ، وعلى الطاهي والطباخ الماهر أن يراعي مقادير وأجزاء ونسب المواد في المرق والحلوى وغيرها ، ورعاية درجة الحرارة ومدتها وما شابه ، وإلا لم يكتب له التوفيق في عمله . وهكذا في كل شيء وعمل فني وغير فني يجب الاصغاء الى المتخصصين فيه ورعاية كل جوانبه . لهذا نتساءل :

أ ــ ما هي بواعث العلل الاجتماعية ؟ في العائلة ، في الدولة ، في العالم ؟

١ ــ أهو الجهل ؟ أي جهل ؟ هل نحن بحاجة الى علم الأخلاق ؟ الى العلوم الاقتصادية ؟ لأي علم ؟ ولأي فن ؟

٢ ــ هل الباعث هو الفقر ؟ أي فقر ؟ أهو الفقر المادي أو المعنوي ؟ أو كلاهما ؟

٣ ــ هـل الباعث على هـذه العلل هو الـدين والعقيدة ، واختـلافه في العـالم ؟ هل أن الاديـان جميعها غيـر صالحـة ؟ وهـل هنـاك دين أو عقيـدة صالحة ؟ ما هو ؟ كيف يمكننا أن نجمع العالم عليه ؟

٤ ــ هـل العلل هي وليدة العنصـريـة والقـوميـة واللغـات ؟ هـذا آريّ وهذا سامي وهـذا حامي وهـذا ابيض وهذا أسـود وهذا أحمـر وذاك أصفر . وهذا عربي وذاك أعجمي . اذن ماذا نعمل ؟

يلزمنـا تعيين العلل أولاً ، وعلاجهـا ثانيـاً ، واقامـة طرق الـوقايـة منها ثالثاً . ومراقبة دائمـة من الأوبـاء والامـراض الساريـة الحادة منهـا والمزمنـة ، والقضـاء على كـل البؤرات الانتـانيـة التي تثيـر كـدرا في أي عضـو من الاعضاء .

من هـو الطبيب الـواقعي الصالـح لعلاج هـذه العلل ؟ ومـا هي العلل التي يلزم علاجها ؟ ولا شك بأننـا بحاجـة الى أطباء متخصصين لكـل داء ، بـل لكل فـرع من فروع هـذا الداء ، أطبـاء عمليين وأطباء نـظريين كما هـو في عـلاج البـدن الانسـاني . اطبـاء يعـالجـون الامـراض الجسمـانيـة لهـذا العالم ، واطباء يعالجون الامراض الروحية والامراض الاجتماعية .

ب ــ مـا هي طـرق الـوقـايـة من هـذه العلل ؟ من هم المتخصصـون للقيام بهذا والمثل الطبي هـو : « الوقـاية خيـر من العلاج » ، كمـا يعتبر في البدن الانساني ، فهو أيضا ينـطبق على حياة العـالم والحكومـات بل الـدولة العالمية . ويكفي أن نعرف كم كان عـدم الوقـاية في المـاضي يحمل للبشـر من ويـلات وهموم الأمـراض ، كـالمـلاريـا والجـدري والهيضـة والـطاعـون والتيفود والتيفوس ومما هو أكثـر من أن يعد ، وكيف قضي عليهـا بالـوقايـة . وكيف ان المرء يؤخذ على حين غرة من أقل الامـراض مثل الـزكام على أثـر تعرض بسيط جداً ينتقل فيه من محـل دافىء إلى آخر بـارد بنفحة بسيـطة من البـرد أو خفقة ريـح بـاردة لا يعيـرهـا أهميـة تـذكـر، وإذا بـه أمـام الـزكـام والإنفلونـزا وذات الرئـة وذات الجنب وغيـرهـا بعـد أن يصبـح ضعيفـاً ، في

حين أن الوقاية الأولى قبل خروجه كانت تكفي لمجرد احتياط بسيط من البرد عدوى المزكوم ، وعندما أُصيب بها كان يكفي له علاج بسيط مع استراحة بسيطة ودواء بسيط لدفع هذه العلة ، بيد أنه إن أهمل اشتد به الأمر وهكذا . وقد يؤدي به عدم الوقاية إلى الموت .

هكذا الحروب ، فالحرب العالمية الأولى شبت واندلعت نيرانها ابتداء من طلقة واحدة أصابت فرداً واحداً ، على أثرها شبت نيران الحرب وقد كان بالإمكان حصرها في النطفة والقضاء عليها ، ولكن قلّة الوقاية والغرور وعدم التروي تلك التي تؤدي بأكثر الرجال والافراد السذج لإصابتهم بأشد العاهات .

ألا يكفي للعالم أن ينتبه وأن يعقل من هذه التجارب المرة؟ .

ما أحلىٰ الأمثال التالية :

ما خفق الشراع على رأس عاقل مرتين . أو ما لدغ العاقل من جحر مرتين ، ولقد كان حرياً بالولايات المتحدة أن تكتسب التجربة الكافية من حروبها في كوريا كيلا تتورط مرة أُخرىٰ في حروب فيتنام . إذا كان هناك عقل وعقلاء فعليهم وقف هذه المآسي . وعليهم أن يعرفوا دائماً وأبداً أن : أول الغيث قطر ثم ينهمر .

وسنتحدث عن أعلى وأحلىٰ مثل لحكومة عالمية فطرية جمعت فيها أقصىٰ ما يتصوره الفكر وفوق ما يتصوره الفكر من دقة النظام وحسن الإدارة والانضباط المنظم وأبعد ما يمكن حسابه عن افراده وجماعته في الماضي والحاضر والمستقبل ألا وهو البدن الإنساني .

الإنسان أبدع حكومة عالمية مثلى في جسم الإنسان[1]

قلنا أننا بحاجة لحكومة عالمية تضم تحت لوائها كافة الملل والنحل بما فيها من أفراد وجماعات ، وبما فيها من حقائق وأفكار تخضع لها مطيعة مادة ومعنى . قوة تستمد قوتها من نفس الأفراد والجماعات وتشملها بالرعاية والحكم بالعدل والمساواة . محيطة بحاجاتها وسد رغباتها بعلم ودراية يتفق مع العقل والفطرة الطبيعية . حكومة لا تقوم على إرادة البشر وأهوائه تحت تأثير القوى والطموح الفردي ، ولا متعرضة للانقلابات والمشاكسات .

إننا بحاجة لحكومة فطرية طبيعية قائمة موجودة تستمد قدرتها من قدرة أعلى تسير السماوات والأرضين ، من حكومة تحكم الجماد والنبات والحيوان منذ بدء الخليقة ، هي حكومة الطبيعة عند الطبيعيين وحكومة الخالق المصور المهيمن القدير الحكيم الواحد الأحد عند الإلّهيين . تلك الحكومة التي أعطت كل نفس هداها وسيرتها وضبطتها وجهزتها بقدرة الدفاع والهجوم ، وكلّ ما تحتاجه لإدامة النوع وإدامة الحياة . حكومة فوق

---

(١) راجع الآية ٥٣ من سورة فصلت (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم... ﴾ الخ ...
=

. . . .

= من أسرار الخلقة وإبداع الله في الطبيعة وسير الفطرة :

١ ـ يدفع الرجل في كل مرة تلقيح ٣٠٠ إلى ٥٠٠ مليون حويمن منوي ذي خلية واحدة وكل واحدة تحمل جميع العناصر الحية المادية والمعنوية لإنسان كامل بما في ذلك ما اكتسبه بالإرث من سلالاته القريبة والبعيدة من لـون وجنس ومناعـة وضعف وقوة وخلق وصفات وكل شيء يمكنه أن يشابه سلالات آبائه وأمهاته .

٢ ـ هذا الحويمن المؤلف من خلية واحدة لا يمضي عليه الزمن بعد التلقيح إلاّ ويتكاثر بسرعة هائلة ولم يمض عليه عهد مدة تسعـة أشهر يصـل به من خليـة لا تكاد تـرى بأكبر المكبرات حتى يكون طفلاً يحمل من نفس تلك الخلية الواحدة الحية ٢٠٠٠ بليون خلية مقسمـة على كافـة أعضاء البـدن الإنساني جـامعاً فيهـا أعظم الأجهـزة الالكترونية المولدة للطاقات الكهربائية وللحـركة والحـاسة والمعـامل والمختبـرات الكيماوية ، والميكانيكية والحاسبة والمدونة وكلّها يحتاجه مجتمع يحـوي عالمـاً من عـوالم الكون العـظمى المنظمـة كما تجـده في هذا المجتمـع الإنساني على هـذه الكرة بل يفوقها نظاماً وعـدالة واتقـاناً وصنعـة وتجهيزاً وتـوزيعاً فيـه مئات المعـامل الكهـربائيـة والكيمياء الكبيـرة والدقيقـة الصنع المتضـامنة وآلات شبكـات الحمـل والنقل للتغذية والاعمار والترميم والتنظيف . ومخازن مستوردة لمواد أولية ومصـدرة لمواد مركبة تحكمها حكومة مسيطرة عادلة ساهرة دائبة واعيـة مجدة ، تحـرسها في كـل ناحيـة ودائرة منـه حراس يقـظون دائبـون عـارفـون مجـدون على وظـائفهم لا يسمحون لأي غريب مهما كان من الغرباء من ولوج ساحاتهم .

هذه الخلايا الدقيقة المتناهية في صغرها كما مر المنسجمة المنـظمة في عملهـا قد لا يستطيع الإنسـان رؤيتها بـالعين لا بل بـالمكبرات المجهـرية الالكتـرونية ، وإن أمكن بعدما وصل الإنسان لتكبير الاجرام فهـو يرى هـذه الخلايـا متشابهـة حية في الاحياء بين هذا التشابه نظراً ولما يدرك الإنسان رغم مـا بلغ من العلم والعمل الى كنه وأسرار هذه الخلايا وما تعمله من شتى الاحياء والأجهزة رغم تشابهها الظاهري وتلك أسـرار لم يتوصـل إليها بعـد ، ويكتفي علماء الاحيـاء أن يطلقـوا على هـذه الخلية الحية كأصل لتكوين الاحياء المختلفة . وهي صغيرة لدرجة لو جمع مليـون خلية منها لأمكن وضعهـا على رأس الدبـوس المدبب الصغيـر وتختلف عن بعضها في الشكل والهيئة من كروية واسطوانية وغير ذلك . =

. . . .

= هذه الخلية ذات الحجيرة الواحدة تشكل أجسام الاحياء، والجسم الانساني يحوي على ستين ألف مليار خلية منه يعني (٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ، وكما مر إن هذه الحجيرات ذات الخلية الواحدة تختلف اشكالاً باختلاف مراكزها وأعمالها ووظائفها كما تختلف اشكال الاحياء في هذا العالم الحي في الوجود المؤلفة من مئات الآلاف من كبيرة وصغيرة على وجه البسيطة . وكما تختلف هذه بالهيئة والشكل تختلف في الحجم فهناك خلية كبيرة يصل حجمها إلى أكبر بيضة كبيضة النعامة وهناك متناهية في الصغر بحيث لو جمع منها مليون خلية لأمكن وضعها على رأس دبوس مدبب .

٣ ـ أعمال هذه الخلايا : كل أعمال وأفعال أجهزة وأعضاء البدن إنما تقوم بها هذه الحجيرات كأعضاء محركة من يد ورجل وعين وسمع وبصر وذوق وتفكير وهضم وحس وكل حركة إرادية أو غير إرادية جميعها ، إنما هي تصدر من مجموعات متعاونة من هذه الخلايا الحجروية فمثلاً خلايا البصر الاسطوانية تحمل النور وتجمعه وتبدله بإشارات كهربائية وترسله إلى الدماغ ومتى توفرت فيها المقدار اللازم أمكن رؤية الشيء العاكس للضياء الواصل منها للنظر لرؤية ذلك الشيء ومعرفته ، أكان ذلك كبيراً أو صغيراً قريباً أو بعيداً .

٤ ـ تحوي العين على ثلاثين ألف مليون خلية قسم منها مختصة لمعرفة الألوان واكتساب النور وحفظه ولها القدرة على صنع وتوليد الكهرباء وهذه متناهية في الصغر حتى لا تكاد ترى بأقوى المجاهر ، هذه الخلايا تحتوي السكر محولة إياه إلى كهرباء وتدفع الماء وغاز الكربنيك بعد إحراقه ، تقوم بهذه المفاعلات الكيماوية المعقدة وتستنتج منه مادة (A.T.P.)) يعني (ارتوزين تري فوسفات) . هذه المادة هي مادة الحياة لكل جسم حي وفي هذه المادة تكتسب الرئتان انقباضها وانبساطها والقلب حركاته وهذا هو منبع الحياة لكل حي ما دام حياً ، وفعلها في البدن قائم على قدم وساق في الافعال غير الارادية التي لا تتوقف حتى عند المنام ، وبها تثبت درجة حرارة البدن وتتحرك الأجهزة وتقوم بأعمالها ووظائفها ، هذه المادة دوماً في حالة تجزية وتركيب .

٥ ـ جميع حجيرات البدن لها القدرة على توليد الكهرباء باعتبارها في حالة حركة =

= وفعالية سوى الكريات الحمراء الدموية التي يسيرها المائع الدموي إلى حيث الحاجة .

٦ ــ كما مر أن الخلية المكونة من بويضة المرأة عند اتحادها مع حويمن الرجل المكون من خلية واحدة تبدأ منذ اتحادها للتكاثر السريع حتى يبلغ ٢٠٠٠ بليار خلية خلال تسعة أشهر وهو الجنين المولود وهناك أسرار أعظم نذكرها أدناه.

٧ ــ منذ الساعات الأولى لتكاثر هذه الخلايا تعين أجهزة البدن الانساني ومراكزها ووظائفها وطاقاتها وما هي بحاجة لها من ترسيم وتصميم ، ومنذ الساعات الأولى تضع الوراثة والسلالات خواصها في هذا المخلوق الجديد كما نذكر بعضها فيما يلي :

٨ ــ الكبد : أعظم مختبر عالمي يحوي على أهم المعامل الكيماوية الدقيقة المعقدة توضع أسسها منذ اليوم الأول.

٩ ــ الأجناس البشرية وألوانها من لون البشرة والشعر والعين يوضع تصميمها منذ الساعات الأولى .

١٠ ــ الأعراق وهيئة وشكل الأعضاء والعضلات ودرجة نموها وتدرجها في النمو والحين الذي تتوقف فيه ذلك النمو وتعيين صور وهندام كل عضو وجهاز من جلد وأصابع وأطراف وأجهزة الهضم والدورة الدموية ، وكل عضو آخر في أي ناحية من أقصاه إلى أقصاه توضع تصاميمه طبق السلالات والمناخ والمكان ، وكل شيء له مساس بهذا الكائن الحي وفيه تثبت درجة الذكاء ونمط ما يحمله هذا الكائن من الطاقات المعنوية إلى نموذج طاقاته المادية ، ومنذ البداية تثبت قدرات المناعة تجاه الأمراض وقدر الدفاع وفيه تتميز الافراد بالإرادة والشجاعة ودرجتها ، وان هذا البدن لأي درجة بامكانه أن يقاوم العلل والأمراض المادية والمعنوية .

١١ ــ تكاد تكون الخلية الأولية عند جميع الأحياء ذات الثدايا متساوية الشكل والمقياس بيد أن هناك أسراراً بعيدة القدر في الفعل والانفعالات من نتيجة التجزية والتركيب والتفاعلات داخل هذه الخلايا ، تمنع انتاج خلية الإنسان من لقاحه أي حي آخر غير الإنسان ، أو بالعكس أن تكون خلية البقرة أو الأرنب أو أي ثدي آخر ينتج وليداً هو الإنسان ، أو أي حي من الثدايا غير من نتج منه ، تلك التي لم يتوصل البشر بعد للوقوف على كافة أسرارها ، سوى أن هناك حوامض ومركبات مسيطرة =

. . . .

= على النشأة والحياة وتمنع أن يكون الناتج غير الذي حصل من لقاح ذلك الحي ، فناتج الإنسان يكون إنساناً والأسد أسداً والأرنب أرنباً .

١٢ ــ كما أن هناك أسراراً أُخرىٰ تمنع خلية العين أن تضع غير العين رغم تشابهها لخلايا اليد والاذن والكلية وغيرها ، ذاك من الأسرار الخفية التي لا تسمح للبدن الواحد إلاّ أن تعمل الخلايا إلاّ من وظائفها وأن يكون لكل إنسان يدان وعينان وقلب واحد ورجلان وهكذا لا تزيد ولا تنقص والا تختل الخلقة .

ومن أسرار الخلقة امتياز كل من هذه الخلايا المتشابهة للجسم الحي عن بعضها ، رغم ما مر من مظهرها الخارجي المتشابه انها تختلف صفات وخواص كل منها عن الاخرى ، ومن خواص هذه الخلايا انها تستمر بالانقسام والتكثير والموت والحياة ، فهناك ملايين من الحجيرات في الجسم الانساني في كل ثانية تموت وأُخرىٰ تكثر حالة محل الأولى بالانقسام .

١٣ ــ من هذه الخلايا ما هي سريعة التكاثر والانقسام والموت والتجديد كخلايا الجلد ، بينما تمتاز خلايا الدماغ منذ الساعة الأولى بأنها معدودة ومحدودة فلا تتكاثر وتحافظ على حياتها مدى الحياة وما شاب أو مات منها لا يقوم مقامها خلية اخرى ، فاعداد حجيرات الدماغ منذ ساعة الولادة تحافظ على عددها وحياتها .

١٤ ــ خلايا جسم الإنسان تولد نحو ٦٠٠ نوع من الانزيمات الضرورية للحياة . هذه الانزيمات تقوم بأعمال كيماوية معقدة ضرورية في الجسم، تقوم بأعمال جبارة لتجزئة وتركيب المواد الضرورية للجسم الحي فالأطعمة البروتينية مثلاً الواردة إلى الجهاز الهضمي للبدن قد لا تكون من النوع الذي يستفيد منه البدن ، هذه الانزيمات سرعان ما تقوم بمقدرة فائقة ودقيقة وبكل سهولة فتحيل تلك إلى بروتينات يحتاجها هذا البدن ، أو تكون مواداً مختلفة ضرورية للبدن ، أمثال الهيرمونات المختلفة ، هذه الهيرمونات المركبة من مواد معقدة دقيقة ، وأعمال هذه الهيرمونات مهمة وضرورية ومنها تنتج مواد دفاعية لازمة لمكافحة الأمراض المختلفة تلك التي يعجز من استحضارها أمهر رجال الكيمياء .

١٥ ــ من العناصر المهمة جداً لهذه الخلايا (الحجيرات) الغشاء الخارجي لها وهذا الغشاء بضخامة ١/١٠ من الميلي مكرون والميلي مكرون يساوي واحداً من المليار من المتر وهذا الغشاء محافظ عظيم لمحتويات الخلية لحفظ موازنة أجزائها =

. . . .

= الداخلية . وكل غشاء منها متمايزة بصفاتها عن الأخرىٰ تعرفها الخلايا الأخرىٰ بحيث تكون هذه المعرفة خير محافظ ورادع من ولوج الغرباء المتجاوزين على حريم افرادها وجماعاتها لطردها مما يساعدها فطرياً على الدفاع ، فهي تمنع ولوج الخلايا المكونة لأعضاء مخالفة كمنع خلايا العين من ولوج خلايا الجلد أو العظام أو الشعر فتخل من عملها كما تمنع ولوج الجراثيم والحيلولة من أي تخريب محتمل وهذا الدفاع ضروري . إذ لو تداخلت خلايا المكونة للشعر في العين وكونت داخل العين شعراً .

أي خطر كان للعين؟ وأعظم منه ولوج الجراثيم المرضية، فهذه المعرفة لافرادها وجماعاتها وأتلافها الواحدة للأخرىٰ من أهم الضرورات الدفاعية تمنع اختلال توازن الأعضاء وقيام كل واحدة بأعمالها الضرورية المناط إليها ويغير هذا فيه ارتباك أعمالها والمرض المؤدي للمرض أو الموت .

١٦ ـ التعاون : إن التعاون بين الخلايا المتشابهة من جهة مثل خلايا القلب والتعاون بين خلايا الأجهزة المترابطة قائم على قدم وساق وللآن لم نتوصل إلى المحفز لها بيد أن هناك عوامل عدة من الانزيمات والهرمونات المحفزة والمنبهة لتسريع العمل أو تباطئه كما لو داهم الإنسان خطر، أو لسعته عقرب ودخل سمها العضو ، أو أكل الإنسان مقادير كبيرة من السكر ، أو الكحول بحيث كانت فوق مقدار الاعتدال أو دخل الجسم مكروب وما شابهه كل هذه ترسل الايعازات من المنطقة المتأثرة إلى المراكز المستقبلة في أجهزة الحس وتعود هذه لإرسال الإيعازات لدرء الاخطار والدفاع اما منطقي أو عام ، وإرسال النجدات إما مادية أو كيماوية تختلف شدة وضعفاً يتعاون بها الأقرب فالأقرب حتى يعم جميع خلايا البدن ، وان اختلفت شدة وضعفاً وتهيئة الوسائل الوقائية الحاجزة والعلاجية المشافية وتتشابك في ذلك وتتعاون قوى البدن وعناصره .

١٧ ـ الويروس طفيلي متنوع من أهول وأخطر الأعداء وإذ هي تفقد القدرة على ايجاد القوى الكهربائية لا تطيق أن تؤمن شخصياً لوازم حياتها إلاّ بالواسطة ، لهذا تهاجم الأجسام الحية ومنها الإنسان وهي دوماً على أهبة الهجوم لولا مراقبة أغشية حجيرات البدن الدائمة ، بيد أنه إذا ما اختل التوازن في البدن الإنساني بسبب الطعام أو الشراب أو التعب أو الحر أو البرد أو عوارض طبيعية أو خارجة عن

كل الحكومات وقدرة وقوة فوق القوى، تركت لكل أمر حكمة ونظاماً وعلّة ومعلولاً ، لا عي فيهـا ولا هـدر ولا عبث ، تحـطم من قـاومهـا وتبيـد من استهان بها ، قوة مدبرة عالمة قائمـة دائمة غير قابلة للتغيير والتبديـل . كل قواعدها وقوانينها ثابتة متينة . ليس للصـدفة فيهـا معنى ، وكلما فيهـا حكمة كاملة وأصول شاملة وقدرة عاملة وفي كل شيء لنـا فيها مصـداق وآية ودليـل في السمـاء والأرض ، في الجمـاد والنبـات والحيـوان ، إذا أخـذ كـل منهـا بانفراد رأينا فيها الكمال ، وإن جهلنا بـذلك أحيـاناً يـوحي لنا وجـود النقص والاعتـراض الواهي . لـذا علينا أن نبحث عن نـظام وقوانين هـذه الحكـومة

= الـطبيعة تلك التي تنشغـل بها خـلايا البـدن كـلاً أو بعضـاً ، وعنـدهـا تقتحم هـذه الطفيليات البـدن وتجد فيـه العامـل والمحيط المناسب لتكـاثرهـا السريـع ، وتقوم الحرب الطاحنـة بينها وبين أجهـزة البدن ، فـإن تغلب البدن قضي عليهـا وتخلّص منها بعد حروب طاحنة لا يكاد يتغلب حتى يصيبه الاعياء الجزئي أو الكلي وبعدها يجهز نفسه بالترميم والتقـوية ، أو يتغلب هـذا العدو المهـاجم ، ويقضي على هذا الجسم بأكمله . ولخلايا البدن افـراداً وجماعـات دفاع وهجـوم عظيمـان ، مختلفة الاطـوار والأسلحة ، تـرى في شرحـه عجائب وغـرائب من الكـر والفـر ، والمـواد والأدوات . ولـولا هذه الحيـطة والدفـاع والهجوم لقضت هـذه الطفيليـات القضـاء المبرم على نسل البشر ومحته من الوجود . ولو علم البشر درجة بذل العون من كل خلية للأخرىٰ ودأبها ورعايتها للقيام بوظائفها وعدم دخالتها في وظائف الأُخـرىٰ إلاّ بالحدود والـروابط المحددة لهـا ، تلك التي من درسها ووقف على بعض أسـرارها التي بلغها البشر للآن لهاله عظمة هذا النظام ولوجـده خير درس يتخـذه من سيرتـه وحيـاته للمعـاونة والـرابطة مـع افراد البشـر الآخرين ، ليكـون منهم أقوى الـروابط لتأسيس حكومة عالميـة مثلى ويعيش على نفس شاكلة حيـاة الخلايـا البدنيـة ودأب كل على تخصصه وعدم مداخلته في وظائف الآخـرين إلاّ بغية المسـاعدة والـرابطة بين أجهزة البدن الواحد ، وقد مرّ وسنـذكر كثيـر منها للحيـاة السعيدة القـائمة على الحب والسعي المتبادل لا التعدي والتجاوز على حقوق غيـره وانتهاكـه الذي منشأ ضعفه وشقائه .

الثابتة القائمة المهيمنة ، والرضا بحكم قائم ، والقناعة بعدالة شاملة والاعتراف بعلمها الكامل وجهلنا بمكنوناتها إلاّ النزر الذي وهبته لنا .

ولا أقصد بحديثي هذا أو أُريد أن أقوم بموعظة دينية أو نبالة أخلاقية أو شريعة قديمة أو حديثة . كلاّ . بل أتحدث عن أُمور قائمة واقعية . وبإمكاننا اتخاذ نموذج من هذه الحكومة القائمة في أشرف وأكمل المخلوقات الحية ألا وهو الإنسان كما مر ، والعبرة بإدارته الفذة وحكومته الجسمية المتقنة كما هو في جميع الكائنات الحية والقوى الطبيعية . فالبدن الإنساني كحكومة عالمية قائمة بذاته ، أفرادها الحجيرات وجماعاتها في الأنسجة والعضلات وأعضاء البدن ، ومنظماتها ذات تخصص كل في فنه ، لها مميزاتها وخواصها وأعمالها ومراكزها الثابتة . كل منها تقوم بخدمة المجموع والمجموع لخدمة الافراد ، تشدها رابطة مشتركة وصلة وثيقة وسير فطري طبيعي بكل ما يدور في عالمها الجسمي ، ذات قوى بدنية ومعنوية يشد بعضها بعضاً لا ينقصها في حياتها شيء . فهي كاملة بديعة الاتقان بمنظماتها وصلاتها وأعمالها ودفاعها وهجومها وتدابيرها الوقائية وسعيها الدائب في إدامة الحياة الفردية والحياة الجماعية .

الدورة الدموية :

فالدورة الدموية مثلاً ترى فيها أكمل طرق المواصلات وأبدعها ، منها لنقل المؤن الغذائية لكل فرد من الحجيرات مهما بلغ بعداً وقرباً ، وإعطائه الغذاء اللازم له وحاجته الضرورية في النوع والكمية دون انقطاع . فحجيرات الدماغ وعضلة القلب والكبد والاحشاء الأُخرىٰ والعضلات في الرأس والجسم والأطراف من أقصاه إلى أقصاه لكل حجيرة مميزاتها الخاصة بها . عمل يختلف تخصصاً وأهمية ودقة بالنسبة لأهمية عمل تلك العضلة والجهاز . ولكل غذاء يختلف مكاناً أي في أي منطقة من مناطق الجسم ، ويختلف زماناً . فالعامل يحتاج لتغذية أجهزة العمل أكثر والمطالع والمفكر لأجهزة الفكر . والمعدة ساعة الطعام تحتاج

أنسجتها لغذاء أوفر . والعضو العليل يقدم له الغذاء المناسب له فإذا حصل عارض يمنع وصول الغذاء اهتمت به المراكز الحساسة واشتركت جميع الأعضاء لسد هذا النقص وقدمت له من مخصصاتها الاحتياطية العامة ، وربما بلغت بها الحالة الى تزويدها بقسم كبير أو صغير في حياتها الضرورية لتعيد لها حياتها العادية ولتواسيها في أتعابها وجهودها ، لأن وجودها ضروري، الواحدة للأخرىٰ ، وهي جميعاً تتساوى بما يرد لها من الغذاء بكثيره وقليله دون تبعيض أو تفضيل ، وإن اختلفت بعضها في نوع من الغذاء بالنسبة لمكانتها وحاجتها الضرورية له، وعلى قدر أهميتها للعمل والوظيفة دون أن تدخر لنفسها ذخيرة تظن بها على جارتها أو شريكتها في الحياة . كلاّ . ليس في هذه الحكومة أفراد يكنزون المال ويظنون به على أقرانهم إذ لا مركز للخزن إلاّ مراكز عامة لصالح المجموع . ولا يختص أي عضو أو حجيرة بالأهمية إلاّ على قدر احتياجها الضروري دون أن تكون لها ميزة غير ميزة عملها واختصاصها ومركزها ، فقد تقوم جميع الحجيرات والأنسجة والأعضاء لخدمة إصلاح نقطة قصوى تقع تحت أضفر أو عضلة القلب أو في المخيخ أو الجلد ، دون حساب سيد ومسود وأمير ومؤتمر ، تلك في موارد التغذية لا ترى فيها معدماً لا يكاد يسد رمقه ومتخوماً لشدة نهمه ، فقد الأول قوته وكنز الثاني ذخائر الحياة[1] وإذن عاد على الاثنين الوبال وفقد الاثنين السلامة .

الحس :

إن مراكز الحس مراكز التقدير في البدن تصدر أوامرها بالعدالة وبالمساواة لسلامة الاثنين ولسلامة الطرفين[2] ، انظر إلى هذه المساواة في

---

(١) الا في حالة مرض وانسداد العروق وعندها يهتم البدن جميعاً لاصلاح الأمر والا عاد الضرر على الجميع .

(٢) لان الاعتدال في الجسم الانساني ضروري فيجب أن يؤخذ من الطعام على قدر الحاجة بدرجة لا يضعف البدن فيكون عرضة للانهيار وعرضه للامراض ، ولا يزيد =

التغذية والتعاضد في سير الحياة من قبل جميع حجيرات وأنسجة البدن ، المنقادة لمراكز الحس وسيطرة أجهزة الدفاع تحت حكم الضرورة والحاجة ، تكون هكذا في حالة الدفاع لمهاجمة عدو خارجي أو داخلي مادي أو معنوي من جهة ، ومشتركة في حس السرور الواقع على عضلة خاصة أو عامة ومثلها حس الألم . ترى البدن كله يشترك للقضاء على عمل العدو المهاجم في العضو وفي جهة أخرىٰ يبعث نفيراً عاماً على قدر الخطر المداهم . وعندها تقوم الأجهزة الخاصة بسرعة لتكوين العدة والجيش اللازم المدافع وإرساله للعضو الخاص . وتقوم هذه المعركة في المنطقة الخاصة وتشترك في آلامه وخدماته جميع خلايا البدن وتتحمل كلها ما يصيب العضو من نقص مادي ومعنوي . غير أن العضو ليجهز بكمية أكبر من الغذاء لترميمه وبسلاح أمضىٰ وجيش أكثر لدفاعه وهجومه في كفاحه ، تقوم كل حجيرة ونسج وعضو كل بما يلزم لمد ذلك وتعضيده .

إن القوى المسيرة المسيطرة ليست حجيرة واحدة وإنما مراكز تضم آلاف الحجيرات المتعاضدة القائمة على إسناد الواحدة للأخرىٰ والنهج الصحيح لتكوين فكرة ونظر يؤدي إلى نتيجة عملية صالحة لخدمة المجموع . فقدت في عملها المشترك كل صفات الغرور والأنانية والجشع وعاضدت بحكم الضرورة الأخرىٰ دائبة في جدها .

هذه الصفات خلقت منها حكومة صالحة تسير على قدر ما تخلص فيه المجموعات كل بحد ذاته ، فإذا أفرط عضو في الخير والشر كان القصاص خاصاً بها أولاً ، ثم شمل الكل الأقرب فالأقرب .

فافراط المعدة بالأكل والشرب أو أي شيء يضر بها تتضرر به هي

= على أخذ حاجته فيتعرض لامراض أخرى مثل التخمة ، فالنحول والضعف الشديد للبدن مرض . والسمنة المفرطة مضرة أيضاً ، وكلاهما يعتبران خطراً على الجسم ومرضاً يجب علاجه حتى يصل درجة الاعتدال وهكذا جسم المجتمع البشري .

ذاتها ، وبعده ينتقل إلى بقية جهاز الهضم ثم الأعضاء المشتركة ثم لكل البدن[1] . وهكذا في عضو التناسل ، وقس على ذلك في بقية الأعضاء .

لقد بدأت بالدورة الدموية لأنها أهم الوسائل لتكوين وإدامة الحياة ووسائل الدفاع والهجوم والوقاية والعلاج وأدنىٰ تقاعس فيها بصورة عامة وخاصة في عضو أو بعض العضو أو أكثر أو أقل ، فإن معنىٰ ذلك إعلان الخطر على هذه الحكومة العالمية ، ويختلف ويتوقف عظم الخطر على أهمية الناحية المتوقفة ، وأعظمها ما يحصل على العضلة القلبية أو إحدىٰ منافذها الرئيسية تلك التي تؤدي حالاً لوقف الحياة والقضاء على مجموع هذه الحكومة من أقصاها إلى أقصاها ، ولا شك أن لهذه عللاً ومسببات ومؤهلات منها مكروبية ومنها غير مكروبية ، ومهما كانت فلكل منها طرق وقاية وعلاج ، ولا شك وأن الوقاية خير من العلاج ، ترى كيف أن هذه الحكومة القائمة تتدهور لزلة واحدة وعدم مبالاة ومراقبة ، إلى الدمار والمحو من عالم الوجود إذا ساءت الأجهزة وتخطت حدودها .

ويكفي أن نقول كم للدورة الدموية والجهاز هذا من الخطورة ، بحيث أن أدنىٰ اغماض أو أقل إهمال يؤدي في لحظة إلى انقطاع تيار الحياة . هذا ما أُريد تطبيقه ، والاستفادة منه على الحكومة العالمية ، وأن أعرف منه مركز القلب والمراكز الحساسة فيه ، ومعرفة الأهم فالأهم في هذه المراكز ، ورابطة هذه مع بقية الأجهزة ، ومدىٰ تأثير الأجهزة الأُخرىٰ على هذا الجهاز ، فعلينا أن نعرف ماذا يلزم عمله لتثبيت وإدامة هذا التوزيع العادل في البدن وما هي المسببات لعرقلة سيرها كلاً وجزءًا ، ومدىٰ تأثير ذلك في الحياة؟ ما هي طرق الوقاية؟ وما هي طرق العلاج؟

---

(١) هذا الإضرار كما قلنا ينتقل بالتدريج الى الاقرب فالاقرب بالنسبة للمعدة وقد يمكن أن نعرف من هو أكثر تماساً للمعدة من سرعة تأثره في هذا العارض . أهو الاثنى عشر فالامعاء الأخرى ؟ أهو الكبد ؟ أم الكلية ؟ أم غيرهما . وقد تختلف باختلاف الأفراد وبالنسبة لحساسية العضو المجاور أو العضو المشترك .

ثم الانتقـال منها إلى الحكـومة العـالميـة الـواقعيـة . وبعـد أن نعـرف مـدىٰ تأثيرها على الأنسجة الأُخرىٰ وتأثير الأنسجة الأُخـرىٰ على هذه الـدورة ، إذ ربما كان هذا الجهاز صالحاً لـدرجة وكـان العيب في الأعصاب (سيـان منها مـا كان للحس أو الحـركة) أو عـاد للغدد الصمـاء أو غير ذلـك، أو لعوامـل خـارجية مـادية أو روحيـة. ولا شك أن لكـل منها مشـابهـات في الحكـومـة العالمية الواقعية .

فصـــل
المقــارنـــة

المقـارنة بين الحجيـرة الواحـدة بصفتهـا وحـدة في الجسم الإنسـاني وبين الإنسـان بصفته وحـدة في جسم العالم الإنسـاني ؛ هذا من جهـة ومن جهة ثانيـة ، المقارنـة بين الإنسان بصفتـه مجموعـة يضم آلاف الملايين من الحجيرات الحية وعالماً قائماً يضم أدق الأجهزة والمنظمـات الحية المنـظمة الدائبة على العمل ومقارنتـه بالنسبـة للعالم الإنسـاني بما فيـه من ملل ونحل وما تضمه من منظمات وأجهزة وغير ذلك لإدامة الحياة .

هـل أن الصفات والمـزايا المـوجودة في حجيـرة واحـدة بـالنسبـة إلى مجموع الجسم الإنساني تشابه الصفات والمزايـا الموجـودة في إنسان واحـد بالنسبة إلى مجموع العالم البشري؟ .

هـــل هنـاك فـــوارق؟ هـل يمكن أن نقيس حيـــاة الاثنين ونـطبق على العـالم البشري مـا نجده في الأنـظمة القـائمة الـواقعية بـالتجربـة والاختبـار تـطبيقـه بحـذافيـره على العـالم البشـري أو هـو بحـاجــة إلى بعض التغييـر والتبديل؟ وهل بالإمكان وضع قاعدة عـامة للمقـايسة والتـطبيق بحيث يصبح لنـا هـذا منبعـاً طبيعيـاً للسلوك الاجتمـاعي والقـانـوني والأخـلاقي والصحي والاقتصادي والعمراني وغير ذلك في الحياة؟ .

وعندها نشكل الحكومة العالمية للبشر من أقصاه إلى أقصاه ، مستمدين من منـابع الجسم الإنسـاني في تشكيـلاتـه الـطبيعيـة الإداريـة والاقتصـاديـة

والوقائية والصحية وأُصول المواصلات وما نشاهده من مراكز التخصص من جهة ، والروابط المشتركة من جهة أُخرىٰ وأُصول التعاون القائم وأُصول المحافظة والوقاية والهجوم والدفاع ، وما شاكلها ، وما تضمه من مخازن للذخيرة المادية والمعنوية ، وما تضمه من أجهزة للتجربة والاختبار والخلط والتجزئة والتحليل. والتحليل والتركيب والفحص والمعالجة ، وما تحتاطه وتدخره للمستقبل وتحفظه في مكنونات الحفظ لساعة العمل ، وما يربط ذكرياتها في الخواطر والتداعي المربوطة بحلقات متصلة الواحدة بالآخرىٰ ، وكل ما يحويه الجسم الإنساني من الأسرار والأعاجيب ، ما اكتشفه البشر وما لم يكتشفه والجد ، لكشف ما يمكن من مجهولاته للاستفادة منه لفرده ومجموعه .

ومن جهة أُخرىٰ تطبيق ما اكتشف في الطبيعة في العالم الطبيعي والمجموع البشري من الأسرار ، لتطبيقه ومقارنته مع الجسم الواحد الإنساني ، آخذين من الفرد للمجموع ومن المجموع للفرد .

أولاً ، المقارنة بين الحجيرة ومكانها في الجسم الإنساني مع الإنسان الواحد ومكانه من المجتمع البشري . في كل أمر يحتاج فيه إلى التطبيق للإستفادة في الحياة العملية . فمثلاً أُصول إدامة الحياة في الاثنين ، وطريقة التكاثر ، وأُصول المعاونة بين كل منها وإقرانه وفصيلته ، ودرجة تأثير وجود كل واحد وعلاقته بالنسبة لآحاد الآخر ، وتأثير ومفعول درجة هذه المعاضدة والتعاون بالنسبة لكل واحد إلى مجتمعه الذي هو فيه ، وما سيحدث عن تقاعس أو قصور الوحدات في أداء خدماتها بالشكل الأكمل ، وأمثال تلك التي سنتعرض لها على أثر عبورنا وسيرنا في التحدث .

فالحجيرة في الجسم الإنساني تختلف أهميتها بالنسبة للعضو الذي تخدم فيه ، فحجيرات المخ والمخيخ وحجيرات عضلات القلب وحجيرات الكبد والكلية تقابلها حجيرات أقل أهمية ، تلك التي تقع في

أعضاء الحركة والأطراف ، وهكذا حجيرات أعضاء العين والسمع والشم والذوق أعظم أهمية بالنسبة لمكانها في حجيرات البشرة والأنسجة الواقعة في الجانب الوحشي في البدن الإنساني . ورب مجموعة من حجيرات المخ أو المخيخ أو عضلة القلب والتنفس تبلغ في الأهمية بمكان يتوقف عليه إدامة الحياة ، في حين لا يكون ذلك في الأطراف والزوائد ، ومثل هذه نجدها في أفراد البشر بالنسبة لمكانتهم في المجتمع . وقد أحاطت الطبيعة كل عضو وما يحتويه من الحجيرات المهمة على قدر أهميتها بمناعة وحصون واقية لمكانتها ومركزها المهم في المجتمع القائمة فيه ؛ لذا ترى كيف صانت الطبيعة المخ بطبقات الشحوم والأغشية والعظام ، ومثله المخيخ ، ويليه القلب والرئتان وكثير من الغدد الصماء ، حتىٰ لنجد ونعرف وبإمكاننا أن نقدر أهمية كل عضو وما يحويه من حجيرات بدرجة الاهتمام والحفاوة والصيانة والوقاية التي أحاطت به الطبيعة هذا القسم ، وتركت له الفرص الكاملة للقيام بأعماله بعيداً عن المخاطر والمزعجات .

وهكذا ترى كل نسج وما يحويه من آحاد الحجيرات يقع في القسم الوحشي الخارجي للبدن أقل أهمية من التي سبقتها . أليست في تلك عبرة وعظة ودرس بليغ وضرورة رعاية ذلك في المجتمع الإنساني؟ ثم تخصص كل حجيرة من العضو وكل عضو ونسج ومكانة وأهميته وتخصصه لما يقوم به من الأعمال بالنسبة له ولعضوه من جهة ، والرابطة المشتركة بينه وبين بقية الأعضاء الأُخرىٰ ودرجة معونة ومساعدة الواحدة للأُخرىٰ ، وكيف أن أي اختلال بسيط أو كبير كيف تهتم به المراكز الحساسة بدرجة فائقة بحيث تبعث نفيراً عاماً وضجة تعم كل الجسم بما فيه من أقصاه إلى أقصاه لتلافي هذا النقص مكبدة كل منها على قدرها في هذه المعونة من جهة والعناء أو المسرة من جهة أُخرىٰ .

هذا ما تراه في الحجيرات في البدن الإنساني ألا تجد له محلاً للتطبيق في المجتمع البشري؟ فأفراد المجتمع البشري تنقسم من الأهمية إلى مجموعات كبيرة وصغيرة عالمة وجاهلة ، وفيه مختلف الطبقات والزمر

والتخصص ، لكلٍّ مقامه ودرجته في المجتمع الإنساني ، ولكلٍّ مكانه ، كما وجدنا في الحجيرات وكما أن حجيرات أنسجة الدفاع لا يمكن تعويضها بحجيرات أنسجة عضلة الكبد وهذه مع أنسجة المثانة وتلك بأنسجة الجهاز العصبي ، لا يمكن ذلك في المجتمع البشري، فإن تعويض قسم في عضو على أثر صدمة فلا بد أن يسد هذه الخلة بأنسجة مشابهة ، وبغير ذلك يرفضه العضو وربما عاد عليه بالفساد ، وربما كان الأصلح بقاءه وفيه بعض النقص ، وكان خيراً له على أن نعيضه بما يعود عليه وعلى بقية العضو بالفلاح ، فما للرأس يسد به الرأس وما للأطراف يسد ويجبر به الأطراف ، وإذا حصل غير ذلك فمعناه ارتباك خاص وعام وربما تدهور وخراب قد لا يمكن بعد حين ترميمه .

وهذه عينها في المجتمع البشري ؛ فإنه يكفي وضع نسج في غير محله لإيجاد علّة تختلف إلى درجة هذا الاختلاف من بسيط إلى عظيم قد يكون فاحشاً على المجتمع وتدميره . ولقد دلَّت التجارب الطبية والعمليات الجراحية على صدق هذا القول كما دلَّت الأوضاع الاجتماعية والعلمية على صحة ذلك ، الأول في العالم الجسمي والثاني في العالم الاجتماعي ، وما أكثر الشواهد الطبية والجراحية في إصلاح وتطبيب الجسم المصاب وما أكثر الشواهد التاريخية الماضية والقائمة في الأوضاع الاجتماعية . حتىٰ لتجد تدهوراً وانهياراً ، بل وقد يموت جسم لوضع فاسد في أحد أعضائه ، ومثله في الناحية الاجتماعية تدهور مجتمع وانهياره على أثر وضع عضو في غير محله ، وهذا الفساد والتدهور يعود لدرجة أهمية مركز هذا العضو في الجسمين سيان الجسم الإنساني أو المجتمع البشري .

أليست هذه مقارنة صحيحة ومستدلة ؟ ألسنا نعترف بهذا؟ وحيث أن العمل الإصلاحي في الجسم الإنساني إذا ترك للطبيعة عنت بإصلاحه بشتىٰ الطرق ، فما يجب دراستها واكتساب درس طبيعي للمجتمع

الإنسـاني درساً قـوياً متيناً عملياً لا يمكننـا إلّا الاعتـراف بسـداده وضـرورة تطبيقه .

نموذج في الكفاح الفطري في الجسم الإنساني :

إذا مـا ولج جسم غـريب داخل الجسم ، أكـان هـذا الجسم مكـروبـاً حياً نامياً أو سماً كيمـاويـاً معدنيـاً ، أو من مادة حيـة ، ذائباً أو قـابلاً للذوبـان أو لا يمكن إذابته ، بالإمكان اقصاؤه أو لا ؟ ، تلك من جهة .

أو أُصيب البدن بصدمـة أو فقد حصن من حصـونه الـطبيعية المقـاومة للعوارض الخارجيـة ، كما لـو احترقت بشـرة الجلد بسبب ماء حـار أو نار ، فمـاذا تعمل الـطبيعة الجسميـة الفطريـة في هذه المـوارد؟ وماذا تعمـل تجاه الصـدمات الـروحية والعقليـة الخارجيـة؟ كيف تطبق المـوارد أعلاه وتستفيـد منهـا في حياة الاجتمـاع البشري ولأي حـد يكون ذلـك مجديـاً؟ إن هذا مـا يجب تفصيله في بحثي الآتي . فالمعارك الـطاحنة المكـروبية مـع الكريـات البيضـاء ، والتغير العـام في البدن لـلإصابـة بالخـطر الداهم وتجهيـز البـدن تجاه العدو المداهم وما يستخدمه ، من سرعة الحركة وصعـود الحرارة وفتـح المسـامات واحتقـان المنطقـة وايجاد مـواد غـريبـة كيمـاويـة في البـدن ، أو إرسـال مواد صـديديـة ومائيـة للبشرة على شكـل أكياس في الحـرق لتكوين حواجز بين خـارج البدن وداخله وقـاية من دخـول المكروب ، أو عمـل مواد لـزجة لـطرد الأجسام الغـريبة الـداخلة في البدن وعمـل فتحـة لهـا للخـروج عنـدما تـدخل شـوكة أو جسم غيـر مكـروبي ، أو إذا كـان بعيـداً من سـطح الجسم ولا يمكن إخراجـه إحـاطتـه بـأليـاف قـويـة كـيلا يمس الأنسجـة الـرئيسية وحفـظه بعيـداً عن الخـطر ، وأمثـال هـذه مـا تحصـل في الجسم الإنسـاني يقابلهـا في المجتمع البشـري للدفـاع والهجـوم . بيـد أن العمـل التطبيقي في البدن بلغ أقصاه في الاتقان مما يلزم الاستفادة منـه بعد معـرفته بدقة للمجتمع البشري ، ومنها حصول الرعاف أحياناً على أثـر صعود درجـة الضغط الدموي وقاية من انفجـار الدم في الأعضـاء الرئيسيـة ، كما يحصـل

في الدماغ فيسبب السكتة ، أو في العين فيسبب العمى ، ومنها سرعة الحركة والايعازات المستمرة وعمل الأعصاب الحسية والحركية وقيام المختبرات البدنية المتنوعة لعمل شتىٰ الأُمور الإصلاحية وتحضير ما يلزم للدفاع والهجوم والترميم ومما لا يسع لشرحه كتاب .

درجة حساسية المراكز :

القضاء على القلب أو المخيخ أو المخ أو ما شابه في الإنسان معناه القضاء على البدن الإنساني كله . فما هي المراكز المشابهة للقلب والمخيخ في الجسم البشري؟ هل إن القضاء على المراكز العلمية أو الصحية أو الفنية هي التي تقضي على المجتمع البشري؟ أم القضاء على الرئيس الأعلى للدولة؟ أو الهيئة المشرعة أو القضائية أو المجرية أم جميعها؟

ليس هناك قضاء بالشكل الأكمل في الجسم البشري كما هو في البدن الإنساني ، إلاَّ إذا اعتبرنا القوى المعنوية والاجتماعية في الجسم البشري التي يقوم بها العلماء بما لديهم من الحكمة والخبرة والعلوم الاجتماعية والإدارية والعلوم المختلفة وصحة الجسم والعقل وما جاؤوا به من بنات أفكارهم من مخترعات ومصانع وغيره .

وإن القضاء على أي طبقة معناه القضاء على طبقة مشابهة في الجسم الإنساني وإن القضاء على مراكز الحس في الجسم الإنساني يقابله القضاء على المراكز الحسية المشابهة لها في الجسم البشري ، والقضاء على القلب في الجسم الإنساني يناسبه القضاء على مراكز المواصلات والمؤن ومنابع الدفاع والمقاومة والتغذية والتهوية والمياه وما شاكل ، وفي كل هذا نجد أن الجسم البشري لا يقضي عليه تماماً مثل الجسم الإنساني إلاَّ بالقضاء على تمام آحاده ، إلاَّ إذا اعتبرنا الموت في كليهما إنما هو موت معنوي وليس موتاً مادياً فحسب .

نتساءل هل بالإمكان الاستفادة من أنسجة غير مشابهة في غير

محلها؟ وهذا عدم التشابه يختلف بعداً ، فقد يتقارب وقد يتباعد ، فأنسجة المخ بالنسبة لأنسجة القلب وهذه بالنسبة لعضلات الحركة وأنسجة العضلات لأنسجة الأعصاب وهذه بالنسبة لأنسجة الغدد الصماء ، فإن ترميم قسم لعضلة مشابهة لها ممكن ، ولكن هل يمكننا وضع قسم في عضلة القلب لترميم عضلة الساعد أو الشفة ؟ أو وضع قسم من عضلة الكلية لترميم قسم في الكبد؟ وأما إذا ابتعدنا أكثر وقلنا : هل يمكننا الاستفادة من عضلات الجسم مهما بلغت لترميم قسم في المخ أو المخيخ ؟ إن هناك ما لا يمكن القول أبداً في الحال الحاضر من القبول على مبادلة هذه الأعضاء ، وكما قلنا فإن القصد في إصلاح العضو قد يؤدي إلى إفساده ودماره ومثل هذه تماماً هي في المجتمعات البشرية المطلوب إصلاحها . فجعل الشيء في غير موضعه معناه الإفساد ، وحتىٰ أحياناً بحكم الاضطرار وضع عضلة شيخ مشابهة في عملية جراحية لترميم عضلة شاب ، وإن تشابهتا من حيث النوع لا يخلو من عيوب ، وإن مراعاة ذلك وتطبيقه في المقارنة بين الفرد البشري والمجموع البشري له آثاره القيمة وأثره البالغ ، وهو درس بليغ في شتىٰ نواحي الحياة يمكن الاستفادة منه لدرجات قصوى وبعيدة ، وربما أدىٰ إلى ابتكارات مهمة وعميقة ، كدراسة ما ينتج في تبديل قلب شيخ بقلب شاب أو مخ هذا بمخ ذاك لو أمكن ذلك ، أو العكس من تبديل قلب شاب بقلب شيخ أو يد هذا بيد ذلك .

فصـــل
الفوارق بين المجموعة البشرية وبين المجموعة البدنية

لم يبلغ العالم البشري بعـد حد الكمـال ولا بعض الكمال الـذي بلغه الجسم الإنساني . ويكفينا أن نعـرف أن البدن فيـه أكمل المؤهـلات ، مثال ذلك تلك التي تحمل الأخبار حالاً صحيحة صادقة وأسرع من لمح البصر إلى مراكز الحس الخاصة ، بصورة إرادية وغير إرادية ، وتعكس ما يلزم للأمر من جواب بنفس السرعة ، غير مفرقة كان هذا في أي جهة في جهات البدن . فهو بحده الأكمل من نقل المخابرات والعناية الفرديـة والاجتماعيـة الإرادية وغيـر الإرادية الحالية . وأمثال تلك في إعـداد أمور احتيـاطية علميـة وفنية وجمعـه واستعداده لجميع المختبرات والأجهزة للتحليل والتركيب وأدق ما هو بحـاجة إليه اليوم مجتمعنا الحالي الذي فيه حالياً زوايا لم يدخلها ولا ذرة في التمدن النـاقص للعالم المتمـدن فهو بمعـزل عجيب . هـذا إلى أن جميـع الأخبـار والتقارير والإعلانات في مراكز البدن لا يشوبها انحراف أو كـذب أو تلفيق ، تلك التي يقوم بها البشر لمصالح سياسيـة وغير سيـاسية ممـا يجر نفـع لجهة وأضرار لجهات أخرى . بل هي تعلن الواقع الذي تحس به وتجريه والنتيجة التي تدركها .

وعندما تتوقف الحجيرة عن العمل وتصبح غيـر مفيدة للبـدن فإن ذلـك معناه أنها في طريق الزوال طبيعياً ، ومعنى ذلك أن الحجيرة متى انتهى نشاطها وعملها داخل البدن خرجت منه نهائياً وأعطت مكانها لمن تقوم بالعمل ، وهذا نجده في بعض الحشرات ، كما في « زنبور » العسل ، فإن الذكر متى انتهى

عمله وانتهى يوم زفاف الملكة وانتهى تلقيحها من أحد الذكور ماتت الذكران جوعاً إذ العمال المكلفون بإطعامها اهملوها ، كما وان الذكـران نفسها تفقـد صفـة اطعام نفسهـا بنفسها ، لهـذا يكون مـوتهـا حتميـاً . انـظر إلى حكمـة الطبيعة ، ومثل هذا تجده في البشر طبيعياً وغريزياً في بعض الموارد .

فـالكسول مقضي عليـه ومنفور من الجـامعة ولا يحسب لـه حسـاب ، وعكسه الكدود مهما اختلف نوعه وهذا ما يلزم رعايته .

إذا أردنـا إصلاح عضـو ما في البـدن فإنمـا نـريـد أن نعيـد الاستقـرار والسعـادة إلى جميـع البـدن المضـطرب لمـا يجـده في عضده ويشـاركـه في آلامه ، وهكذا نظرتنا للجماعة البشرية المشتركة بالحس والشعور .

إن البـدن كلّه بمـا فيـه على أهبـة واستعـداد وعلم بـأدنىٰ ألم وسـرور يصيب أي جزء منه حتىٰ القسم المعنـوي ، وعندئـذٍ يقوم بـإصلاحـه . وهذا الشعور حقيقة واقعية يلزم تطبيقها في الجامعة البشرية .

غيـر أن الجامعـة البشريـة لم تتوصـل بعد إلى ذلـك ، فهنـاك ويـلات وآلام في جهـة لا يعرف حقيقتهـا الجميع ، وهنـاك عبث وإسراف لا يعـرف حقيقتهـا الباقـون ، وهنـاك أوهـام وخـرافـات في جهـة ، وكـذب وريـاء في جهـة ، وهناك حـالات تمويـه وافتراء وتعـدي وتجـاوز منهـا صـريحـة ومنهـا مصبوغة بصبغة معكوسة ، بين الافراد وبين الجماعات ، بين الشعـوب وبين الـدول وبين الأديان . هنـاك محروميـات وجـوع فـظيـع وقسـاوة ووحشيـة ، وهنـاك ملذات وكنوز مـطمورة بيـد البشـر بـاسم الإنسـانيـة ، وهنـاك سمـوم عقائدية وآراء مزيفة ، ظاهرها مليح ، وباطنها محشو بالويل والثبور .

إن البشـر بعـد في جـامعتهم لم يتـوصلوا إلى درجـة صغيـرة من الكمـال المخلوق لا في إنسـان بل وحتىٰ في أدنىٰ الحيـوانـات وهم بحـاجـة للبحث المستمر والجاد للسلوك الـطبيعي ، والاستفادة بمكنـوناتـه ومدخـراته وكنـوزه الثمينة التي يحملها كـل إنسان لتـطبيقها تـطبيقاً حسنـاً . ومنها نشـر الحقائق واتباع الحقائق والجد للوصول إلى الحقيقـة ، حتىٰ إذا شعر المجتمـع بالألم

جد إلى إصلاحه ووضع الدواء الطبيعي له ، وأن يعلم أن سروره الحقيقي وشقاءه الواقعي إنما يتوقف على سعادة وشقاء مجموعة كما في البدن الإنساني ، وأن يكون كالبدن الانساني ليس فيه كذب ورياء وخداع بل كلها حقيقة وكلها سرعة فائقة أسرع من لمح البصر .

هذا فيما يخص العلم بوقوع الحادث وما يخص علاجه . فأنت ان قربت ادنى حرارة أو آله أو واخزة الى أدنى حيوان انتقل حالاً وحس بالشيء ووصلت الانباء الى مراكز الحس حقيقة صادقة عن الحرارة أو الوخز أو البرودة ، وعاد الانعكاس (رد الفعل) حالاً لضم الطرف ثم الشروع حالاً لترميم ما خرب ، وهكذا يجب في المجتمع . هذه مقارنة تعرفنا حكمة الطبيعة واتقانها وجهلنا ، وأيُّ جهل اعظم أن نطلب السعادة في طريق الشقاء .

ومن الفوارق النظافة والتطهر واخراج الفضلات بين الحجيرات والانسجة بحدها الاكمل الذي لم يتوصل اليه المجتمع البشري . فالحجيرات تأخذ مادة الغذاء والحياة وتلفظ ما تخلف من فضلات ومحروقات الاكسجين من ثاني اكسيد الكربون في المجاري العائدة ، لتنقلها هذه الى الاوعية الخاصة والقنوات وترسلها الى الاجهزة الخاصة ، الى الرئتين لتصفيتها من غاز الكربون واشباعها بالاكسجين ، والى الكليتين للتطهير . وهكذا تمر بها على الاجهزة المطهرة والمنقية والمحلله والمضيفة والمجهزة حسب الطلب الفعلي في أثناء المرور ، وحسب ما توحيه المراكز الخاصة في حاجته الى نوع الغذاء الواصل من الامعاء والافرازات الضرورية في الاجهزة والغدد الصماء وغير الصماء .

ان هذه السرعة الفائقة والدقة النادرة في التموين والتجريد على مدى لحظات الحياة دون فترة قصيرة أو طويلة أو كلل أو ملل ، وهذا الوعي الذاتي في كل جهاز وما يحويه من الاف المختبرات والاجهزة في شتى نواحي الجسم ، لا عظم درس يمكن أن يستفيد منه المجتمع الانساني

للتطبيق في الحياة الجماعية . واذا اودعت الطبيعة في الحيوانات الغريزة المحدودة منذ بدء الخليقة فقد اعطت للانسان العقل ، تلك الموهبة العظمى التي يستطيع به أن يسمو ويتوصل الى نتائج غير محدوده لسعادته ، وان يجمع كل ما خلقه الله في المجموعة من الحيوانات والنباتات ، ويكون تقدمه مستمراً غير محدود في شتى مجالات الحياة المادية والمعنوية .

فصـــل
الفروق بين الحجيرة والإنسان

أعني المقـارنـة بين الحجيـرة في الجسم الإنسـاني والإنسـان في الجامعة البشرية .

كيف نقسم الجامعة البشرية ؟ هـل على الطبقـات العلمية ؟ والعلميـة والعملية ؟ أو حسب احتياجات الجامعة ؟ أو بالأحـرىٰ أن نرىٰ مؤهـلات كل فرد ونضعه في طبقته الخاصة نفسها لا في غير موقعها؟

ومن الفروق الموجـودة بين الحجيرة والإنسان وجود الغرائز المتضاربة في الإنسـان من جهـة ، ووجـود قـوة العقـل في جهـة وإمكـان تـدرجـه بصـورة مستمرة إلى الطبقات المناسبة .

ويختلف الإنسـان عن الحجيرة بتنقله وعـدم ثبوتـه كالحجيـرة في مقـر واحـد في الجامعـة البشريـة ، ويختلف أيضاً بـطرق تكثيـره وإنمـائـه بـطرق أحسن، وقد يمكن اجراء ذلك فيما بعد علمياً بالنسبة للحجيرة .

وهنـاك الحب والبغض والعـواطف البشـريـة وهي غيـر مـوجـودة في الحجيـرة ، كما في الإنسـان ، وهي موجـودة في الاجتمـاع البشـري ، وقـد يقابل ذلك نوع من الإئتلاف والاختلاف بين الحجيرات المختلفة .

وتمتـاز الحجيرات فـطريـاً أنهـا تستفيـد من مخـازن البـدن المـدخـرة بالتساوي ، ويجري عليها الحكم بالتساوي ، وهي في طـرقها منقـادة بحكم

الـطبيعـة على التسـاوي ، دون أن تحسب حسـاب أعلى وأسفـل وأرقىٰ وأدنىٰ ، وقد يمكن القول بأنه قد تختلف هذه الحجيـرات فيما بينهـا بالنسبـة للمكانة والمـركـز الـذي تشغله في الجسم وأهميته بـالنسبة للجسم ، ولهـذا فهي تمتاز بالمحـافظة والأهميـة فحجـيرات المـخ أكثر من حجيـرات البشرة بـالنسبة لأهميـة عملها وأداء خـدمتها لمجمـوع البدن فحسب ، وهـذا ما لم نجده كتلك في المجموعة البشرية ، فهناك أفراد وجماعـة وشعوب وأُمم كـل يحسب نفسه متمايزاً وأرفع من غيـره ويريـد الحظوة والتمتـع بدرجـة أرقىٰ ، ويحاول استخدام الآخرين في سبيل نفسـه ، لم يدرك الحقيقـة ولا يريـد أن يـدركها . وهـو رغم تمتعه يخـزن موارد الـرزق لنفسه ويحـرم غيره ، فيعـود الـوبال على الجميـع ، فيستغل المـوارد المصنوعـة والمخازن الـطبيعية التي هي ملك الله للجميـع ، وهذا مـا يجب رعايتـه في المجتمـع البشـري ، إذا حسبنـاه مجمـوعـة واحـدة يشتـرك بـالإحسـاس والشعـور والسعـادة والشقـاء والويلات والحسرات ، كما لم تفرق في ذلك بينها الطوارىء الـطبيعية وكمـا لم تفرق بينهم القوى الطبيعية ، فهم سـواء أمامهـا ومتساوون أمـام الاستفادة من مصـدر الحيـاة في الهـواء والمـاء وأشعـة الشمس والقـوى الـطبيعيـة الأُخـرىٰ ، فيجب أن يكونـوا متساوين أيضـاً في المنابـع الخفية طي الأرض ممـا جرى منهـا أو سكن ، مثل الميـاه والغازات والبتـرول والمعادن وغيـرها فهي وإن وجـدت في منـطقـة فهي ملك الجميـع إلاّ مـا بـذل من جهـد لهـا وللمجتهد النصيب الأوفر حق جهده ، كما هـو في البدن الإنسـاني حيث ان البدن يقسم رزقه على السـوٰاء ولكنه يضـطر لأن يقدم مقـدار أكثر لكـل جهة يضـطر إلى عمل أكثـر وبذل مجهـود أوفىٰ مهما كـان ذلك المـوضوع . إننـا بحاجة إلى عدالة طبيعية شاملة مقنعـة وإلاّ كانت الـطامة عـامة والآلام عـامة ويجب أن نكون هكذا .

المتشابهات والمتناقضات وأثرها

١ ــ في الموارد المادية والمعنوية المخزونة في البدن الإنساني والمجتمع الإنساني .

٢ ــ في الموارد المادية والمعنوية الحاصلة في البدن الإنساني والمجتمع الإنساني .

فالأولىٰ المادية تلك التي مرّت في العمل الاختصاصي لكل مجموعة من حجيرات البدن في كل جهاز ولياقته الخاصة لحسن انجازه والقيام به . ومثله ما تجده في مختلف طبقات الفنانين والعلماء من طبقات واجتماعات البشر فمنهم من تمرن على الاساليب الزراعية ومنهم على الصناعة فاجادها ومنهم في الطب أو الكيمياء وهكذا ، ومنهم في السياسة ومنهم في القانون أو التربية ، ووضع أي في محل الآخر معناه أما الحد من المنفعة المطلوبة أو القضاء عليها أو التخريب والاضمحلال .

وفي المشابهات المعنوية :

هي درجة التصميم والايمان والارادة في الانسان ومثله في المجتمعات واثر ذلك في تقدم وتأخر كل منها . وكلا العاملين المادي والمعنوي المذكورين اعلاه ، سيان أكان في البدن الانساني أو المجتمع ، له طاقات خفية مخزونة فيه لا حد ولا حصر لتنميتها واثارتها في الناحية العلمية والعملية والوجدانية من طرق التلقين والافهام والدرس ، وعليها تتوقف أهم سعادته وشقائه .

أما الموارد المعكوسة ، أي المتناقضات في كل من البدن الانساني والمجتمع الانساني ، فهي لا تقل رعايتها واهميتها بالنسبة للأولى من حيث النفع والضرر لكليهما . وعلى حكمة العقل وتحكيم المنطق وقوة الارادة يتوقف الأمر فأما الى الهوة السحيقة أو الذروة العليا وشرح ذلك كما يلي :

قلنا ان الانسان يجمع في بدنه المتجانسات كالعدالة والمساواة من ناحية التوزيع والاحكام والخزن ورعاية الحاجة الى الحجيرات والانسجة ، وهو على أهبة واستعداد دائمين للدفاع والهجوم وتلبية كل متطلبات الاعضاء بصورة ارادية وغير ارادية في كلا الجهتين المادية والمعنوية بيد أن هناك أموراً معنوية تناقض الواحدة الأخرى ، حتى تجر وراءها السعادة أو الشقاء الى منطقة خاصة في البدن أو البدن كله ، وربما قضت عليه الى الأبد ، وهذه هي الغرائز البدنية . فالغريزة الجنسية ما هي الا لحفظ النوع البشري ، يأتيها الانسان بحكم الشهوة ، فيبلغ درجة يفرط فيها غالباً حتى يجر فيه الوبال على مجموعة الانسجة والحجيرات في البدن ، وحتى على نفس الجهاز التناسلي ، وربما انتهى به الى العمى أو الشلل أو الصمم أو اللكنة أو الابتلاء باحدى الامراض بسبب فقره للقوى المدافعة للبدن تجاه المكروبات ، مما يؤدي به الى الانحطاط والشقاء . ومنها غريزة حب الظهور وهي أيضاً غايتها خدمة خاصة أو عامة ، عليها يتوقف تقدم البشر في الناحية الادارية والعلمية والصناعية وغيرها ، غير انها بلغت بالافراد عند الافراط الى أضرار جسيمة زجتها للتجاوز على حقوق الآخرين .

وكثيراً ما قضت على صاحبها موتاً ، أو تركت فيه نقصاً دائماً . وهكذا الغرائز البدنية الأخرى كل واحدة ، منها في ذاتها ذات وظيفة شريفة تركتها لها الطبيعة عند الطبيعيين والله عند الموحدين ، تتوخى منها غاية وهدفاً ضرورياً بدونه يتوقف سير التقدم البشري . وفي جهة أخرى التعاضد أو التناقض بين الغرائز في البدن الواحد فغريزة حب الذات في البدن الواحد وغريزة حب الظهور تنافي الغريزة الجنسية في جهة ، وتوافقها في

جهة أخرى ، فمن ناحية الافراط بالقوى البدنية مرة والتمتع والتلذذ مرة ثانية . وحفظ النوع البشري غاية الغريزة الجنسية ، بينما غريزة حب الظهور والذات لا يهمها في سبيل التقدم والتفوق في القضاء على مجموعات من الافراد في آن واحد .

الحل المعقول والحكم الفصل والارادة القوية

العقل المسيطر على المنطق السليم والارادة هو الذي يجب أن يكون الحاكم المسيطر والمستشار للعودة الى الحكمة والاعتدال في الامور للوصول الى الهدف الذي وضعت من أجله الغرائز ، دون الافراط والتفريط في الامور . وهكذا الامر في المجتمع البشري له نفس المميزات في المتشابهات والمتناقضات . وعلى العقل البشري أن يسير الامور ويدبرها لصالحه دون ترك القوى الغريزية تعمل ما تشاء ، ومنها قدرة الفرد والاجتماع للاستفادة من الموارد الطبيعية الظاهرية والباطنية على حد سواء . هذه أهم موارد سعادة البشر وشقائهم . فالانسان بحكم خلقته وغريزته وعقله له حق الحياة والاستفادة من كل أعضائه والتمتع بها ، وما وهبته له الطبيعة هو وغيره سواء في هذه الحياة ، فله أن يتمتع ويعمل على شرط ان لا يخل ويمس بكرامة وحقوق الآخرين . وهناك موارد غير محدودة في هبات الطبيعة له التمتع بها ما شاء ، فله ان يتنفس في الهواء الطلق ، وله ان يفكر ما شاء ، وله ان يأكل ويشرب ويلبس ويستفيد من موارد الطبيعة بحد لا يخل ولا يضر نفسه أو يضر بالاخرين ، وله أن يتمتع بالمناظر الخلابة وأنغام الطيور ، ولكن لا يجوز له أن يستغل مواهب واتعاب الآخرين كرهاً دون رغبتهم ورضائهم ، أو يستفيد بكل ما هو تحت حيازتهم ذلك الذي وصلهم ببذل جهودهم وقوتهم وطاقتهم ، مما يسبب سلبه لهم ضرراً مادياً أو معنوياً ، ومما يمكن حيازته وضمه وادخاره وتتوقف

حياتهم عليه على شرط ان لا يتجاوزوا بذلك حدود الانصاف والمساواة ، بحيث يكون في ذلك ظلم وتعدٍ مادة ومعنى بالنسبة للحقوق الطبيعية المكتسبة طبيعياً للآخرين .

وفي هذا بحث طويل بالنسبة للموارد الطبيعية المختلفة الموارد الطبيعية غير المحدوده أو المحدوده بحدود مضبوطه أو تقريبية . مثل الهواء والماء والنور فوق الأرض أو الماء والنفط والمعادن والأحراش والغابات والمجاري الطبيعية والبحار والمستنقعات ونفس الأرض مما يمكن حيازته وهده ومما لا يمكن ذلك . في كل هذه سعادة وشقاء لافراد البشر كل على حده ، وجماعاتهم كلها يجب أن تسيرها العقول السليمة ليتمتع به العالم البشري ، هذه المجموعة الواحدة دون افراط وتفريط دون أن يعود الخير شراً لها . ويجب وضع مشروع معقول وعادل لكل منها مما هو حق للفرد أو الجماعة أو الجماعات ، مع الأخذ بنظر الاعتبار فيما اوجدته الطبيعة أو أحدثته ايدي البشر ، وفي هذه الأخيرة مما احدثه الشخص واستفاد منه بالبيع والشراء ، أو ورثه عن أبيه ، أو وصل في المطمورات والاثار القديمة ، ويجب ان تكون للحيازة حدود معقولة ، وللمخترعين والمكتشفين حدود لا يتجاوزونها ، بحيث تصبح وبالاً وسخطاً على الأغيار كما يجب النظر الى حقوق الآخرين عند تثبيت أية حيازة وحق ، وعدم الاصغاء الى ما تدليه الغريزة في أي شخص مما يريد به السيطرة والتحكم والخزن والاحتكار لغرض خاص . فرعاية الفرد واجبة ، ورعاية المجموع واجبة ، ورعاية العدل والقسط بين الاثنين دون الركون الى الهوى أوجب وأحرى . وفي هذا بحث يأتي انشاء الله في محله .

القانون الاساسي

والآن لنراجع التشكيلات والمراكز الهامة في البدن لنعين على ضوئها التأسيسات التي يحتاجها المجتمع الإنساني، ونستمد منه كل معلوماتنا ، ثم نرى رابطة كل بالأخرى ، وطرق الربط ، فنحذو حذوه خطوة فخطوة . وذلك هو القانون الاساسي لتأسيس مجتمع صالح يسير طبق أهداف طبيعية يستنبط حقائقها العقل والمنطق السليم مما فرضته الطبيعة وأبدعت فيه ، أو قل اتقن صنعها الله الصانع المبدع القدير الصمد غاية الكمال الوهاب الخلاق ، وضرب الكيفيات وما وضعه البشر ، مما دل على نقصه مرور الزمان ، وما زال ينقضه نفسه بنفسه في شتى القوانين والشرائع والانظمة في شتى سبل الحياة الاجتماعية الاقتصادية والادارية والاخلاقية وفي المسائل الجزائية والمدنية وغيرها مما تباينت واختلفت زماناً ومكاناً في الأمم الغابرة والحاضرة . ثم اقامت مؤسسات تمثل المراكز الرئيسية في البدن ، الأهم فالأهم ، مؤسسات تحتل مراكز الدماغ ، وأقامت حصوناً وقلاعاً منيعة لوقايته بنفس المكانة التي جهزت بها الطبيعة تلك المراكز في البدن الانساني ، وأقامت روابط على نفس الشاكلة بينها وبين مراكز الحس والحركة والمؤن ، وغيرها من الدقة والمتانة والسرعة ، وبعدها أقامت المؤسسات الأخرى لمراكز البدن الانساني من قلب واحد وكبد واحد وانبوب واحد لجهاز الهاضمة وتمثيلها في الوحدة والتثنية وغير ذلك ، ورئتين وكليتين وعينين واذنين ويدين ورجلين ، والى آخر ما هناك من اعضاء الحس والحركة والغدد الصماء وغير الصماء ، ومده بأعصاب الحس والحركة وتجهيزه بالعروق والدم وتمثيله بالتموين والذخيرة وسبل الدفاع والهجوم والاستفاده مما أوجبته وأوجدته الطبيعة وفرضته .

قانون الجزاء

لا يعـرف الجسم حين مواجهـة خطر عضـوي أو غير عضـوي ، مادي أو غيـر مـادي ، لمقـابلة ذلـك معنى الانتقـام والتشفى . بـل كـل مـا هنـاك مصالح فيها ما كان للهجوم أو الـدفاع من الـداخل أو الخـارج ، وهناك ميـزة قـد تطرأ على بـالنـا ، وهي أن هنـاك فـرقـاً بين الحجيـرات وكـريـات الـدم البيضـاء المـدافعـة والمهـاجمـة في البـدن في الجسم الانسـاني ، وبين مـا يقابلها من أفـراد البشر في المجتمـع الانساني . وان هـذا الفرق هـو الارادة والاختيـار الموجـود عند أفـراد البشر وغيـر الموجـود عنـد أفـراد الحجيـرات والكرات العضوية البيضاء داخـل البدن . وعلينـا وضع جـزاء آخر أو تشـديد أو تخفيف نـوع الجزاء أو العمـل باسم القصـاص والتحـذيـر والتخـويف في ارتكاب الجرائم بالنسبة لافراد البشر المفكر والمدبر .

ولكن من جهة ثانية نشاهد أن الكتل والجماعات البشـرية قـد تكون ، بل حتماً تكون ، منقادة في أكثر الحروب لـزج نفسها في المعـارك في القتل والفتك دون أن يكون لها اختيار وإرادة . وغالباً تكون مكرهة .

هـذا في الجمـاعـات . وأمـا في الافـراد فـالأصـل أن المـرء في المنازعات والمخاصمات يسيـر بحكم الغريـزة المجردة من العقـل والاختيار والإرادة العقلية ، وقد يمنعه العقل بادىء ذي بدء ، ثم يحـرضه عنـدما يـرى خصمـه لا يرعـوي ، فيقابله بـالمثل أو أشـد . كما تجـد في جهة ثـانيـة أن الاضـطرابات والمعـارك البدنيـة الحاصلة داخـل الجسم تتـأثـر ضعفـاً وقـوة

بالوعي والتلقين الفكري وضعف وقوة الإرادة ، وبهذه المناسبة فقد تقرّب الوضع أيضاً في الناحية الفردية والاجتماعية بالنسبة للجهات المعنوية .
ولكن من جهة أخرى لا بد وأن يحسب حساب للشعور والعقل والإرادة والاختيار عند أفراد البشر ، وعلى الخصوص أولئك الذين ربوا الجوهرة العقلية ودربوها ، وأولئك الذين وسعوا دائرة أفكارهم بالتجارب والعلوم ، ووضع جزاء وقصاص للحسنات والسيئات بقدر ما يحمله المرء من التوجيه العقلي والإرادة والاختيار العقلي . وربما كانت هذه هي نقطة الفرق الوحيد ، ولكن لا يمكن إهمالها بصورة تامة ، بل يلزم رعاية الغرائز الطبيعية المتحكمة والاستعانة بالناحية العقلية لصالح المجتمع . وفي الحقيقة نرى أن تحكم الغرائز في الاحياء تسيرها سيراً منظماً بدرجة تذهل لها أكبر العقول من أدرك كثيراً من كنهها وتمدها بما تعجز العقول من مد الافراد بالمساعدات ، وإذا أردنا نبني بناءً منطقياً فليس لنا إلاّ الاستفادة من عقولنا وتفكيرنا لمعرفة ما جهزته الطبيعة لهذا البدن وجماعته من الحجيرات والأنسجة والأنظمة والقوانين ، وتطبيق ذلك بحذافيره على المجتمع البشري ، وعندها نرى أن البشرية سارت باتجاه واحد ولم تخبط خبط عشواء ، وانها اتحدت من حيث قوانينها الثابتة وأنظمتها المتحدة . وها إني أورد مختصراً من الدفاع والهجوم داخل الجسم البشري لنرى درجة اتقانه وصنعه . لقد وجد علماء الطب أن الجسم عند مداهمة خطر في جسم عضوي أو غير عضوي يقوم بالايعاز إلى المراكز المختصة في الجسم وبالأخص إلى الجهة المفروضة لمقابلته وعندئذٍ يقوم بالأعمال التالية :

١ ــ إذا ما دخل شيء ما الجسم في أية ناحية من نواحيه سواء كان ذلك من طريق الجلد أو أنبوب الطعام أو التنفس أو الجوارح الأُخرىٰ أو الدم ، وهذا الداخل اما يمكن حلّه وإذابته مثل الأطعمة عند الأكل أو لسعات الحيوانات والحشرات أو الحقن المختلفة من طريق الجلد أو العضلة أو الدم أو الغازات المختلفة من طريق التنفس أو المواد الأُخرىٰ

الداخلة من مجرىٰ الأنف والعين وغير ذلك ، قامت بوعي طبيعي على أخذه وتحليله وتجزأته ، ثم الاستفادة مما يفيد البدن وإرساله إلى مراكزه الخاصة للاستفادة منه ونبذ الباقي سواء من مجرىٰ الغائط أو البول أو التنفس أو مراكز الترشح الأُخرىٰ ، وإذا كان من طريق الجلد مثلاً ورأت منه ضرراً على البدن حصرته أولاً ، ثم فتحت له فتحة ونبذته خارجاً ، وهي تحاول في كل مرة حصره في الناحية حتىٰ تعد العدة لمواجهته .

٢ ــ إذا خطر قيام حرب مكروبية طاحنة خاصة منطقية محدودة مثل الدمل والجمرة الخبيثة أو الحمراء وما شاكل ذلك مثل التي تصيب بعض الغدد كاللوزتين والخ ، أو عامة كما يحصل في بعض الأمراض ، كالملاريا أو دخول مكروب في مجرىٰ الدم وقيام حرب طاحنة مهاجمة ومدافعة وقتل وفناء أحد الجهتين .

٣ ــ قد يلج جسم غير عضوي الجسم ، وبعد أن يرى الجسم أن ذلك غير قابل للحل ، وأن وجوده ليس بحاجة إلى حرب ، وإنما هو لا يفيد وقد يضر لمجرد عرقلة أو شل العضو عملياً في القيام بأعماله كالعادة ، فهو كلٌ على الجسم فعليه تهيئة الوسائل للتخلص منه وتفتح له فتحة من أقرب الأمكنة الممكنة ودفعه خارج الجسم وتخلص منه ، وهذا كثيراً ما يحدث للقسم الخارجي في البدن عند دخول جسم صلب كرصاصة أو خشبة أو معدن آخر تحت الجلد أو أحد الأعضاء .

٤ ــ يكون الشيء الداخل في الجسم مما لا يمكن دفعه لعمقه أو لموضعه أو علل أُخرىٰ ليس لوجوده عيب كبير إذا أحاطه بسياج قوي ، عندئذٍ يحيطه بأنسجة وألياف قوية لاتقاء شره وخطره وتركه في محله ، كشظية من بندقية أو جسم صلب غير مكروبي أو حتىٰ إذا كان مكروبياً كما هو في التغددات السليمة المتشحمة في الرئتين وأمثال ذلك .

٥ ــ وقد يقيم الجسم سياجاً وحصوناً تجاه خطر مكروبي ليقي البدن شر ذلك ، كما يحصل في الحريق السطحي الجلدي الذي يصيب

الجسم ، فتظهر فقاعات الماء تحت الجلد مملوءة بمادة سائلة مصلية وصلبة لتكون حائلاً بين الجسم والخارج ، واقيةً الجسم من ولوج المكروب من جهة ، ولتكون حرة للقيام بالترميم اللازم للعضو المخروب كما يحصل عند مس أي جسم لناحية من الجسم بصورة دائمة لمناطق خاصة في القدم على أثر مس أو ضغط جانب مع الحذاء فيتكثف الجلد في تلك الناحية .

٦ ـ قد يحصل للجسم عوارض خاصة أو عامة تدعوه لايجاد رد فعل خاص يحفظ به العضو الخاص أو كل الجسم ، كايدي العمال الخشنة أو عضلات الحداد الضخمة ، وكل عضو معرض لحركة أو صدمات متوالية تكسبه الطبيعة قوة وقابلية خاصة لتحمل القسم الموجه ، وحتى اذا كان ذلك عاماً أعطته الطبيعة المناعة الخاصة لتحمل ذلك ، وبالعكس المحافظون من الأفراد الذين يعملون في الحر والبرد والتعب انقصت منهم الطبيعة بقدر تحفظهم ولهذا كانوا في خطر الإصابة لأقل تعرض للبرد وضربة الحر أو التعب . ومثله المعرضون للسع الحشرات .

وقد يقوم البدن نفسه بعلاج طبيعي تجاه بعض الصدمات أو العلل الحاصلة للبدن فينقذه أحياناً من كوارث وأحياناً من الموت ، وهذا ما نشاهده كثيراً في الرعاف الحاصل على أثر ضغط الدم العالي للبدن بانفجار أوعية دموية للانف وخروج الدم الزائد الى خارج البدن ، مما يقي الدماغ من النزف الدموي الذي قد يؤدي الى نقص عضوي أو شلل أو عمى أو فقدان الشعور أو الموت [1] .

---

(١) جوائز الطبيعة ومجازاتها في القصاص :

١) لماذا يحصل مسمار أو ضخامة في ناحية ما في الرجل على أثر ضغط الحذاء؟ .

٢) ما هي مشابهات هذه في الأدواء في حياة الجسم؟ .

٣) ما هي مشابهات هذه في الحياة الروحية والاجتماعية على أثر الضغط أو الصدمات الروحية في الفرد من حيث التربية والأخلاق والسلوك؟ . =

٧ ـ على اثر شفاء الامراض يجهز البدن بالمناعة العامة والمناعة الخاصة على الخصوص تجاه المرض الذي كان قد أُبتلي به ولهذا نرى أن في بعض الامراض مناعة دائمة اذا أصيب به المرء مرة لا يصاب أخرى مدى حياته ، كالجدري والحصبة أو مناعة مؤقته لمدة تتفاوت كالتيفوئيد مثلاً عشر سنوات ، وهكذا تقل في بعض الامراض وكثيراً ما تعالج بعض

= ٤) لماذا يكذب الطفل؟ كيف تطبق هذه في الحياة الجماعية؟ أليست الطبيعة تمنح الشجاعة تقدماً وهمة وقوة والخائف تأخراً وضعفاً؟ لماذا؟ .

٥) لماذا يلتذ الجائع بطعامه عند كده وعدم نهمه بفرط الأكل؟

٦) ويجد المجد لذة الراحة أكثر من الكسول؟ ألا يمكن اعتبار ذلك جزاءً؟ .

٧) من أشد تحملاً للنوائب والصدمات؟ أليس من قاومها وجربها؟ .

٨) ما هي نتيجة التحفظ الشديد في البرد القاري والحر الشديد والتحفظ من التعب والركون إلى الراحة؟ أليس نتيجة ذلك قلة مناعة المتحفظ في البرد والحر والتعب وإصابته على قدر تحفظه بالبرد والحر وسرعة شعوره بالتعب وحتىٰ إصابته بأوجاع لجهد بسيط؟ .

٩) إذن لماذا يصاب البعض لأقل تعرض للبرد بل وحتىٰ في الصيف بعد تعب قليل وتعرقه على أثر تعب بسيط إصابته بوجع الرأس أو العضلات لأقل نسمة تخفق على تلك العضلة؟ .

١٠) لماذا يصاب البعض بمرض المعدة أو العنن وضعف القوى التناسلية أو أمراض مشابهة دون علل مكروبية؟ ألا يمكن القول إن ذلك جزاء طبيعي فرضته الطبيعة للمسرفين في الطعام أو العمل الجنسي أو استعمالهم مواد تضر بذلك الجهاز كالمشروبات الكحولية لجهاز الهضم والتناسل أو أُمور مشابهة؟ .

١١) من هو أخف جسماً وأهدأ نوماً وأقر بالاً وأحسن تفكيراً وأكثر وعياً؟ . ومن هو أشد حساً بدقائق الحياة أمن درسها وجربها أو العاري منها؟ .

١٢) كم هي أنواع السموم المادية العضوية وغير العضوية؟ وأهم السموم العقائدية الفردية المذهبية والحزبية والسموم الاجتماعية؟ .

١٣) ما هو تأثير المؤثرات المادية والمعنوية الفردية بالجماعية؟ .

١٤) اللصوص والسراق والمحتالون والمخادعون يخلقون الشباك ويبتكرونها ويقدمون الطعم مقدماً للاقتناص أليس كذلك؟ والحذر والتجربة خير حافظ وواق للمرء .

الأمراض الميكروبية بإيجاد مصول تزرق في البدن فتكسبه مناعة ضد ذلك المرض ريثما يكون الجسم نفسه ذلك المصل .

تلك نبذ ذكرناها في الدفاع والهجوم والقصاص والجزاء الطبيعي يلزم رعايتها في وقاية وعلاج الأمراض الإجتماعية ، مراعين مشابهاتها في الجسم الإنساني ، وحتى نرى اقامة حرب كاذبة في الجسم الإنساني وإيجاد نفير عام إتقاء ووقاية في بعض الأمراض وخطرها ، كما تعمل زرقة حليب في عضلة شخص واصابته بحمى على أثرها حتى لو كان حليباً معقماً ، تلك التي ذكرت في الناحية المادية وهناك مشابهاتها للبدن من الناحية الفكرية والعقائدية والعقلية والروحية ولها نفس المشابهات بين الفرد والإجتماع .

٨ ــ الجسم له كل القابليات لمجابهة الأخطار العضوية وغير العضوية والصدمات بصورة معتدلة ، ولكنه قد يفقد التوازن فيما خرج عن حيز التعادل ، فهو يستطيع ان يقابل السموم العضوية وغير العضوية وكل شيء آخر مادي ومعنوي ، إذا كان بدرجة معتدلة وتختلف حسب تعوده التدريجي كسموم الحيوانات والحشرات من عقرب وحية والحشرات الأخرى أو السموم الأخرى كالستركنين أو الترياك أو النيكوتين ، بيد انه قد يتلاشى أمام القوية ويهلك ، ولكن له القابلية للتعود عليها وتجهيز البدن بمواد مضاده لها ، ولذا ترى أن المعتادين على قسم من المواد المخدرة يستعملونها بمقادير كبيرة كافية للقضاء على أقوى فرد من البشر لو تناول جزءً منها ، من الذين لم يعتادوا عليها ، وهكذا أمام لسعات الحشرات السامة واكتساب المناعة المادية والمعنوية في الجسم الحي البشري من أعظم الخصائص التي يبني عليها حياته البدنية والفكرية ويمكن الاستفادة منها في الإجتماع .

السرطان :

هناك أمر على غاية من الخطورة احتار علماء الطب للان في شرحه في علله واسبابه ووقايته وعلاجه وهو داء السرطان .

والسرطان كما يظهر هو انحراف يحصل في عضو في ناحية ما من البدن لعله يؤدي الى تكاثر وامتداد حجيراته وأنسجته بشكل يخالف النظم الطبيعي ، ويختلف شدة وضعفاً وبذاً يختلف ضرره بالنسبة للناحية الحاصلة فيه وهذا النمو غير الطبيعي والسلوك غير المنظم يخل في سير أجهزة البدن المنظمة مبعثراً هنا وهناك ومضايقاً ومعرقلاً قيام الجهاز الذي يرد اليه في اداء واجبه بعضاً أو كلا ، حتى إذا ورد في مراكز لها اهميتها من النظم العامة والمقابلة التي يقابل بها البدن لدخول المكروبات المهاجمة هو حصولها في تكاثر نفس الحجيرات والأعضاء المشابهة لنفس البدن وسيرها بادىء ذي بدء بصورة هادئة وبطيئة غالباً ، بحيث لا تترك للبدن في البدء الشك للخطر ومقابلته بالسرعة وقد تعددت هذه الأسباب المسببه فهي انحرافات في اعتياد الأشخاص لاستعمال بعض المواد كالتبغ وافعاله ، مما يضطر البدن لخلق حجيرات وأنسجة على خلاف المألوف لمقابلتها ، وبعدها اختلال في نظم ونمو هذه الأنسجة الطبيعية وحصول النمو والتكاثر غير المنظم وغير الطبيعي في الناحية المتكاثرة كالرئة في التدخين وسرطان الفم عند الافراد الذين يستعملون التبغ مصاً وبصاقاً من طريق الفم (سويكه) وكانت عللها علل عفونية أو غير عفونية ، بيدُ ان المهم هو القضاء المبكر عليها والسرعة الفائقة لاستئصال شأفتها قبل ان تمد جذورها هنا وهناك وتعبث فساداً وإلا قضت هي على الجسم كله .

والأمر الذي أود بيانه في السرطان وخطره إنما هو الإنحراف الحاصل في نمو أي عضو ما في أية ناحية من نواحي البدن بصورة تخالف النمو الطبيعي المحدود في قالبه وخروجه على الأعضاء الأُخرىٰ واخلاله بنظمها ، وعجز البدن في البدء والنهاية في مقابلتها ، أو لا تقل عجزه في البدء بل قل اغفاله في البدء وعدم علمه بأن هذا الانحراف والتكاثر الحجيري الهادىء المشابه لحجيرات البدن بعلة هذه المشابهة وعدم افرازه سماً أو مواداً مضرة فرضاً في البدن ، استوجب عدم توقي البدن بادىء ذي بدء ضررها ، حتى إذا تكاثرت وتجاوزت على جيرانها القريبين والبعيدين

وعلى قدر أهمية العضو وعلى قدر وعي الجسم وحسه بالضرر يمكن تلافي خطره مبكراً ، والا إذا أهمل فهو القاضي على البدن كله .

هذا الحال له مشابهاته في المجتمع الإنساني والحياة الإجتماعية ، وهذا ما دعاني أن أهيب بهذا المجتمع أن يسلك سلوكاً طبيعياً فطرياً ، ويقي نفسه من عوامل السرطانات ويقضي عليها القضاء المبرم السريع .

فالقتل في معارك الجسم مع الغرباء الوالجين الى الجسم أو حبسهم أو طردهم أو تحويلهم بالتجزئة والتحليل أو التركيب لدفع شرهم وكسب خيرهم هي أصول جزائية للجسم تجاه ما يجابه فيه قانونه أمام المعتدين .

وإذا دققنا الأمر نجد أن كل ذلك يقوم في حالة دفاع مشترك في البدن بما فيه تجاه الأعداء الخارجين عنه ، ولا يمكننا أن نتصور اعتداءً داخلياً وحرباً ونزاعاً يقوم بين نفس الحجيرات أو الأنسجة أو الأعضاء ، الا بصورة غير مقصوده ، كالتي تنشأ عن احتلال عضو أو ناحية أو عدم تكافئها للقيام بالواجب كلياً أو جزئياً وتضرر الأعضاء الأُخرىٰ منها ، كأن يصاب الكبد مثلاً بالتشمع أو إصابة البانكرياس بما يقعده عن العمل أو اية غدة أُخرىٰ لعارض داخلي أو خارجي يخل نظامه ويربك وظيفته ، وعندها يكون الضرر خاصاً بالعضو وعاماً للبدن ولم يكن في هذا اسم للجزاء أو القصاص وإنما اصلاح وعلاج .

وقد ذكرنا في حديثنا عن السرطان ما ميزناه عن العوامل المهاجمة الأُخرىٰ ، وقلنا إنما هو إنحراف في تكاثر حجيرات جهة خاصة في البدن ، لا يكاد أن يشك البدن في البدء بضرره ، باعتباره من نفس طبيعته وماهيته ، وقد يكون في ناحية حساسة تتهيج سريعاً بهذا النحو غير الطبيعي ، فيبعث بالانذارات السريعة الى المراكز الحساسة ويشعر المرء بخطره مبكراً ، ويتلافى الأمر ، أو يكون في مراكز غير حساسة فيتكاثر ولا يشعر البدن الا وقد امتدت فروعه الى جهات في البدن تختلف أهمية ، ويختلف بدرجة التشخيص وتصعب معرفة النقاط الممتدة لاستئصاله وقمعه

بالسرعة الممكنة وإذا لم يتوصل البدن للان للعلة المسببة لهذه العاهة فقد يتوصل لها في المستقبل القريب أو البعيد .

خلاصة الأمر ، وفي جميع الأحوال الداخلية والخارجية ، انما تشترك كل حجيرات البدن وانسجته وأعضائه لجلب الخير ودفع الشر للكل ، بالوسائل التي ذكرناها ، والوسائل الطبيعية التي لم نتوصل اليها ، والتي بامكاننا تطبيقها على المجتمع الإنساني للاستفادة من معرفته الاصول والقوانين الجزائية ، واذا عجزنا عدنا الى ما يجري بين المخلوقات الحية التي هي أقرب في الوضوح الى البشر في حالة الدفاع والهجوم والتخلص من الشر والتوصل الى الخير . وقد ذكرنا القصاص كامر وسبيل أصولي في الأحياء ، بيد أن البشر العاقل بالاضافة الى الجهة الحيوانية والغريزية فيه ، يجب أن لا تفوتنا منه الجهة العقلية والمنطقية ودرجة تأثيرها في الجرائم وما يتخلل ذلك من القصد والعمد وسبق الاصرار في التفكير السابق والهدف والنية والعلل . فعمل الجاهل غير العاقل ، وما تسبب بحكم الارادة الواقعية للفرد أو المشوبة بإرادة الآخرين أو دون إرادة بل بتأثير الفطرة والغريزة تمتاز الواحدة عن الأُخرىٰ .

وهناك في الجرائم ما يقابلها قصاص مقابل كالضرب والجرح والقتل يقابلها قصاص واقعي ، وهناك قصاص مقارب ، كما وضع حد وقصاص للسارق في الشريعة الإسلامية من قطع اليد ثم الرجل ثم القتل لاثر هذه في عمل الجرم . أو لا يمكن الا بوضع قصاص مفروض نسبي لردع الفرد وتنبيه الآخرين كالحبس والتعزيرات من رجم وجلد وضرب وإبعاد وما شاكل كما في حالة النصب والتحايل والخيانة والغش والخداع ؟ فهذه منبعها الفكر في الانسان ولا يمكن ان يكون لها قصاص بالمثل بالتعبير الظاهر اذ اذا قلنا المقابلة بالمثال (في تفسيرنا للقصاص) بان نعمل مع الغير نفس الاسلوب الذي استعمله الغير مع الآخرين كما هو ظاهر في معنى القصاص ، وكما جاء في التوارة والقرآن في الشريعتين اليهودية والاسلامية العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص ، اذ المعنى

الظاهر أن تستعمل الخداع أو الغش أو التحايل ، وهكذا لمن جاء بها ، ولكن في هذه التي من مختصات الفكر البشري وبنات عقله لا يجوز استعمالها العقل السليم ، لانها رذائل استخدمت بها الغرائز الفكر والعقل ، وانما يكون القصاص المقابل على ما لحقت المتضرر من الضرر بالغير من جهة ، وعلى الاجتماع من جهة ثانية ، والهدف والقصد الذي استعملها الفاعل ومقياس الضرر الحاصل من جراء هذا العمل مادة ومعنى ، فالغش قصاصه مثلاً متوقف على الضرر الايجابي الحاصل على صاحبه من الناحية المادية وسد هذه الخلة والناحية المعنوية ردها بالتعويض للفرد بما يقابل اضراره والخلل الذي أصاب المجتمع من تأثير ذلك ولادخاله في ذلك لفرد ما حتى المتضرر بل هو حق من حقوق المجتمع المتضرر ومن جهة سلبية نرى قصد الفاعل ونيته ودرجة عمده ومستوى عقله وشعوره ورشده ، وبعد كل هذه نحكم بالقصاص ، وهو درجة الضرر الحاصل والجهة المصابة ، هذا والدقة في اجراء قصاص أقرب للفطرة والطبيعة ، فالتحايل يختلف نوعه فقد يشابه السرقة من حيث ماهيته على سلب مال شخص من ناحية ايجابية أو سلبية هو ضياع في اعتباره وسلب ثقة الآخرين به ، وبالتالي ضرره المادي ، أو تكون في كليهما الايجابية والسلبية في أمور معنوية لتلويث شرف الغير ، ففي الأولى يجب أن يكون القصاص مادياً أكثر منه معنوياً ، وفي الثاني يلزم ان يكون القصاص معنوياً لمساسه بالاعتبار والحيثية أكثر مما يمس الناحية المادية . وفي كليهما تطبيق جزاء عادل يقوم على أصل القصاص على أن يراعي في جميعها ميزان العقل والقصد .

وقبل أن ننهي الكتاب الأول لاقامة حكومة مثلى نورد بعد الأسئلة :

١ ــ ما هو الضامن لسلامة وادامة هذه الحكومة ؟

٢ ــ ما هي المشاكل لتشكيل هذه الحكومة العالمية ؟ وما هي طرق حلها ؟

٣ ـ كيف نبني الجهاز الحكومي للحكومة العالمية ؟ أعلى نمط اجهزة البدن الإنساني ؟ أم على النمط السابق من تشكيل وزارات لكل جهاز فنقول هذه وزارة الداخلية وتلك وزارة الخارجية ـ الصحة ، وزارة الدفاع والمالية والاقتصاد والطرق ، وهذه دوائر رسمية ونصف رسمية وشبه رسمية وأهلية؟

٤ ـ من أين نستمد القواعد والأنظمة والقوانين لضبط شؤون هذه الحكومة العالمية ؟

٥ ـ تعيين القوة الاجرائية التنفيذيه في الأمر والنهي للسيطرة على جميع النوع الانساني من اقصاه الى أقصاه بصورة دائمة كما هو في البدن الإنساني .

٦ ـ تكوين قوى مادية ومعنوية دائمة للمجتمع الإنساني تحطم المعتدين في الداخل والخارج كما يجري في البدن الإنساني ؟

٧ ـ تكوين مناعة في الحكومة العالمية على شاكلة المناعة في البدن الإنساني تجاه أعدائه وخصومه ، ومنها تعويده على تحمل الشدائد والاتعاب واكتساب القوى الذاتيه والخبرات والتجارب المادية والمعنوية بصورة دائمة .

٨ ـ الاستفادة للمجتمع الإنساني من طرق الوقاية بشتى أنواعها الحاصلة للبدن الإنساني كاللقاح والتلقين والتغذيه .

٩ ـ التدابير العلاجية للبدن الإنساني بالتجارب المطبقة في اللقاح والمصول والعقاقير وغيرها والاستفادة في تطبيقها في المجتمع الإنساني .

١٠ ـ الاهتمام بالمراكز الحساسة على قدر خدمتها وأثرها لادامة الحياة وسعادة الجسم الإنساني كالمخ والمخيخ والقلب والكبد والرئتين والكلى والغدد الصماء والأجهزة الأُخرىٰ الفرعية من بصر وسمع وذائقة وشم وأعصاب وعروق وما شاكل ، وإعطاؤها العناية الطبيعية في كل بدن وتطبيق هذا في الجسم الإنساني .

١١ ـ وبالتالي أصول الترميم في البدن الإنساني وكيف يجب الدقة والعناية بلزوم انطباق عناصر وأحوال وطبيعة ونوع الجزء المطلوب ترميمه وتطبيق ذلك في المجتمع الإنساني .

ولا ننسى أن قيام حجيرات وأجهزة البدن كل بوظيفته بالشكل الأحسن يوفر لكل منها الحد الأكبر من التمتع بالسعادة والراحة والاستقرار ، وأن افراط وتفريط أي منهما فيما خصص له بأي سبب كان مما يسبب أدنى احساس أو قصور بالوظيفة في جهة لذلك العضو ، أو الحلول دون تمتعه بما فرض له من التمتع الكامل الطبيعي يسبب اختلالاً ونقصاً للتمتع والقرار لكل جهاز آخر وحجيرة أُخرىٰ في البدن وبالأخص لمراكز الحس العليا . هكذا الوضع في المجتمع الإنساني فإن أقصى متعه يتلقاه الافراد جميعاً متى انيط لكل وظيفته وأحسن كل القيام بها . واذا أخل أي بواجبه لأي قصد كان كانت نتيجة ذلك سلب الراحة والسعادة من الجميع سيان منها المتجاوز والمتجاوز عليه .

١٢ ـ الاهتمام بصحة الأخبار الى مراكز الحس ونقلها من المراكز الى الأطراف صحيحة .



الكتاب الثاني

أمثلة تطبيقية



الأمثلة التطبيقية

تحدثنا فيما مضى أن علينا البحث عن الحقائق الطبيعية في حياتنا للسير عليها في كل شيء نحتاج اليه في سلوكنا الاجتماعي والاداري والاقتصادي والصحي واحكامنا وقوانيننا ، وليس لنا الحق لوضع نظام وقواعد مبناها اهواؤنا وأغراضنا وتخيلاتنا ، والا قمنا بعمل هو خلاف الفطرة والطبيعه وتعرضنا لجزاء فطري طبيعي ، ولرد فعل يصيب أنفسنا أو يصيب من له صله بنا أو أصاب الجامعة البشرية . وليس لنا الا البحث عن القوانين والانظمة والقواعد الثابتة الطبيعية تلك التي هي قائمة ومتصلة بحياتنا ، تلك التي لها صلة مباشرة بسعادتنا وشقائنا ، وعلينا البحث عنها في أنفسنا في سير حياة الحجيرات والأنسجة والأجهزة في أبداننا وفي مشابهاتها في القوانين الطبيعية الثابته في الأحياء وفي غير الأحياء ، أخذين منها مقاييس ثابته متى اعيتنا الحيلة ، والغاية منها الوصول الى سنن ونواميس ثابته وضعت لنا منذ بدء الخليقة سارت عليها نظم الكون من احياء وغير احياء من ماديات ومعنويات تقوم على نتائج ثابته كالمسائل الرياضية .

وقد ثبت ان العلوم الرياضية ثابته لا تتغير ، فنتيجة عملية ضرب أو تقسيم أو جمع أو طرح لا بد أن تكون واحدة ، وأما العلوم الطبيعية من كيماوية وفيزيائية فهي أقرب للرياضية ، ويليها علم الأحياء ، ولهذا لا بد لنا للوصول الى اثبات وجهة نظرنا في وصف كل منها باختصار فنقول :

ان العلوم الحقيقية هي تلك العلوم المحتوية على الروابط الثابتة غير المتغيرة ، كما نرى ذلك في القوانين الرياضية . ويلي هذه علم الفيزياء وعلم الكيمياء التي بعد المشاهدة ووضع النظرية واجراء التجارب توصلنا الى القواعد والقوانين الثابتة فهي أكثر العلوم الأخرىٰ التي تظهر على صور رياضية . وهذه الأخيرة لانها تتأثر بالتجربة فهي تختلف تعريفاً باختلاف التجارب الجديدة .

وأما علم الأحياء فهو علم قائم على أساس المشاهدة والتجربة ويلي علمي الفيزياء والكيمياء باقترابها الى العلوم الرياضية ، بالنظر لوجود الحياة ، فهي ليست لها تلك القاطعية ، واليقين الحاصل منها نسبي الا انه قوي ومهم ويستفاد منه علمياً كعلم الطب وغيره ، وربما توصلنا للبت والقطع به اذا بلغنا الحقيقة ، ويدخل في ذلك علم النفس الذي به تطالع الحياة الداخلية للانسان المنقسمة الى الانفعالات والادراكات والافعال . ولعلم النفس قوانين كما في العلوم الأُخرىٰ تقوم على كشف حقائق كلية .

علم الأخلاق :

وهو علم يبحث عن الروابط الداخلية للمرء مع الآخرين ويشمل علم الاجتماع والتاريخ ويجدر بنا ان نتعرض للفرق بين الحياة المعنوية والحياة المادية ، فنقول :

ان الحياة المعنوية تشمل الزمان فحسب وأما الحياة المادية فانها تشمل الزمان والمكان . لذا فان الماديات يمكن قياسها وتدرك بالحواس بيد أن المعنويات لا يمكن ادراكها الا بالوجدان .

ونعود لعلم الاخلاق لنعرفه من وجهة أُخرى فنقول انه علم يبحث عن سلوك واعمال الافراد ، وقلنا أن علم الاخلاق يشمل :

أ ــ علم الإجتماع . ب ــ التاريخ .

أ ـ علم الإجتماع :

يقسم الى الأشكال الاجتماعيـة والوظـائف الاجتماعيـة وعلم الاجتماع العـام وهـذا يشمـل الحيـوان والانســان . وعلم الاجتمـاع يشمــل العـرف والعادات والاخلاق والعقائد والقوانين الحقوقية والاقتصادية والأدبية وغيـرها التي تلزم الافـراد من اتباعهـا . وعدم مـراعاتهـا ينشأ منـه رد فعل سـواء من ناحية مادية أو معنـوية تكـون له قصـاصاً وجـزاءً . ولا بد للعـالم الاجتماعي للوصول الى أهدافه ان يقوم بتحري ومشاهـدة الوقـائع بين الأقـوام المختلفة ثم وضع مذكراته بعد قياس مختلف الوقائع والحوادث .

القوانين الاجتماعية :

هي مثل قانـون « الحالات الثـلاث » لاكوست كـونت وقانـون دوركيم في الانتحار الشخص . ومنها القوانين الاقتصاديـة ومنها مثـلاً « في كل دولـة تقوم معاملاتها على أساس عمليتين تطرد فيهـا السكة الـرديئة السكـة الحسنة من الأسواق وتحل محلها » .

التاريخ :

وهـو ثـاني علوم الاجتمـاع ويخص مـطالعـة المـاضي ، وأخص منــه مـطالعة مـاضي حياة الانســان كفرد ومجمـوع ، ولا يقوم على أسـاس العلم والخبـرة التجريبيـة . ويقـوم المؤرخ بعـد البحث والمـطالعـة والانتقـاد على تعيين درجة ثبوت الوقائع والمدارك والاسناد ويسرد الوقائع .

لهـذا كان علـم التـاريخ أقـل العلوم قاطعيـة . بيد أنـه قد يصـل بأدلـة قوية قاطعة لا تبقى للشك والترديـد على صحة الحـادث ولهذا كـانت دراسة التـاريخ مفيـدة جداً في علم الاجتمـاع للاستفـادة من حياة المـاضي والعبرة بـالحوادث الحقـوقية والأدبيـة والسيـاسيـة والاقتصـاديـة والعقـائـديـة والفنيـة وغيـرهـا ، لـلاستفـادة منهـا للمستقبـل بعــد التحليـل والنقــد واستخـلاص الحقـائق ، سيان منهـا في الأمور المـادية والمعنـوية لهـذا وضعت نـظريـات

وقوانين تاريخية منها : مـا جاء بـه المؤرخ المعروف ميشليـه ١٧٩٨ ـ ١٨٧٤ من نـظريته المعبـر بها عن الاراء والأفكـار العاليـة للاحـرار الطالبين للحـرية والعدالة .

كان يعتقد بتأثير أفكارهم العالية في الوقـائع التـاريخية ، وعلى نقيض ذلك كانت نـظرية كـارل ماركس مؤسس المسلك الاجتمـاعي العلمي . فقد فسَّر الوقـائع المهمـة التاريخيـة ووجهها . واعتقـد أن الوقـائع التـاريخية في جميع الادوار انما قامت على أساس ضروريات مـادية وحـوادث اقتصاديـة . وبين كيفيـة الرابـطة الـوثيقـة بين المؤسسـات الاجتمـاعيـة وأصـول الملكيـة والعمل . وان جميع ما يصبح للبشر من حوادث تـاريخية انمـا هو بسبب مـا يصيب الـطبقـة العـاملة من الشقـاء . في حين أن جـان جـورس يعتقـد ان الماديات والمعنويات لها أثرها في حياة البشر التاريخية .

تلك كانت لمحة مختصـرة وضرورية شرحنـاها ، ولنتـوصل لتـوضيح أعم ، علينـا أن نعرف ان كـل قضية وحـادثـة في الحيـاة حـدثت أو تحـدث انمـا تـرتبط بقـوانين وقـواعـد وأصـول ونـواميس مـاديـة أو معنـويــة طبيعيـة واجتمـاعية مختلفـة تشد أزر بعضهـا أو تخالف بعضهـا بعضـاً ، أو لا رابـطة بينهـا ، وليس هناك مكـان للصدفـة التي يتعـرض لهـا النـاس الا دليـلاً على جهلهم بمـا حـدث ويحـدث وجهلهم بـالحقـائق والنـواميس والقـوانين التي كثيـراً مـا تحـدث بـدون ارادتنـا ، وحتى ولـو علمنـا بعلتهـا كنـا من الجهـل والضعف بحيث لا نستطيع الوقايـة منها ودرء وقـوعها ، سيـان منها مـا كانت بانفسنا أو خارجها أو بكرتنا الأرضية أو خارجـة منها ، ومـا كان منهـا بعالمنـا الشمسي أو العوالم الأُخرىٰ ، بيد هذا لا يمنعنـا من البحث عما يمكن بحثـه والوصول الى كنهـه ، فالعلم بـالشيء هو الـذي يمكننا من القيـام به بصـورة أحسن . والتخلص من شره أكثر والعلم هـو منبع الخيـر والبركـة للانسـان ، اذا استخدمه لخيره ، ومنبع الشر اذا استخدمه لذلـك وان دراستهما للقـوانين والسنن الـطبيعية التي تـوصل اليهـا الانسـان والبحث عمـا لم يتـوصـل اليـه

وتطبيق المادية على المعنوية والاستفادة من التحري والتجربة والتطبيق النظري والعملي هي الوسيلة الأقرب للحياة الصحيحة ، والسير على الحياة الطبيعية الفطرية هي أبسط وأرقى السبل للوصول الى السعادة والابتعاد عن الشقاء ، الذي هو الذ أمنيات البشر . وسوف نورد نبذاً عن حياة الحشرات الجماعية كحياة أرقى من حياة البشر كما ذكرت نبذا عن حياة الحجيرات والانسجة في الجسم الانساني كأرقى ما يتصوره الفكر من النظام وابدع ما يشاهده في السلوك لو استطاع أن يعي ويتقدم .

والان نورد نبذاً من التطبيقات للحياة المادية على المعنوية ومن المعنوية على المادية والمادية للمادية والمعنوية للمعنوية ، أملين أن تكون مقياساً في حياتنا في التطبيق للاخذ منها في كافة سبل حياتنا من نواميس وسنن وقواعد ثابته وحكيمة .

١ ــ المنطق السليم :

ان حاسة الذوق أي اللسان لجميع البشر يشعر بحلاوة السكر وحموضة الخل ومرارة الحنظل ، وحاسة الشم تفرق بين الروائح الذكية والنتنه ، وحاسة اللمس عند الجميع تميز بين الناعم والخشن والحرارة والبرودة ، وحاسة السمع عند الجميع ترتاح لتغريد الهزار وتستنكر نهيق الحمار . وقد تعتل أحد هذه فمثلاً قد يعتل اللسان فيفقد جزءاً من حاسة الذوق فلا يلتذ تماماً كما في الاصحاء بطعم المأكولات ، وربما فقد حسه تماماً فلا يحس بطعم بتاتاً كما عند البعض ، كما أعرف صديقاً مع رقة شعوره وأدبه الجم لا يشعر بحلاوة مطلقاً حتى لا يدرك حلاوة العسل والسكر مدى حياته ، وهكذا العين التي هي عند جميع المخلوقات تميز بين الألوان الأحمر عن الأخضر والأزرق ، وغيرها هناك من النادر من لا يفرق بين الألوان فهي عنده جميعاً سواء . هذا شاذ لا يقاس عليه .

وهكذا المنطق السليم والعقل السليم يميز بين الأخلاق الفاضلة والرذائل وهي واحدة عند البشر، بيد انه يشذ من هذه القاعدة فتجد وقد

ولد وعنده انحراف لا يميز أو لا يريد أن يميز ويشعر شعوراً منطقياً ، فيخلط بين الفضيلة والرذيلة ، أو ينحرف بسبب إصابته بأمراض أخلاقية أو اجتماعية أو أدبية أو ما شاكل فتقلل عنده حاسة الشعور بالفضيلة كما هي . وقد يُنوّم الإنسان تنويماً مغناطيسياً بسبب التسلط العقلي من الآخرين ، ويُوحي إليه عند تناوله قطعة سكر أنها قطعة ملح فيشعر عوض الحلاوة بالملوحة أو بالعكس، لأن الإيحاء حرك فيه مركز الشعور بالملوحية في الأول أو عكسها في الثاني . وهكذا في حياتنا قد يُلقن الآخرون بالتسلط الفعلي على البعض أموراً مغلوطة فيتقبلوها على اغلاطها في حين أنهم يعتقدون بصحتها كأنها صحيحة وغير مغلوطة .

فالمنطق السليم هو ذلك المنطق الصادر عن عقل صحيح سالم حر طليق تتقبله جميع العقول العالمة الصحيحة الحرة الطليقة ، وكما أن للحواس ساعات يشتد شعورها وحسها كما يحصل للجائع في حاسة ذوقه وشدة تلذذه بالطعام بدرجة إحساسه بالجوع واحتياجه له وهكذا الحواس الأخرىٰ. وكما أن الجائع مستعد لتناول كمية أكبر من الطعام وهضمه إيّاه كذلك الأغذية الفكرية تزيد لذتها كلما شعرت بمساس الحاجة الباطنية إلى تلقي نوع الأفكار ، وقد يزيد النظر والسمع تأثير الحواس الأُخرىٰ أو تنقصها فهي تزيد في العقل والفكر وتنقصه وبالعكس[1] .

٢ ــ تعلموا الحياة من الطبيعة :

ومنها ما يخالج المرء أحياناً كما خالجني :

١ ــ نظرت إلى إحدىٰ المقاعد في الترامواي فوجدت خمسة يجلسون ويشغلون محل ثلاثة وقد ضاق بالجميع المحل وعلى الأخص

---

(١) نذكر على سبيل المثال مثالاً أدبياً لأبي نواس حينما يقول : الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر فهو يريد أن يسمع باسمها ويتلذذ كما استفاد الذوق . الشامة والعين وعندها تزيد اللذة .

بقي اثنان منهم في حالة قلقة ، وهذه قاعدة عامة إذا شغل المحل جماعة أكثر من المقرر يكون مركز الجميع مضايقاً وقلقاً ، وإذا قسنا ذلك في التعبئة الصناعية والتجارية ، فإن الجانب السلبي أيضاً يكون غير مرضي ، أعني إذا قل العدد عن المقدار المعين تراخى الرص ، ولهذا كان الحل الوسط والمقدار المعيّن هو الأحسن . وقد قال الإمام الباقر عليه السلام حفيد الإمام الحسين بن علي عليه السلام كلمته المشهورة : (خذ الحسنة من بين السيئتين) .

٢ ــ إن الذي يستقر إلى القعر في الرواسب هو ألاّ تقل وزناً بادىء ذي بدء وبالترتيب ، وهذه قاعدة عامة تتبع قانون الجاذبية . وبالعكس يتلاعب الريح بالأخف .

٣ ــ هناك فرق بين ما يحكم به الطبيعة في خلقتها وضروريتها ، وبين ما تكونه الاغراض البشرية في كل شيء من حيث المتانة والاستحكام والدوام وملائمته للاذواق في كل شيء مادي ومعنوي ، وحتى في العقائد من قيام مصلحين فرضتهم الضرورات الطبيعية وجاءوا على قدر مقتضيات واقعية اجتماعية أو طبيعية مصلحين من ذوي الاراء والنحل والاديان وبين ما خلقته السياسة البشرية والاغراض الشخصية ، مثل اليهوديه والمسيحية والاسلام اذا قسناها بالعقائد التي مرت وانقرضت ولم يبق لها أثر يذكر الأولى التي حكمت بها الضرورات الاجتماعية وبنت أصولها على قواعد وأصول متينة والأخرىٰ التي كان غرضها آنيا ومؤقتاً .

٣ ــ ان الطيور على أمثالها تقع :

مررت ذات يوم بحديقة غناء عامة تحف بالاشجار النضرة والاوراد الزاهية والمناظر الخلابة والمياه الجارية ، فسمعت فيها تغريد الطيور الغناء الحرة الطليقة والحديقة تجاورها مختلف البيوت القديمة ورغم كونها مجاورة لهذه الحديقة الواسعة فانك لا تجد فيها يوماً من الأيام هزاراً أو بلبلاً ينزل بساحتها مغرداً أو ناشداً ، ولا أشك أن هذه البيوت ان شاءت أو

أبت فهي تحصل على حصتها كلما كانت قريبة من الحديقة من الأريج المعطر والهواء النقي والمنظر الجميل وأن سمع بها يوماً نغمة البلبل فانما هو على حساب تلك الحديقة .

كما أذكر أني مررت بالسيارة في شارع خنقت روائحه الكريهة الركاب وعندما تساءلت عن سبب حدوث هذه الروائح ، قالوا ان بالقرب منها مذبحاً ومسلخاً للحيوانات فكنت أرى الجميع يهربون من تلك الساحة وكأن السماء والأرض ضاقت بمن فيها ، فلا تجد من حيوان سوى كلاب جرها الجوع وقد يزورها الضواري ليلاً . وتمر بالمزابل فلا ترى فيها غير الحشرات الضارة والجراثيم والروائح النتنة ، ولا أشك أن من جاورها اصابتة باضرارها ان شاء أو أبى .

وأذكر يوماً اني مررت بحديقة فأحاطتني الأفكار والعواطف المبهجة والآمال والأماني بالحياة الجميلة المفرحة ووددت لو أجلس هناك وأتغزل وأذكر عظمة الله وجماله في خلقه . وفي الثاني اعتراني الخوف والهلع من الأمراض وضاق صدري وكنت أطلب مفراً .

والموجودات لا تخلو من ثلاثة حسب ذوق البشر واحساسه وطبعه . ١ ـ النافع ٢ ـ الضار ٣ ـ المجرد من كليهما . والثلاثة إما ذات روح أو بدونه سلط الله بعضها على بعض .

فالصالح أصل مثل الورد والمنظر الزاهي والماء الرائق والقلب الطاهر والصفحة البيضاء والعقل والجسم السليم . والضار عارض وهو الذي يصيب الصالح بالكدر والأوهام والأمراض والجراثيم . ولدفع الضرر إما يستعمل الأشد فساداً أو المجرد للحيلولة فقط وترك الصالح يتكاثر أو ايقاف الفساد وتكثير الصالح أو الابتعاد عن منطقة الفساد .

فمن جاور المسلخ عمته الروائح النتنه ومن جاور الحديقة والرياض شملته شذى عطورها وفاز بمناظرها الخلابة :

صاحب أخا ثقة تحضى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذه فيما تمر به نتن من النتن أو طيب من الطيب

٤ ـ الابتسامة :

عاد صاحبي بعد سفرة بعيدة زار بها أهم مناطق الشرق الأوسط والأقصى ، ايران وباكستان والهند وبورما وتايلند وهونك كونك والصين الشعبية واليابان وأهم تحفه جلبها معه بطاقة كتب عليها Keep Smiling تَبسّم .

وكان معجباً بها كل العجب إذ وجد هذه البطاقة أمامه أينما سافر في ربوع اليابان ، ووجد كما قال الابتسامة ظاهرة على محياهم أينما مر ، فهم قالوها وعملوا بها ، ولم تكن هذه الجملة حديثة العهد ، ولكنها حديثة بالنظر لكثرة شيوعها وانتشارها والعمل بها عندهم والا ففي الامثال السائرة عندنا : « اضحك يضحك لك العالم » . وانك تجد الابتسامة في أطيب الأوقات وأبهج الأمكنة عند الفجر وعلى محيا الأزهار وفي نفحات الطيور وفي مباهج الطبيعة والكل يعيد عليك بحكم التداعي أجمل الابتسامات وأعذبها .

والابتسامة هي من أبرز الدلائل على الرضى والشكر والأخلاق السامية فالابتسامة عند الأطفال من أبرز مظاهر شكرهم وهي تحمل تحياتهم القلبية الطاهرة لابائهم وأمهاتهم واخوانهم وكل من شعروا منه عطفاً وكل من قصدوا اهداء تحياتهم له . والعالم يكرم البشوش المبتسم بالشكر والمسرة والسعادة والعكس بالعكس ، لذا قيل كما مر « اضحك يضحك لك العالم » ، ذلك من ناحية اجتماعية . وأما الناحية الطبيعية أقرب للواقع فأنت ما تعمله أمام مرآة تعكس لك أعمالك ومتى ابتسمت فلا بد أن ترى أمامك ابتسامة على قدر ما تعمل .

ولي قصيدة في الابتسامة أذكرها أدناه :

أبسمي

١ ــ أبسمي قد جمع الشمل وزال النقص والمرآة وجهانا وقلبانا مناره
واحذري الأوهام أن تسرق كاللص أمانينا ولا تبقى لنا إلاّ مراره
فهلمي اغتنمي اللذات بالبسمة فالفوت لنا منها إذا ولّت خساره

٢ ــ أبسمي لي فأنا جنبك ذا أبسم والشمل بنا يكمل لا نبغي سوانا
وهناء العيش بالبسمة تنقاد لنا هيا لنجنيها على الطوع كلانا
أبسمي لي بسمة القلب لأعطيك مع الاخلاص والحب الجنانا

٣ ــ أبسمي فالكون لي يبسم ما فيه صفاءً وحناناً ويوليني قياده
وأرى البهجة ما وجهت وجهي وأرى في وجهك الباسم لذات السعادة
أبسمي يا منية القلب لأعطيك لما تهوينه مني وتعطيني مراده

٤ ــ أبسمي كي ننفث الآلام والاحقاد ما قد كدست فينا من الماضي السحيق
وأبسمي كي نملأ القلب لمستقبلنا بالأمل المبهج والعيش الأنيق
واسعفينا رشفة من ثغرك المنضود دراً من لماك العذب كانون الرحيق

٥ ــ أبسمي في صفحة المرأة طوراً واعبسي أُخرى يوافيك لما جئت جوابا
إنما الناس كمرأة لمن شاء على صفحتها يلقي الذي أبداه آبا
فابسمي أبسم وارضيني أرضيك على الجهر وفي السر وأوفيك الحسابا

٦ ــ أبسمي تلقين بالبسمة أسراراً خبت كانت مفاتيح لحل المعضلات
أبسمي تنقشع الأكدار كالنور إذا حل انجلت عنه شجون الظلمات
إن بالبسمة أسرار خبث فيهن ادراك السعادات وحل المشكلات

٧ ــ أبسمي فهي سلام وزكاة وثراء يتنامى لا يبار به ثراء
وهي كالعلم إذا أنفقته زاد وإلاّ ضاع والترك إلى البسمة داء
إن في البسمة إذ تفتر عن ثغرك للنفس وللغير شفاء وهناء

٨ ــ أبسمي واجتنبي الأوهام والأحلام واصغي لنداء من صميم الواقع

رغـوة الكأس فقـاع قد علت أصـلاً فـلا يغـريـك رغـو عن عصـير جـامـع
إن في الـبسـمـة حب يـتسـامـى مـا تـوالت وحيـاة وسمـو الـطالـع

٩ ـ أبسمي لا تبخلي فهـو عـداء كبـريـاء تـافـه يضنيك في هـذا الـوجـود
كلما تسـديـنه نفيـاً وإثبـاتـاً بـه تـلقـين أضعـافـاً لما جئت يعـود
فـاكسبي مـا شئت بـالبسمـة أفـراحـاً وصـدى عـاديـات لشجـون وصـدود

١٠ ـ أبسمي للوافـد الصـاخب مـولـوداً أتى أو حـل ضيفـاً خـارقـاً للنـظم
وأبسمي للنـازح المـرجـو لـلعـود ومن راح بـلا عـود قـريـن العـدم
أبسمي للواقـع المحتـوم فـاللذة في التنـويـع للقـانـع والمستسلم[1]

١١ ـ أبسمي للطير لـلنحـلة للريـح إذا هـبت إلى الحـقـل لتـرتـاد وتـسـرح
وأبسمي للشمس لما نشرت أنـوارهـا تجلى بها الـظلمـة في الكـون وتنـزح
أبسمي عن ثغـرك المنضـود بـالقـداح تـريـاق المعنى خـير مـا يشفى وأصلح

١٢ ـ أبسمي للماء فـوق الصخـر رقـراقاً بنـور البدر في الجـدول يجري كـالمعين
وابعثي البهجـة في الأرواح تجلى كلما حـل بهـا من كـدر مـر السنـين
أبسمي رحمـاك فـالبسمـة مـا حلت ومـا أولتـه كـالبلسم للداء الـدفـين

١٣ ـ أبسمي للظالم الـفتـاك بـالأم وبـالـطفـل وشيـخ قـد عـلاه الهـرم
وأبسمي في الحـرب والسلم وقـولي يـا ابن أم الكـل من أمـك لحم ودم
وأعلني بـالبسمـة الحب وقـولي أيهـا الغفـال بـالـزائـل لا تختصمـوا

١٤ ـ أبسمي لي فـأنـا مثلك بـالعنصر والـروح وتلقـين الـذي ألقـاه بعـد الـوطـر
لست من تبـر ولا كـنت مـن الفـحم تعيبـين سـوادي وعـظيـم الكـدر
إن ذراتـك ذراتي وكـلتـانـا مـن الجـوهـر صـنـوان بـنـفس الأثـر

---

(١) لكل جديد لذة/ حشر مع الناس عيد/ البلية إذا عمت طابت / تنقـل فلذات الهوى في القنفل الراحة في الاستسلام أمام الأمر الواقع .

١٥ ـ أبسمي لي فـأنـا مثلك ذو قلب وحس وأنـا مثلك تشقيني آمـالي وأسعـد
وأنـا مثلك عنـد الفكـر والجسم أعـاني مـا تعـانـين من الأعـراض والصـد
ابعثي لي نـظرة الـود من القلب إلى القلب لتلقـين من الاخـلاص مشهـد

١٦ ـ أبسمي واستبشري في معرض الكـون على صفحتـه تلقين لـلأضداد عـرضا
فخـذي مـا راق للنفس هنـا منهـا وللغـير بهـا مـا شـاء في المعـرض حـظا
ودعي الحـرص على اقتـائها فـالكل أشبـاح ومن خالف ذاق النصب فـرضا

١٧ ـ وإذا مـا داهمت بلوى أبسمي فهي سحـاب تنجـلي والصفـو بعـد النصب
واستمـدي لـذة العيش من الآمـال للمقبـل فـالآمـال مهـوى الارب
فـأبسمي واستعرضي من صفحـات العيش مـا يبـدل بـالبهجـة مـرّ النكب

١٨ ـ أبسمي دومـاً وخـلي الثغـر يفـتـر ويـزهـو بثنـايـاك ومن ورد الشفـاه
ودعي وسـوسة النفس إلى التغـريـر بـالاعـراض إكبـاراً فـذى شر النـواهي
واجعلي البسمة من شيمـة تلك النفس لا تعدوك في الضيق ولا عنـد الرفـاه

١٩ ـ أبسمي ثم عضي واستهضي فـالكـل يهفـو لعضـات المشفقـين البسم
إنمـا يـدنـو ويصغي لـك من حب ومن أولاك بـالـود لهـذا الـكـرم
إنمـا البسمـة مفتـاحـك للتقـريب والتحبيب لـلأنفس هيـا فـابسمي

٥ ـ التاريخ يعيد نفسه :

كـل يوم تتضـارب النظريـات فيما بينهـا من جديـدة وقـديمـة في شتىٰ الأمـور الماديـة والمعنويـة في القضايـا العلمية والفنيـة من اجتماعيـة وأدبيـة وغيرها ، فمثلاً نجد في الأزياء عودة ما كان معمـولاً به قبـل عشر أو عشـرين أو مـائـة سنـة أو أكثـر ، وهكـذا مـا نجـده في الشؤون النفسيـة من شعـوذة وسحـر . بيد أنـه أحيانـاً يعود ذلـك نفسه بـاسم جديـد ونبرة جـديدة وتـطور بسيط أو نفسـه بعينه وهكـذا يعيد نفسـه . ومن القضـايـا المهمـة التي أريـد بحثهـا هي القول بـأن البشر الـذي يبرهن اليـوم على صحة نـظريته العلميـة والعملية ويفند غيرها يعود نفسه بعـد حين لاتباع تلك التي فنـدها مبـرهنـاً من

جـديد على صحتهـا ومفنداً تلك التي بـرهن على صحتها ، وهـذا ما نجـده أيضاً في وضع القوانين وأخص منها الجزائية وأُصـول إجرائهـا فاذن لا يجب تسميتهـا قانـوناً ، لأن القـوانين هي تلك التي يلزم أن تكون ثـابتـة ولا تتغيـر أبـداً ، كـالقـوانين الـطبيعيـة ، فهي إذن نـظريـات قـانـونيـة ، ولا ننسى أن المعقـول والمنـطق السليم حكمـه واحـد في كـل زمـان ومكـان في الأمـر نفسه .

٦ ـ المخدرات تقلل الشعور بـالألم كما أنهـا تقلل الشعور بـاللذة أحياناً كثيرة :

من المخدرات المادية الافيون ومركباتـه والكوكـا والحشيش والمخمور الـخ . . . والمعنـويـة مثـل النـوم المغنـاطيسي والنـوم الـطبيعي والتلقين والشعبـذة . . . الـخ . لأنهـا تقلل الحس الـواعي الحس الـذي يجسم الألـم فيزيده ويدرك اللذة فيزيـدها . لهـذا كانت المخـدرات منها ذات فـوائد آنيـة للآلام ومنها ما كانت لها عواقب بعـد زوال أثرهـا وعواقب وخيمـة للبدن من سموم مؤثرة واعتياد ، وأما الـذين يستعملونها لتـزيد لـذتهم فهو غلط فـاحش لأنها تقلل اللذة إن وجدت .

إلاّ إذا قيل إن الأصل في المرء الشقاء والآلام الحسيـة والمعنويـة وإن الشعور باللذة والراحة إنما هي بتقليل الشعـور بهذه الآلام وهي تقـل بدرجـة تقليل الشعور والحس بـالأُمور المـادية كـالمخدرات أو المعنـوية المصـطنعة كـالتنويم المغنـاطيسي أو الـطبيعي كـالنـوم وهـذا مـا لا يثبتـه العلم ولا تقره التجربة .

كمـا يمكن القول بـأن الأصل السعـادة في العقل الكـامـل وإن تقليـل الحس بما مر يقلل اللذة وهذا ما يؤيده الواقع .

٧ ـ الناس معادن :

والمعـادن تختلف عن بعضهـا وزنـاً ومتـانـة ومـرونـة ولـونـاً ومقـاومـة

لعوارض الطبيعة وجمالاً وتختلف عن بعضها في أمور كثيرة ، فالذهب والفضة والحديد والرصاص والصفر والزئبق وغيرها كل له صفات وميزات خاصة وبقدر هذه الصفات وبقدر ما يحمله من الفوائد يمتاز على غيره . وقد تصل قيمته عشرات أو مئات أو آلاف المرات بالنسبة لغيره وبقدر الاحتياج له تزيد قيمته .

ويعتبر الذهب من المعادن الغالية لندرته ومرونته ولونه الجميل وقوته ودوامه الناتج من عدم إمكان تأكسده بعنصر الأكسجين أو تأثره واختلاطه بغيره بسهولة ويختلف الحديد عن الذهب بكثرته وشدة تأكسده وتأثره بأشياء كثيرة . وهكذا المعادن الأخرىٰ .

والناس يختلفون باختلاف المعادن صلابة ومرونة وتحملاً للصقل وجمالاً للمنظر وتحملاً ومقاومة لعوارض الطبيعة المختلفة ، وعلى قدر ما يحمله الفرد من المزايا تقدر قيمته في المجتمع .

فما شابه منها الذهب بصفاته النادرة كان له مقام الذهب بين المعادن بالنسبة لوضعه ومكانته الاجتماعية وقد ينهار لأقل طرق أو يفقد صفته لأقل مجاورة للماء والرطوبة كالحديد ، أو هو أسرع من ذلك أو يكون له مفعول قوي في تجرده ويفقد كل صفاته عندما يختلط أو يتركب مع عنصر أو عناصر أخرى تخلق منه جسماً جديداً كعنصري الهيدروجين والأوكسجين وتكوينها الماء ، وقد يتكون في عناصر بسيطة أشد المركبات سميّة وأعظمها خطراً مثل سيانور الزئبق ، وقد يحصل من أشدها خطراً مركب غير خطر بل هو دواء نافع لكثير من الأمراض . هذه الصفات عينها تحصل في البشر في حياته الفردية وحياته الجماعية .

ثم نعود لنجرب بعض المواد المركبة ، فنقول ما سبب متانة جواريب البلاستيك والألبسة البلاستيكية بالنسبة للحرير الصناعي والصوف والقطن ، لجمالها ودوامها ومتانتها وسرعة نظافتها؟ هذه المتانة والمقاومة الموجودة في خيوط البلاستيك إنما هي نتيجة قوة شعيراته الدقيقة المنكمشة على

نفسها وقابليتها للبسط والانكماش من جهة ، وقوة وطراوة الشعيرات الطويلة من جهة أخرىٰ ومزايا أُخرى ألبستها المقاومة وأعطتها طول البقاء .

بينما الحرير الصناعي إنما يمتاز بجمال منظره المؤقت ولكنه يفقد المرونة والمتانة وقابلية التمدد والانكماش فهو ذو ظاهر مليح وباطن قبيح . أما القطن فهو يحل محلاً وسطاً ، وخير منه الصوف لولا تأثره ببعض الحشرات الضارة كالعث . ومثل هذا الاختلاف يحصل بين أفراد البشر فمن كان ذا قابلية للتمدد والانبساط والانكماش لين العريكة قوي الجنان ، جميل الظاهر والباطن ، كان أشدها تحملاً للمصائب والمشقات ، وكان محتلاً مركزاً أرقىٰ وجلله الرأي العام ، والمشابه للحرير الصناعي كان على عكس ذلك .

٨ ـ الكرة تنفجر وتتفسخ ـ (أكثر الطق يفك اللحام) :

شاهدت ذات يوم أحد الباعة الدوارة وهو يحمل كرة مطاطية نفخها وأخذ بطرفها بصفحة كفه فتثير ضجة ويتجمع حوله الأطفال وأولياء الأطفال لشرائها أو شراء مثلها التي لم تنفخ بعد .

واشترى طفلي الصغير إحداها واستعملها ككرة قدم هو واخوته . وكانت تطير بخفة وتعود بهدوء وظل يلعب بها مدة طويلة في ساحة الدار الواسعة ، ثم انتقل اللعب داخل الغرفة الضيقة ، بيد أننا سمعنا بعد لحظة انفجرت انفجاراً مهيباً وتقطعت إرباً ، وحينما تحققنا عن سبب الانفجار علمنا أنه وقع على أثر إصابة الكرة برأس مدبب حاد كرأس الدبوس برزت في إحدى الجوانب .

طالما ضربنا الكرة بقوة فائقة بصفحة كفنا فلم تنفجر فكيف انفجرت على أثر إصابتها برأس مدبب وأقرب إلى رأس دبوس؟ نعم لأن رأس الدبوس هذا على قدر ما كان صغيراً كان حاداً واستطاع النفوذ بالقوة المتجمعة على ذلك الجزء الصغير من سطح الكرة ، وبتأثير الضغط

الشديد الداخلي فتح تلك الفتحة الصغيرة لداخل الكرة التي كانت تحوي هواء مضغوطاً ، وكان من قبل هذا الضغط موزعاً على نقاط سطحها الداخلي والذي يقابله ضغط خارجي متساوٍ . بيد أن هذه الفتحة الصغيرة سمحت للهواء المحاصر حينما أدرك مخرجاً أن يندفع فجأة إلى المخرج وعلى أثر هذا الهجوم الفجائي إذا الفتحة تتوسع بسرعة هائلة وتمزق الجدران الأضعف فالأضعف .

ألا يمكن قياس ذلك على الوضع الاجتماعي واتخاذ الوقاية والعلاج في القضايا المماثلة الاجتماعية؟ .

ثم أتلي حديثي ذلك لوضع بعض القواعد :

١ ـ وزع الضغط أو الاتقاء أو السحب على الشيء متساوياً لتأمن تمزيقه أو تخريبه وانهدامه كما مرّ في الضغط المصنوع في الكرة والأنابيب المطاطية للسيارات ، أو حمالات الأثاث كما في دواليب الألبسة ومثلها توزيع الأثقال سواء في الأبنية أو غيرها تلك في الأمور المادية ويقابلها في الموارد الاجتماعية . كالضغط المالي أو الأدبي أو السياسي في المجتمع الواحد على البعض دون البعض فهو كما في الماديات يؤدي إلى الانفجار والتفكيك والانهدام والتخريب .

٢ ـ لا تحمل الشيء ما لا يطيق وإلاّ سبب انهدامه وتخريبه ، فالضغط الزائد أو الثقل غير المتناسب لحمله حتىٰ لو تساوى توزيعه على الأجزاء سواء في الداخل والخارج دفعاً أو سحباً لا شك وأنه يؤدي إلى تدمير الشيء ، لهذا كما أن هناك يجب الحساب الدقيق لتحمل الضغط والحمل في الأمور المادية لصيانة وحفظ موازنتها وسلامتها واستمرار الاستفادة منها مثلها في الأمور الاجتماعية يلزم ذلك . هذا إلى مراقبة أخرىٰ في الماديات والاجتماعيات في حفظ الموازنة ومراعاة الزمن والظروف المحيطة المجاورة والعوارض الطبيعية الحاصلة وما شاكل ذلك .

لكـل ضغط درجة قـد يؤدي بعدهـا إلى انفجار ونضـرب لـذلـك مثـلاً على الأجسام ، فإذا زاد الضغط الـداخلي لكرة لـدرجة يخشىٰ من انفجـارها فما هو طريق الوقاية لاتقاء خطر الانفجار؟ نعم هناك طريقان للوقاية :

١ ــ الـوقايـة من الضغط ومنع وقـوعه من الـداخل . ويكـون بتخفيف الضغط الحاصل ما أمكن فمثلاً كرة نضغط فيها هـواء فنمنع انفجـارها ومنـع تخريبها واتقاء الضرر إلى ما يجاورهـا هو بتخفيف الضغط بـإخراج كميـة من الهواء الداخلي ويعرف ذلك بوضع مقياس لذلك .

٢ ــ الـوقايـة في حـدوث الخـطر وعـواقب الانفجـار فيمـا إذا لم يكن منعه من الداخل فمن الخارج .

إذا فـرضنا لا يمكن اتخـاذ الوقـاية في الـداخل فيلزم اتخـاذ الـوقـايـة الخارجية وهو بتكييف جدار الإناء وتفويتـه لتحمل الضغط على المـطلوب أو بإيجاد ضغط خارجي على كافة نقاط الجـدار بصورة متسـاوية تعـادل الضغط الداخلي . ولا يفرق هـذا الخطر إذا زاد الضغط الخـارجي فإنـه بسبب كبس الإناء بشدة كما يحصل ذلك حينما نفرغ نصف الكرة المعدنية أو الـزجاجيـة بـوسيلة من الوسـائل نفـرغها من الهـواء فإن الضغط الخـارجي بضغطه على الجـوانب يمنع من فكهـا ، وهذا مـا يحصل للقـدور التي يـطبـخ بهـا تحت ضغط البخـار والحـرارة حيث يصعب فكهـا بسهـولـة إذا بـردت ، فيلزم إمـا تسخينهـا لتكـوين ضغط داخلي ، أو بقـوة أُخـرىٰ تفتـح غـطاء القــدر وإذا أحـدثنا ضغـطاً قويـاً خارجيـاً فهو يـؤدي إلى تخريب الإنـاء بـانغمـاسـه إلى الـداخـل وتحـطيمـه إذا كـان زجـاجيـاً ، ولا ينحصـر التخـريب في الضغط المـوجـه من الخـارج إلى الـداخــل بتخـريب الإنــاء فحسب ولكن الضغط الداخلي يؤدي إلى مفاسـد أكبر وأكبـر ، فهو في الـوقت الذي يخـرب الإناء نفسه تخريباً قد يكون كبيراً جـداً فهو يؤدي إلى تخـريبات خـارجية أُخـرىٰ ، كما في القنابل ، ولهذا إذا لم يمكن القيام بوقـاية لتخفيف الضغط الـداخلي أو الخارجي لمنع الانفجـار والحوادث المـارة فلا بـد من الابتعـاد عن الشيء

المحتمل انفجاره . ولا ننسى أن الانفجار قد يؤدي إلى تخريب بناية أو مدينة كما يستعمل في الحرب . ذلك في الأمور المادية وهناك احتمال ذلك في الأمور المعنوية في الأوضاع الفردية وفي الشؤون الاجتماعية وإن الوقاية والعلاج يمكن استمدادها من المادية وتطبيقها على المعنوية والاجتماعية ، وبالعكس ويمكننا الاستفادة من المواد الكيماوية والطبية مثلاً إن لكل مادة صفات خاصة كالأكسوجين والهيدروجين ، بيد أن من تركيبها ينتج مواد ذات صفات أخرىٰ حسب التركيب إما متعادلة أو غير متعادلة وشتىٰ المواد الأخرىٰ المختلفة بصفاتها الواحدة عن الأخرىٰ .

وهكذا في مفردات الطب إن لبعض المواد كالاتروبين تأثيراً خاصاً على البدن ، فهو يوسع حدقة العين وأخرىٰ تعمل عكس مفعول هذه مثل الازرين والبيلوكاريين وغيرها فهي تضيق حدقة العين ، بيد أنها إذا أعطيت كلاهما في العين ، فماذا تحدث؟

أعود بعد هذا البحث لأتساءل : ماذا يحدث لسطح الكرة المعدنية أو الزجاجية إذا زاد الضغط الداخلي والخارجي وكانا متساويين؟ أو إذا قطرنا قطرة الاتروبين وأعقبناها بقطرة البيلوكارين الا تترك القطرتان أثراً ثانوياً؟ وهل تفرق إذا مزجناهما معاً واستعملناهما وهكذا باستعمالنا مادة مسهلة وأخرىٰ مقبضة أو مادة طبية مسكنة وأخرى مهيجة بصورة متعادلة ماذا يكون تأثيرها؟ لا شك أن لكل منها تأثيراً تختلف عن تأثير باستعمالها سوية أو بانفراد . ففي الضغط فإن المادة المحصورة بين الضغطين تختلف باختلاف نوع المادة فقد لا تتأثر إذا كانت صلبة وقد تنكبس وقد ترق كلما زاد الضغطان ، وهكذا المواد الكيماوية بتأثيرها ، فلكل أثر مستقل وأحياناً تُفقد إحداهما أثر الآخر بتاتاً أو يزيل بعض آثارها ، كما في التركيب والتحليل الكيماوي ومفردات الطب ، ويختلف في التطبيق المادي ، وكما أن الأوضاع المادية شتىٰ فمثلها المعنوية ، ولكل مشابهات يمكن تطبيق هذه على تلك للاستفادة القياسية الدقيقة أو التقريبية ، لذا يلزم للعالم

المجرب الاستفادة والتطبيق الصحيح بإحداث مختبرات ومعاهد تطبيقية للوصول إلى الهدف المطلوب ، سيان منها المادية والمعنوية الاجتماعية .

٩ ــ العقد :

في ساعة حرجة وبصورة مستعجلة أردت يوماً أن أفك عقدة الحذاء وإذا بي في جرة واحدة أشكل عوض فك عقدة بل قل نصف عقدة أشكل بضع عقد متخالفة على بعضها أثارت بي حس الغضب حاولت لأقطع خيط الحذاء ولكنه كان قوياً وأقوىٰ أن أستطيع بتره بمجرد اليد إلاَّ بسكين أو مقص ولا سكين أو مقص آنذاك . إلاَّ تعست العجلة وكم فيها من ندامة وتعس الغضب في غير محله لماذا كل هذا؟ وما هو السبب؟

وإذا ما حللت الموقف وجدت أني حين أردت فكها لم أنتبه إلى طريق فكها ولم أنظر لكي لا تتداخل الأطراف وتشكل عوض الفك تلك العقد . والآن وبحكم الضرورة عليَّ أن أنظر مصدر الخطأ وإعادته إلى حالته الأولى ولا يكون ذلك إلاَّ بالتؤدة لأني إن أصررت وجذبت أحد الرأسين بقوة شد على الأُخرى وأشكل عليَّ بها الفك .

فتوجهت إلى محل الالتباس وبدأت أرخي أطرافها من كل جهة حتىٰ بدت لي المداخل والرؤوس وأنا أنظر إليها بدقة ففككتها وأعدتها بكل سهولة إلى الحالة الأولى ، دون قطع الخيط .

هذا ذكرني بلعبة أو قل شعوذة تقوم على أساس العقد وهي أن يؤخذ منديلاً وتعقد أحد أطرافه على الطرف المقابل بشدة ولكن على شرط أن يعتبران الطرف الثاني كعصا لا يقبل الالتواء وإنما الطرف الأول هو الذي يلتوي على الطرف الثاني وعندئذٍ يطوى عقدا الطرف الأول على الثاني ما أمكن عقده اثنتين أو ثلاث أو أربع وأكثر وما أمكن من قوة ، بحيث يحسب الرائي أن فكها يحتاج لأمد طويل ودقة وقوة بيد أنك بمجرد سحب الطرف الثاني الممثل بالعصا وبتوئده على شرط أن لا يحس الآخرون ،

أي حين اشغالهم ، ترى أن جميع العقد قد انحلت من ذاتها لأن الطرف الثاني يكفي سحبه حتىٰ بيد واحدة وهذا السحب يترك العقد المعقودة عليه فارغة وواهية كأنها التفت على لا شيء .

تلك حالتان لها مشابهات كثيرة في الأوضاع الاجتماعية .

الأولى تريك كيف يجب أن تحل العقد المعقودة دون أن تتشابك بتداخل الرؤوس أعني حلها بملاحظة ودقة بدائية قليلة . والثانية تريك كيف تعقدها ليرى الأغيار انها كثيرة العقد بيد بيدك رمز الحل بلحظة ودون أن يلتفت أحد لحلها . وكلا المشكلتين المادية والاجتماعية كثيرة الحدوث للأفراد والمجتمعات .

١٠ ـ تداخل الخيوط أيضاً :

جاءني طفلي الصغير إلى غرفتي وهو يحمل بيديه بكرة خيوط رفيعة قد سحب خيوطها ، فالتفّتْ على بعضها وعلى أزرار ثوبه ، فتناولتها منه وإذا بأمه واقفة ، فقلت لها : أهكذا يترك هذا بيد طفل لم يبلغ بعد الثالثة؟ .

وحاولت إعادة الخيط إلى محلّه على البكرة ، ولكن أنّىٰ لي ذلك وقد اشتبكت الخيوط وتداخلت ببعضها . وكلما حاولت سحب الخيط من جهة تجمعت عدة عقد . وأوقفت السحب ، ولم يكن أحياناً بد في مثل هذه الحال سوى أمر واحد إذا شئت إعادة الخيوط سالمة دون اللجوء إلى تعقدها ، والاستفادة منها سوى التروي ، والهدوء ، والنظر إلى الممرات الرئيسية والمداخل التي تمر بها ، وحلها وفكها الواحدة بعد الأخرىٰ بصبر وحكمة . وهذا ولا شك يأخذ وقتاً طويلاً، وعلى قدر الاستعجال تنعكس الأمور فتتداخل العقد ويشتد الارتباك وتضيع وتضيق الممرات . وقد يضطر الفرد أحياناً إلى بتر الخيط من أول عقدة ليسهل ويسرع فكها ، وقد يضطر إلى قطع الخيط في أكثر من محل واحد ، ثم العودة إلى وصله ثانية ، تاركاً ندبات على الخيط السمح واما إذا كان الطفل قد عبث بها كثيراً ، أو

استعمل أحداً لفكّها بالقوة والعجلة والرعونة فسيؤدي حتماً إلى شبكة من العقد المتداخلة غير المنظمة وعدم الاستفادة بتاتاً من الخيوط المتشابكة ، وكلما كانت الخيوط أدق وأرفع كانت أصعب فكاً وأشد تعقداً .

وكم في الأُمور الاجتماعية المشابهة لهذه في تعقدها وفي أُصول فكها ، وما أكثر أطفال المجتمع التي تتشابك وتتعقد على يدهم الخيوط السمحة ويضطر لفكها إلى ذوي الحكمة والحلم ، وإلاّ كانت كالخيوط بيد الأطفال طبق النعل بالنعل . ولي خماسية في ذلك :

فك كور الخيط والطفل له اللعب بهاتيك سجيه
وهو يدري أُمه تحسب هذا عبثاً دون رويه
فإذا فيه يريد العود للبدء ولف الخيط طيه
سحب الخيط فكانت عقداً قد أعبث الأُم عتيه
عقد الجاهل كم أعيت ذوي اللب وأبلته بليه

١١ ـ التجربة خير دليل :

لا نشك أن العلوم ما قامت ووضعت إلاّ على أساس التجارب والمرء ما جربه كان له خير من العلم إذ العلوم نتيجة التجارب .

قد يستدل المرء على قضية أو أمر يناقضه فيه آخرون فيبرهن هذا على وجهة نظره وينقضه ذلك ، مستدلاً على صحة نظره ومنفذاً قول الآخرين . كأن يقال في مسلك أو مذهب أو أمر اجتماعي أو سياسي فيما إذا اتبع هذا المسلك أو طبقت هذه الشروط أو إذا أُختير فلان رئيساً أو مهندساً في إدارة شركة أو إصلاح عمارة أو معمل فإن العاقبة تكون كذا ، أو يبحث عن اختيار طبيب لمعالجة مريض ، ويقال : إن الطبيب الفلاني هو أحسن الأطباء لمعالجته بالنسبة لتشخيص المرضىٰ وتعيين الدواء ، وما إلى ذلك ويحصل من يناقض هذا مستدلاً استدلالاً عقلياً قوياً أو ضعيفاً .

بيد أن كل هذا ينتهي فيما إذا جرب المهندس والطبيب والمربي

وصاحب الطريقة وكل فرد آخر وكل آلة أو أي شيء وعلى الأخص في نفس الأمر موضوع الجدال ، لأن التجربة أقوىٰ دليل . وهذا ما يلزم الامعان فيه في كل شيء حتىٰ في المذاهب والأديان . بعد التجربة يظهر الحق من الباطل ، ويمكن استعراض الأمور وحقائقها على العقل السليم الخالي من الشوائب شوائب العرف والعادة المستحكمة ، البعيد عن تأثير الغرائز والأغراض . ومن الجهل المركب الجدال في أمر بديهي أو أجمعت على حسنه أو قبحه العقول السليمة والألباب الحكيمة ، ذلك العقل الذي لا يقبل التعصب الأعمىٰ والعزة بالإثم .

وقد يمكن وضع قانون أدبي ذلك الذي وضعه الأدباء حتىٰ قالوا :

« حدث المرء بما لا يليق فإن صدق فلا عقل له وحدثه بما يليق فإن كذب فلا رأي له » .

١٢ ـ طبائع البشر : لجلب الخير ودفع الشر :

اثبتت التجارب أن طبائع الناس تختلف كاختلاف طبائع الأجسام الحية ، فمنهم كالهرة متملقة ، ومنهم كالكلب صديق وفي ، ومنهم كالعقرب يلدغ بالفطرة ، ومنهم كالذئب وحشي وغدار ، ومنهم كالنحل يعطيك عسلاً وأنت ملزم لاتقاء لسعه ، ومنها كالأغنام تعطيك لحماً ولبناً وكساء وما لا يُعد ولا يحصى ، منها ذات ضرر وذات داء عضال أكثر ، ومنها ذات نفع أكثر من الضرر، ومنها مختلطة ، ومنها المغتالة ، ومنها الأمينة . وإلى جانب كل خصلة حميدة في كل جسم خصلة مذمومة وبالعكس وعلينا البحث عنها للاستفادة من الحميدة واتقاء الضارة . لذا من شاء إدارة شؤون الغير ومن أراد السيادة والإدارة أن يكون مجهزاً بالعلم والحكمة والتجربة بمعرفة طبائع البشر على اختلاف نحلهم ومللهم واختلاف عقائدهم وأذواقهم ، فالأغنام يحسن رعيها وزنبور العسل يتقن تربيتها وتكثيرها والعقرب يتقي شره والطفيليات الضارة يبيدها ، وهكذا . والإنسان حيث يختار بعقله فهو يضع عقله لخدمة غرائزه أكثر الأحيان ،

فهـو بحاجـة إلى دقة أوسـع ومهارة أكبـر للوقايـة منـه من شـره والعمـل على تهذيبه لتكون غرائزه في خدمة العقل . والحكمـة تقضي لمن يريـد أن يديـر إمـارة أو مملكة الحـل والفصل ويستعمـل ما تقتضيـه المصلحة العقليـة دون النظر إلى العواطف وهو ما يحكم به الوجدان وتأمر به الشرائع الحقة .

والمشـرع لا يحكم بالقصـاص قبـل الجنـايـة أو الأضـرار بـأحـد قبـل حصـول ضرر منـه ، وينهىٰ عن الاغتيـال والغـدر . وعلى من أراد أن يكـون مديراً الدقة في المراقبة والـوعي الكافي ، فهـو إلى جانب السمـاح بالحـرية أن يبث العيـون ويتحرىٰ بـدقة عمـل المخربين والمعتـدين وإحاطتهم كـأمـر للوقـاية . ومن جهـة ثانيـة تشجيـع من يستحق التشجيـع على الحسنى ، ثم السعي على تحسين الوضع الأخلاقي والاجتماعي بالثقافـة والتعليم والإرشاد من طريق التربية والتعليم .

١٣ ــ عرقلة صغيرة تجر وراءها عراقيل :

خفـ إلى سمعي ضـوضاء بـدأ يتزايـد وأتبعته أبـواق السيـارات وهـرج ومـرج ثم صخب وغوغـاء كانت أعـظم من مـظاهـرة عـاديـة ، فهـرعت إلى الشبـاك المـطل على الـطريق العـام ، وإذا بـالسيـارات الـواقفـة قـد مـلأت الشـارع من أقصاه إلى أقصـاه ، وإذا بالمـارة يهرعـون ويخترقـون السيـارات وإذا بأصحاب السيارات الواقفة جيرى قـد سد عليهم الـطريق من الأمام ومن الـوراء . وهذا دعـاني إلى النـزول من الـطابق الأعلىٰ إلى الشـارع لأتحـرىٰ السبب ، حتىٰ إذا بلغت المبـدأ وإذا بسيـارتين اصـطدمتـا على أثـر استـدارة إحـداها ، وكـان اصطدامـاً خفيفاً جـداً لا يعتد بـه لـولا لجـاجـة المصـدوم والصـادم اللذين بقيـا يتنـازعـان في محلهمـا . وكلمـا مـرت دقيقـة ازدادت المشكلة مشـاكـل وتكـدست السيـارات حتىٰ عمّت الشـارع من أقصـاه إلى أقصـاه . ولم يكن هـذا إلاّ مثـالاً صغيـراً من عشـرات بـل مئـات العـراقيـل والمشـاكل ، وربما تجاوز هـذا التكدس وأثـر على شوارع أخـرىٰ لها ارتبـاط بهـذا الشـارع ، ثم نعـود لنـرى مـا يتـرتب على هـذا من تعـرقـل الأعمـال

والمكاسب ، إذ كل صاحب سيارة إنما ركب سيارته ليصل إلى مقصده وينجز عملاً إما إدارياً أو تجارياً أو صناعياً أو عائلياً وأموراً أخرىٰ ، وكل واحد مرتبط به ارتباطاً له انجاز أعمال تتعلق بآخرين ، ومنهم من أعطىٰ وعداً أو يجب أن ينجز عمله في وقت محدد ، وإذا كان موظفاً فقد أثر تأخره على غيره من المراجعين الذين ينتظرون قدومه ، وإذا كان تاجراً تأخر عمله التجاري أو المصرفي أو الجمركي ، أو معاملاته مع غيره ، وربما أثر هذا التأخر باعتبار أفراد وأحدث أضراراً مادية واعتبارية . تلك حادثة بسيطة أبسط ما يمكن أن يتصوره الفرد ، ولا بد لفتح الطريق من إعادة السيارتين إلى وضعها الأصلي ثم تسريح السيارات بعدها الواحدة تلو الأخرى. وقد يكون الشارع طويلاً فتطول المدة .

لم تكن هذه الحادثة تخص سير السيارات فحسب ، بل هناك ما يقابلها من عرقلة بسيطة اجتماعية يختل على أثرها أوضاع اجتماعية أو سياسية تؤثر على الأوضاع السياسية أو العمرانية . وهكذا وكل حادث يتأثر بالظروف التي تحيط به ، وكثرة الحوادث المتشكلة به والسبيل الطويل أو القصير الذي ينتهي إليه ، كما هو بالنسبة لسعة وطول الشارع وكثرة أو قلة المرور الذي يخترقه . فاتقاءً لمنع وقوع مثل هذه المشاكل يلزم وضع حد ونظام ينظم السير ويقضي على مثل هذه العراقيل بسرعة فائقة إن حدثت ، مهما كانت صناعية أو اجتماعية أو غير ذلك . هذه هي الوقاية وهذا هو العلاج .

وهذا الموضوع ذكرني بأبيات شعرية أرسلها الوالي الأموي من إيران (ري) سابقاً إلى الخليفة الأموي يعبر بها عن القضاء على مشكلة بدائية قبل اتساع الخطب ووقوع الكارثة بقوله :

أرىٰ خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
إذا لم يطفها عقلاء قوم يكونِ وقودها جثث وهام

إلى أن يقول :

أقـــول من التعجب ليت شعــري   أيــقـــاظ أمـيــة أم نــيــام
فــإن كـــانــوا لـحيـنـهـم نـيــامــاً   فقــل قـومــوا لقــد حــان القيــام

فكـانت نتيجـة الإهمـــال والاعـراض اتســاع الخـطب ثم الاطــاحـة بامبراطورية عظمىٰ .

١٤ ـ انتقال طبيعة المأكول للآكل :

إن أكل لحوم الحيوانات تورث صفاتها للآكـل ، فلحم الإبل والضـأن يورثان القبض والإمساك ، كما نجـد ذلك في مـدفوعهـا ، وأكل لحم البعيـر يـورث تحمـل العـطش لحمله نفس الصفـة ولحم السمـك يـورث العـــطش لحمله نفس الصفـة في حبه للمـاء والخ . ولـذلك يمكن القـول أن العرب في الجاهلية كانوا معـروفين بأخـذ الثأر ودوام المعـارك والعداء بين كثيـر من القبائل ، وتـلك من خصـائص البعير حيث يستفيـدون من حليبه ولحمـه فهو يورثهم صفاته المادية والمعنويـة من تحمل المشـاق والحقد . ولعـلَّ السبب المنـطقي الذي دعـا الاديان السمـاويـة إلى منـع لحم الخنـزيـر وأكله ومنـع لحوم الحيوانات الكاسـرة هو مـا فيها من الصفـات غير الممـدوحة اكتسـابها لإنسان عاقل ووجدان حي .

هكـذا النبـاتـات فمـا كـان لهـا من خـواص تورثه لآكلها فـالتي تنبت بـالصحارىٰ القـاحلة قليلة الماء تسـاعد آكله على تحمـل العطش ، والنـابتة في المناطق الحارة تساعدهم على تحمل الحر ومـواجهة مـا تواجهـه هي من عـوارض طبيعية ، ومـا تنبت في الفصول الحـارة تساعـده على تحمل الحـر وعوارضه ، والاثمار الحاصلة في الفصول الباردة مسـاعدة على تحمـل البرد ولا تصلح كالأولى لفصل الصيف ، وكل نبت وفاكهـة يصلح أكلها في ذلـك المحيط والمحيطات المشابهـة له أكثـر من غيره . فـالتمر في بـلاد الرافـدين

وفي الصيف ولأولئك الذين نشأوا عليه واعتادوه فهو خير من بلاد أُخرى وفصل آخر وأفراد آخرين ويساعد على تحمل الحر[1] .

١٥ ــ قابلية اكتساب البدن والروح لصفات الخير والشر :

في الأمور الصحية الطبيعية أن لبدن الإنسان خاصية الدفاع طبيعياً وبالغريزة . ولكل عمل مادي ومعنوي انعكاس ورد فعل على البدن وفي البدن . وللبدن تجاه كل أمر غريب داخلي وخارجي مادي أو معنوي إذا كان غريباً عليه مقابلته بالدفاع ، ثم الهجوم لدفع خطره وترميم تخريبه ، ولأجل ذلك يمكن اتخاذ الوقاية أمام أكثر الأخطار الفجائية بتكوين حالة دفاعية جاهزة في البدن فيعطي اللقاح في كثير من الأمراض السارية لتكوين مناعة في البدن ضد ذلك المرض ، كالجدري والهيضة وأمثالها . وهو يطبق على كافة الاحياء .

كما يمكن استعمال الاستحمام بالماء البارد وصنع رعشة بردية مصطنعة من حين لآخر اتقاء من البرد المفاجىء وعوارضه الضارة والابتعاد عن الزكام والصداع ، والعادة على الحياة الخشنة من أكل ونوم ووسادة وغطاء من حين لآخر لتعويد البدن على الصعوبات ، ولكي لا يقهر ويضجر أو يمرض ويعتل إذا صادف تلك وهو معتاد على النعومة . هذه من ناحية مادية وهناك يقابل كل واحدة جهة معنوية وعقلية وروحية فتعويد النفس على تحمل الصعوبات المعنوية والآلام الروحية والصدمات العقلية بالشجاعة والبسالة ورباطة الجأش والإرادة وبالجلد والصبر تجعل من المرء بطلاً لا يقهر أمام مشاكل الحياة ، وعلى قدر ما يرمي إليه من الأهداف يحصل على نتائجها الغالية ، ولكل أمر مادي يقابله أمر معنوي وأدبي واجتماعي والعكس.

---

(١) يروىٰ عن رسول الله محمد بن عبدالله (ص) قال : المعدة بيت كل داء ـ والحمية رأس كل دواء . وأعطوا النفوس ما عودت والنفوس تعتاد ما تتناوله من طعام منطقتها ذات الطقس . المعين من حيوانية ونباتية واعتادته .

أيجوز لنا أن نستمد من هذا مقاييس صادقة للراحة والعناء ، وبالعكس أي أن العناء بعد الراحة ونتجاوز ذلك إلى موارد ومطالب أخرىٰ؟ .

لا شك أن التعب في الإنسان يعقبه الشعور بالراحة فكأن الراحة لا يشعر بها المرءُ إلّا بعد بذل الجهود وتحمل المشقات حتىٰ لو كان هذا التعب باختيار الشخص ومحض إرادته ، وهذا ما يحاول الحصول عليه الكثيرون عند شعور السأم فيقوم ليقضي وقته ولو بالمشي أو قيامه بأمر متعب غير منتج لمجرد أن يستريح بعدها .

وعلى هذا هل يمكن القول ان كل فعل في الحياة يجلب نقيضه؟ كيف ذلك؟ لنضرب على هذا مثلاً : هل أن البكاء الحاصل على أثر تأثر وحزن يجلب راحة الخاطر كما في التعازي؟ وإن الأفراح الكثيرة أو الضحك يعقبه حزن وسأم كالافراط في سماع الموسيقى والملاهي والسينما والافراح؟ أم ان كل تلك هي من نوع العمل الذي يجهد الشخص مهما كان نوعها يحتاج بعدها إلى الراحة؟ أو أن لكل أمر مادي أو معنوي درجة إشباع وغاية يقف إليها عند المرء كما في السوائل وكل سائل له قدرة في درجة معينة من الحرارة لإذابة بعض المواد ومثلها النفوس لها درجة تحمل وطاقة خاصة بها لتحمل التعب الجسمي والتعب الروحي كما لها درجة إشباع خاصة في تناول الطعام والشراب التي هي بحاجة لها وتناول المواد الضرورية التي تحتاجها . كما أن النفوس بحاجة لدرجة معينة للتمتع من المناظر بالنسبة للنظر والانغام بالنسبة للسمع ، وهكذا قل في كل حاسة ممتعة أو مؤلمة بدنية أو فكرية أو نفسية وما زاد أو نقص كان متعباً لها .

١٦ ــ درجة الاعتدال ــ الزائد كالناقص :

إن حد الاعتدال طالما تحدث عنه العقلاء والحكماء والأدباء ، فمنهم من قال لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر . وقال آخر : الزائد كالناقص . وجاء في القرآن : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا**

تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ٢٩] . ونقل عن الإمام الباقر بن السجاد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يخاطب ابنه جعفر الصادق عليه السلام : « يا بني خذ الحسنة من بين السيئتين » أي الحد الوسط فما قل أو زاد كان سيئة ، وكما قال آخرون : خير الأمور أوسطها .

وربما كان ذلك منطبقاً على موارد مادية ومثلها معنوية فقد نقل عن محمد بن عبدالله رسول الله (ص) وهو يخاطب علياً (ع) ، قائلاً : « يا علي هلك فيك اثنان ، محب مغال ومبغض قال » ، وعلى هذا حتىٰ في البغض والحب كانت درجة الاعتدال خير الدرجات . وإذا ما طبقنا ذلك على الاثمار مثلاً كان خيرها الذي بلغ حد الكمال في النضج ، وما قل أو كثر كان غير مرغوب فيه . وهذا ذكر في محادثتين :

أولها : مررت يوماً مع عمي بالسوق وأنا طفل لشراء بعض المأكولات ، حتىٰ إذا وقفنا على الحاج سلمان ، وهو مختص ببيع « الرقي » ، فقال له عمي بعد السلام : أود أن تعطيني رقياً جيداً . فأجابه : على عيني سأعطيك فوق الجيد . فشكره عمي ، وقال : ارسل لنا (كذا) مقدار إلى البيت . ففعل . بيد أننا ما كسرنا واحدة منها إلاَّ وكانت قد تجاوزت حد النضح ، يعني قد استحال أكثرها إلى ماء وهو غير مرغوب فيه من الرقي والبطيخ ، فكان الحاج سلمان قد صدق قوله وما كان لنا إلاَّ أن اكتسبنا تجربة ، وهي أن لا نقبل بعدها فوق الجيد من الرقي والبطيخ .

ثانياً : كما قلنا إن الفواكه جميعاً لها ذرجة نضوج سواء كانت على الأشجار أو بعد اقتطافها ، ولا شك أن درجة النضوج الطبيعي على الشجرة خير من درجته خارج الطبيعة ، ولهذا نرى أن أحسن الفواكه ، ومثلاً البرتقال ، هو البرتقال الذي نضج على شجرته ، وما مرّ عليه وقت طويل أخرجه إلى الجهة الثانية ، فقلل من نفعه . إذ مررنا مرة ببلدة رامسر ،

وهي من قرى مازندران المعروفة بالبرتقال ، وكان مرورنا في أواسط الصيف ، في فصل لم يكن فصلاً للبرتقال ، بيد إننا وجدنا على ممر السيارة وعلى أرض المسيح فتياناً يحملون البرتقال يعرضونه للبيع ، فاشترى صاحبي منه رغم اني قد منعته ، وقد أغراه منظر ذلك البرتقال ، وقد اشتراه بثمن غير بخس بل بأثمان عالية . ولما كسرناها وجدناها يابسة من الماء فقدت كل حلاوة وحموضة ، فهي كالعصير الذي لم يبق فيها حتىٰ قطرة من الطعم والرائحة لأنها تركت على أشجارها أو خارج الشجيرة بصورة تجاوزت حد المعمول والاعتدال .

ونعود إلى موارد أُخرى عن الحد الوسط أو درجة الاعتدال ، لنرى أن الافراط في الافراد في البغض والحب والمدح والذم مذموم بتلك الدرجة في الاغراق والمبالغة . وإن الاعتدال في النوم هو الدرجة المطلوبة دائماً . فمن قل نومه اعتل فكره ، ومن نام أكثر من الطبيعي ثقل جسمه وفكره ، وتعود على الكسل والخمول . ويظهر الاعتدال في تناول الطعام والشراب . وما أحلى الآية القرآنية : ﴿ **كلُوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٣١] . فتلك خير الوصايا لحفظ صحة جهاز الهضم . وهكذا الأشغال البدنية والفكرية ضرورية للإنسان ، على أن لا تصل لدرجة تجهد وتعل البدن ، ولا تترك لدرجة يعتاد المرء على الكسل فتعود عليه بالأمراض البدنية والفكرية . وطالما شاهدت أفراداً تركوا أشغالهم البدنية بدون عمل فأصيبوا بأمراض جهاز الهضم .

وخلاصة القول خير الأُمور هو الاعتدال في كل شيء .

١٧ ــ الظاهر دليل على الباطن :

هذا أمر طبيعي وفطري في الحيوانات والفطرة الطبيعية الواقعية الأصلية عند البشر .

فملامح الحزين أو المسرور أو الشجاع أو الجبان أو الخائف ، وأي

شعور وإحساس تطفو وتظهر على ظواهر الشخص حتىٰ ليستطيع المتفرس أن يدرك ما يكنه ذلك الفرد . ولكن هل يمكن أن نخالف في هذا الأمر؟ كأن يكون الفرد خائفاً وتكون ملامحه دالة على خلاف ذلك أو يكون حزيناً وتظهر على محياه الأفراح . . الخ؟

نعم يشترط في ذلك قبل تغيير ظاهره تغيير باطنه ولو تصنعا ، كالممثل حينما يتظاهر بالشوق المبرح وتتساقط أو تنهال دموعه ، صحيح أنه تصنع ولكن تصنعه بدأ من الباطن وبعد ذلك طفح على ظاهره ولا يمكن غير ذلك أي في آن واحد ويكون باطنه خلاف ظاهره .

والآن نبحث الموضوع من وجه آخر، فالصبي أو الشباب في ظواهره المرح واللعب والحركة وحب التجوال والرياضة والشيخوخة والهرم في ظواهره السكنية والهدوء والوقار وعكس ما مرّ ، فإذا قضي على شباب أن يلتزم بصفات الشيخ من الهدوء والسكينة وغيرها ، وبالعكس إذا فرض على شيخ (سواء كان هذا الفرض نفسياً أو خارجياً) ان يزاول أعمال الشباب المارة الذكر ، فهل تحصل فيهما في الأول روح الشيوخ وفي الثاني روح الشباب؟ وإذا قلنا : نعم فلأي حد؟ وإذا تبدلت هذه الروح ، فهل تظهر على الشاب علائم الشيخوخة وعلى الشيخ علائم الشباب؟ ولأي حد؟ أعلىٰ حركاته وسكناته أم تنتقل إلى تقاطيع الوجه والبشرة؟ وإذا دام الأمر ، هل يخط الشيب الشباب ويعود الشيخ إلى شبابه في شعره وتجاعيده؟ .

ربما كان الظاهر دليلاً تماماً على الباطن في الحيوان ، بيد إنه في الإنسان لا يمكن القول بذلك حتماً ، إذْ إن هناك بواطن عميقة وكمينة يتلاعب بها الإنسان بقصد مصالحه ، فيحاول تغيير باطنه مؤقتاً وهو يكون عميقاً غير ذلك ، وعلى الخصوص إذا كان ماهراً بحيث يغري الآخرين ويخدعهم ويحتال عليهم ثم القيام بعمل يضمره .

١٨ ـ كيف تنشأ الصدمات؟ وكيف تزول؟

من الأمور العادية التي طالما صادفت كل فرد في حياته وتكررت له حينما تصادف السيارة حجراً أو نتوءاً أو حفرة ، كيف تحدث صدمة للركاب وهزة ضعيفة أو شديدة على قدر الحجر أو النتوء ، إذا كان كبيراً أو صغيراً ، أو الحفرة إذا كانت كبيرة أو صغيرة عميقة أو غير عميقة ، وربما إذا كانت الصخرة كبيرة جداً اصطكت بها ، وأحدثت قتلىٰ أو جرحىٰ ، ومثلها الحفرة إن كانت كبيرة انقلبت فيها وأحدثت مثل ذلك انهداماً للسيارة وراكبيها . بيد إنه قد يمهد للصخرة مهما كانت كبيرة ، والحفرة مهما كانت عميقة وواسعة ، يمهد لها طريق الصعود والنزول بصورة تدريجية ممهد للصعود ، أو مسرحاً للنزول حيث تبطل بها الصدمة العنيفة ، وأما ما يعتور طريق السيارات من صخور كبيرة وصغيرة أو ندبات أرضية كبيرة وصغيرة تهز وتحدث صدمات كلما تباعدت هذه عن بعضها ، وقد تتقارب بحيث تبلغ أبعادها أقل من ربع فخمس فسدس مساحة دائرة عجلتها ، وقد تتقارب إلى الثمن والعشر نسبة إلى مسافة النتوءات أو الصخور الملقاة على سطح الأرض ، وهذا التقارب يقلل الصدمات لا سيما إذا زادت سرعة السيارة لدرجة كلما تقاربت قلت الصدمات والشعور بها حتىٰ تنمحي على أثر تقاربها إلى جانب بعضها ، وقد يشاهد المرء بالمكبرة إذا شاهد الأرض المنبسطة انها تؤلف خطراً ونتوءات عظيمة لا يحس بها في السير بالنظر لحجم السيارة العظيمة وسرعتها إذا نظرت بنفس المكبرة فالأرض المبلطة والأرض المسطحة ما هي إلّا قمم اصطفت إلى جانب بعضها البعض صفاً متقارباً ومصطكاً يجعل منها سيراً ممهداً سمحاً حتىٰ في السير الخفيف .

هكذا طالما صادفنا في سيرنا ونحن حفاة الاقدام رأس دبوس أو شوكة واخزة أو رأس مسمار أو حجراً صغيراً مدبباً نفذ لداخل اللحم وسبب تلفاً وجرحاً وألماً لنا وذلك لأن ثقل الجسم توجه كله إلى ذلك الرأس المدبب وأحدث العارض ، ولا شك إذا فرضنا أن عوض رأس مدبب

واحـد لو كـانت عشرة ، وعـوض العشرة لـو كانت مـائة ، وعـوض هـذه لـو كانت ألفاً ، يعني كلما كانت أكثـر قل النفـوذ بسبب توزيـع هذا الثقـل على عـددها حتىٰ إذا تقـاربت واصطفت تبلغ درجـة يستحيل بهـا نفوذ حتىٰ رأس الدبوس ، ولو كان ذلـك على أرق قسم في البدن . ويمكن التسـاؤل إننا إذا صففنا رؤوس الدبابيس المدببة إلى جانب بعضها أمكن عمل صفحـة ناعمـة لا يمكن أن تحـدث حين تماسهـا أي عارض مؤلم أو تخـريب . ذلك درس وعبرة يطبق عليها كثيراً في الحياة الاجتماعية .

١٩ ــ درجة الاشباع في الماديات والمعنويات :

جرت محاورة بيني وبين صديقي حينما وجـدني أطلب السفر والهجـرة إلى أوروبا وأمريكـا وبلاد أُخـرى ، بغية التـزود في العلم وبتدرج الاصـلاح ونشر الآراء والعقائد الصالحة والدعـوة للسلام والبـر والإحسان ، فقـال : إن بإمكانك أن تقوم بهذه في بلادك هذه والأقربـون أولى بالمعـروف وهـم أحوج في تلك دون تكبـد المشاق والغـربـة . فـاكتفيت عن التفصيـل بتـلاوة الآيـة القرآنية :

﴿ إن الـذين توفـاهم الملائكـة ظـالمي أنفسهم ، قـالـوا : فيم كنتم؟ قـالـوا : كنـا مستضعفين في الأرض ، قـالـوا : ألم تكنْ أرض الله واسعـة فتهـاجروا فيهـا؟ فأولئـك مأواهم جهنم وسـاءت مصيراً ﴾ [سـورة النسـاء ، الآيـة : ٩٧] . فاختـلاف حريـة الفكر والمنـطق والقلم وضرورتهـا من أهـم الدواعي للهجرة من جهة ، ومن جهة ثانية بـإمكان المـرء أن يغير لهـم المـاء العذب بالشكل والطعم الذي يروق لـه بأي لـون ورائحة وطعم ، ولكن هـل بإمكانه وقد أصبح مشبعاً بألوان مختلفـة وروائح متبـاينة ومـواد ذائبة متنـاقضة بحيث لا تقبل شيئاً آخر البتة؟ قلت : هـذا هو محيـطنا بعينـه لا أذن صاغيـة ولا عين واعية ولا مسند للخير يعتمد عليه أو مأوىٰ يلجأ إليه في الشر .

فـالماء العـذب كالمحيط المستعـد لتلقي الخير والشـر كمـا أن المـاء مستعد لإذابة السكر والملح .

٢٠ ـ اخطاء الحواس والتعود عليها لا تضيع الحقيقة :

هناك مراكز في الدماغ تميز وتعطي لكل حاسة مميزاتها وخواصها لتحكم في الذوق بين الحلاوة والمرارة وبين الحلاوة السائغة وغير السائغة ، كالسكر والسوس ، وبين المرارة السائغة كالقهوة ، وغير السائغة كالحنظل والصبر ، والمناظر الجميلة والقبيحة بالنسبة للبصر ، وهكذا الشم واللمس وغير ذلك من الجهات المادية ، كما تعرف القبيح من الحسن في الأمور المعنوية العقلية والنفسية مما تستسيغه نفوس العقلاء والحكماء ، ويأباه ذوو المنطق السليم من آراء وعقائد وأفكار ، وكما يعتاد المرء على جهات مادية رغم أضرارها صحياً واقتصادياً مما يناقض المنطق السليم وينهاه العقل الواعي كاستعمال التدخين والمسكر والمواد المخدرة .

٢١ ـ الانقلاب : جمعها انقلابات :

كلمة انقلاب مصدر فعل انقلب . حيث يقال : انقلب وجهاً لظهر أو رأساً على عقب ، أي على عكس ما كان عليه . ويقال : حدث انقلاب من دولة أو حكومة أو قبيلة ، يعني تغير وضع الحكم فيها رأساً على عقب ، من ذلك تغيير وتبديل في كل شؤونها من أفراد وأنظمة وقوانين وغير ذلك بأفراد وقوانين جديدة ، وعلى الأكثر معاكسة . ومثل ذلك يقال : عن الانقلابات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والادارية حينما يحدث ذلك على أثر تبديلات فجائية ومحسوسة ومغايرة لسابقتها ، وخير الانقلابات هي التي تنقلب من السيء إلى الحسن ، وأقل منه من حسن إلى أحسن . ونجمل القول الانقلاب إلى الأحسن وأسوأها هو الانقلاب من الحسن إلى الأسوأ وكم في ذلك من أمثال مادية ومعنوية .

فكما أحدث ظهور الإسلام انقلاباً في كافة شؤون الاعراب في أنظمتهم وقوانينهم وأوضاعهم الاقتصادية والسياسية والإدارية وكل شيء ، كان عكسه الانقلابات التي ظهرت للأمة الإسلامية على أثر الفتن الداخلية وغارات التتر في الشرق والصليبيين في الغرب وما أحدثته الفتن الداخلية

العنصرية والدينية والعقائدية والحروب الطاحنة وتغلب أُمة أو قوم على أُمة وقوم والقضاء على حضارتها وثقافتها لمجرد تغلب قهري أو مادي وأخذ ثرائها وحضارتها وإبدالها بالجهل والخمول أو حدوث عكس ذلك .

وبالامكان الاستفادة من أخذ نماذج للانقلابات المادية وتحليلها وتجزيتها ومعرفة خيرها وشرها والأصول اللازمه اتباعها بغية الوصول لانقلاب الى الأحسن والتخلص من مساوىء الانقلابات التي كثيراً ما تجر الى الدمار والخراب حتى ربما قضت على صاحبها ومدبرها . اذ كثيراً ما يقوم فرد أو أفراد بقصد الاصلاح أو اقامة نظام في دولة غير التي هي عليها للوصول الى خير نوع من الانقلابات نضطر الى ضرب أمثال مادية وثم الاقتداء بها للانقلابات الاجتماعية .

لنفرض أننا أخذنا مجمرة ، وهي عبارة عن سلة صغيرة ذات سلسلة صغيرة يوضع داخلها فحم وبضع جمرات ، ثم يمسك نهاية السلسلة وتدور السلة (المجمرة) في الفضاء ، بحيث يتسبب تحريكها في الهواء اشتعال الجمرات وسراية الشعلة إلى باقي الفحم واستحالتها إلى جمرات أيضاً ، تبقىٰ محفوظة من السقوط على الأرض بالنظر للقوة المركزية التي تلصقها بأسفل السلة المانعة من سقوطها رغم أن أعلاها مفتوح . فإذا أردنا وقف هذه الحركة أو أردنا إجراء حركة لجهة معاكسة فماذا علينا أن نفعل؟ .

علينا تقليل سرعة حركتها تدريجياً حتىٰ إذا وقفت الحركة السابقة قمنا بالحركة المطلوبة والجهة المطلوبة حركتها وسرعتها تدريجياً ، وإذا كان القصد إجراء احتياط أقوىٰ عملنا مشبكاً نغطي به السلة .

أما إذا لم نرع ذلك كأن أوقفنا الحركة فجأة ارتبك وضع الجمرات وربما أسقطت ، وأما إذا قمنا عوض قيامها بالدوران يساراً إلى اليمين فجأة ، كان الخطر أشد علينا وعليها ، وربما إذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة أدى ذلك إلى حريق وإلى ضياع أكثر الجمرات وانتشارها وخمودها

على أسرع ما يكون ، ومهما كان الأمر فسوف لا تكون النتيجة أحسن مما كان ومن المسلم أننا نحصل على نتيجة أسوأ .

إن الذي يود أن يكتب أو ينقش نقوشاً على صفحة فخارية أو فلزية منقوش عليها نقوش سابقة ، فإن كان المطلوب إزالة الصدأ أو التراب والأوساخ الموجودة عليها ، يلزم الدقة الكافية أن لا يؤدي حمله إلى تصدعها بالعمل الدقيق وبيد مجرب فني بعيد عن التهور والعجلة ، وأما إذا كان قصده إزالة كل أثر وإيجاد نقوش أخرى ، فعليه الدقة والملاحظة أن لا يؤدي ذلك إلى تصدع الصفحة ، وقبل العمل أن يرى هل أن الصفحة لها القدرة والقابلية لإجراء ذلك وهل أن عمله لا يذهب سدى . إن التجربة والحكمة والدقة في الأمور ماديها ومعنويها لها أثرها الفعّال في نجاح ذلك ، وإن العمل الجاهل والمتهور لا يعود إلاّ بالحرمان والخسران . وإذا كان يرتأي كتابة ونقوشاً ورأى عدم قابلية تلك الصفحة لتحمل ذلك فالأجدر إيجاد صفحة جديدة وقوية ومتينة للقيام بمشروعه وإهمال تلك القديمة البالية ، وقد يكون هذا الأخير أقل زحمة وأقل كلفة وأبدع نتيجة .

أما إذا كانت الصفحة عليها كتابات أو نقوش وكانت غير مرغوب فيها ويرى تبديلها بأخرى مختارة ومنتخبة ، فالأجدر مسح الأولى تماماً أو طلاؤها بمادة يغطي أثرها ثم القيام بالكتابة المطلوبة عليها ، وأما إذا أراد أن نضيف عليها موارد الإصلاح فهذا قد يسبب إبهاماً وتداخلاً يخرجها من المعنيين ويكوّن منها شيئاً مبهماً فاقد الغاية المطلوبة ، والخلاصة يلزم إذابة السكر في الماء العذب النقي للحصول على الشراب الملذ المطلوب ، والنقش على صفحة واضحة نقية من الخطوط والنقوش لإدراك ما يكتب أو ينقش عليها من كتابة أو صور .

٢٢ ــ من هو المرء المهذب (الحكيم) :

يختلف أفراد البشر وجماعاته من حيث الدين والعقيدة والرأي

والأخلاق والعرف والعادة واللغات والخلقة والمعلومات والوراثة والعنصرية وغير ذلك .

فمن حيث الدين نجد بينهم عبدة الأصنام والكواكب والحيوانات والطبيعة والزنادقة والموحدين ذوي الأديان السماوية وغير السماوية وعبدة الماء والنار ، وكل من هؤلاء يتشعبون ومختلفون في مراسم العبادة ، ومن حيث العقيدة والرأي في الأصول والفروع وشتىٰ النظريات ، فمنذ بدء التاريخ إلى هذا اليوم ما لا يعد ويحصى ، وأخيراً نجد الدمقراطيين والفاشيين والشيوعيين وتتشعب كل منهم إلى أقسام ، وذوي الرأي بالحكومات المطلقة الدكتاتورية وذوي الآراء ، والفكر الفلسفية والحكمية منذ العهد القديم إلى الحديث من اليونان حتىٰ العهد الإسلامي ، فالقرون الوسطى ، فالعهد الجديد وتضارب الآراء وتقاربها .

والأخلاق والعرف والعادة بين قبيلة وأُخرىٰ وأُمّة وأُخرىٰ ودولة وأُخرى في مختلف قبائل وشعوب وطبقات البشر ، فمنهم يحسب سلوكاً ما حسناً وسلوكاً قبيحاً وعادة حسنة وأُخرى قبيحة وعرفاً مألوفاً وآخر مستهجناً ، في حين أن قبيلة أو شعباً آخر يناقض هذا في شتى شؤون سلوكه[1] .

فمنهم من يجيبك ويصافحك بيديه وآخرون بحك الأنوف وآخرون بتقديم الهدايا والورود وآخرون من شأنهم عند التلاقي أخذ قمله من رأس الآخر والتهامها . كما يختلفون في إقامة مراسم خاصة للزواج أو مراسم دفن الموتى وتشييعهم ، فمنهم يجري مراسم الزواج بالرضا والعقد والتهليل والتصفيق ، ومنهم من يقيمها على قواعد أُخرى ، كما جاء في كشكول جمال ، وضع البنت على شجرة واحتفاء أهل البنت بالشجرة وهم

(١) فنجد عند قوم من الهنود إذا أخرج ريحاً أمام جماعة قالوا له راحت وإذا لا يقال له ذلك كان خلاف الأدب ، في حين أن جماعة من العرب يعد ذلك عاراً وفضيحة لدرجة قد يحكم على نفسه بالموت أو النفي من تلك الأرض ، عكس ذلك في «التدريع» أي إخراج الريح من البلعُوم والفم عند جماعة مباح وعند غيرهم قبيح .

مسلحون بالعصي والحجارة وما شاكل ، وعلى من يريدها للزواج اقتحام هؤلاء والصعود على الشجرة وحملها والنزول بها إلى أسفل ، واقتحام الجميع خروجاً ، و. . و. . ما لا يعد ويحصى من أمثال ذلك ، وفي وضع الأموات دفن الميت مع أعز زوجة عنده حية ، أو غطس رأسه قبيل الموت في الماء حتىٰ يموت ثم طبخه وأكل لحمه ودفن عظامه . وأنواع التحية وأُصول التجارة والمبادلة ومختلف الأزياء والألبسة واختلافهم بالزينة البدنية والحلى ، فمنهم ذوو اللحى على اختلافها ، ومنهم من يحسب الأسنان البيضاء والشفاه الرقيقة الحمراء والبشرة الناعمة من بواعث الجمال ، ومنهم من يحسب النساء من الممتلكات كالحيوانات مثل الدواب من خيل وجمال وأغنام ومنهم من يحاسبها حساب الند للند ، ومنها من يحترمها فوق ذلك ويأتمر بأمرها . ومنهم من لا يستغني عن لحوم الحيوانات ، ومنهم من يحرمها ، ومنهم يتجاوز ويحلل حتىٰ أكل لحوم البشر ، ومنهم من يأبىٰ حتىٰ قتل حشرة صغيرة ، ومنهم الأبيض والأحمر والأصفر وكل من هؤلاء يختلفون خلقة وجمالاً عند فرقهم ، ويحسبون ما عندهم هو المقدس المحترم ويختلفون كبيراً وصغيراً ويختلفون شعوراً وإحساساً ومدارك ويختلفون دراسة ومعلومات .

وبينهم الاختلافات في العنصرية فمنهم العرب ومنهم الجرمن ومنهم الساميون ومنهم الآراميون ووالخ . . وكل يفتخر بعنصره ومبادئه .

وإلى غير ذلك من الموارد المختلفة بين طبقات البشر التي تجعل البعض على نقيض الآخر وموضع دهشته بالنسبة لعقائده ودينه وشكله وعاداته وزيه وكل شيء يراه غير الذي عنده . هذه كلها عند الرجل المهذب تكاد تكون عادية وغير مفاجئة ولا مدهشة فلا يندهش إذا سمع أن زوجاً عوض أن يطلق زوجته أكلها مع زوجاته الأُخرىٰ[1] أو رأىٰ قتل

---

(١) كما حدث لمبشر مسيحي أقنع زنجياً إفريقياً ليكون مسيحياً ثم علم أن له أكثر من =

الزوجات ودفنها أحياء مع أزواجهن الموتى[1] أو أي حالة غريبة أُخرى بالنسبة لبيئته ودينه وشعبه ولا يدهشه أن يجد الصادق وإلى جنبه الكذاب المنافق ، وهذا المتزهد الموحد ، وهناك الزنديق الملحد المنكر لكل شيء ، ولا يعتريه التذمر لاختلاف الآراء الاقتصادية . نعم عند الرجل المهذب كل شيء عادي وأمر حاصل وواقع ، وغير مدهش وغريب ، وكل ما هناك عليه أن يعرف مقابله كل أمر وحادث وفرد برحابة صدر ، ويعالج الأُمور بالعقل[2] والمنطق السليم الذي وحده يعرف كيف يميّز الخير من الشر ، والحسن من القبيح ، ويحاول السيطرة على أفكاره وآرائه ، بحيث تجلب له الخير وتدفع عنه الشر ، ويحاول بث روح الإصلاح ما أمكن أينما حل . هذا هو الفرد المهذب المتزن في الماديات والمعنويات أو كليهما .

٢٣ ـ روح المصاحبة والصفات المكتسبة :

زرت أحد الأصدقاء الجامع للعلم والأدب والتجربة والمقام المرموق والروح السامية المتآلفة الفياضة المشعة . هو البروفسور « فضل الله رضا » سفير الحكومة الإيرانية في كندا ، وقد كان فيها من قبل أشهر أساتذة الولايات المتحدة في أشهر جامعاتها ، وله مؤلفاته المترجمة من اللغة الإنكليزية إلى اللغات الأُخرى ، كما كان رئيساً لجامعات إيرانية ، ثم انتقاله إلى السلك الدبلوماسي وتسنمه مناصب السفارة في فرنسا وكندا ، ورغم ذلك فهو أينما حل يفيض على جامعات تلك الأقطار بمحاضراته العلمية باللغة الفرنسية واللغة الإنكليزية واللغة الفارسية التي يتقنها جيداً ،

= عشرة زوجات فأقنعه الاكتفاء بواحدة وبعد شهر أعلمه لم يبق عنده سوى واحدة وحينما سأله وماذا عمل بالباقيات أجاب أنه أكلهن ! .

(١) كما يعمل بعض راجات الهنود من طوائف ومذاهب خاصة .

(٢) ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٦٩] .

ولا يفتر رغم مؤلفاته العلمية في الفيزياء عن ممارسة مقالاته الأدبية ويربط العلم بالأدب باستدلالاته العلمية ، في مجال الأدب وعلم الاجتماع ، وقد جمع بذلك كتاباً من نشراته في الصحف ، وتلا علينا مقالاً من هذا الطراز ، والذي في طريق النشر ، مشيراً إلى أنه لو أطلقنا على العضو الصالح رمز (A) والفاسد رمز (B) وأدخلنا (P) على أحدهما ينتج من ذلك بعد الاجتماع (X) ويستمر في استدلاله ويربط ذلك بشواهد من الشعر الأدبي الاجتماعي الفارسي . ولشد ما كان سروره عظيماً أن تلوت عليه ما يؤيد قوله أبياتاً من الشعر العربي منها :

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح أخذت فيما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

وقول الشاعر : إن الطيور على أمثالها تقع
وآخر : وكل قرين للمقارن يقتدي .

وهناك من الأمور والموارد ذات العلاقة في الموضوع . منها رباعية للخيام كنت ترجمتها إلى العربية وهي :

روحي الفدا لمعاشر أهل بصحبته أنسجم
سيهون إجلالاً له إني أطأطىء للقدم
إن شئت تعرف يا أخي على اليقين جهنماً
فجهنم الدنيا معاشرة المخالف إن لزم

والقول العربي المثل المشهور : الأرواح جند مجندة ما تشابه منها ائتلف وما تباين منها اختلف .

وذكرت كتابي هذا وما بحثت فيه من تطبيق الموارد الطبيعية على الاجتماعية وبالعكس ، ووجدت أن هناك كثيراً من الموارد الطبيعية الفيزيائية وأخرى الكيميائية يمكن تطبيقها على كثير من الموارد الأدبية والاجتماعية وبلوغ نتائج ثابتة واستدلالات قوية .

فمثلاً لو بحثنا في الخلط ، من خلط مواد مركبة جافة مع بعضها ، كالسكر مع السكر أو السكر مع حامض الليمون ، أو مزج محلول هذه مع تلك في المركبات أو القيام بعمل السبائك من العناصر المذابة تحت شروط معينة . وما ينتج من ذلك من مواد جديدة نراها في مختلف الأطعمة والمصنوعات تجاه الذوق والشم والبصر واللمس ، تتغير حسناً وقبحاً في إحساساتنا .

وهناك غير عملية الخلط والمزج بل هو تركيب مواد جديدة من اتحاد مركبات مع بعضها أو عناصر مع بعضها أو عناصر مع مركبات تحت شروط معيّنة في درجات الحرارة والرطوبة والمقادير لانتاج مواد أُخرىٰ تخالفها من حيث الصفة والخواص ، ذات قوانين ثابتة كاتحاد الأُكسجين بالحديد أو الأُكسجين بالهيدروجين فيحصل في الأول أُكسيد الحديد وفي الثانية الماء ، وكل منها تخالف أُصولها صفة وخواص .

أو تركيب حامض الليمون المذاب بالماء مع بيكربنات السوديوم المذاب وحصول سترات الصوديوم التي تخالف بصفاتها المركبين الأولين ، ونحن نعلم أن هناك عناصر لا تصل إلى المائة والخمسين عنصراً على وجه البسيطة ينتج من اتحادها ملايين المركبات في هذا العالم المتمايزة بصفاتها وخواصها والمتباينة عن أُصولها تنشأ تحت ظروف وقواعد وشروط خاصة . وبعدها نعود إلى كلمتنا المارة لنقول ان الناس معادن ، وقولنا معادن لا نعني عناصر وحسب بل نعني عناصر ومركبات تختلف عن بعضها البعض في مميزاتها بيد قد تكون هناك مشابهات لعنصر الحديد أينما وجد والذهب أينما وجد وأمثالها وهناك المركبات ، ففي الناس ما هو حلو الطعم كالسكر ومنهم المر كالحنظل ، بيد ان الحنظل رغم مرورته له موارد الانتفاع به ، والسكر رغم حلاوته له أضراره في كثير من الموارد ، وللحوامض منافعها ومضارها ، وهناك الحل الوسط في مزج الحلو مع الحامض ، وهناك ملح الطعام واثره على حاسة الذوق إنْ زاد أو نقص ، وفي هذا ينشأ اختلاف في الأذواق فربَّ مركب بحاجة إلى ملح وآخر لا

يحتاجه وآخر بحاجة لقليلة أو كثيرة ، فنرى البشر وهو كالمعادن ومركبات هذا الكون تتقرب وتتكامل مع بعضها وتعتدل أو هي تفسد وتتباعد من الذوق لما تحويه وما تحتاجه ولما تسد به من العوز الموجود فيها .

وهناك من المواد والمركبات الأكثر طلباً لهذا البشر كالهواء والماء لما يقوم عليه حياته على شريطة أن لا يصل الماء في تعكيره بالأملاح وما اختلط به والهواء بما شابه مما يفسد عليه أمره .

لهذا نرى الخيام في شعره حينما يقول روحي الفدا لمعاشر أهل بصحبته أنسجم كما مر ، فيرى الجنة فيمن وافقه وجهنم فيمن خالفه فهو ما يشعر في ذلك نقاوته من الشوائب أو وجود شوائب فيه تلطف حالة وتسد حاجته وتصلح خلته ، وقد يسد خلة زيد بكر بينما لا يصلح بكر هذا لسد خلة عمر لاختلاف ما يحمله ، ولا يشترط أن يكون التآلف متشابهاً فقد يكون الملح مصلحاً أحياناً لطعام ومفسداً لطعام آخر ، في الوقت الذي نرى اضافة الملح إلى الملح لا يزيد فيه ولا ينقص ، وعلى هذا إن إضافة الشيء إلى مثله لا يحدث فيه علّة ولا يسد عنه خلة[1] ، وأما إضافة الملح إلى اللبن الحامض فيحسنه ويسد خلته وإضافة السكر إلى السكر لا يزيده ولا ينقصه ، بينما اضافة السكر للحوامض القوية تحسنه وتقلل من شدته وتلطف من مذاقه .

ومن جهة أُخرى فهناك آلاف القواعد والقوانين للوصول إلى تركيب مواد أُخرى.

ونحن إذا عرفنا مم يتركب هذا الإنسان من عناصره ومركباته ، نستطيع أن نتوصل إلى إصلاحه بالشكل الذي نجده يصلح للمجتمع الصالح من جهة ، أو نكوِّن منه مركباً يوافق زمرة من المركبات أو مركباً

---

(١) هنا في الجمار أما الاحياء فيخالف فالمفسد إلى جنب المفسد يزيده فساداً سواء كان بالتزاوج أو التعامل وإسناد الواحد للآخر .

آخر ، فكل إنسان معدن مركب له مميزاته وصفاته كما ذكرنا ، ولكل منا حاجة إلى ما يسد نقصه باقترانه إلى مركبات أُخرى . أما المعادن النقية وأخص منها العناصر أو المركبات النقية كالماء والهواء فهي كالاطفال الأبرياء الخالين من ذوب المعادن المعكرة أو الذائبة ، أخص منها تلك التي ولدت من آباء وأُصول طاهرة فهي كمياه العيون العذبة الصالحة للحياة وتلوينها وإذابة ما يلزم فيها . أما المشبعة فلا ، وعلينا تبخيرها وتقطيرها لاستخلاص الأملاح منها ثم الاستفادة منها حيث شئنا ، ولا ننسى أن خلط قدح ماء نقي مع ماء غدير مالح يضيع فيه ولا نرىٰ أثراً باقياً لنقاوته ، وبالعكس إضافة قدح من ماء البحر إلى غدير عذب يضيع فيه بقدر ضآلة القدح ووسعه الغدير في كلا الحالين ، ولذا قيل إن هذه القلوب أوعية وإن أوسعها أوعاها ، وحقاً لتجد بين البشر بحاراً في طهارتها ونقاوتها من رجال الإصلاح من ذوي الرأي والحكماء والأنبياء والصلحاء ، وهناك بحاراً في رجسها وتلوثها من المردة والشياطين البشرية التي يتلوث بهم العالم وتضيع فيهم الأفراد الأنقياء كما يضيع القدح الرائق في البحر المالح الأجاج .

كما مرّ نستطيع أن نقوم بالتربية الأدبية والاجتماعية والإصلاحية من انتخاب الأفراد والتربية ، والمحيط الصالح خير الشروط لتكوين البيئة الصالحة ووضع الأفراد إلى بعضها ، يجب أن نقدر درجة ما يحملوه من وعاء الخير والشر كل منهم وعندها نستطيع أن نعرف المنتوج العائد من هذا الخلط أو المزج أو التركيب على حد ما مرّ .

٢٤ ــ بلوغ الهدف :

شاهدت فوق إحدىٰ البواخر الصغيرة العائمة على نهر الراين على ساحل مدينة كولن الألمانية المشهورة بكنيستها دوارة هوائية ذات اتجاهين متعاكستين ، في حركتها الأولى تدور من اليمين إلى اليسار والثانية تدور من اليسار إلى اليمين ، في حين إن اتجاه الريح واحد . فقد كانت الأولى

وضعت على مـدارهـا على شكــل والثـانيــة نصبت قــوتهـا على شكـل ريـح (معـاكس) ، فقلت لصـاحبي انـظر إلى هــذين كيف يـدوران متخـالفين في اتجاه ريــح واحـدة فهي تشبـه رجلين متخـالفين يقـومـان كـل حسب ما وجه له غريزياً واعتاد عليه لبلوغ أهدافه تحت تأثيرات واحدة .

ذلك ما يمكن الاستفادة منه في كثير من الموارد الاجتماعية .

٢٥ ــ نظرية هل تصدق : العلاج بالنوم الطويل :

لـو أمكن تنـويم المـرء طـويـلاً ، أيـامـاً ، أسـابيـع ، أو أشهراً حسب الحـاجة ، فمـاذا يطرأ على عـاداته التي اعتـادها ، مـادية كـالمعتـادين على العقاقير كالانسولين مثلاً أو المواد المخدرة والمنبهة أمثـال الكحول والمــواد المخدرة على اختلافهـا وما شـابه ذلـك ، أو الاجتماعيـة من سلوك حسن أو سيء كـالمعتادين على القمـار والسهرات والمفـرطين في الأمور الجنسيـة أو المحتالين والمختلسين والنصابين وأمثال ذلك؟ .

هـل ان هذا النـوم الطويـل يقـوم مقـام التـرك للمـدة نفسهـا كـالتـارك للتـدخين أسبـوعـاً والكحـول شهـراً والهيـروئين مثلهـا من أولئـك المـدمنين عليها ، أولئك الذين يريدون حقاً التخلص من شـرها . هـل يمكن استعمال ذلك كوقاية تارة وعلاجاً أخرىٰ ، والتفنن فيه؟

كيف يجب أن يجري ذلك التنـويم؟ أبالمنـوم المغناطيسي ، أم بمـراد كيمـاوية ، أم بـطرق جراحيـة من ربط وشل أو بتـر أو تـوقيف مصـدر الحس واليقظة في البدن أو غيرها؟ .

هـل نكون هـذه النظريـة في المستقبل قـانونـاً لشفـاء كثيـر من الأدواء المستعصية؟ .

٢٦ ـ فرِّق تسد :

يستفاد اليوم في الطب من عقار الكورتون لتضعيف المكروبات أمام قوى البدن المدافعة بالتفرقة والشل فالقضاء على الآحاد المتفرقة أسهل بكثير من القضاء على عصبة قوية متراصة ، خصوصاً إذا كان هذا المرض والاجتماع يزيد من فعالية وتوالد الجرثومة السريع وتقيها من هجمات الكريات البيضاء المدافعة والمهاجمة ، وإذا ما تفرقت أصبحت لقمة سائغة لالتهام الكريات البيضاء وشلها من قبل المواد التي يزجها البدن للهجوم والدفاع وعندها تقضي عليها جميعاً .

وإذا أمكننا ذلك في موارد معنوية كألم متمركز في ناحية خاصة من البدن كالسن أو العين أو غيرها مثلاً ، وأمكنة توزيع هذا الألم الذي يحز في قلب المصاب لانتشر الألم وخف أثره ، ولو أمكننا وضع مقياس لهذا الألم كمقياسنا للأوزان مثل الغرام وأمكننا أن نوزع هذا القدر من الألم المتمركز في ناحية السن إلى جميع البدن ، لما أصاب كل ناحية إلاّ قسماً أقل من جزء ربما يقل عن واحد من الألف بل وأقل بكثير ، وعندها ينعدم أثره ، وربما أمكننا تقليل الألم بتوجيه حس الألم إلى جهات أُخرىٰ كإحداث آلام مصطنعة، وأحسن من ذلك إشغال الفكر المتمركز لهذه الناحية من الألم إلى أُمور أخرىٰ تنسيه هذا أو خداعه فيشعر بزواله كما يحصل ذلك بالتلقين في النوم المغناطيسي بل وحتىٰ في كثير من الموارد في غير النوم المغناطيسي ، سيان في موارد عصبية أو نفسية وحتى بعلل مكروبية مثل التهاب السن أو مادة سمية كلسع العقرب . منها يظهر أن القضايا المادية لها أثرها الفعّال في الموارد غير المادية ، وبالعكس ان الموارد غير المادية لها أثرها الفعّال في البدن المادي . فأحياناً يمكن القضاء على الآلام الحاصلة من التأثيرات المادية في البدن من طرق معنوية بالتلقين كما مرّ أو المغالطة كما يعمل بعض الأطباء بزرقات من الماء المقطر لمريض بالاسما أو لتسكين آلامه ، أو بطرق التلقين غير الكلامي كما يعمله القدماء من الأدعية والشعوذة .

والتعاويذ أو ما يعمله اليوم من طريق النوم المغناطيسي أو التلقين بالطرق الأُخرى[1].

وقد يكون المرء سليماً من كل الجهات المادية والمعنوية وتحريك جانب، مادي أو معنوي فيه أيضاً بالتلقين أو النوم المغناطيسي . فكثيراً ما أعطى المنوم لنائم قطعة ملح وقال له انها قطعة سكر ، وأيد الوسيط انها قطعة سكر وتلذذ بحلاوتها ، هذا من جهة مادية أو لقنه في أمر معنوي فجعله مسروراً أو محزوفاً في أمر لا صحة له حيث أودعه في صميمه فشعر ببهجته أو ألمه وقد تحصل مثل هذه عند بعض الأشخاص بسبب التلقين

---

(١) وقد طبقت ذلك شخصياً وكراراً أذكر منها اثنين الأولى : إحداها سنة ١٩٣٩م كنت رئيس مستوصف في كربلاء وكان عندي خادم في المستوصف الحاج حسين كان في سن الكهولة أُصيب مرة بالاسما فجاءني وفي حالة مزرية يكاد يختنق فأعطيته حقنة مركبة من الادرينالين والاتروبين أخذها لمضمد المستوصف وبعد تزريفها بمدة خمسة عشر دقيقة عاد لحالته الطبيعية مزاولاً أشغاله . وكانت الحالة تعاوده كل أُسبوع حتىٰ تكررت ستة أسابيع وهو على نفس الشاكلة وفي السابعة أعطيته الامبول وأرسلت على المضمد سراً وطلبت منه أن يعمل له ماء مقطراً فحسب وانا أُلاحظه عن كثب فكنت أجده في كل مرة يستريح ١٠ ـ ١٥ دقيقة ثم يعود يزاول أعماله وبعد ثلاث مرات من زرقات الماء المقطر جاءني الحاج حسين (الخادم المصاب) وهو يرجوني اخباره عن هذه الزرقات الأخيرة الثلاث فقلت له إنها نفس المادة إلّا أنها من شركة أجل في سابقتها فصدقني وقال: إن مفعولها كان أعظم فائدة من الأولى لأنها تشفيه دون أن يحدث له دوران وغثيان .

وأُخرىٰ كان عندي كاتب أُصيب بوجع أسنان واستمر الوجع ثلاثة أيام عجز عن رفع ألمه فقلت له سوف أُشفيك وطلبت منه أن يكون ذلك سراً بيني وبينه فكتبت له حروفاً على ورق وطرقت عليها بمسامير على شاكلة ما يعمله ذوو الأوراد والأدعية باعتباره طلسماً وأنا أرقيه وكانت ثمانية حروف وما أن بلغت الطرق على الرابعة إلّا وانقطع الألم فتركت وبرىء من ألمه ولم يعاوده وعاد إلى كتابته وأعماله العادية .

ولي أمثالها موارد كثيرة طبقت فيها الموارد المادية على المعنوية وبالعكس أعلاه كانت في اليقظة ولي أمثالها في حالة النوم المغناطيسي .

النفسي حيث يصورون من الأوهام حقيقة أو من الحقيقة أوهاماً ، ويختلف هذا عند الناس اختلافاً بالغاً بيد أن كليهما موجود وحادث في الناس بصورة متباينة قد تبلغ شوطاً بعيداً أو بعيداً جداً مهما تصنع الفرد منهم وادعى الصمود والشجاعة . تلك أهم مظاهر الشجاعة والجبن في أفراد البشر . .

الوقاية خير من العلاج ـ الهاوية التي يزل إليها المرء وضرورة حدها :

قال تعالىٰ في سورة البقرة، الآية ١٩٥ : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾.

لذا وجب الامتناع البات عن كل ما ثبت ضرره مادياً كان أو معنوياً منها :

١ ــ مجموعة المواد المضرة من كحولية ومخدرة .

٢ ــ مجموعة الأسلحة الكيماوية والفيزيائية والميكانيكية والحيوية .

٣ ــ مجموعة العقائد الفاسدة التي ثبت ضررها .

٤ ــ مجموعة العادات والأعمال المضرة غير المنتجة من أمثال القمار والملاهي الخلاعية والعدائية والتعاليم الفاسدة على شاشات السينما والتليفزيون والحاكي والكتب الضالة المفسدة أخص في عنفوان العمر .

٥ ــ مجموعة السياسات الاجتماعية والاقتصادية من السيطرة الفردية والجماعية من جمعيات وحكومات على الثروات والأسواق المخالفة للعدالة والإنسانية ، من خلق الفتن وهضم الحقوق وبث القلاقل والسير خلاف العدالة وايجاد أدواء وضغوط على نواحي من هذا الجسم للمجتمع الإنساني الذي إذا أُصيب عضو منه أنّت بقية الأعضاء والإسراع إلى العلاج الحقيقي فوراً، بسعي الخبراء المخلصين بصدق النية ، وصدق اللهجة وصدق الدعاية وتعميم السعادة بقطع دابر الجهل ، دابر الفقر والفاقة دابر العقائد المفرقة الفاسدة ، حد العصبيات والمنابزات .

منع الاحتيال والكذب ، نشر الحقائق والقضاء على منابع الدعايات الكاذبة والمخربة والمثيرة ومنع كل مضر للفرد والجماعة فوراً متىٰ ثبت ضرره مهما عاد بفائدة على البعض كما مرّ أعلاه .

٦ ــ وبالتالي سد أبواب الفساد والابتعاد عن افراد وجماعات تستهوي النفوس وتعقب الأضرار والخراب والأمراض كالابتعاد عن ذوي الأمراض خوف العدوى ، كالابتعاد من مصاب التيفوس والسل والجذام والجدري والحصبة ، والابتعاد عن مجالس القمار ومجالس الخمرة والابتعاد عن أفراد عرفوا بالكذب والاحتيال والنفاق وأمثالهم ، والابتعاد عن جمعيات يخونون أنفسهم وغيرهم من أولئك الذين يشكلون الخيانة والتعدي والتجاوز على الفرد والجماعة كالجمعيات المتعاطية بالمواد المخدرة والسرقة والجاسوسية وإضرابها ، وهي إنْ لم تضر الفرد بعدواها لنفسه بيد يمسه منها التهمة . والطبع مكتسب من كل مصحوب .



الكتاب الثالث

أهم مَنْ بحث وسعى لإقامة حكومة عالمية
بما في ذلك من حكماء وساسة وقواد وأنبياء



الكتاب الثالث

مقدمة :

ونبحث فيه عن ذوي الآراء والأديان . وقد بحثنا في كتابنا الأول عن حكومة الطبيعة ، والثاني أمثلة تطبيقية بين الماديات والمعنويات ، وسوف نجد الكتاب الرابع يبحث عن ثلاثة نماذج من الحكومات الحيوانية الحشرية التي فاقت كما سنرى في سلوكها الاداري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي وغير ذلك سلوك البشر المتفوق حسب ادعائنا بنمو عقله ورأيه ، والذي مضى على تقدمه في الحياة عشرات الآلاف من السنين انتقل بها من حضارته ومدنيته وثقافته في العلم والفن بصورة مطردة إلى الكمال ، ومع ذلك لم يبلغ بأعماله ونظامه وما كسبه من الهدوء والسعادة والحياة المرفهة ما بلغته هذه الحشرات بل ولا بعض ما بلغته ، ويعلم الله هل هو بالغ درجتها في الاستقرار والسكينة والسلام في المستقبل أم لا .

وهذا كتابنا الثالث نقدم فيه نماذج من آراء وعقائد وأديان وأنظمة من مختلف طبقات البشر ، منذ العهد الغابر البعيد إلى يومنا هذا ، وما بذلوا فيه من الجهود الفردية والجماعية لأغراض شخصية ومنافع وغايات خاصة بحكم العواطف والغرائز وإشباع جشعهم ومطامعهم . أو دفعتهم لذلك مقاصد إنسانية ووجدانية بدافع العقل والمنطق وحب الخير بغية الوصول من هذه الطرق إلى السعادة والخير العميم للجميع ، إقناعاً لمشاعرهم وإحساساتهم وبلوغاً لرضاء الخالق الذي يعتقدون بعملهم هذا إنما يدركون به حسنى العقبى والحياة الدائمة السعيدة .

ولقد مرّت على هذا البشر منذ أن كان يعيش بإنفراد أشبه بالحياة الوحشية أو شكل جماعات صغيرة وتماثلت للتوسع إلى عائلة فقبيلة فمدينة فمملكة فامبراطورية ، ومن جهة ثانية إلى جماعات تجمعها عقيدة واحدة أو دين واحد أو هدف واحد . نعم مرّت على هذا البشر أزمنة طويلة ظهرت بينهم أدوار رقي وانحطاط وتقدم وتأخر بيد أنهم من حيث المجموع وبسبب تدوين العلوم والمعارف تقدموا شيئاً فشيئاً إلى حياة أجل وأحسن لما اختبروه وجربوه .

ولم يكن أفراد البشر على وتيرة واحدة من حيث القدرة العقلية والإحساس والشعور ولا على شاكلة واحدة من حيث الدافع الوجداني وحب الخير، كلا ، ولا كانوا على مستوى واحد في الأنانية وحب السيطرة ، كلاّ ليسوا كذلك ، وهذه الفروق خلقت فيهم عوامل الضعف والقوة والتأخر والتقدم والاضطراب والاستقرار والحرب والسلام .

فجاءت الرسل والأنبياء وأئمة الدين وظهر الحكماء والفلاسفة والكُتاب والمحررون كما ظهر إلى جنبهم الملوك والسلاطين ، وتشتت الأغراض والمقاصد وتضاربت العقائد والآراء منها صالحة ، وأُخرىٰ طالحة منها ، قامت على العقل القويم والمنطق السليم ونحت بما طلبت الإصلاح للمجتمع الإنساني كلّه ، ومنها إنما طلبت أغراضاً خاصة شخصية أو قبائلية أو عقائدية فحسب ، لا تقصد بها سوى بلوغ هدف تسد به رغبتها ومقاصدها دون أن تشعر بما تشعره الأولى من المقاصد الشريفة ومن الأولى قيام الرسل والأنبياء والحكماء والفلاسفة والكُتّاب على أثر ما وجدوا من البشر خروجه عن الصراط السوي وقيامه بالفجائع والمنكرات والمظالم والتعديات فتحملوا بدعوتهم وصرخاتهم أشنع وأهول العقاب والنكبات ولكنهم ما فتئوا حتىٰ أدركوا ما أرادوا فكانت هذه الدعوات تختلف بتأثيرها وسعتها ودوامها على قدر ما كانت لتلك الدعوة من الأثر المنطقي القويم ولصاحبها من الحجة البالغة والإرادة القوية وعلى قدر ما كان له من التدبير

والمثابرة ، هذا من جهة ومن جهة ثانية على قدر ما لا قوة من عوامل العسف والتنكيل . كما أن هذه الدعوة تختلف سعة وضيقاً على قدر وسعة أفراد وأصقاع تلك الشعوب والأمم ومركزها الجغرافي وطقسه .

فكم ظهرت منها في الشرق والغرب والشمال والجنوب ولم يبق منها إلّا البعض القليل بعد مروره على أجيال واختلاطه بأفكار وعقائد أما لوثته أو صقلته . ولا بد لنا أن نذكر بصورة موجزة شيئاً مختصراً من تلك العقائد والآراء والمذاهب منذ القديم إلى هذا اليوم ، وكم كان لها أثر في الحياة الإنسانية ولا بد أن نذكر النبذة من أجل الفلاسفة مثل أفلاطون حينما تأثّر من اضطراب الأوضاع الإنسانية وغلبة عنصر الشر على الخير وما صادفه من عوامل الظلم والجور على استاذه سقراط واقرانه ولنفسه لجور الحكومات وشعوره بتدهور الإنسانية على وضع كتابه الجمهورية التي رمى من ورائها لتشكيل جمهورية مثلى يخلص بها الإنسانية من ويلات الأفراد المستبدين وحكومة الرعاع المسماة بالديمقراطية .

وكذا ما جاء به بعض الرسل مثل النبي محمد (ص) لإنشاء حكومة عالمية يقضي بها على الطغاة ويقيم بها العدل والاستقرار ، شريعة وحكومة أساسها الرأفة والعدالة والمساواة وقوامها الأخلاق الفاضلة تقوم على العقل والمنطق والعلم والمعرفة ، يتساوى فيها الضعيف والقوي والسيد والصعلوك والأسود والأبيض والرجل والمرأة ؛ ولا يتفوق فيها إلّا الأتقىٰ والأنزه والأعلم والأكثر إخلاصاً والأشد حرصاً على العدالة والباذل نفسه لخدمة الخلق في الخير والبر والإحسان .

ولقد كانت كل عقيدة أو دين يتغلب فيه جماعته لا يقوم على الواقع يرهق العقائد والمذاهب والمسالك الأخرىٰ مهما بلغت في التفوق وقضت عليها ، وقلما وجدنا يوماً من الأيام حرية مطلقة لأفراد البشر يستطيعون أن يجادلوا بما لهم وما عليهم دون خوف ، مثلما وجدنا ذلك في عهد النبي

محمد (ص) وفي عصر المأمون الذي أطلق حرية الأديان مهما كانت مسلمة أو غير مسلمة كتابية أو غير كتابية ، تضع على بساط البحث عقائدها وتشرحها وتنافس غيرها وتبدي محاسنها وتدافع عن مساوئها بقوة المنطق والدليل ، فقامت المناظرات في العقائد والأديان في بدء القرن الثالث في عصر المأمون فدونت بها الكتب الكثيرة والرسائل الجمّة في كل رأي مذهب بانفراد وأُخرىٰ للمقارنة . فمثلاً في التي تعتبر منفردة كفرق الشيعة لسعد بن عبدالله الأشعري القمي . وفرق الشيعة للنوبختي والمقالات الإسلامية لأبي الحسن الأشعري ، والتي للمقارنة بين عدة فرق مثل كتاب الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي ومقالات الجبهاني وكتاب الفصل لابن حزم . وبيان الأديان لأبي المعالي وتبصرة العوام في مقالات الأنام للسيد مرتضى الرازي وغيرها . وظهرت هذه الحرية لبعض الفرق على عهد غير العباسيين ، ولم تقتصر هذه المناظرات على الفرق الإسلامية بل ظهرت في غير الفرق الإسلامية في أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين بين أنفسهم أو ما قام في المناظرة بينها وبين الإسلام وما قام من المناظرات بين الفرق الأُخرىٰ شبه الكتابية في المجوس والزردشتية والمانوية والصابئة ، بل حيث توسعت رقعة الفتوحات فشملت الشرق والغرب فبلغت الهند والصين ودخل في المناظرة أهل الآراء ممن درس الفلسفة اليونانية في الغرب أو أهل الآراء من الهنود في البوذية والفرق الأُخرىٰ من عبدة الكواكب والأصنام . ولم تدم هذه الحرية كما كانت بل انتقلت إلى أدوار مظلمة كان يكفي فيها أن يتهم هذا بالاسماعيلية ليقضي على حياته أو ما شاكل ذلك ، وكثيراً ما تحصل هذه الحريات في عصور تظهر فيها وتكثر المعارف والعلوم والعلماء وتتقدم البلاد من الناحية الاقتصادية والأدبية والعلمية والسياسية ، ويتسلم زمام الحكم حكيم مصلح كما ظهر في عهد المأمون ، وقد كان لفضل العهود التي تركت فيها حرية القول والفكر والمناظرة أن ظهرت حقيقة جميع المذاهب والأديان والآراء في جميع العالم بعد أن كانت متخفية متسترة إذ كان التعصب الديني في

عهـد الأمـويين[1] وهـو التعصب القبـائلي والعنصـري أكبـر عـائق في تقـدم العلم والحضـارة وظهور الحقيقـة على أن الإسلام إنمـا قـام في اليـوم الأول على أسـاس المناظـرة ﴿ فقل : تعـالـوا نـدعـوا أبنـاءنـا وأبنـاءكم ونسـاءنـا ونسـاءكم وأنفسنـا وأنفسكم ثم نبتهـل فنجعـل لعنـة الله على الكـاذبين ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٦١] .

ومـا ورد في القـرآن من الـدلائـل العقليـة وحتىٰ وردت في بعض الآيـات : ﴿ ومن يدع مع الله إلٰهاً آخـر لا برهـان له بـه فإنمـا حسابـه عنـد ربـه ﴾ [سـورة المؤمنـون ، الآيـة : ١١٧] ، والشـرك أعـظم جنـايـة في الإسـلام ، لأن الإسلام أول كلمـة يقـولهـا المسلم : (لا إلٰـه إلَّا الله) إنمـا هو التوحيد وعدم الشـرك ، ولكن الإسلام سمح للمشرك أن يقـول ما يشـاء إن كان له دليل وبرهان على شركـه ، وحيث ان النبي إنما يقـوم على أساس المنـطق ولا يمكن لمشرك البتـة أن يستدل على أن الشـرك خير من التـوحيد فقد قيل البرهان والدليل .

وقد كان محمد (ص) منذ دعوته إنما يقوم بالمناظـرة والإقناع بـالدليـل والبرهان وهذا ما كـان يجب أن يقوم بـه خلفاؤه، بيـد أن الخلفاء الـراشدين كـان عهـدهم عهـد فتـوح وانشغـال حفـظاً لهم من التجـاوزات ودفـاعـاً عن عقيدتهم المحاطة بأكبر المخاطر وأعظم الامبـراطوريـات القويـة من مشركين وكتابيين ، ولم يكن المأمـون في إعطائـه هذه الحـرية في المنـاظرة إلَّا تـأثراً بعقيـدة وثقافـة إسـلاميـة خـدمت الإسـلام وأظهـرت حقيقتـه تجـاه العقـائـد الأُخـرىٰ من جهة ، وأظهـرت حقيقة بـل حقائق من أديـان خفية مـا كان لهـا أن تعرف خوفاً مثل المانوية وغيرها ، ويتضح ذلك بمطالعـة كتاب الفهـرست

---

(١) وما نشأ من منع تدوين الحديث والسنة على خـلاف ما جـاء في الشريعـة الإسلاميـة الأمـر بتعلم العلوم قـال (ص) : (طلب العلم فـريضـة على كـل مسلم ومسلمـة ، واطلب العلم من المهد إلى اللحد) . وما ورد في القرآن الكريم ﴿هل يستـوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وغير ذلك .

لابن النـديم حيث نـرى لأي درجـة استـطاع الكـاتب والمحقق أن يحـرر عقائده وعقائد غيره بحريـة ، وحتىٰ نرى المعتـزلة فـرقة من الفـرق التي هي من الفـرق الإسلاميـة تتخذ من انفلسفـة والحكمة اليـونانيـة بـراهين ودلائـل لإثبات عقائدها ، ومنها ما بحثت بصورة مسهبة عن عقائد البـرهمية والبـوذية والأديان الأُخرىٰ الهندية ، وهكذا ظهر الأشـاعرة ، بيـد أن تضعضع الـوضع السيـاسي في الامبـراطـوريـة وطغيـان بعض العنـاصـر والمـذاهب أدىٰ إلى تعصبـات مذهبيـة متطرفـة تجـاه بعضهـا لـدرجـة أخفت تلك الحـريـات في العقائد .

وكـانت نتيجة تلك الحـرية التي أعـطيت في عهد العبـاسيين كما قلنـا كشف العقـائد والأديـان والآراء التي سار عليهـا البشر في مختلف أدواره من أهـل الكتـاب وأشبـاههم وأهـل الأهـواء والآراء ومـا تشعبت كـل منهـا في الأُصـول والفروع ، لهـذا فإننـا نذكـر الأهم فـالأهم وبصـورة مقتضيـة وكـل قصدنا في حـديثنا الـوصول إلى أولئـك الذين استهـدفوا في مسلكهم وضـع شريعة عالمية تجمع كافة الطبقـات والنحل من ذوي الأديـان وغير الأديـان ، لهذا كان جديراً بنا أن نختصر تـارة أو نلمح إلى فـرقة ، ونمـرّ بها مـرّ الكرام ونقف عنـد أُخـرى تلك التي نجـد عنـدهـا بغيتنـا من الحكـومـة العـالمية الصـالحة مبتـدئين فيها مـا أمكننا دون تحيّـز إلى أهـدافهـا ومـراميهـا الـرأي والعلل التي وقفت حجـر عثـرة دون انتشـارهـا ومحـاسنهـا ومسـاوئهـا ، وأن نقارن بينها وبين غيرها بالنسبة للأصلح .

نعم إذا مـا تصفحنا حيـاة البشر منـذ بدء نشئتـه لليوم من جهـة وتتبعنا معتقـداته في الحـال الحاضـر في مختلف الأصقاع ، رغم انتشـار الحضـارة لتوصلنا إلى حقـائق في تدرج الإنسـان في هذه المعتقـدات وتأثـره بالعـوامل الـطبيعية من جهـة ، وثم أثر الجمـاعات الغـازية والسـانحة في تبـادل الآراء والأفكـار وبحكم الطبيعـة ومنذ النشئـة الأولى، كان الإنسـان بحكم غـرائـزه واحتيـاجاتـه وتأثـره بـالآثـار الـطبيعيـة من ليـل ونهـار ونـور وظـلام ووحشـة واستئناس واضطراره لسد حاجاته ، وتعرضه للزوابع وهطول الأمـطار والرعـد

والبرق والسيول المتدفقة والوحوش الكاسرة والبراكين الثائرة والغابات وما تحويه من رهبة ووحشة من سكون دامس مرة وهلع من وحش مهاجم عابس ، وحر وبرد وما لا يعد في تلك العوارض وأشدها اتقاء بني جنسه ، لدفع خطر داهم طمع بمغنم في القادم ، كل تلك بعثت فيه التفكير والخيال بوجود قوى خارقة وأشباح وأوهام تخالجه طوراً بوحي النفس أو يتلقاه من آخرين في الأفعال والأقوال ، تلك كانت منشأ العقيدة وسلوك الطريقة أن هناك قوى وأرواحاً وأشباحاً تضره وتنفعه يخافها ويطمع بها فكانت النواة الأولى لعبادته لحيوان(1) أو نبات أو جماد أو كواكب التي سميت فيما بعد بالتواتم ، أو قدسوا الأرواح والأشباح والأجنة والشياطين ، ومن الأرواح أرواح الأبطال من الموتى وأمثالها ، وهكذا يتقدم البشر في حياته في شتى نواحيه حتى في العبادة وتزيد تجاربه وثقافته واختص كل فريق بمعبود يهابه لدفع شره واتقاء ضره أو جلب خيره ، حتى ظهرت الحضارات الأولى في وادي النيل ووادي الرافدين والصين والهند وفارس وبلاد اليونان ، أولئك الذين عددوا أرباب النوع ووضعوا لكل رب أسطورة وجعلوا منهم لكل مادة أو بادرة رباً ، فقالوا : رب الحنطة ورب التمر ورب العواصف ورب النار والماء ورب الشجاعة ورب الخير ورب الشر إلى آخر ما هنالك من الأرباب . وهكذا تفننوا بأشكالها وتحدثوا عن صفاتها ، وإذا ما سرنا إلى الجزيرة العربية وبلاد الهند والصين وجدنا لكل قبيلة وإمارة وثناً وصنماً ومنهم من تجاوز أرباب الأرض إلى السماء ، وعبد النجوم كالشمس والقمر ومنهم النجوم الثوابت وأخرى الكواكب السيّارة وإلى آخر ما هناك من تعدد هذه الآلهة التي تضيق بذكرها ورسمها وصفاتها هذا الكتاب ، وكلما تقدم الفكر البشري تقدمت معه النظرة إلى المعبود وسمو صفاته وإعداده حتىٰ نرى بينهم الثنيوية الذين قسموا الآلهة إلى اثنين كآلهة الخير وآلهة الشر كالزرتشتية في بلاد فارس ، أو القائلين

---

(1) هي العقيدة التوتمية .

بالثالوث كالمسيحية الذين قالوا : بأن الله واحد بألوهيته وثلاثة باقنونيته ويتشكل من الأب والابن وروح القدس ، كما جعلوا لله ثلاثة وجوه . لاهوتية (معنوية) وناسونية (مادية) واقنومية (وصفية).

وآخر ما وصل إليه الفكر البشري في الرفعة والسمو يوم قال بوحدة الإلّه وكماله المطلق ، ذلك جاء به الرسل وهؤلاء إما كتابيون أو أشباه كتابيين كأولي العزم من الرسل فمنهم من خلف كتاباً جاء به من الله وظلّ هذا الكتاب قائماً كاملاً ثابتاً لم يطرأ عليه يد الخلاف كالقرآن ، ومنهم من جاء به وقضى عليه وأعاده الحواريون والربانيون المعتنقون له مثل التوراة والإنجيل ، ومنهم من لا يعلم عن وجود كتابهم من أثر كنوح وإبراهيم وكل ما بقيت هي أصول عقائدهم التي طوتها الكتب السماوية الباقية ، وبعد هذا نعود لنشرح بعض العقائد والأديان والآراء التي شملت الشرق والغرب وظلّت آثارها إلى هذا اليوم .

الهند : وكلها بما فيها من مئات العقائد تنطوي تحت لواء أهل الآراء لا الأديان السماوية (التي أنزلها الله على يد رسله من الأنبياء والمرسلين) ونذكر أمهات هذه ونبدؤها:

البراهمة : هؤلاء ينسبون إلى شخص يسمى برهام ينكر النبوة ويستدل على انكارها عند أصحابه بقوله : إن الرسول إذا ادعى الرسالة وأتىٰ بأحكام فهي إما أن تكون معقولة أو غير معقولة . فإذا كانت معقولة فالعقل الكامل يكفي لإدراكها ، وإذا كانت غير معقولة فهي غير مقبولة لأننا لا نرتضي غير المعقول وقبوله ينافي المنطق والإنسانية ويسوقنا إلى البهيمية والبراهمة فرق كثيرة منهم : البدرة وذوي الفكر وذوي التناسخ .

البدرة : ومعناه من لم يولد بهذا العالم ولم ينكح ولم يأكل ولم يشرب ولا يشيب ولا يموت وهو السيد الشريف الذي عاش ٥٠٠٠ سنة واجتنب عن عشرة أمور : ١ ــ القتل . ٢ ــ التجاوز على ملك الغير . ٣ ــ الزنا . ٤ ــ الكذب . ٥ ــ النميمة . ٦ ــ الشتم . ٧ ــ البذاء .

٨ ــ السفه . ٩ ــ شناعات الألقاب . ١٠ ــ جحود يوم الجزاء . واستكمل الحق بعشرة أيضاً : العفو ، والتعفف ، والتأمل للتخلص من هذا العالم الفاني ، والعمل للحياة الباقية . وترويض العقل بالعلم والأدب . وتوجيه العقل في طلب العلى ولين القول وطيب الكلام مع كل فرد وحسن المعاشرة مع الاخوان ، وتفضيل رغبته على نفسه ، والاعراض عن الخلق ، والتمسك بالحق ، واجهاد النفس بغية التقرب إلى الله .

ذوو الفكر : وهم القائلون بالنجوم الثوابت على عكس صابئة الروم القائلين بالنجوم السيارة ويقيسون الأحكام على خصائص الكواكب التي ينسبونها له ، فمثلاً يعتبرون زحل السعد الأكبر لكبره ورفعته ، ويحسبون أنه يهب السعادة العظمى من جهة ، وأن أضراره أقل الأضرار ، ويقول : إن الفكر وسيط بين المعقول والمحسوس وإذا ما تجرد الفكر في هذا العالم أمكنه التجلي على أسرار العالم وتوصل لكشف المغيبات وعمل الخوارق ، ومن هذه الطائفة البكرنتينية وهم يحلقون الرؤوس ويعرون الأجساد ويرسلون اللحى وأعمال مماثلة أخرى لا مجال لذكرها حيث نبتعد عن موضوعنا .

منهم ذوو التناسخ : وهم يشبهون الأفلاك بطائر عشعش في شجرة وحينما يبيض وقبيل التفريخ يسبب حرق البيضة بمنقاره فيسيل زيت إلى أسفل الشجرة ويتجمع هناك في غار وكل سنة في وقت معيّن ينتج من ذلك الزيت طير آخر ويكرر نفس العمل وهذا يشبهونه بالكواكب حيث تعود كل سنة إلى مقرها ويختلفون في الدورة الكبرى فيقول البعض ٣٠٠٠٠ سنة وآخرون ٣٠٠٠٠٠ سنة ومنهم ٦٠٠٠٠٠ سنة وتعتبر هذه الأدوار سير الثوابت لا السيارات ويقولون كما يقول أكثر الهنود ان الأفلاك تتكون من الماء والنار والريح .

ومنهم ذوو الروحانيات : وهؤلاء يقولون إن الله سيرسل وسيطاً روحانياً فيأمرهم هذا وينهاهم وتصبح لهم شريعة وهم سيعرفونه بنزاهته عن أحكام الدنيا واستغنائه عن الأكل والشرب والنكاح .

وهناك طوائف كثيرة وكثيرة جداً أمثال . الكابلية . والبهارونية والباسورية ، والباحورية وغيرهم ولهم أساطير وتماثيل وقد بُعدوا بها عن المنطق ، السليم ومنهم عبدة الكواكب، ومنهم من يستقبلون الشمس ومنهم من يستقبلون القمر ويعتبرون فرقاً من الصابئة وهم إذ يتوجهون للشمس يحسبون أن لها نفساً وعقلاً وانها الملك الأعظم ومرجع القدسية عملوا لها معبداً وصنماً وسدنه يعبدونه ويقدمون له القرابين طلباً للخير ودفعاً للشر وعبدة القمر لهم فيه أساطير وتماثيل يقيمون لها صفاةً ورسوماً لعبادته .

ومنهم **عبدة الأصنام** : وهؤلاء فرق وطوائف كثيرة جداً في كل بقاع الأرض منها الهند والغالب أنهم يقدسون هذا الصنم الذي صنعوه بأيديهم ليكون رمزاً لكوكب أو شيء آخر ويرجون في عبادته ليقربهم زلفى للرب الأسمى ويقدمون له القرابين خوفاً لدفع ضرر أو طمعاً لجلب خير وكل منهم يضع فيه أساطير ويمجده دون سواه وفي هذه الطوائف نكتفي بذكر بعضها فقط على سبيل المثال كي نعطف إلى ما هو أهم لموضوعنا . منها :

المهاكليلينية :

ويعبدون صنماً ذا أربعة أيدي وشعر كثيف على رأسه وبيده ثعبان عظيم فاغرقاه وبيد عصا وبيد أُخرى رأس إنسان وبالرابعة يبعد عنه الأفعى . وفي أُذنيه حيتان معلقة وتلتف عليه أفعيان وعلى رأسه تاج من عظام القحف ومنها قلادته ، ويقولون انه عفريت يستحق العبادة لما يحمله من الصفات العظيمة والذميمة فهم يسجدون ويتضرعون له في اليوم ثلاثاً ويقيمون له المعابد ويرجون منه ما يرجى من الله .

ومن ذوي الأصنام : **البرلسهيكية** : يعبدون صنماً على شكل امرأة ذات أيدي متعددة ويقدمون لها القرابين ومنهم :

الجهلكية : وهم من عباد الماء ويعتبرون الماء ملكاً وأصل الحياة

ومنه الطهارة والبقاء وكل عمل بحاجة له فإذا أرادوا عبادته نعروا إلى ستر العورة ودخلوا الماء ساعات حاملين معهم الرياحين ينشرونها تدريجياً وعند الخروج يحملون حفنة من الماء ليلقوه على رأسهم وأبدانهم ثم يسجدون .

الاكيواطرية :

وهم عبدة النار ويحسبون النار أعظم الجميع وأوسعها وأعلاها وأشرفها وأنور وأكثرها احتياجاً لهم وانها ضرورة الحياة والنمو والتفاعل لبقية العناصر . وطرز عبادتهم أن يحفروا اخدوداً مربعاً ويحشوه بالنار ويلقون فيه أفخر الطعام والشراب والعطور تقرباً وتبركاً ، ويحرمون حرق النفوس على خلاف بعض عبدة الهند وزهادها يعتبر هذا مذهب أكثر ملوك وعظماء الهند القدماء .

تلك كانت نماذج من عبادات الهنود .

حكماء الهند :

سافر اقلانوس تلميذ فيثاغورس إلى الهند ونشر هناك حكمته وأخذ منه (برحمنين) وهذا تزعم قسماً من الهنود وحثهم على تلطيف الأبدان وتهذيب النفوس وقال : من عمل ذلك وتجنّب الرذائل وتزهد عن الدنيا وحكامها ظهرت له الحقائق والمغيبات وتغلب على المتعذرات وفارقه النصب وانتقل إلى عالم السعادة الأبدية ، فتغلبت عقيدته آنذاك على كثير من الهنود ورسخت في أدمغتهم وبعد موته انشطروا لفرقتين ، منهم من تزهد وحرم على نفسه كل لذة دنيوية سيان منها الجنسية وغير الجنسية حتىٰ بلغ الحال ان بعضهم يلقي نفسه في النار ليزكيها .

والفرقة الثانية : وقد أحلوا اللذائذ بصورة متوسطة وأُخرىٰ تجاوزها كثيراً ، ومنهم من تمسك بحكمة فيثاغورس ومالوا للملاطفة والرياضة النفسية لبلوغ مكنونات النفس . ويعتقدون ان الله نور محض وقالوا من شاء أن يدرك المعنويات فعليه منع النفس من الشهوات والرذائل وسوقها

إلى الفضـائل . ونقلوا أن الإسكنـدر المقدوني حينمـا بلغ نفوذه بـلاد الهنـد وعلم بحكمتهم عفا عنهم وأكرمهم ومنع غزو بلادهم .

ومن معتقدات الهند :

الـودائية : وتعتقـد بالقـوى الطبيعيـة وتقـدمهـا ، ولهـا كتـاب مقـدس يسمى : ودا أو وداهـا وفيه ١٠٢٨ أُنشـودة في أوصاف المـلائكة والشيـاطين والأجنة وفلسفة ، وأُمور اجتماعية وعبادات وقرابين للآلهـة ، وأشهر أربـابهم اندرا وهو رب الـطبيعيـات ، وارونـا رب العقـل ، ويعتبـر رب السمـاء ليـلاً وميترا إلّه السماء نهاراً .

البودائية :

البـودائية طـريقـة وليست دينـاً ولا مـذهبـاً . نعم هي طـريقـة فلسفيـة مـأخوذة من المنـطق والقياس . لا تنص على بقـاء الـروح والمـادة ومـا وراء الطبيعة ولا إلى الإلّه ، بل تعتبـر كل شيء يـزول ، وعلى المرء أن لا يتقيـد بما يقال إنما ما جربه هـو وما اكتشف بنفسـه من الحقائق . فبـودا نفسه عبـر عن نفسه هو أنـه فان كغيـره من الموجـودات . وقد جمعت أقـواله وأحـاديثه منـذ ٤٥ ، قبل الميـلاد ، ما حـدثه وتـلاه شفاهـاً كتبت بعده ربمـا بقـرون ، وأصبحت تعـاليم ، وصنفت إلى : ١ ـ تعـاليم الـرهبـانيـة . ٢ ـ طـرق النجـاة . ٣ ـ مـواضيـع في علم النفس والفلسفـة ، ثم تلتهـا تعليقـات وإضـافات وحـررت بالسنسكـريتية التي تعتبـر إما للغـات الهنـد كـالـلاتينيـة الإيطالية في أُوروبا . وأوجد أصلين في تعليماته :

١ ـ أن لا يتعب المـرء فكـرهُ سـوى فيمـا يـوصله إلى سبـل الحقيقـة والمنطق وتركه المهملات[1].

---

(١) مثل الآيات القرآنية : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به عـلم * إن السمع والبصـر والفؤاد كـل أولئك كـان عنه مسؤولاً** ﴾ . هنـا ورد في القرآن حينمـا نقلت عن بـودا وربمـا وضعت عنه .

٢ ــ إن الحقيقة هي التي تنال بالتجربة والخبرة . وبودا يبتعد عن الفلسفة فيما وراء الطبيعة إذ تشغل الفكر دون جدوى . ويؤيد المنطق . وقدر المستطاع الابتعاد عن آلام الحياة . بينما يعتبر الحياة شقاء ولا وجود للسعاد ، (وهذا بنفسه تناقض ويترك المرء في شقاء) وبنى على تلك أربع ركائز .

الأولى : الولادة ، الهرم ، المرض ، الموت ، جميعها ليست سوى آلام . وهو بالوقت الذي ينكر الروح وبقاءها يناقض قوله بوجود تناسخ الأرواح . ونرى بودا يناقض في رأيه عقائد الهند والبراهما حيث يعتبر أن الحياة وهم وخيال ويتابعه الحكيم عمر الخيام في رباعيته (چون نيست زهرچه هست جزباد بدست . . . الخ) يعني : ليس في كفك غير الصفر في هذه الحياة .

ويقول إن آلام البشر إنما تحصل لأنه يريد أن يكون حقيقة من خيال ودواماً من زائل وسعادة من شقاء ورجاءه للبقاء وكل تلك أسباب الحرص والخصام .

الثانية : يقول إن الرجاء مصدر جميع الآلام لأنه يطلب بالرجاء ما لا وجود له . وهنا يخالف الحكيم الشاعر العربي :

اعلل النفس بالآمال ارقبها   ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وهي حقيقة إذ بانقطاع الأمل يشقى المرء لا بالأمل ، والأمل أهم مصدر للجد والكد والمثابرة والتوسع العلمي والكشف والاختراعات والترقيات .

الثالث : القضاء على الآلام باستئصال الرجاء في جميع الأمور وعدم طلب الخلود وعدم رجاء البقاء وعدم طلب ذلك ، وعدم رجاء السعادة والجد في طلبها ، ومجموعها تحصل بالقضاء على الأمال ، ومتى حصلت قضينا على الأحقاد والجهل ، وبالتالي علينا بنكران الذات والابتعاد عن

الانانية التي هي أهم منابع الشقاء ، وبتعبير البودانية بذلك نـدرك النيرانيـة . والنيرانية هي فناء الفرد الأبـدي ، تلك التي تتلاشى عنـدها الآلام الحـاصلة من عالم الوجود .

الفروق بين العقيدتين ، البودائية والاسلامية :

قلنـا ان العقيدة البـودائية في الحيـاة عقيدة متشـائمة كمـا مر ، وتحث على تـرك الآمال للحيـاة للبقاء للسعـادة للرخاء ، حتى درك الشـروانا ، بينمـا ان الاسـلام يبشر المرء بالسعادة في الحيـاة الدنيـا والآخرة الأبـدية لمن اقـر الفضـائل وابتعـد عن الرذائـل ، بينمـا ينـذر أولئـك الـذين يقيمـون الشـرور والـرذائل بعكس ذلـك ، بـالجـزاء الأبـدي في الآخـرة ، ويـرى المسلم في الرجاء سعادة لاعترافه بالحيـاة الآخرة ، وبـالله الأحد الصمـد العادل وبـاقرار يوم الميعاد في الاقرار به أصـل من أصول الـدين . وعلى هذا نـرى الصوفي في المـذهب البودائي يحمـل نفس عقـائـدهم ، وفي الاسـلام عكسـه ففيـه السمو الروحي والحياة الساميـة الخالـدة ، بينما نـرى البودانيـة تنكر السعـادة والحياة والأمل ، تعود لتناقض قولها ذلـك أن الفرد تحفـه أعمالـه فالصـالحة تسعـده والـطالحـة تشقيـه ، بينمـا تقـول بـالفنـاء الأبـدي ومـا في هــذا من التناقض .

الـرابع : محـو الآلام والـطرق الثمـانيـة : ١) الايمـان النـزيـه ، ٢) الارادة النـزيهـة ، ٣) القـول النـزيـه ، ٤) العمـل النــزيـه ، ٥) العيشـــة النـزيهة ، ٦) الجـد النزيـه ، ٧) العنوان النـزيه ، ٨) الفكـر النزيـه وكلها تنتهي بـالسمو الاخـلاقي . ولبودا وصـايـا عشـرة ١) لا تقتـل حيـاً ، ٢) لا تســرق ٣) لا تسلب ، احفظ عفتـك الجنسيـــة ولا تتجـاوز على نــامــوس غيـرك ، ٤) اصدق ابـداً ، ٥) لا تسكر ولا تشـرب المسكر ، ٦) لا تتخم نفسـك بـالـطعـام ، ٧) ابتعـد عن اللهـو واللعب ، ٨)ابتعــد عن الـزينـة والعطر ، ٩) اياك وطلب الـراحة ، ١٠) ابتعـد عن الرشـوة والتهالـك على المال . تلك تتقيد بها الرهبان البودائية .

وهناك وصايا اخلاقية أخرىٰ وهي استسلام الفرد أمام المحن ، والعطف على الام الآخرين ، والبذل المعنوي للاغيار (كالبر والاحسان) ويحسبها خير الصدقات ويضاف لها الفضائل العشرة الآتية : العفو ، الاخلاص الحرية ، طلب العلم ، البسالة تجاه مصاعب الحياة ، متابعة الحقائق ، الصمود تجاه الافراح والاحزان . بيد ان بودا لم يذكر انقاذ المنكوبين وعند ذكره للبر والاحسان انما يقصد به الرهبان فحسب .

ما يؤخذ على بودا :

انه غير عادل في حق النساء ويوجه لهن اشد الطعون حينما يطلب منه انا ندا مساواتهن بالرجال يجيبه : ان النســاء ذوات شر ، وذوات حسد ، وذوات بخل انهن بعيدات عن الحكمة .

لذا منع الرهبان من الصلة بالنساء . وترى الرهبان بسبب وصاياه في نفس حاله من الفقر والمسكنة ، حفاة لا يملكون سوى اناء يتكدون به ويدعون الناس في حالاتهم المزرية الى الأصول الأربعة المارة ، ويوصف بودا الراهب بقوله « هنيئاً للرجل المنزوي » المدرك للحقيقة ، سعيد من استقام على الطريقة وتجنب الأذى لأي فرد ، وسعيد من زال من جنانه العشق والرغبة [1] ، إن السعادة الأبدية القدرة على الاخذ بزمام أهواء النفس تلك المبادىء اظهرت عملا كيف خلقت التعاسة والمسكنة والفقر في الافراد . انتشرت مبادىء بودا قبل الميلاد أخص في عهد السلطان الهندي سوكا (٢٢٣ -٢٣٦) ق . م وكان لنظره في المرأة أسوأ الاثر ، حتى أصبحت الاديرة فيما بعد محلات للفساد . واتخذ رؤساء المذهب البراهمائي أشد الطعنات لمبدأ بودا الى أن زالت أهميته في القرن ١٢ ميلادي ، وأما دخول المسلمين للهند في ١١٧٥ -١٣٤٠ كان له أبلغ الاثر للضربات القاصمة على المبدأ البوداني . واليوم يتبع المبدأ نحو من ٥٠٠

---

(١) احسب أن أمثال هذه العقائد روجها الاستعمار البريطاني واستغلها لإذلال الشعب .

مليون في الهند والصين والهند الصينية وتركستان واليابان وكوريا . وبعدها تشعبت في البودائية فرق عدة انحرفت عن المبدأ الأصلي ، واحدثت اراء ونظريات جديدة واستحوذت على أغلب اراء بودا الأصلية وأشهر الفرق هي ١ ـ هينابانا وماهابانا وحاولت تعديل المبادىء الاصلية لتأتلف مع العالم الاخر حتى وصلوا أخيراً الى مبادىء بودا الحديثة ، وبه تقديس المبادىء الأُخرىٰ والتقرب اليها وتنتشر في الهند الصينية . أما مذهب بودا في التبت فيمتاز بمبادىء أُخرىٰ ، فهو يسمى باللاما ويقرب من المبادىء البدائية النوعية والمذهب الروحي ويحسبون أن روح بودا احلت في بدن دالائي لاما ويشبه بمركز البابا عند المسيحيين وحينما انتشر في الصين امتزج بمبادئهم وكان دخوله في أول القرن المسيحي بينما دخل اليابان في القرن السادس المسيحي من طريق الصين وكوريا ، وفي اليابان اصطدم بمذهبهم القائل بتعدد الالهة في حين بودا ليس له اله . ومذهب شين تا أو الياباني يقول بخلود الروح ولا يقرر لعالم الأموات جزاء ، في الوقت الذي نرى في تناسخ الأرواح البودائي يقر جزاء . ورغم ذلك استطاع المبدأ البوداني ان يطور نفسه ويماشي المبدأ المحلي . والمهم ان مبدأ بودا المتشائم وافق المبدأ الياباني المتفائل وسايره وطور نفسه لقبول تلك .

مذهب جيني :

العقيدة الجينية ظهرت مع البودائية في القرن السادس قبل الميلاد وتقول بازلية الوجود مكاناً وزماناً وانه غير مخلوق ، وان الحياة لم تخلق من العدم ، وان هناك أدوار لها تتدرج بالصعود لمدد طويلة ثم تعود للهبوط وتكرر حتى اذا بلغت أقصى مراحل الفساد عادت للصعود . وان كلا المسلكين يعتبران المذهب البراهمائي المتعدد الارباب باطلاً . وكل من مؤسسي المذهبين البودائي والجيني لا يعتبر نفسه نبياً ولا الهاً ولا يقول بحلول الروح فيه بل هو رجل كالرجال ، وهو معلم للنجاة والمذهبان يقربان من بعضهما كالقول بالتناسخ . ويعتقد للوصول الى النيروانا المار الذكر باتباع الجواهر الثلاثة بالايمان النزيه والمعرفة النزيهة والسلوك

النـزيه ـ ويعتبـر الأخير هـو الاساس ، لـذا بموجب هـذا يتجنب من عقـائـد الهنـود من الادعية والقـرابين وعبادة الاربـاب والتشفع بـالمقربين لهـا ، كما يبتعـد عن العقيدة البـودائية أنـه يؤكد بـالارتياض والـزهـد الشـديـد والعبـادة المفـرطة ، ومؤسس هـذا المذهب هـو : مهاويـراً الملقب بحينا أي الفـاتـح الـروحاني. تـوفي سنة ٤٧٧ ق.م. ووصـاياه المقـدسـة أهمهـا مـا يبحث فيهـا عن آداب الرهبانية وتزكية النفس بالوصية لاتباعه .

اساس العقيدة الجينية :

الحــذر من مس أي حي ســالم ، ويختلف عن المسـلك البــودائـي بالوصية لاتباعه أن يفرطوا في الزهد ، واهمال النفس والعفة وشدة الـرهبانيـة والصوم الشديد ، وهو المـذهب الذي يكـاد يكون وحيـداً بتحريضـه لاتباعـه على السيـر حفاة والتجـرد من اللباس الا الضعفـاء أو المرضى ، ويـظهـر أن فكـرة التناسـخ في المذهب البـراهمائي واهمـال النفس والزهـد المفرط بلغ بهؤلاء (الجنيين) اشده في القرون الثـامن والسابـع والسادس ق . م . حتى وجـدنا بـوذا يحسب الحياة شقـاءً في شقاء والقـول بالتنـاسخ انمـا هو تـرفيع النفس من افـراط الزهـد وتحمل المشـاق المارة ، لكيمـا يدرك بعـد الموت السمـو الاعلى والا ستعـود الـروح الى الارض (مقـر الشقــاء) وعلى قـدر افراطها في الهوى والشهوات تهـوى . هذه العقـائد جـرت المصائب للهنـود القرون الطويلة .

وبـاعتقادهم ان التنـاسخ يتكـرر حتى تظهـر النفس وتسمو الى السمـاء ولا يكون الا بتعذيبها وبحرمانها من أي نعيم . وهكـذا زادت الرهبنـة والفقر والمصـائب والتصوف الهنـدي ، ويختلف المذهب البـراهمـائي عن الجيني والبوداني بالتجرد عن المجتمع وتعـذيب النفس بينما يعتبـر الجيني والبودائي اجتماعياً واخلاقياً في سلوكه .

الوصايا في المذهب الجيني :

المنع البات لايـذاء وقتل الغيـر من الاحياء بغيـة تزكيـة النفس ، ودرك

الحكمة ، لذا منعوا أكل اللحوم وقتل حتى الحشرات المؤذيه ، سيان بصورة عمدية أو غير عمدية ، حتى في السير بدرجة يصم الرهبان أفواههم كي لا تدخلها حشرة وتتأثر ، ويمنعون اشعال النار لنفس الغاية ، وهذا سبب منعهم الزراعة التي ربما خلال حرث الارض أصابوا حشرة بأذى . واتخذوا التجارة مسلكاً ، لذا مهروا بالمبايعات ، وبرعوا بالربا وأكل السحت والاثراء لليوم . تلك هي الوصية الأولى . والوصية الثانية في الصدق ثم الزهد والتقوى ثم التغلب على الاهواء لدرجة الموت ، وتكاد التعليمات تخص الرهبان كما يؤكدون الحلم تجاه أي متجاوز ، وماشت العقائد الجينية العقائد البودائية ، بيد بالتالي تضاءلت تحت نفوذ المذهب البرهمائي ، وانطوت تحت ظله وسبب ذلك الصعوبات البدنية والنفسية المفروضه عليها ، لذا لا نرى منهم اليوم أكثر من مليونين في الهند . هنا ننتهي من العقائد الهندية وننتقل الى الصينية .

العقائد الصينية :

هي تشكل منذ القديم مسلك « ثأو » ومسلك « كوفوشيوس » وعند البحث نصطدم بالعقيده النفسانية القديمة وأرواح الموتى أخص الاجداد لها في المسلكين المكان المقدس ، لذا نشرح العقيدة النفسانية مبدئياً أو المعتقدات الابتدائية الصينية وهي : ان الدنيا مملؤة بالارواح والآلهة والشياطين وقوى مرموزة تلك التي تسوق الفرد للسعادة أو الشقاء ، ولجلب الخير ودفع الشر توسلوا لها بالعبارة ومناسك السحر، وكان الصيني القديم يحسب أن لكل شيء روحاً سواء أكان حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وقدسوا أرواح الأجداد كثيراً، وقسم المذهب إلى عاملين مثبت ومنفي أو ذكر وأنثى باسم يانك وين وعدو إلهين : مذكر يقاصص ويجازي بالخير والشر ويسمى شانكتي Shangti ومؤنث يسمى Hatin وهي آلهة الطبيعة ذات الخصب والمطر والسماء وعندها الملائكة والجنة والنار والجبال وغيرها، ويعتبرون أرواح الموتىٰ إذا تركوا لها نذوراً وقدموا لها قرابين خلصوا من مزاحمتها للأحياء ، وروح المظلوم لا بد وأن تنتقم حتىٰ تهدأ ، ويهتم الصينيون بتقديس وتكريم الأرواح ، أخص أرواح الآباء

والأجداد ، ويعتبرون القرية أو المدينة تتشكل من الأحياء والأموات ، وانهم يهتمون بالتوالد حتى يكثر الأعقاب ويكرموهم كما هم يكرمون الأجداد ويتوسلون لهذه الأرواح التي تجلب لهم السعادة أو الشقاء . وكانوا قبل ألف سنة من الميلاد يعتبرون أرواح الأعقاب من الأمهات أجلّ من الآباء ، لذا اهتموا بالمرأة ، بيد عقب ذلك اهتمامهم بالرجال واليوم تساووا بذلك . ويختص الامبراطور بتجليل الرب الأعلى ورئيس القبيلة والعائلة بتجليل أجلّة أرواح الأجداد ، ويعتبر الامبراطور الرابط بين السماء والأرض وما فيها وعليه إقامة القداس وهو كفرعون مصر المرجع الأعلى وهو منظم الحياة الدنيا ، وهم يعتبرون الأرض انثى والسماء مذكراً ، وإن القوة للسماء ، لذا تقل عندهم أهمية الأرض وجميع الإناث ، حتىٰ بلغت بالمرأة إذا ولدت بنتاً حزنوا وأسفوا وأبعدوا المولودة وألقوها في الصحراء أو باعوها . وللرجل عند الزواج الخيار لمن يختار زوجه ويسلب هذا الحق من المرأة ، وليس للمرأة الجلوس في مجلس الرجل وليس لها أن تستفيد من نفس شمعة الرجل أو تستفيد من أدواته ، وإذا قدمت المرأة شيئاً للرجل فعليها لفة بمنديل وتقديمه له ، وبالوقت الذي يشعر الصيني بقوى قاهرة ، ولكن لم تخالجه القوة الإلٰهية ، كما في الإسلام لذا هم لجلب الخير أو دفع الشر يتوجهون للأرواح والسماء ويعتبرون الحوادث الطبيعية كوفور الزراعة إجابة للقيام بالمراسم والمعتقدات الروحية وعكسها بالعكس .

مذهب ثا أو :

مؤسسه لأوسه نشأ في القرن السادس ق.م. قبيل كوفوشيوس ، وله صلة ومقابلة معه . وكتابه المقدس هو ثا او ته كينكد، صغير جداً يحوي على ٨١ قطعة شعرية بشكل كلمات قصار ، فيها متناقضات وابهام تكاد لا تفهم ، أهم تعليماته فيه على المرء أن يطابق نفسه مع نظام الكون كي يعيش . وأشهر أتباعه هو جيانكتبه آخر القرن الرابع ق.م. وقال أحد أتباع

المـذهب في تعقيـد المـذهب «من يعـرف من مـذهب تـا او شيئـا لا يعـوي شيئاً ، ومن قال لا يعرف شيئاً » والـواقع هي فلسفـة ميتافيزيكية عميقـة مبنية على وحـدة الوجـود ، وعرفـانية ، ويمنـع الافراد من زج أنفسهم في بحـوث انفرادية ، وعليهم الانقيـاد مع الحيـاة السافرة التي يعبرون عنهـا بـ « تا او » والكـون نتيجة الحيـاة والعدم وكـل شيء نسبي ، ويحسب مؤسس المـذهب أن الكثيـر يدركـون إحسـاسـات غيـرهم من ذوات الـروح لأنهم كـانـوا قبـلاً يشكلون نفس الوجود . وبحساب الفلسفة الإسلامية ، لكـل شيء وجود ولـه ماهية تحدده نحو سواه ، وهنا يخـالف نظريـة تا او . ويـرى صاحب مبـدأ تا او الابتعاد عن المعقولات والتوجه إلى المكـاشفات القلبيـة والتعمق في ذات النفس ونبـذ الافراد والاشيـاء والحوادث والـولـوج في البسـاطـة والسـذاجـة المعظة ، وإليك حديثاً يوضح ذلك : « حاول كـالأطفال تبتسم للجميـع فهم لا يرمون لهدف في حياتهم ، كـالفرخ المـولود لا فكـر له ، والأخـرى تكون كـالمـاء يـأخذ كـل شيء وينظف كـل شيء » ولـه ركـائـز ثـلاث للتقـوىٰ : ١ ــ الاقتصـاد . ٢ ــ البسـاطـة في الحيـاة . ٣ ــ خيـر الأمـور أوسـطهـا ويحض على الإحسان حتىٰ مع الانداد .

أمـا في الأمور الاجتمـاعية : فيـرى أن الحكـومـة عليهـا تـأمين راحـة المجتمـع في الحياة، ويـوصي بالابتعـاد عن الحـرب وسفـك الـدمـاء وهنـا يمـاشي أفكار كـونفـوشيـوس . ويـوصي بتجليـل الأرواح أخص الأقـارب ، ويتحـدث عن أمور معنـويـة وسمـائيـة والسحـر ومـا يخصهـا من منـاسـك ، ويتحدث عن المتوفيـات ومحل الـدفن . ويتناول ثـواب محبة الأولاد لـلآباء والبر للنـوع والصـدق والامـانـة ويعـد الكبـائـر من المعـاصي : القتـل ، الاحتيـال ، السـرقـة ، والنصب ، ومعصيـة الـوالـدين ، ورجـل الـطبيب ، وعصيـان المـرأة لـزوجهـا ، وإهمـال المـربين ، ومن لا يـواري رفـاة مـوتى الكلاب والقطط .

ولم يحارب مذهب تا او مذهب بودا كما عمل كونفوشيوس بـل سايـره

في بعض معتقداته كالقصاص والجنة والنار وتجليل الأرواح والتناسخ ، وبهذه الصلة البودائية كمل المذهب بصورة أكثر متانة ، لكنه عد العذاب هو الحاصل من الوضع الاجتماعي وليس للجنة والنار والآخرة مفهوم لدى الصينيين ولا يدخلون في هذا البحث بقولهم ان البشر الذي يجهل حياته الفعلية كيف يدرك الحياة الآخرة .

كونفوشيوس :

الوضع الاجتماعي والسياسي للشعب الصيني قبيل ظهور كونفوشيوس ورقي ظهوره هو الذي بعث بهذا الحكيم للظهور في زمن كان يشابه نفس الوضع الذي ظهر فيه سقراط في اليونان وزرادشت في بلاد فارس وبودا في الهند وارميا واشعيا في فلسطين ، ذلك الوضع المرتبك المليء بالقسوة والتفرقة والحكم الاقطاعي واضطهاد العامة وتدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .

تعاليم كونفوشيوس :

كانت ولادة كونفوشيوس ٤٧٩ ق.م. وبلغ من العمر ٧٢ سنة وبدأ طفولته يتيماً ربته أمه ودرَّجته في التعليم والآداب الدينية ، وأيام شبابه تسنم عدة وظائف ، ولما بلغ سن الخمسين تسنم حكم مدينة ، وبعد توفيقه الاجتماعي والسياسي انتهت خدماته، وظل ١٢ سنة بعيداً عن وطنه الأصلي يتجول مع عدد من تلامذته في أنحاء الصين حتى وصل أرض لو كل هذه كانت له دراسة علمية وعملية أخص حينما شاهدا تالوك عاصمة شو التاريخية العظيمة ، وكيف سببت التفرقة إلى تأخرها . ولم يكن كونفوشيوس مروجاً دينياً ، بل كان يساير الوضع كي يجلب حوله الناس حين نشر تعاليمه ، لذا كان يتوقى البحث في تقديس الأرواح والسلطة السماوية ، وجل همه ترويج الأفكار الأخلاقية ، تلك التي اعتنقتها الناس مع حفظ أديانهم . لذا اهتم بلم الشمل والوحدة ورفع المخاصمات ،

لدرجة تجد أنها لا تحد من أعمال السلطة القهرية ، فكان يوصيهم بأداء الوظيفة كاملة والصدق والنزاهة ، ومع احترامهم لمخلوقات السماء والأرواح يحاول الابتعاد عنهم ، وتقديس السنن والمقدسات الأخرى لذا بدأ بتأليف الكتب .

الكتب المذهبية :

تناول الأفكار والسنن القديمة وأصلح إخراجها وإدخالها على الأصول المذهبية ، وبعد تهذيبها ألف منها خمسة كُتب وضع أسسها هو وطلابه من بعده حتى اشتهر بها نفسه ، ومرّت هذه الكُتب لمدة عشرين قرناً كانت الأصول في سلوك الصينيين في الافكار والآداب والعقيدة في الشؤون الاجتماعية والسياسية والأخلاقية ، فالكتاب الأول بيكنك اعتبروه جامع جميع العلوم الأرضية وخلاصة العلوم البشرية ، بيد كانت أكثر ابهاماً وصعبة الدرك . والكتاب الثاني شوكينك وهو تاريخ السلالات السابقة . والثالث سيكينك كتاب التراتيل. جمعها من آلاف التراتيل وعددها ثلاثمائة هي آداب عبادة الآلهة في الأعياد والحفلات . الرابع لي كينك فيه آداب ورسوم مذهبية وأخلاقية للأقدمين . والخامس جونجيو : يعني الربيع والخريف وهو تأليفه الخاص ويبحث عن سير تكامل الموجودات والإنسان ، فالتاريخ القديم والعلم به كان يعده من الواجبات التي يحض عليها وحسب الموسيقى والأناشيد ثواباً وانها تهذب الأفكار وتهذب المجتمع ، ومن مناهجه الكُتب الأدبية وبها نصائحه الحكمية ، تلك كان لها الأثر العميق على المجتمع الصيني ، وخلاصة تعاليمه في «لي - شو - تشنتن» فكلمة يو تعني الواجبات في شريعته وشو يعني ما تكره لنفسك أكره لغيرك . وكلمة تشنتن أن المرء حر وشريف لذا عليه عدم احتقار من دونه ولا يتملق بالرشوة وبما لا يليق لمن أرقى منه . يحاول تنزيه نفسه والغض عن عيوب الغير . وقسم البشر إلى نبيل وحقير ومنافق ، فالنبيل يتساوى عنده البشر والحقير مذبذب متملق . والنبيل رجل حقيقة في أقواله وأفعاله ويستسهل الصعاب والحقير أناني يحمل غيره الصعاب . والنبيل

يردك بأعمال جبارة ولا يعير أهمية للتوافه وعكسه الحقير ، النبيل يردك باشاً والحقير يقابلك بالعبس . النبيل عادل صادق يجد في طلب العلم والتجربة . يحفظ الأصول رائدة الحكمة والهمة العالية والإرادة ، لا يرضى أن يفدي الغير لنفسه ويسلب سعادته . وشيمته المساواة بين الجميع في جميع الشؤون في القول والعمل . ويرى كونفوشيوس ان لا قيمة للفرد تجاه الجماعة .

إنه يجل العقل والفكر ولا يهتم بالعقيدة والمذهب ويتبعد عن المعتقدات العرفانية والقوى المرموزة والتأثيرات السماوية ، حتى قيل انه ساعة مماته أشار عليه أحد حواريه أن يتلو له أوراد وأدعية فأجابه كونفوشيوس : إن حياتي كانت ادعيتي وعبادتي ، فهو فيلسوف اجتماعي لا نبي لدين جديد ، ولم يعترض على دين الصين السابق بقوله : أنا ناقل ولست مبدعاً . وأبقى الدين على ما كان ولكنه هذ به بالأخلاق ولم يحاول أن يجادل في الدين وقال في الثواب والعقاب كقصاص ، إنما هو يعود للضمير والوجدان ولم يشر إلى الجزاء الاخروي ، وحسب البحث فيما وراء الطبيعة فيه ضرر .

وحتى ما أشار فيه عن السماء عند تعاليمه ما كان يقصد (حسب رأي المتتبعين) التوحيد وانه بنظر المحققين يشك في الأرواح والآلهة إذ حينما سئل : كيف نبني واجباتنا تجاه الأرواح؟ أجاب :

كيف نستطيع أن نؤدي تكاليفنا تجاه الأرواح قبل أداء الحق تجاه الحياة في الدنيا؟ .

وحينما سئل ما هو الموت؟ أجاب :

« كيف نستطيع أن نعرف الموت في الحالة التي نجهل فيها الحياة»؟ ويضيف : « إن الرجل العاقل يحترم الأرواح بيد أنه يتجنبها » ويحسب أن الإنسان جسماني يتلذذ جسمانياً وروحي يتلذذ في الروحيات والمعارف والأفكار السامية ، وان الحياة ناقصة وبالرغم ان وسائل الرقي موجودة بيد

أن بلوغ السعادة الكاملة مستحيل ، ورغم إن انتقام المظالم واقع في هذه الحياة بيد أن بقاء الظلم وعدم امكان إقامة العدالة التامة في الحياة غير ممكن . فالرجل اجتماعي لا يهتم بالمذهب والمعبد والتوبة لكنه تركها حرة فكأنه جاء بمبادىء تلطف كل دين ومذهب وتسمح لكل فرد اعتناق ما اعتقده حتى يصح مجموعة دينية أخلاقية لذا ترى أتباعه في تزايد وقد ثبت مبدأه في الصين أخص خلال ١٢٥ سنة ق.م. حتى ١٩٠٥ ق.م. حتى رفعوا هذا الرجل لدرجة الألوهية رغم عدم قوله بما وراء الطبيعة وسكوته أمام المذاهب وعدم اشارته للأرواح وبقائها . وافترق عن مذهب تا أو» العرفاني المعتقد بالأرواح ، فقد اعتقد كونفوشيوس ان البحث في أمور لا تقدر الوقوف بها على الحقائق عبث مثل بقاء الروح وإدامة الحياة الروحية لأننا نجهلها بل نجهل أكثر مشاكل الحياة الحاضرة لذا يرى في رأيه الاهتمام بحياتنا الفعلية القائمة بتنظيمها وتحسينها ، وتطابق مبادىء كونفوشيوس مع مبادىء سقراط بأن سعادة الافراد تحصل ضمن سعادة الجماعة بالبر وأداء الوظيفة . ويحسب كونفوشيوس ان السلوك النزيه والعدالة والتقوى الإنسانية مصدرها الحكمة ، والحكمة وليدة كسب الفضائل والعلوم بصرف النظر « عمّا » يحمله هؤلاء الافراد من اختلاف العقلية الوراثية لأنه يعد للتربية والتعليم المقام الأسمى ويقدسها ، ويرى أن التعليم والتربية لا يعيقها الفقر وأن اهتمامه يقابل اهتمام الهند بالرهبانية .

وجاء بعد كونفوشيوس تبعه منسيوس في آخر القرن الرابع ق.م. وهذا سار باتجاه الأخلاق العالية الاجتماعية فكان أفكارهما وأفكار بودا ولاؤنسه الأثر العميق في افكار الشرق الأقصى .

ويقر كونفوشيوس التقاليد المذهبية للأرواح ، فيقول بإطاعة الآباء لأنهم ممثلو أرواح الأجداد ، ويقول بإطاعة المرأة للرجل ، ويعتبر الناس أولاد الحكومة وعليهم إطاعتها ، وعلى الحكومة كالأب تهيئة جميع وسائل الصحة والتعليم والراحة والأمان لهم ، وهذا الحب المتبادل المار ذكره

سمح لنشر افكاره بعد القرن السادس عشر الميلادي في اليابان ، وتكاد تكون أولى المبادىء الخارجية الواردة لليابان ، وأهم شيء فيه اهتمامه الأول في الحب الأبوي للأولاد ويقابله الاطاعة المطلقة من البنين لأبائهم وهذه لائمت مذهب اليابانيين «شين تا او واندمجت بها ، ويلي هذه المحبة المتبادلة بين الآباء والبنين المحبة المتبادلة بين الأصدقاء والوفاء المتبادل» .

السلوك الحسن بين أفراد الناس والالتزام بالعدل والانصاف وعلى كل فرد أن يكره لغيره ما يكره لنفسه . ويؤيد كونفوشيوس رأيه هذا بحديث : لا تعاملوا مع من هو أدنى منكم معاملة لا ترضونها ممن هو أرقى منكم ولا تعملوا مع كباركم عملاً لا ترضونه من صغاركم .

سئل كونفوشيوس : ما هي الفضيلة الإنسانية؟ فأجاب هي محبة الناس. وقال: خير الناس من أحسن لهم وأعلاهم منزلة من أحس بأخوة الناس. هكذا بعد مرور القرون من اعتناق مبادئه اشادوا له المعابد والتماثيل وبلغوا به مدارج الألوهية. وليس للصيني تعصب تجاه الدين . فهم يتمسكون خلقياً بمبادىء كونفوشيوس في الوقت الذي يطلبون أوراداً من رهبان تا أو لدفع الشياطين والأجنة ، ويطلبون من رهبان بودا اقامة مراسيم موتاهم .

ومن المؤسف أن عدم تعرض كونفوشيوس للمذهب تركهم أحراراً لدرجة أوصلوا الاحياء بالأموات وبلغت المرأة من الحطة والهبوط لدرجة العبودية والاماء. هذه الصفات أغفلت الصينيين في إصلاح حالهم والخنوع تحت سيطرة الأموات حتى القرن العشرين حيث زالت الامبراطورية والامبراطور الذي يحتل الرابطة السماوية وزالت قدرة الأرواح بالانقلاب الصيني .

في اليابان ـ مذهب شيى تو :

هو مذهب وثني قام على انقاض العبادات القديمة المتعددة الروحية

والنـوعية والقـوى الطبيعيـة المبعثـرة ولم يكن لـه اسم حتى القـرن السـادس الميلادي عندها حدَّدوه وسموه ليقابل العقيدة البودائية المنـافسة لـه ولم يكن لليـابانيين كتـاب حتى سنة ٧١٢ ميـلادية وآنـذاك وضعـوا كتـابـاً في هـونكي وسجلوا فيه الوقائع التاريخية اليابانية لغاية ٧٢٠ ميلادية .

« تتـركز العقيـدة اليابـانية على تقـديس أرواح الموتى كمـا كان أمثـال ذلـك في اليونـان والرومـان والهند تلك الأرواح التي بمـرور الـزمـان أبـدلت بـالأرباب ، ويعـد اليابـانيون أن هـذه الأرواح لا تنفك عن أعقـابهم الأحيـاء ولهـا الأثر الفعّـال في سعادتهم وشقـائهم ولها قـدرة أكثر ومجـال أوسع ولهـا اليد في نشر السعادة والغنى في شتىٰ المجالات الـزراعية وغيـرها ، كمـا لها عكس ذلـك للشقاء ، لـذا كان اليـابانيـون يقـدمـون لهـا القـرابين والهـدايـا المادية ، وعندما تقدموا عقليـاً بدأوا بتقـديم الاحترامـات المعنويـة لها طلبـاً لخيرها ورفعاً لشرها ، فأرواح الموتى بحاجـة لما يقـدمها لهـا الأحياء وتستـرّ بهـا كما أن الأحيـاء بحاجـة لخير الأرواح ، وذكـرنا أن هنـاك من كان يعتقـد بـالتوتم ، فمنهم في اليـابان من يقـدس الدب ويعتبـر أنه من نسله وآخـرون يقـدسون الثعلب ، ومنهم من يعتبـر أن للجمـادات والنبـاتـات والحيـوانـات أرواحـاً حتى بلغت ثمانين مليـار روح ، وان الأرض تحف بـأرواح صـالحـة وشريرة على عـدد المرئيـات وأكثر ، ولهـا صلة ببعضها ، وهـذه الأرواح في حـالة تسـام حتى تصل درجـة الربـوبيـة والتي دونهـا أرواح المـلائكـة وتبقى تتنـازل ، ومنها مـا ظلت منحـطة متـأخـرة ، وان الأربـاب انتخبـوا من بينهم ربَّين وسموهم ايزانـاكي ربـاً ذكـراً أو مثبتاً وايـزانا مى مؤنثـا ومنفياً تـركوا لهم القدرة لخلق الكون ، وان الجزر اليابانية نتيجـة الصلة العشقية بين الـربين ، وهناك اسطورة تـدل على افكار الشعب اليـاباني آنـذاك وهي : ان ايزانـا من آلهة النار تموت ، ويبحث ايزاناكي عنها في النيـران ، فلم يجدهـا وبالتـالي يتطهر في نهر من قطراتـه تنشأ الأربـاب وتنحدر قـطرة من عينه اليمنى فتخلق آلهـة القمر ومن عينـه اليسـرى قـطرة تنشـأ آلهـة الشمس ، ويعتبـرون مصيـر الجزر اليابـانية بيـد آلاهة الشمس وانهـا تفوض أمـور هذه الجـزائر لحفيـدها

الميكادو الأول وتنحدر منه سلالات الميكاد ولذا كانوا يعتبرونه الفرد المقدس عندهم .

فأنت لا تجد في هذه العقيدة سوى تجليل الأرواح على تلك الشاكلة وتجليل الميكادو ابن ربه الشمس ، ولم تجد له مباني اجتماعية أو سياسية أخرى حتى القرن السادس التي دخلها مسلك بوراوكونفوشيوس ، وعندها تطور المذهب الياباني وتلبس بالمسلكين بشكل لم يؤثر على أسسه فقد ظل متفائلاً ولم يتأثر بمذهب بودا المتشائم ، وبالعكس كون من مذهب بودا مذهباً جديداً متفائلاً بأن أرض اليابان مقر النعيم وأدخل بودا في تماثيل الآلهة واكتسب من كونفوشيوس طرقه الأخلاقية : وبفضل اتباع بودا أصبح ٢/٥ المذهب في اليابان بودائياً وألغي الزهد والتقشف والرهبنة والتسوّل الهندي ، وأصلح ما يعود للنساء ولم يقل انها مخلوقات دنيئة كما مرّ ذكر ذلك ، وبدل الحياة من الشقاء إلى السعادة باتباعه مسلك بودا الحديث.

أما الدين المسيحي الداخل لليابان في القرن السادس عشر الميلادي سارسيرا جيداً لمدة ثلاثين سنة ، وبعدها رغم الحرية الدينية في اليابان قاوموا الدين المسيحي بأشد الوسائل وقضوا عليه بأشد الفجائع والمذابح وفي القرن التاسع عشر أعلن مذهب شين تو المذهب الرسمي الياباني ، ويليه بالدرجة الثانية مذهب بودا الياباني المتطور ، واليوم يحاول مذهب بودا الياباني المتفائل ان يجر إلى مسيره المسلك البودائي القديم المتشائم في الهند وغيرها . ويمكننا القول أن المذهبين شين تو وبودا طورا أنفسهما حتى تقاربا وأصبحا توأمين متفائلين تسندهما تعاليم كونفوشيوس الاجتماعية الأخلاقية بعد أن كان كل منهما فيه كثير من موارد الضعف وبعد عقيدته بالألوف المؤلفة من الأرباب ينتخب أرباب السماء «أما نومي ناكانوش توكامي» وترك الباقين ملائكة وأعطى للجنة والنار وجهاً ، وقال بالعدالة والفضائل وبلوغ الخير والسوق إلى الجنة والنار للمسيئين . بيد أن اليابانيين المتفائلين يقولون إن الجنة والنار مكنونات قلبية ووجدانية ، وأجل

الوصايا عندهم في المقدمة أن يقدس الآباء وتم تقديس وتكريم الامبراطور والاعتداد بالعنصر الياباني وتضاف لها أمور أقل أهمية .

ويؤخذ على هذا المذهب أمور كثيرة منها التعصب العنصري ، لدرجة يرون أن يجمعوا العالم تحت لوائهم وبالامكان ادراج المبادىء الواجب اتباعها في هذا المذهب كما يلي :

١ ـ الاهتمام بالأخلاق العائلية فمذهب شين تو يقول : العائلة نفسها مذهب ومعبدها مقرها .

٢ ـ تقديس الأموات يعتبر غاية للفضيلة والتقوى ، ومتى أمكن الفرد أداء هذا التقديس للموتى استطاع أداء وظيفته للأحياء . ولا زالوا على ذلك . وعلى أي ياباني أن يأبى الرذيلة قولاً وعملاً كي لا يزعج الموتى ، ويعتبر الرذيلة هي تحقيره واجبات العائلة وامتناعه في أداء الوظائف الاجتماعية وأشدها عدم تقديسه الامبراطور . وأما الوظائف الأخلاقية المفروضة هي نفسها المار ذكرها في تعاليم كونفوشيوس ، وعلى الفرد الياباني دائماً التمسك بالجماعة ومسايرتها . اطاعة الأولاد للآباء . تكثير الأولاد وتطهير الأجساد وتقديس الأرواح ، ويفرض حتى على الكهنة بالنظافة الكاملة بعكس المذاهب الهندية القذرة . وعباداتهم اذكار وتعاويذ وهدايا وأهمها الرز والسمك والفاكهة ، ورقص الفتيات الشابات برسوم خاصة ولم يكن للمذهب الياباني أنظمة وقوانين كثيرة .

ويحسب اليابانيون أهم واجباتهم تقديس الميكادو ، وتقديس الطبيعة وتقديم اخلاصهم للشعب والوطن ، إذ هم شعب الله المختار وأشرف المخلوقات. واليابان أرض الآلهة والامبراطور ابنها ، أخذ مسنده منذ ٦٤٠ سنة قبل الميلاد ، وعبادته كعبادة الرب . وبعقيدتهم ان الميكادو يختلف عن الناس ، وعليهم تقديم الطاعة له ، إطاعة بالمال والنفس وكل شيء ، وان تقديس وعبادة الميكادو هذه خفت بعد دحر اليابان ، بيد أنه لا زالت عالقة في الباطن وبدأ يعود احترامه أكثر فأكثر كلما ابتعدت آثار الحرب .

اشباه الكتابيين ـ مذهب زرتشت[1] :

منذ ألفي سنة قبل الميلاد كانت تعيش أقوام آرية في شرق بحيرة الخزر يقدسون النار ويدينون بدين يقوم على أسس ثلاثة هي : التفكير الحسن ، والقول الحسن ، والفعل الحسن ، وكانوا يجهلون الكتابة ، وبعد قرنين انشطروا شطرين . شطر توجه للشرق وانحدر حتى الهند وشطر توجه للغرب والجنوب ، وهم الفرس ، كانت لغتهم في بلاد فارس هي الاوستا ، وفي الهند السانسكريتية . كانوا يقدسون الطبيعة ومظاهرها ، كالشمس والقمر والنجوم والنار والماء والينابيع وما شاكل ذلك ، ولكل منها رسوم في ذلك وان أنكر البعض وجود أصل واحد لهم ، واعتقدوا أن هناك شعوباً متفرقة يتكلمون بلغة واحدة ولهم دين واحد ، ونراهم يقدسون أرباباً متعددة يقدمون لهم القرابين خوفاً وطمعاً ، كما يوجد في بلاد فارس رب يسمونه أهورا مزدا ، إلّه النور ، كما أنهم يعبرون عن إلّه الشر باسم اهريمن ، هكذا جاء في دين زرتشت . كما قالوا إن آلهة النور (اهورا مزدا) رب الأرباب وهو منبع الخير . وإلّه الظلمة اهريمن هو منبع الشر . وترى وجوه اشتراك وتشابه بين الدينين في بلاد فارس والهند وفي اللغة وفي العبادة ، تلك التي يستدلون بها على أنهما من أصل واحد ، بيد إنه كلما مر الزمان ولأسباب منها الاختلاط بأقوام مجاورة أخرى ومقتضيات طبيعية البيئة ، تباينت بعض فروع العقيدة واقتربت أخرى ، وتباعد الشطران في الدين واللغة وانتقل دين مزدا القديم إلى مزدا الجديد ، أي مذهب زرتشت الذي يعتبر منتخب العقائد القديمة المتطور في بلاد فارس أرض الزراعة والرعي ، ونبذ الخرافات وجمع أصول ترفع شأنهم امتاز بالجهات الاجتماعية الراقية حيث تأثر بالأديان المجاورة اليهودية

---

(١) تجد شرحه في عدة كتب قديمة وجديدة منها : ترجمة رفع الظن الفاسد ، وانشطرت من هذا المذهب مذاهب كثيرة منها المانوية والمزدكية والديصانية والمرقونية والكيتونية والصيامية وغيرهم .

والمسيحية ، ويختلف عن المذهب الهندي المنشطر ، كان متفائلاً بقدر ما كان الهندي متشائماً ، حتى وجدنا المستشرق غوستاف لوبون يمجده ويفضله على غيره في تلك العهود .

ومؤسس المذهب هذا فهو زرتشت . ويحسبه الكثيرون شخصية خيالية إذ لم يرد اسمه في الألواح وكتائب الخطوط السماوية في العهد الاخميني ، وقرر قسم من المؤرخين وجود زرتشت وتؤيدهم اوستا ، وعينوا تاريخه للقرن السابع والسادس قبل الميلاد، قال وليم جكسون ان زرتشت ولد ٦٦٠ ق.م. ومات ٥٨٧ق.م. لكن ارتوركريستن سن الدانماركي ينسب تاريخه إلى ألف سنة قبل الميلاد (راجع كتاب فردا يوستي في ايران القديم). ويتحدث زرتشت عن نفسه كإنسان عادي ، ويعتبر أن الرجل في محيط اهتم بالزراعة والرعي والدواجن ، فهو قد بذل قصارى جهده في أقواله وأفعاله لتوسعتها وتنشيطها ويعتبر كلما خالف ذلك فهو عمل شيطاني منسوب لإله الظلمة (اهريمن) وكتب زرتشت كتابه عهد ابتعاده عن المحيط يوم تألبوا عليه ، وبعد كتابته عاد ونجحت دعوته بأن كتابه من وحي السماء وانه أول كتاب سماوي وواضع القوانين الإلاهية ، وقسم كتابه إلى فصول وقطع ، فقال إن الإنسان مخير بين الخير والشر، وان سعادة الفرد في ثلاثة : التفكير الحسن ، والقول الحسن ، والفعل الحسن . وانتشر مذهبه حتى أصبح في آخر عهد الامبراطورية الاخمينية المذهب الرسمي . وكتابه المنزل هو اوستا أوزندا وستا . ويقول الزرتشتية الحاليون إن الكتاب هذا جاء ألف وخمسمائة قبل الميلاد[1] وقد أحرق الإسكندر المقدوني الامبراطورية وفيها اوستا سنة ٣٣٠ ق.م.

---

(١) هناك من نسب الدين الزرتشتي إلى النبي إبراهيم الخليل عليه السلام وأن السبب لتقديس النار عندهم هو لأن النار لم تحرق إبراهيم عليه السلام ويؤيد ذلك الصفات الكاملة لإله الخير وصفات الشر لاهريمن الذي يقابل الشيطان . في حين أننا نجد هناك بوناً زمنياً كبيراً بين العهد الذي ظهر به إبراهيم عليه السلام وعهد زرتشت

غيـر أن المؤبدان وهم علمـاء دين زرتشت جمعـوا متفـرقـات الكتـاب بعد ذلك بـدقة وأعـادوه ، ثم كتب بالكتـابة البهلويـة وسمي زند وادخـل فيه في عهد استيلاء اليونان ممـا يرى تـأثير ذلـك كما نـرى أثر الأفكـار اليهوديـة فيه .

المبادىء الزرتشتية :

بدل زرتشت العقائد الخرافية السابقة ووحد الأربـاب فـي أهـورا مـزدا أو رمـز (الحكيم الأعـظم) أو الصمـد ، يعني رب النـور والـطهـر والحقيقـة ومنبـع الخيرات والنعم ومـوحـد الحيـاة الأبـديـة . وينسب لـه ستـة صفـات وصفهـا في ستـة مـلائكـة مقـربين ، وجعـل للنـار في دينـه مقـامـاً أسمى ، كمظهر للمقام الإلّهي ، ويقابل اهورا مزدا إلّه الخير ، إلّه الشـر هو اهـريمن ويختص بالرذائل ويعتبر ان قدرته غير خالدة وهو مصدر الشر .

القيـامة : يـوم المحشـر . يبعث في ذلـك اليـوم المـوتى أحيـاء تحت امـرة سا اورشتـانب ابن زرتشت غير المـولود ليقـود أهل المحشـر ، وتتجلى هناك أعمال الخير والشر ، ويبلغ الاخيـار خيرهم ، ويبقى الأشـرار ثلاثـاً في جهنم ، وفي اليـوم الرابـع تتجدد الخلقـة وتتبـدل الأرض إلى معـدن مـذاب ينعم فيه الصالحون من أتباع زرتشت ، وللأشرار عـذاب لا يطاق ، ويخـرج النـاس من هذا البحـر للحياة الخـالصة النـورانية من صـالح وطـالـح للحيـاة السعيـدة، سوى عـدد قليـل وعنـدهـا يغلب اهـريمن على أمـره ويلقـون في جهنم هؤلاء مع الشياطين وتبدأ الحياة السعيدة شعارها العدالة والصدق .

مذهب زرتشت والحياة العملية :

ينظر زرتشت ان الإنسان مخيـر بين الخير والشـر ، لذا يـوصي أتباعـه الجـد لسلوك الخيـر بـأمـر اهـورا مـزدا وغلبـة شيـاطين الشـر (اهـريمنـان)

= وربما سبق إبراهيم (ع) زرتشت بأكثر من ألف سنة وربما كان زرتشت سار على دين إبراهيم عليه السلام متأثراً به .

بـالكفـاح المستمـر في عمـل الخيـر ، ويعتبـر الـزراعـة والـرعي وكـل مـا يسعـد البشر مـادة ومعنى خير فعليـة من اكثاره ، بخـلاف المـذهب الهنـدي المتزهد الخانع القانع الفقيـر المتشائم . ومن الحكمـة متابعـة ذلك والـدعوة لهـذا المـذهب ، وهي أولى الـوصـايـا ، ويلي ذلـك الاخـلاص في العمـل والصدق والوفاء بالـوعد والعهـد حتى تجاه الـطالحين باسم العـدالة، ويمنـع البر بالأشرار لأنه غير جائز .

الثالثة : العمل المقرون بالمثابـرة المثمرة لجلب الخيـر ورفع الشـر ، وبهذه الوصايا رفـع المستوى الاجتمـاعي والاقتصادي في الأعمـال الزراعيـة وتـربية المـاشية وغيـرها ، حيث يقـول : من لم يقلب الأرض يميناً وشمـالاً ويحرثها للزراعة سيسمع من الأرض : « أيها الرجـل ابتعد وقف أمـام أبواب الأغيـار لعلك تحصل حثـالة من الفضـالـة . هـذه مئـات ومـلايين النبـاتـات المفيدة المثمرة أرسلها لكم الله ، نحن نقدس الله الـذي أبدع وأوجـد المياه الجـارية والنبـاتـات المفيـدة ، طعـام الفـرد الفـارسي حب مكنـون في قلب التربة ، لا شك من يزرع يحصد» .

ومنهـا : « كل من يؤذي كلب الـراعي أو كلب الـدار أو كلب المـربي ستلقى روحـه في الدار الآخـرة أشد ممـا يجده الخـروف الأبيض من الذئب في الحسـرة والطرح» . هكـذا نراه يـوصي بـالـزراعـة والكلب . وفي فصـول أخرى يوصي بتربية الحيوانات المفيدة وإبادة المضرة بأمـر الله ، طلباً للخيـر وقهـر الشيـاطين ، والحـرب بين الخيـر والشـر عنـده هي الحـرب بين العلم والجهل والحضارة والبداوة ، وهي في الفصول المهمـة التي ترفـع اسم هذا المـذهب ، كما نـراه في فصول أخـرى يـوصي بـالـطعـام الجيـد لاكتسـاب الصحة وبتكثير النسل وتحسينه بـالزواج من امـرأة زرتشتية وانجـاب أولاد ثم تربيتهم وتعليمهم[1] ثم يوصي بالتوطن والخروج من حالـة البداوة والتنقـل .

---

(١) هذه الوصايا نراها أم الخير والتفاؤل بعكس ما نراه في المـذاهب الهنديـة المتشائمـة الراضخة الخانعة للذل والفقر والذي يدنس المرأة بما يحويه من غير المعقول .

ويقـول المتـزوج خيـر من الأعـزب ، ومن يملك داراً وعـائلة خيـر ممن لا يملكهـا ، ومن لـه أولاد خيـر ممن ليس لـه ولـد ، وكـان الـزواج في العهـد الساساني يشبـه الزواج الإسـلامي ، بيد أنـه لم يحدد عـدد النساء، إذ كـان يعـود لقدرة الـرجل اقتصـادياً ولم يحـدد قانـوناً . فقيـر لا يتـزوج إلاّ واحـدة وشريف ربما بلغت نساؤه المائـة وأكثر[1] ، فمتـون الكتاب المقـدس يوصي من الله «بموقد نار ملتهبة وبعـدها دار عـامرة فيهـا النار وبهـا مقر الحيـوانات ومسكن الـزوجة والأولاد والـطرف الآخر المـزرعة». فتـرى المذهب يـدخل في صميم الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصـاديـة والجـد في الأعمـال العمـرانيـة والخيرية والكفاح ضد الرذائل ، ويعتبر المحققون أن هـذه العقائـد كانت في العهـود الأولى سبب تقدم الشعب خـاصة وان شعـارهم النية الحسنـة والقول الحسن والفعـل الحسن، واعتبروا أن النـار والأرض والماء عنـاصر طـاهرة ، وان جسـم الميت غيـر طاهـر ، وحذار أن تلوث بـه العناصـر الطاهـرة المـارة الـذكر يتـركوهـا للوحوش . وأمـا الروح فتحـاكم بعد المـوت ، فأمـا للجنـة العليـا أو إلى جهنم ، والعذاب في ظلمـات وبرد لا يـطاق ومتعفن ، عـذاب مـادي وآخر روحي ، بين أشـد الوحـوش ضراوة والحشـرات لسعـاً ، بحيث يكون عذاب اليوم مساوياً لثلاثـة آلاف سنة ، وهنـاك مقر متـوسط بين النعيم والعذاب للمتوسطين .

مذهب مهر :

الشعب من الـزرتشتية متـأثراً بـالمسيحية ، قـالـوا بـأن الله يسمى مهـر (إلـه الشمس) ، وجميع النـاس اخـوة وكبـارهم آبـاء وكـان عنـدهم مثـل المسيحيين غســل تعميــد ونسبــوا لمهــر القــوة والعــظمــة والـفتــوح ، وانتشـر المذهب هـذا بين الرومـان أيضاً خـلال القرن الأول والثـاني والثالث الميــلادي غيـر أن الكنيســة أصبحت أشـد خصـومـة لــه ، حتى زال فـي

(١) راجع (زن در حقوق ساساني ص ٢٣).

القرن الخامس الميلادي وحل محل هذا المذهب مذهب ماني .

مذهب ماني :

مـذهب مختلط من الزرتشتي والمسيحي والبـودائي ، مؤسسه مـاني ، ايراني الأبوان ، ولد في بابل ، مركـز الأفكار والعقـائد المختلطة في ٢١٥ – ٢٧٧ ق.م. واعتقـد الكثيـرون بنبـوتـه حتى قتــل بسبب خصـومــه علمـاء الـزرتشت له . وقـد جمـع مـاني في مـذهبـه العـرفـان من بـودا ، مخلوطـاً بمبـادىء الـزرتشتيـة المتفـائلة ، واعتقـد بـأصــل النـور والــظلمـة والحسن والقبيـح ، وإن الإنسان مـركب من خير وشـر في روح وجسم ، ومتى صفت روح الإنسـان من الشـرور ، ورسمت إلى السمـاء مـركــز التـوراة ، وأخــذ مبـدأ العالم وآدم من التـوراة مع تعبيـرات بسيطة، بيـد نراه يتقي دين اليهـود وكتابهم ، وينفي قتل عيسى عليه السلام بيـدهـم ، وينفي كتب القديس بـول المسيحي ، لكنـه يؤيد المسيـح يقول إن حيـاته الجسميـة ظاهـرية ، وادعى مـاني أنه هـو الذي بشـر بظهـور المسيح وعـودته ليـطهـر الأرض وينجيهـا ، وجـاء مزدك آخـر القرن الخـامس من اتباع مـاني واتبع مبـدأ النور والـظلمـة مثله ، وأضاف أن الجنايات إنما تحـدث بسبب الشهوة الجنسيـة ومنشأ ذلـك المـرأة ، والحرص على اقتنـاء المال، ولـرفع هـذه الجنايـات يجب إبـاحـة النساء والأموال للجميع بصورة مشتركة[١] ، وحينما طرد مبـدأ ماني في بـلاد فـارس ، انتشر في الشـرق والغرب في تـركستان ومنغـوليـا والصين وسـوريـا ومصـر أخذ صبغـة فلسفية وشكـلاً مسيحياً حتى قضي على هـذا المبدأ بعـد مقاومة الكنيسة في أوروبا وشمال إفريقيا .

خاتمة الدين الزرتشتي :

أصبـح في ٥٠٠ ق.م. الــدين الشعبي الفــارسي الـرسمي وسبب

---

(١) وربما تأثر بذلك في نظرية أفلاطون مما ذكره في جمهوريته حول الأمرين وإباحتهما بين الفلاسفة باعتبارها منشأ الخلاف .

التقدم الاجتماعي والاقتصادي لاهتمامه بالزراعة والري والغابات والسدود والحركة العمرانية والعملية وبلغ درجة كاد أن يسود العالم .

قال ادوار كريستي : لو أن داريوش (امبراطور بلاد فارس) كان فاتحاً في أوروبا لسار دينه في أوروبا ، ورغم ذلك فقد انتشر في أوروبا لولا المسيحية ، ويمكن القول لولا فتح اسكندر لبلاد فارس حيث كانت الضربة القاصمة للمذهب هذا واستئصاله سوى في بعض الجهات ، حتى عاد في عهد الساسانيين ، عهد اردشير بابكان ، وأصبح المذهب الرسمي ، وأضاف لكتابه متوناً أخرى .

كانت المبادىء المذهبية في البدء سهلة اختيارية ينقلها الآباء للأبناء، وبمرور الزمان بسبب الاضافات الكثيرة أشكل الآ على عدة معدودة من علماء المذهب سمُّو بالموبد، وجمعهم موبدان، ورئيسهم الأعلى مريد الموبدان ، واستبد هؤلاء ، وأكثروا المعابد والمواقد النارية الدائمة ، وتدخلوا في جميع الشؤون الفردية والاجتماعية ، لا سيما حينما تفوقت الكنيسة في الغرب وتأخر الوضع الاجتماعي وتدهور بدخول الإسلام سنة ٦٢٦ في بلاد فارس ، وهروب المذهب الزرتشتي واتباعه إلى الهند ، وقضي الإسلام على المخلفات حتى الكتابية أينما حلَّ بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وانتهىٰ تحت ضغط هؤلاء للهروب إلى الهند ومن ظل منهم في إيران سموه عبدة النار أو كبراً .

واعتبر الكتاب أخيراً أن زرتشت كان موحداً وان كلمة اهريمن تقابل كلمة الشيطان الذي قيل إنه في النهاية سيقضي عليه إلّه الخير (اهورا مزدا)، والواقع تحت تأثير الدين الإسلامي الفاتح طوروا الدين الزرتشتي وجردوه من الشوائب وعدلوه حتى جعلوا اهورا مزدا هو الرب الواحد الصمد .

الزرتشتية اليوم في الهند :

ومن حيث التعداد بعدون نحو مائة ألف نفر أكثرهم يسكن بومباي ،

ورغم قلتهم فهم ذوو علم وحكمة ويتقدمون على غيرهم في الشؤون الاقتصادية والعلمية ، ولهم شريعتهم ، ومحترمون من الطوائف الأخرى .

ومن عاداتهم اليوم الزواج من واحدة ، ويحافظون على تقديس النار، والصلاة خمس مرات يومياً لله ، والغسل الخاص كالتعميد المسيحي .

الصابئة :

وقد مر ذكرهم ، وهم فرق ، ومنهم من لا يقول بالشرائع ويعتقدون بالروحانيات ، ويتبعدون عن الجسمانيات تلك التي يقول بها الحنفاء ، وقيل إن الصابئة يتبعون نبي الله شيث وادريس ، وقد قيل إن الحكيم هرمسي هو ادريس النبي وله آثار وأحاديث وحكم بليغة محموده . ومن الصابئة : ذكر قسم منهم وهم أصحاب الهياكل والأشخاص : وهذه الطائفة تحسب الكواكب السبعة أرباباً توصلهم إلى الله وهو رب الأرباب ، هذا رغم اعتقادهم بالروحانيات ، وحجتهم أنهم لا يستطيعون باعتبارهم ليسوا من الروحانيات إدراكها ، ولا بد لهم من وسيط أو وسطاء ليشفعوا لهم ، فهم يتوسلون بالكواكب ، وحيث وجدوا أن الكواكب تغيب وهم بحاجة لوسيط دائم لا يغيب اتخذوا من الأصنام التي نحتوها بيدهم أو أشياء أُخرى واسطة للكواكب الغائية ، ومنها إلى رب الأرباب ، وهياكلهم على هياكل السيارات السبعة ، وكل منهم يتوجه بعبادته وطلبه ودعائه وتوسلاته أمام هيكل قاصداً الجوهر وهو الروح . وكان من هؤلاء أهل بابل زمن الرسول إبراهيم الخليل الذي حطم أصنامهم وجاءت آيات في القرآن حول ذلك في الحوار بينهم وبين إبراهيم حيث يخاطبهم ﴿ **أتعبدون ما تنحتون؟ والله خلقكم وما تعلمون** ﴾ [سورة الصافات ، الآيتان : ٩٥ و٩٦] .

ومن الصابئة، الخربانية :

وهم القائلون ان الله واحد بالذات والأصل والأزل ومتعدد بمرأى

العيـون ويتجلى بـالكـواكب والأشيـاء والأشخـاص ، ومنهم انحـدر أصـل الحلول والتناسخ .

ومن أهل الأهواء والآراء والنحل هم :

الفلاسفة[1] : ـ أي الحكماء :

والفلسفة كلمة يونانية ومعناها حب الحكمة فهي كلمتـان فيلا وسـوفا . والفلاسفة جـاءوا ادواراً ومن أساطينهم وهم من مـالطة وسـاميا وأتينـه ونذكـر هنا أهمهم :

نـالسي المـالـطي ، انكسـاغـورس ـ انلسيمـانس ، انبـذ قلس ، فيثـاغـورس ، سقـراط ، أفـلاطـون ، فلوطـرخيس ، كسنـوفـانس ، زينـون الأكبر ، ديمقراطيس وأتبـاعه ، الفـلاسفة الأكـاديميون ، هـرقل ، ابيقـور ، سـولون الشـاعر ، اوميـروس الشاعـر ، بقراط الحكيم والـطبيب المشهـور ، ديمقراطيس ، اوقليدس ، بطليموس ، ارسـطوطاليس ، الاسكنـدر الرومي ، ديوحانس الكلبي ، الشيـخ اليونـاني ساوفـرسطيس ، نـامعطيـوس ، اسكندر افروسبي ، ذذيوس ، المتأخرون من فلاسفة الإسـلام مثل يعقـوب بن اسحق الكنـدي وحنين بن اسحق ويحيى النحـوي وأبي الـفـرج وابن سـليمـان السجزي ، وأبي سليمان محمـد بن مسعود المقـدوني ، وأبي بكر ثـابت ابن أبي فـرة ، وأبي تمام يـوسف بن محمد النيشـابوري ، وأبي النصـر الفـارابي وفي مقدمتهم الشيخ الـرئيس أبو علي حسين بن عبـدالله سينا ، ولـه مؤلفات في المنـطق . وعامـة الفلاسفـة يقولـون بالـوحدانيـة وكمال علم الله وقـدرته وإبداعه ويتحدثون عن المبدأ والمعاد والحركة والسكون .

وهم إنما يتوصلون إلى كنه معرفتـه من عظمـة اثاره وخلقتـه ويعترفـون بقصورهم وعجزهم عن التوصل بغير ذلك .

---

(١) مر ذكر عدد من الحكماء والفلاسفة في الهند والصين .

وقد تأثر بعض الفلاسفة من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي صادفها في حياته مثل أفلاطون مما صار إليه حال استاذه سقراط وما قاساه بنفسه وشاهده من سوء تصرف الزعماء والسادة وتدهور الأوضاع الاجتماعية على أثر فقدان ساسة وزعماء صالحين ، وبحكم الضرورة والوجدان الصارخ فيه لإقامة دولة صالحة يتخلص بها العالم من هذا الجور والظلم والعسف (والحاجة أم الاختراع) فجاء بآخر ما وصل إليه الفكر البشري على ضوء دراسته وتجاربه ، وهو أحكم حكماء عصره لوضع كتابه الجمهورية ، قصد بها بناء حكومة أساسها العدالة والمصالح العامة والفردية ، حكومة مثالية ، وقد أجاد في وصفه لولا أنه لم يستطع على وضع الأسس الملزمة لإنشائها وإدامتها وبقائها من العوادي . وكتاب الجمهورية خير نموذج وجدت أن أعرج عليه وأذكره باقتضاب في كتابي هذا كنموذج واضح من الحكومات العالمية التي وضع أسسها نظرياً واحد من أساطين الحكماء. كما أجد من الكتب السماوية والرسل الذين جاءوا وأجادوا بوضع شريعتهم نظرياً وعملياً ، والذي يستحق البحث هو الدين الإسلامي الذي كان أبعد الكل نظراً وأقومها أثراً وأجلها عقلاً ومنطقاً وأرسخها عملاً .

آراء العرب ونحلهم :

وإذا قلنا ذلك فإنما نعني ذلك قبل الإسلام لأنهم جميعاً أصبحوا مسلمين وجمعتهم كلمة الإسلام ، وهم قبل الإسلام مذاهب فمنهم من كان ينكر الخالق والبعث وهؤلاء كانوا يقولون : إن الطبع هو المحيي والدهر هو المغنى . ومنهم من قال بالخلقة والإبداع ولكنهم أنكروا المعاد ، وجاءت الآية في القرآن عن ذلك ﴿ **وضرب لنا مثلاً ، ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة** ﴾ سورة يّس ، الآيتان : ٧٨ ـ ٧٩] . ومنهم من يقر بالمعاد وينكر الرسالة ويعبد الأصنام ويتخذها شفعاء . وأهم ما امتاز به عرب الجاهلية

شيئان هما : إنكار المعاد وإنكار الرسالة ، حيث يقول الشاعر العربي :

حياة ثم موت ثم بعث   حديث خرافة يا أم عمر

فهو ينكر على الرسول ويكذبه على ما جاء وطرىء في المعاد والبعث .

ومنهم من قال بتناسخ الأرواح ، ومن العرب من أقرّ لليهودية أو المسيحية . ومنهم الحنفاء وهم ملّة إبراهيم والحنفاء هم الموحدون وأول من آمن برسالة محمد (ص) وكان منهم الحكماء .

علوم العرب في الجاهلية :

وأشهر علوم العرب في الجاهلية ثلاثة هي :

١ ـ علم الأنساب .   ٢ ـ علم الرؤيا .   ٣ ـ علم الانواء .

وإن اشتهر البعض منهم بالفراسة .

من حكماء العرب عامر ابن خرب العدواني ، وهو من حكمائهم وشعرائهم وله خطب وأشعار . ومنهم من حرم عليه الخمرة مثل قيس بن عاصم التميمي وصفوان بن أمية الكناني وعفيف بن معد يكرب الكندي . ومنهم من حرم الزنا والخمر مثل أُسلوم الليامي حيث قال :

سالمت قومي بعد طول مضاضة   والسلم أبقىٰ في الأُمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهي أثيرة   والمؤنسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أمين تكرماً   وكذاك يفعل ذو الحجى المتعفف

ومن المؤمنين بالله وبخلق آدم عبد الطابي بن تعلب بن وبرة من قضاعة . ومنهم زهير بن أبي سلمى القائل :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم حساب أو يعجل فينتقم

ومنهم علاف ابن شهاب التميمي القائل :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة   فأخذت منه خطة لقتال
وعلمت أن الله يجزي عبده   يوم الحساب بأحسن الأعمال

ومنهم من طلب دفن بعيره عند موته ليكون يوم الحشر راكباً وهو خريم بن أشيم الأسدي ومنهم عمر بن زيد التميمي القائل :

أنبي زودني إذا فارقتني   في القبر راحلة برحل فاتر
للبعث اركبها إذا قيل اركبوا   مستوسقين معاً لحشر حاشر

وكان عرب الجاهلية يحرمون نكاح الأمهات والبنات والخالات والعمات .

وهكذا نجد الوضع العقائدي المتضعضع عند العرب ، وعلى الخصوص عند أولئك عبدة الأصنام ، فهو يصنع الصنم من حجر أو غير الحجر ليتوسل إليه ويعبده ، ولكنه قد يضطر إلى بيعه أو إهدائه أو أكله أو تحطيمه ، مثل قبيلة حنيفة قبل الإسلام عملت صنماً من التمر وأخذت تعبده حتى إذا أدركتها المجاعة أكلته فقال الشاعر :

أكلت حنيفة ربها   زمن القحاطة والمجاعة
لم يحذروا في ربهم   يوم القيامة والشفاعة

الديمقراطية :

وهناك عقائد متأخرة جاء بها المتأخرون لنظام البشر وسعادته وحفظ حقوق الفرد ، فمنها ما اهتمت بحقوق الفرد الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وحسبت أن سعادة المجتمع إنما تحصل بإعطاء الفرد حقوقه كاملة بالتساوي بين الأفراد ، وان تكون إنشاء الحكومات قائمة على الحرية والمساواة والعدالة الفردية كالقائلين بالديمقراطية و (حكومة الشعب نفسه بنفسه) .

الشيوعيـــة :

ومنهم من رأىٰ أن تكــون المصلحة مصلحــة جماعيــة والمصلحة مصلحة عامة وعلى الحكومة رعايـة مصلحة المجمـوع وإذا اقتضت الحاجـة ضحت بالفرد لسلامة الجمـاعة كـالشيوعيـة ، ومنها الفـاشستية اتخـذت حداً وسطاً فحددت من جهة حقاً للفـرد ولمدىٰ معيّن في الملكيـة وحريـة الفكر ، ومن جهة أُخرى حددت للجماعـة والدولـة حقوقـاً عامـة ليس للفرد التجـاوز عليها .

ففي الأولى سمـح للفرد أن يمتلك مـا شاء من أرض ومعمـل ومؤسسة ومقـاطعات وغـابات وشـركات ومنـابـع للثـروة من المعـادن والنفط دون حق تدخل الدولة في شؤونها عدا ما تفرضه من الضريبـة عليها ، كمـا نجد ذلـك في الحكومات الديمقراطية مثل أمريكا .

ومن جهة ثانيـة نرى روسيـا والدول الشيـوعية تـرى أن جميع الثـروات انمـا هي ملك للجميـع وتحت تصـرف الحكـومــة التي تمتلكهـا وتــوزعهـا لمصالح الجميع .

بينمـا جـاءت الفـاشستيـة فـأعـطت حقـاً للفـرد في الملكيـة الصغيـرة والمتـوسطة ، وأمـا الملكيات الكبيـرة وأخص منهـا الـطبيعـة مثـل الغـابـات والمرافق العامة الطبيعية من مناجم ومنـابع طبيعيـة أو مستخدمـات عامـة مثل السكـك والمطارات ومـا شاكـل ، فيجب ان تديـرهـا الحكـومـة ، ولا يحق لـلافراد تملكهـــا، وهنا نجـد أن القضية الاقتصـاديـة تتخـذ شكـلاً اسـاسيـاً لادارة شؤون الــدولـة والحكــومــات وتتجــه المخـــاصمـــات بين الافـــراد والجماعات على اسس جديدة .

اليونان والحكماء :

قلنـــا ستتكلم في الكتـاب الــرابـع عن نمـــاذج من أرقى حكـومـــات الحيـوانات (الحشـرات) عن حيـاتهـا الاجتمـاعيـة والادارية والاقتصـاديـة

سلوكها الفردى والجماعي ، وأعظم ما جلب نظرنا مثابرتها على أعمالها المكلفة بها كل فرد وكل جماعة قيامها بصورة مستمرة على أعمالها التي خصت بها دون أن تحيد للتدخل في أهمال الآخرين أو تتقاعس عما انيط اليها وطاعتها وتضحيتها الفردية امام الحياة الجماعية ، لدرجة الفناء حياة توحى لنا بنظامها على أرقى مواهب الحياة ، وقلنا لا تخلو أما ان تكون منقادة بحكم العقل أو الغريزة ، أو كلاهما ، ومهما كان ذلك فانه يدل على نظام في غاية الكمال والابداع ، فان كان غريزة فهو يقابل في عمله ومفهومه وأهدافه ارقى العقول المفكرة ، واذا كانت صادرة من عقول مفكرة فهي ذات استقامة ومقرونة باطاعة وامتثال للمصدر الذي هداها ودبر أعمالها وهي بأعمالها حسب تقديرنا مهما كان الحال أكثر سعادة من هذا البشر الذي يتذبذب بين العواطف والغرائز التي تتحكم به من جهة وبين العقل والوجدان الذي يصده ويؤنبه فهو لا يكاد يسعد الا داهمه الشقاء فراداً وجماعات مساقاً ومنقاداً رغم ارادته وتفكيره الى هوات سحيقة ومخاطر لا يكاد يصحو ويعود الى وعيه الا وصرعته أُخرىٰ ، يعرف الحقيقة والصواب ويحيد عنهما مرغماً بحكم شهواته ورغباته . وطالما تغلب العقل السليم وحكم بالصواب وخرج بالناس مبشراً ومنذراً على لسان الحكماء والفلاسفة والأنبياء وقادة البشر من ذوي المنطق الصائب والارادة القوية والصفوة النادرة على اثر ما شاهدوه من الانحطاط العقلي والانسياق والانجراف الى كل رذيلة واستهتار وظلم واستبداد وتدهور الفكر الانساني الى أدنى درجات الجهل والحرمان والبؤس والشقاء ، فخطبوا الناس شفاها وخططوا لهم سبل الحياة كتابة ، وجاهدوا وضحوا وتكبدوا في سبيل احقاق الحق واعادة المرء الى وعيه وصوابه ، فكان جزاؤهم رغم ما قاسوه من أشد صنوف العذاب انهم خلفوا تراثاً من سمو العقل البشري والنظم المقدسة ، مما جعلهم من الخالدين كسقراط وأفلاطون وارسطو من الحكماء الفلاسفة ، وغيرهم من الكتاب ، والفارابي ، في عهد الاغريق والرومان والعرب ، وفي الهند والصين ، مثل بوذا وكونفشيوس ، ومن الأنبياء كنوح وابراهيم

وموسى وعيسى ومحمد (ص) الداعين الى العدالة والحكمة والمنطق والقضاء على الظلم والجور والتعدي والجهل والاستهتار ، والدعوة الى الاخلاق الفاضلة والاعراض عن النزق والسفالة والرعونة ، فسقراط حدد الفضيلة وحدد الدولة المثلى ، كما حدد افلاطون تلميذه اموراً كثيرة ، وكان مثار فلسفة سقراط وأفلاطون هو انحطاط الدولة ، حتى أصبحت ديمقراطية يسيرها الرعاع وتخططها شهواتهم وندواتهم دار جدال فقط ، وانتخاب الفلاحين السذج مما جعل المدينة العظيمة مرتعاً لابناء سبارطه الاشداء ، هذه عوامل الضعف بعثت بهذه الافكار وايجاد نظام ادبي جديد ولايجاد دولة مثلى كما جاء في جمهورية افلاطون ، الذي أقض مضجعه ذلك لوضع حدود تشكيلة دولة جمهورية على حد فكرة في ذلك الزمن يقضي به على تلك المفاسد ويكون منهجاً لقيام أدق الحكومات وارقاها من حيث المقام العلمي والعقلي ، وحيث أن السعادة تتبع العقل فهو أراد بحكومته المثلى ارقى الحكومات السعيدة ، وقد كان أفلاطون كاستاذه سقراط موحداً راسخ الايمان باله ومعتقداً بخلود النفس والميعاد ، واعتقد أن بالحكمة وتهذيب النفس فقط وحدها يمكن تبديل الفوضى في الدولة بالنظام والضوضاء بالايقاع والترتيل وحد الشهوات النفسية بتقوية العقل والمنطق السليم وتوقي الخير الكامل واحترام المعرفة لا إطاعة العدد ، وقد قال :

يزيد في الطين بلة اجتماع الجماهير الذي يزيدهم جنوناً وتهوراً وفساداً وهذا يتضاعف بتضاعفهم ويزيد ذلك بلاءً اذا استأثر احدهم بقدرته على الخطابة هياج الجماهير وشعورهم فهو كالطبل الفارغ . وافلاطون هو الذي حدد المستبد بقوله من كان يعمل في يقظته كلما يعمله بوحي غرائزه في نومه . وكانت هذه الافكار والأقوال من أهم الاسباب على حنق جمهور الديمقراطيين على سقراط والحكم عليه بالموت . وكان هذا الحكم اهم دواعي وضع تلميذه افلاطون كتابه الجمهورية حيث شرح فيها مباحث ما وراء الطبيعة والاداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن ، وتكلم

عن تحرر النساء ووضع فيها القواعد لتحديد النسل ومبادىء الاشتراكية والشيوعية واليوجينتية والارستقراطية والدمقراطية والدكتاتورية ، وبحث فيها عن التحليل النفسي وسبق من قال ان الحياة من مظاهر التفاعل الكيماوي ، وأننا سنبدأ كلامنا الثاني عن افلاطون وجمهوريته بصورة مقتضبة جداً لنعرف كيف ان الحوادث الاجتماعية والسياسية والادارية السيئة في زمنه تركته بحكم الضرورة يبحث عن وسيلة ومنجاة لحد تلك الفوضى والمظالم ، كنموذج من آراء أهل الرأي في الحكومة العالمية .

أفلاطون وآراؤه وجمهوريته :

ولد سنة ٤٢٧ قبل الميلاد في عائلة ارستقراطية أبوه من نسل قدروس الملك وامه من نسل صولون الحكيم ، وهذه من العلل المهمة لتحبيذه الارستقراطية ، لا سيما اذا أضفنا الى ذلك تربيته وتأثرة من استاذه سقراط ، ولافلاطون صفات من النوع التي يحمل عليها وينتقدها كالشعر والكهنة والاساطير ، اذ انه هو نفسه شاعر وكهنوتي ويعمد الى اسطورة لتأييد قوله ، كما انه يقول ان المشابهات تحمل على الزلق وهو نفسه يأتي بها ، ويحمل على السفسطائيين ويفعل فعلهم . ورغم هذا النقص فرسالته كاملة بها نجد فلسفته عن ما وراء الطبيعة واللاهوت ، فلسفته النفسية والتعليمية والسياسية ونظامه الأدبي ومذهبه في الفن ، كما نعثر برسالته على الشيوعية والاشتراكية وتحديد النسل والتعليم الحر والتحليل النفس ، وما قاله روسو بالعود الى الطبيعة ، وما جاء به أكثر الكتاب مثل نيتشه في الآداب والارستقراطية وبرغسن في التعليم الحر والدافع الحيوي وغيرهم ، حتى قال امرسن : افلاطون هو الفلسفة والفلسفة هي أفلاطون فاحرقوا المكاتب فكلها من هذا الكتاب .

فجمهورية أفلاطون تتألف من عشرة كتب مقسمة الى خمسة أقسام :

١ ــ فالقسم الأول هو عبارة عن الكتاب الأول وبه يبحث ويناقش عن السؤال · ما هي العدالة ؟

٢ ــ القسم الثاني ويشمل الكتاب الثاني والثالث والرابع ويبحث فيه عن اركان الدولة وخصوصاً تعليم طبقة الحكام وبه يحدد المقصود بالعدالة في الدولة ثم في الفرد .

٣ ــ القسم الثالث ويشمل هذا الكتاب الخامس والسادس والسابع ويعتبره البعض انه الموضوع الاساسي ويبحث في الشيوعية خاصة عن طبقة الحكام وكيفية تقلد الفلاسفة زمام الحكم باعتبارهم القضاة وباعتبار رئيس الدولة أكبر الفلاسفة وأصول تعليمهم ارقى مراتب التربية والتعليم .

٤ ــ القسم الرابع - ويشمل الكتاب الثامن والتاسع وفيه يبحث عن انحطاط الحكومة المثلى وتدهور الفرد الأخذ بزمام الحكم حيث يتخذ الانحطاط اربعة أدوار تنتهي بالاستبداد الذي يتمثل فيه اعنف صور التعدي التي تقابله العدالة الكاملة في الدولة المثلى .

٥ ــ القسم الخامس : والكتاب العاشر وفيه نتيجة المقررات السابقة ويختتم ببحث عن خلود النفس وجزاء الفضيلة ووصف يوم القيامة (يوم الدينونة) .

ونعود لنتكلم عن الكتاب الأول . ففي الكتاب الأول ناقش جماعة سقراط واشهر هذه الجماعة غلوكون واديمنتس كون التعدي بطبيعته خير في العدالة وطلبوا منه أن يبرهن على أفضلية العدالة ، فبرهن سقراط بعد الفصل الأول على رأيه وبدأ رأيه في تحديد العدالة بأنها قيام كل فرد بالعمل الذي يحسنه والخاص به ، وقال بالبحث عن العدالة في المجتمعات وأهمها الدولة ، وخيرها الدولة المثلى التي هي عبارة عن الدولة الارستقراطية التي تحكمها طبقة حكام تعلموا تعليماً عالياً وافياً بعد مرورهم باختبارات طويلة استطاعوا وبرهنوا على ادراكهم مبادىء الدولة ، اولئك الذين تكون عيشتهم شيوعية فيما بينهم ، ليبتعدوا عن المطامع الشخصية ، وان تكون الشيوعية بينهم حتى في النساء باعتبار الأمور الجنسية من أهم موارد النزعات الغريزية الباعثة على الخلاف والفساد .

ويلي طبقة الحكام طبقة رجال الجيش باعتبارهم مركز القوة المدافعة عن كيان الدولة ويلي هؤلاء الطبقة الثالثة وتشمل غير الطبقتين المارة الذكر ، ومنها الصناع والعمال والتجار وغيرهم فدولته تحمل طابع التخصص وهذا هو فارق فيها عن الدولة الدمقراطية الذي يبيح للفرد كل عمل شاء ، وهذا التقسيم في جسم الدولة يقابله تقسيم في جسم الفرد فقد قسم نفس الفرد الى ثلاثة اقسام :

١ ـ القسم العقلي . ٢ ـ الحماسى (الغضبي) . ٣ ـ الشهوى .

فالعقلى يقابل القسم الأول في الدولة حيث هو منبع الحكمة والمنطق ومنبع الرأي الصائب . والحماس يقابل رجل الحرب والشجاعة . والشهوى في جسم الفرد يقابل الطبقة الثالثة في جسم الدولة .

النقد والاصلاح عند أفلاطون :

الأول هو تحديد العدالة والجدال بينه وبين عدة من الارستقراطيين والسفسطائيين وغيرهم ، فيجيب سيفالى ان الثروة تمكنه ان يكون كريماً وافياً وعادلاً ، ويجيب آخر ان العدالة هي فائدة الأقوى وهي منفعة الدولة (وهو مذهب نيتشه) . وقال آخر ان الفضيلة هي الذكاء مع القوة وعليه فان غرام قوة خير من كيلو حق فايها أجدر القوة أو الحق؟وحدد أفلاطون ذلك بان العدالة تستطاع بالحياة الفطرية والبساطة في كل شيء حيث نوه عن افراد جمهوريته بأن « طعامهم وشرابهم من الحاصلات الزراعية ومنها أيضاً اسرتهم التي يستريحون عليها ومنها خمورهم التي يرتشفونها ، وعلى هذا يتمتعون بصفاء العيش مع أولادهم ويسبحون الله ويتعاشرون بسلام ولا يلدون أكثر مما يستطيعون اعالتهم خوف الفاقة والحرب » ، فكانه يريد ان يقول ان زيادة النفوس تسبب تعاسة وشقاء بأنه يزيد العيال والتكاليف في المعيشة ، ومن جهة أخرىٰ لأنه يسبب الفاقة بسبب الحروب والخصام . ثم انه عاد ليبين علة بل عللاً أُخرىٰ من مسببات الاعتداء والخصام فقال :

ولكن طموحهم يسوقهم للاثراء والتجارة وتغيير توزيع الثروة مما يصحب ذلك تغيير الوضع السياسي وانهدام الوضع الفطري وقيام الارستقراطية وانهدام هذه بعوامل فسادها الى الديمقراطية وتغلب حكم العامة دون اقامة المنطق السليم ، حينما تقيم الديمقراطية رئيساً ترى فيه الكفاية الظاهرية ينقلب الحكم الى الاستبداد ، وهذه الذبذبات السياسية تسبب الانقلابات والحروب بسبب عدم اسناد المناصب الى اكفائها الى أهلها الواقعيين الاخصائيين في علمهم وفنهم ، فمنصة الحكم والقيام بأعباء الزعامة تحتاج الى حكم مدرب مجرب اقدر أهل زمانه في العلم والفن والادارة والعقل والادارة لاحقاق الحق واقامة واجراء العدالة تلك هي المشكلة السياسية .

الحلول النفسية :

ومر بنا بأن افلاطون قسم الدولة ثلاث طبقات وقسم جسم الفرد أيضاً الى ثلاث :

١ ــ الحكماء والفلاسفة في المجتمع ويقابله في الجسم الناحية العقلية .

٢ ــ الجيش بما فيه ويقابله في الجسم الانساني العنصر الحماسي .

٣ ــ الطبقة الثالثة غير الاثنين من عمال وفنيين وغيرهم ويقابله في الجسم العنصر الشهواني . كما ان جمهوريته تقوم على أساس الاختصاص وقيام كل بعمله وعدم مداخلة احدهم في عمل الاخر وان يكون العنصر العقلي والحكمي هو الحاكم الأعلى المسيطر على الباقين ، واذا تغير ذلك ينقلب النظام فوضى والعدالة تعدياً والسعادة شقاء ، فركن الدولة المثلى عند أفلاطون أن يصبح الفلاسفة حكاماً وأقدرهم هو الزعيم الأعلى ، أي أن يكون الزعيم الأعلى هو الحكم الأقدر والفيلسوف الأعلى ، وبهذا فقط تسير الأمور على فطرتها ويقوم كل حق قيام بما اسند له بكفاءة ومقدرة ، ووضع لذلك حلولاً عملية كما يلي :

،بحلول العملية :

التعليم والتهذيب العام بالاستيلاء على الأطفال دون العاشرة لهذا الغرض ، وايقاف آثار المفاسد الحاصلة من كبارهم وأن تكون العشرة الأولى من سنهم تعليماً بدنياً محضاً للجمباز والرياضة والالعاب لتزيدهم صحة ونشاطاً لتقوية الجسم ، ولتكون شجاعته مرنة رقيقة ومتزنة ومتسقة وملطفة ومقرونة بالصحة الروحية ، لهذا يزيد الموسيقى أي يجمع بين الجمباز والموسيقى لتلطف أحداهما الآخرى . ويعتقد أفلاطون ان لا يقر التعليم الاجباري فيها كيلا يمزج تهذيب الحر بشيء من حسّ الحقارة والاستعياء بل ان يكون التعليم من طريق التشويق والتحبيب والآخذ بزمام النفس من اطلاق عنان الشهوات اذا يلزم عمله ؟ هذا مع ما قدمنا من ضرورة عدم اجبارهم . هنا يعتقد أفلاطون بوجوب مد القوانين الأدبية بسلطة من وراء الطبيعة انما من طريق الدين والايمان بالله الذي يثير في صدور الناس الرجاء والعطف والتضحية .

وان لا يتجاوز تعليمهم الموسيقى السادسة عشرة ثم يقدمون للامتحان في الأمور النظرية والعمومية بطريقة تمكنهم على اظهار المواهب ، فمن سقط دخل زمرة الكتاب والصناع والفلاحين ، ومن نجح تعلم وتمرن عشر سنوات أُخرى وامتحن امتحاناً يتضاعف في الصعوبة ، فمن سقط عين مساعداً للحاكم (للتنفيذ) وضباط الجيش . ويقول أفلاطون حذراً من اتصال هذه الطبقة مع العمال والفلاحين ، أي الطبقة الأولى وتأليف أكثرية وقبضهم على زمام الأمور ، يجب أن نقنعهم نفسياً ودينياً على أن ذلك منزل من الله لا يتغير ولو من طرق قصص خرافية (كخرافة المعادن) ، ومن نجح في الامتحانين تعلم الفلسفة وهي تتألف من عمادين :

١) علم ما وراء الطبيعة وهو بحاجة لتفكير مركز صافٍ وصحيح .

٢) الحكمة في الحكم وهي السياسة ، وبعد خمس سنوات

يتعلمون كيف يميزون الحقائق وراء الصور ، وبعد خمس سنوات أُخرى يتعلمون تطبيق هذا المذهب على شؤون الناس .

ولا يكتفي أفلاطون بذلك بل يقول انهم كملوا نظرياً وشاهدوا شمس الحقيقة ، لذا عليهم النزول الى ظلمات الكهف الى عالم الناس والأشياء لتطبيق النظريات على الواقع وخوض معمعة الحياة العملية للتنافس مع التجار والصناع والاصطدام برجال الحيلة والمكر والدهاء ، وان يكتسبوا خبرتهم بعرق الجبين ، وتكون مدة دراستهم في هذه المرة ١٥ سنة ، وهي المحك الأخير ، فمنهم من يفشل ومنهم من يفوز ، وقد بلغ الخمسين واتقن الحكمة نظرياً وعملياً . هؤلاء غايتنا المنشودة وحكام الدولة المثلى .

الحل السياسي :

ولنبدأ الانتخاب وهو الخدعة السياسية يصبح هؤلاء الرجال حكام الدولة ويتقلدون زمام الحكم ، دون أن يكون لاخوانهم من طبقات الشعب الاخرى رأي في ذلك باعتبار جهلهم لانتخاب الاصلح لادارة الدولة ، لعدم درايتهم عن حقيقة الشخص المنتخب والمزايا اللازمة له ، ولاندفاعهم تحت تأثير الخطب وهياج وحماس مصطنع في المجتمع .

هكذا يريد أفلاطون أن يحكم أفضل وأقدر العقول المحنكة ، وبعد هذا سمها ارستقراطية أو ما شئت ، فهو انتخاب الأجدر الواقعي ، فالحاكم (الملك) هو استاذ الفلسفة والحكمة النظرية والعملية . ولا فرق بين هذا وبين أبناء الطبقات الثلاث فابن الحاكم يبدأ حيث يبدأ تعليم ابن الجندي وابن الفلاح والحمال والصانع ، لا تعوقه الثروة ولا النفوذ ، وهذه الحكومة بنظره اسمى الحكومات ، كسمو السماء عن الأرض بالنسبة لدمقراطية صناديق الانتخاب .

يختص الحكام بادارة مصالح الدولة بما فيها ، دون دخالة في اية مهنة وعمل لا يخصهم ، فهم المشرعون والحكام والمنفذون في آن واحد

لا يتقيدون بقانون سابق لزم تغييره حسب مقتضيات الحال والحياة العقلية .

الاشتراكية :

فرض أفلاطون الشيوعية الملكية بين الحكام حذار استغلال جمع الثروة من قبل احدهم أكثر من الآخر ، حذار المناقشة والتجاوز ، فقال بعدم امتلاك كل منهم عقاراً أو مخزناً بل يتقاضون اجوراً لقاء عملهم بمايكفيهم لحياتهم ، دون نقص أو زيادة ، واشتراكهم في الموائد ، وان يقولوا ان الله كنز في أنفسهم الثروة فلا حاجة الى المادة والذهب والفضة ، لما بها من الشرور فيحرمون عليهم هذه ليصبحوا محترمين من العامة والمنافسات ، فلا يمتلكون عقاراً كي لا يتدخلوا في اختصاص غيرهم من تجار وزراع وملاكين وغيرهم ، ولتخلوا افكارهم من أية شائبة الا اختصاصهم .

منزلة المرأة :

ساوى أفلاطون النساء بالرجال في الوصول الى الفلسفة والحكمة ، كما جعل نساء الحكام مشاعةً بينهم بحيث لا تختص امرأة برجل ، بل كلهن مشاعة للكل ، وعلى ذلك كل مولود لا يعرف أباه ، بل هو مشاع للجميع ومتى ولد أخذ للتربية العامة . فالتعليم على حد سواء بين الجنسين وبين كافة الطبقات طالما ان في رأيه قد ينتج الحاكم الفيلسوف عاملاً أو جندياً أو غير ذلك وينتج الجندي أو الفلاح أو العامل حكيماً أو غير ذلك .

غير أن أفلاطون لم يغفل موضوعاً مهما وهو الأصالة ، فهو لم يسمح بالتعاقب والتوالد الا من أبوين سالمين ، وكل امرأة يجب ان تبرز شهادة قبل زواجها ، وأن يكون التعليم منتخباً قبل الولادة ، ولا يحق للرجال بعد ذلك ان يعقبوا الا بين سن الثلاثين والخمسة والخمسين ، والنساء بين العشرين والأربعين، وقبل وبعد هذين على المرأة أن لا تلد وأن تجهض إذا

حملت ولا يـرى وليدهـا النـور . ويمنـع الـزواج بين الأقـارب وان يكثـر من زواج أفضل الرجال بأفضل النساء .

كما يرى أفلاطون خير وقاية للاحتـراز من العلل المسببة للحـروب في أمرين :

١) بتحديد النسل لوقف زيادة السكان .

٢) والاحتراز من التجارة الخارجية وما يثيرها من منازعات .

وهذا ما نجـده واضحاً كـل الوضـوح في العلل الاقتصاديـة في العصر الحـاضر والعصـور المنصرمـة ، التي على أساسهـا يصـطدم شعـوب العـالم لاستيـلائها على الاسـواق التجاريـة وحصـولهـا على أكبـر قـدر مستـطاع في الأسـواق ، لتصريف منتـوجاتهـا وصنائعهـا من جهـة الصـادرات ، واستيـراد المـواد الخام بـأقـل كلفـة وسعـر من الشعـوب الضعيفـة ، وتنـازع وتكـالب الشعوب القويـة فيما بينهـا لجلب هذه المغـانم والارباح ، بمـا تستطيـع من حول وقوة وباسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

الحل الاجتماعي الأدبي لقول افلاطون :

ما هي العدالة ؟ ولا ننسى أن مبدأ أفلاطون في جمهـوريته يقـوم على أساس التخصص لكل طبقة ، وعدم تدخل أي طبقة بوظيفـة الأخرى ، لهـذا يرى الزام كل فرد بـالعمل الـذي يجيده أكثـر ، ويأخـذ على حد يكـون أكثر استعـداداً علمـاً وعمـلاً وفـطرة لادائـه ، ويـرى اذا أقيم الشيء بغيـر مكـانـه وتـدخل الافـراد فيما لا يعنيهم وفي غيـر اختصاصهم ، اختلت العـدالـة في الدولة واضطربت وتضعضعت عراهـا ، ويحفظ هذه المـوازنة الـطبقة الأولى الحاكمة المار ذكرها .

أما في الفرد فيجب كمـا في المجتمع الـدولي ان يكون القسم العقلي هو المسيطر على القسمين الآخـرين (الحماس الغضبي والشهـوى) ، وبغير هذا يختل وضع جسم الفرد حينمـا تسيطر الشهـوة عليها أو القسم الحمـاسي

والغضبي . وبهـذا يـرد أفـلاطـون على مخـالفيـه بـأن العـدالـة ليست القـو المجـردة بـل هي القـوة المنـظمـة ، وليست حق الأقـوى بـل هـو الاتســاق والتعـاون بين القوى لخيـر المجمـوع . ويـظهـر أن افـلاطـون أول من فكـر بـوضع أسس ثـابتة لـدولة مثلى بصـورة متـزنـة ومتسقـة فلسفـة وفنـاً متسقـة الاجزاء مشدودة العرى في جمهوريته .

ويسـأل أفلاطـون : ما هي العلوم الـلازمـة لتـوجيـه النفس ؟فيجيب : الحساب وانهندسة والفلك والموسيقى والمنـطق والمنطق هـو الذي نـدرك به بفعل الذهن النقي طبيعة الخير والحقيقة .

ويقسم في كتابه الثامن الحكومات الى خمس :

١) الارستقـراطيـة : وهي بنـظره الحكـومـة المثلى ، ومنهـا يشكــل حكومته ويضع كما مر اسسها ، ويقابل هذه الحكومـة من الناحيـة الجماعيـة الـرجل الارستقـراطي ، فهو الفـرد والمثال الأعلى في سـدادة الـرأي وحسن التدبير والقيادة ، صاحب الحكمة والفلسفة العلمية والعملية .

٢) التيمـوغـراسيـة : وهي تنشـأ عنـد استفحـال العنصــر الحمـاسي وطغيانه على كافة العناصر الأخـرى ، هذا العنصـر المغمور بـروح المطامـع والمسمـاة بحكومة الشرف ، ويقـابله الفرد الـذي تتغلب على عقله وشهوتـه عنصر الحماس والغضب .

٣) الاوليغــاركيــة : وهي الحكــومــة المتشكـلة على أثــر تـحــور التيموغراس حينمـا تنمو فيهـا حب الثروة وتتـزايد حتى تصبـح الثروة اسـاس الجدارة ، لذا يقال ان الاوليفاركي وليد الديموغراسية .

٤) الديمقراطيـة : حينما تنمـو الطبقـة المثريـة يزيـد جشعها وضمهـا للثـروات الأخـرى . عنـدهـا تثـور الـطبقـة الفقيرة المحـرومـة الخـطرة على الـدولة ، تستهـدف الأغنياء وتفـرض المساواة في الحقـوق المدنيـة ، فتنشـأ الـديمقراطيـه ، وأشهر أوصـافها الحـرية المـاثلة الى الاستباحـة والفوضى ،

وهي حكومة الرعاع المطالبين بتساوي الافراد فيها ، دون رعاية علم وخبرة وتجربة ودون رعاية ادبية اخلاقية وعلمية وسن وطلب مساواة بين الوطنيين والدخلاء وسحق المقدسات ومساواة الرعاع بالمحنكين أو استهتار الأبناء تجاه الآباء والاساتذة وتطاول العبيد على الاسياد والنساء على الرجال والصبيان على الشيوخ والازدراء بالشرائع والنظم .

٥) الاستبدادية : نتيجة التطرف للحرية بين الرعاع وتغلبهم على دست الحكم بواسطة رد فعل يهيء الطريق للاستبداد بيد الانتهازيين ـ من غير الطبقة الأولى . وهذا الانتهازي هو بطل الجماهير المختار في الأحزاب يعارضه انتهازيون آخرون مثله ، وإذا ما غلب على أمره ولو لأمد قصير وعاد ثانية بسبب ما بعد نفيه ، عاد أقوى مما ذهب واختار حرساً خاصاً يحافظونه تحت ادعاءات مريبة ، وأخيراً يتحول إلى فرد مستبد عنيد ليقضي على منافسيه ، ويشكل دولة هي شر أنواع الدول والحكومات ويزداد استبداداً أمام الخصوم المتعندين ، فيتحول المستبد إلى ألد ، فيقضي على أعدائه وينشغل عن أصدقائه فيشعرون بقلة اكتراثه بهم ، وهم الذين أيدوه ، وهذا الشعور يخلق جواً تتخلله الريبة بينهم ، فيراقب أصدقاءه ويحاول أن يتخلص من عتابهم وانتقادهم ، ويقضي على الصالح منهم والطالح ، ويتحول للعامة فيجردهم من السلاح .

ويصف أفلاطون هذا الرجل المستبد أنه أخبث رجل ، وهو من كانت حالته في اليقظة مطابقة مثله الأعلى في النوم ، ولأنه أشد شراً فهو أشد شقاء ، يتساوى في نظره الصديق والعدو . وهو بؤرة الدولة الاستبدادية وعمادها ، ومثل الرجلين المستبدين كالمدينتين المستبدتين ، والمدينة التي يحكمها المستبد هي أشقى المدن ، وعلى عكس ذلك الرجل الارستقراطي والمدينة الارستقراطية فهي أسعدها ، والمستبد رغم مرضه النفسي والعقلي في حالة صراع دائم مع نفسه وغيره ، لشعوره بكثرة أعدائه وشدة احتياطه وخوفه ، فهو لا يأبه عن إتيان أي رذيلة يجر الشقاء له ولمن يلتف حوله .

الكتاب العاشر :

ويبحث فيه عن التقليد والجزاء والحقيقة وغير الحقيقة ، فيقول إن لكل شيء ثلاثة فنون :

١) فن صناعة الشيء .
٢) فن استعماله .
٣) فن تقليده بالمظهر الخارجي، عياناً كما في التصوير ، أو صورته سماعاً أو وضعه شعراً . فالأولان يحكيان عن حقيقة الشيء ، والثالثة غير حقيقية . فمن يصف طبيباً لا يكون طبيباً ، فهو لا يستطيع معالجة المريض ومثله وأصف الرجل الشجاع أو المهندس والخ . . . وعمله إنما هو ذو مظهر خارجي .

كما أن لكل شيء آفة ، فالعمى آفة البصر والعفن آفة الحبوب والأرضة آفة الخشب ، وهي تغنيها ، والشر آفة النفس يفسدها ، بيد أنه لا يفنيها ، ويقول : إن لكل عمل جزاءاً والعدالة خير جزاء للعادل .

وقال : يطلق المرء لخوالجه في حزن وفزع وغيرها العنان في خلوته ويحجم أمام الغير ويحلم عن انشائها ، وذلك بحكم العقل أو الشريعة لازماً السكينة والوقار (فهو إنسان مزدوج) لأن الحزن يجلب الجزع ، وهذا يضر المرء وغيره ويعيقه عن العلاج والشفاء .

وعكس ذلك الاصغاء للعقل من شيم الحكمة التي تدفع الشر وتجلب الخير ، وعليه مَنْ حثّ على الحزن وآثاره وأثار الجزع كان جهولاً ، وَمَنْ حث على الهدوء والجلد فهو حكيم . ويتخلص من ذلك أفلاطون ان أكثر الشعراء الذين يثيرون الحزن إنما يثيرون القسم الحقير من النفس ، فهم غير صالحين ولا بأس بمن يثير الهمم . كما يعتبر من يصف غير الحقيقة فرداً مضراً باعتباره ملفقاً كاذباً فهو يعتبر شعر هذا

الشاعر جريمة لأنـه يفسد حتى الصـالحين . وكثيراً مـا يصور الشعـراء الوهم حقيقة كما مـرّ أو يعبرون عن مـظهر من المـظاهر دون تعمق . وأخيـراً يقول أفـلاطـون يسمـح للشعـر في دولتـه لتسبيـح الإلّـه ومـدح الصـلاح فقط ، وخـلاصـة القـول أنـه يقبـل الشعـر المنـطبق مـع الحقيقـة والصـلاح المثيـر للهمم .

ديـن اليهـود

هـو الـدين الـذي جاء بـه موسى بن عمـران من أحفـاد يعقـوب (اسرائيل) بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، والتـوراة أهم كتاب جاء به موسى ويشتمل التوراة على الأسفار الخمسة ، وهي خمسة كُتب :

الأول : فيـه ابتـداء الخلقـة حتى استقـرار بني إسـرائيـل في مصـر ، **والثاني** : خروجهم من مصر . **والثالث** : وفيه الأحكام والأوامـر المذهبيـة . **والـرابع** : عـرض القوى المـادية الإسـرائيلية . **والخـامس** : يكمل الأربعـة السابقة .

وبعـد القـرن الأول الميـلادي وتشتت اليهـود أضيفت كـتب مقدسة أُخرى للعهد العتيق أولاها بين القرن الأول إلى الـرابع بعـد الميلاد، وسموه التلمود الأورشليمي ، ومجمـوعة أُخـرى مهمة بين القـرن الثالث إلى الخـامس ب.م. في الآونة التي تحـرر بـه اليهـود في بـابـل وسمي التلمـود البـابلي . والمسيحيون ويعتبرون العهد العتيق والعهد الجـديـد المضـاف لـه كتـابهم . وفي هـذه الكُتب كثيـر من المتنـاقضـات التي كـانت محـل انتقـاد جميـع الكُتّاب المسلمين واليهـود والمسيحيين وغيرهم ، ونـذكر هنـا اليهـود والمسيحيين منهم : الفيلسـوف اليهـودي اسبينـوزا Spinosa ١٦٣٢ ـ ١٦٧٧ ميـلادي في كتابـه Traite Theologique et Polotique وريشـارد سيمـون Richarad Simon مؤلف الكتاب Histoire Critique de Veaux Testaments

بـأن الكتب من عمل الحـاخامية اليهود أنفسهم ، كمـا أن الـطبيب المحقق الفــرنسي Jean Ostruc جان استـرك سنــة ١٦٨٤ ـ ١٧٦٦ أثبت أن الكُـتب جمعت متنـاقضة ، وأن هنـاك أمثـال مـا عمله سن بـول المسيحي في شـراء الخـطيئات لا أسـاس لها في العهـد القديم ، ويثبت أن مـا درج من صنـوف الكُتب المقـدسـة مـوضـوعـة ، ومن مجمـوع مـا ورد رغم التنـاقض أن جـد اليهـود الأعلى إبراهيم الخليـل عليه السـلام يأتي من أُور إلى بـابل ، ومنهـا يـذهب إلى مصر ومن بعـد أحفاده اليهـود بقيادة مـوسى عليه السـلام يـأتـون إلى أرض فلسطين ، ويتلى من الرب الأحكام العشرة كما يلي :

١) أنـا يهوه ربـك أخرجـك من مصر أرض العبـودية والاسـر ليس لك رب سواي .

٢) لا أقـر لك صنمـاً ولا تصويـراً لا في السماء العلى ولا في الأرض السفلى ولا الميـاه تحتها لأني ربـك الغيـور وبسبب خـطايـا الآبـاء أقـاصص أبنـاءهم وأحفادهم إلى النســل الثالث والـرابع . وتشمـل رحمتي لألف نسل أولئك الذين أطاعوني .

٣) لا تذكر ربك بالباطل لأن هذا الذنب له عقاب .

٤) اجعل يوم السبت يوماً مقدساً استرح به أنت وابنـك وبنتك وعبـدك وثـورك وحمارك واحشـامك وضيفـك لأن اليهـوه خلق الكـون في ستـة أيـام واستراح في السابع .

٥) اكرم أبويك حتى يطيل الله عمرك .

٦) لا تقتل .

٧) لا تسرف .

٨) لا تزني .

٩) لا تشهد على جارك كذباً .

١٠) ولا تطمع بجارك وبما يملك وما ينتسب له .

ويحسب المحققون أن المتون الواردة في كُتب اليهود تذكر المزارع والأحشام والبيوت في الوقت الذي كانوا أربعين سنة سائبين متنقلين . وأن ما وضع في الكُتب من أفكار القرن السابع ق.م. ذلك أُسلوب حياة اليهود البدائية الأولى وطرز حياتهم وأفكارهم ، لأنهم كانوا رعاة متنقلين ، وكان الطفل ينسب لأُمه ولشجرتها والخيمة لها ومع أبويها . بعدها انقلب الوضع وأصبحت المرأة قسماً من أملاك الرجل يشتريها الزوج من أبيها أو اخوتها ، فالأب له حق بيع بناته وأولاده كالعبيد وله أن يقتلهم . وكانوا يسمون أنفسهم بأسماء الحيوانات والنباتات ، كما أنهم يقدسون بعض الحيوانات ويتنجسون من أُخرى ويستحرمون أكلها . وأيضاً اعتقدوا بالأرواح وأن بعض النبات لها أرواح تسكتها ، كما حسبوا ذلك في الينابيع والجبال وأخص البراكين ، واعتقدوا بالسحر والعيون الضارة والتعاويذ والتراتيل وأمثالها .

وفي مراحل أُخرى اعتقدوا ببقاء النفوس بعد الموت وبقاء اثارها في أبنائها من نفع وضرر ، وكانوا يتركون إلى جنب الميت طعاماً وأسلحة وأشياء أُخرى ، كما اعتقدوا أن النفوس الميتة تصبح لها قدرة أكثر من الإنسان الحي حتى يبلغ أحدهم درجة الأُلوهية ويؤلهوه ، وحينما كانوا قبائل رحل كانوا يعتقدون أن الوهيم (الله) حاميهم ، وإذا واجهوا بركاناً وضعوا على وجوههم برقعاً كي لا يدركهم الموت برؤية واحد من الأُلوهيمات . كما كانت لهم رسوم للرقص والتراتيل وتقديم القرابين في بعض حفلاتهم .

دخل اليهود أرض فلسطين في سنة ١٤٠٠ ق.م. وكانوا آنذاك رعاة تغلبوا على سكان البلاد الأصليين القاطنين هناك ، ثم استوطنوا واتخذوا الزراعة والتشجير وسيلة للمعيشة ، وكانت لهم الوهيمات (أرباب) يعبدونها ، وهي مجموعة نفوس مقدسة مجدوها ثم عبدوها ، وداخلتهم بعض معتقدات السكان الأصليين المعتقدين بالأرواح والتواتر والسحر

والتعاويذ وغيرها . ولم يعتقد اليهود لـذلك الحين بيـوم الآخرة والجنـة والنار والحساب ، بل كانوا يعبدون يهوه مضافاً إليـه ألوهيـاتهم ، وأضافـوا كما مرّ معتقـدات السكـان الأصليين ، وظلّت تـلازمهم هـذه العقـائـد حتى القـرن السابع قبل الميلاد .

كان اليهود يعتقدون أن يهوه (الله) يحاميهم دائماً ضـد الأغيار ، كـأنه يخصهم بالذات سواء في الحرب وغيـرها ، معتقـدين أنهم شعبه الخـاص ، بيد أنه بمـرور الزمـان داخلهم سوء الـظن حينما وجـدوا أنفسهم على عكس ذلـك يندحـرون في أغلب المواقـع ، هنـاك عـادوا لأنفسهم أن ذلـك بسبب عصيانهم لمبادىء الرب واحكامـه ، لذا عليهم الصبـر لإدراك الأجر . وظهـر في القرن الثامن قطب من أقطابهم ، عاموس ، قـائلاً : إن الـدين هو الـذي أمرنا بفضائل ونبذ الرذائل ، وان العدالة خير من العبـادة ، حيث كان اليهـود لذلك الحين يجـوزون كل رذيلة وظلم ، رغم عبـادتهم بيهوه ، ولا يحسبـون ذلك ينافي ما مر ، وهذا ما علمهم عاموس ونصحهم بـه ، قائـلاً : إن الرب يقـول أنا بـريء من أدعيتكم وطقوسكم واحتفـالاتكم الـدينيـة وقـرابينكم ولا حاجة لي بذلك .

دعـوني عن أصواتكم النكـرة في أناشيـدكم الدينيـة ، أنا بحـاجة إلى نشر العدالة كالماء الذي تروي به الأرض ، وهكذا تلتها وتلى عـاموس غيـره من المصلحين . وخـرج أحد أئمـة اليهود (ESAI) ان على اليهـود أن يبشروا أن يهـوه هو إلّـه الجميع في العـالم ، وأمر بـالعدل والبـر والإحسان ، وعلى اليهود نشر هذه المبادىء .

ولقد تحمّل اليهود كثيراً من المصـائب في الداخـل والخارج بيـد انهم كانوا يسلون أنفسهم بسعادة المستقبل وان دولتهم ستعود . .

عقائدهـم :

اعتقـدوا مبدئيـاً أن قصاص الأعمـال تجري في هـذه الدنيـا وأن طول عمر المرء يدل على صلاحه . وبالنسبـة للموتى ، قـالوا : إن كلبـاً حياً خيـر

من أسـد ميت ، إذ إن الميت يفقد الشعـور بالمنفعـة ، وما كـانـوا يعتقـدون بالمعاد واليوم الآخر . بيد انهم بعد حصـولهم على الحريـة في ٥٣٨ ق.م. في بابل وصلاتهم الفكرية باليونانيين والإيـرانيين ، بدأ اعتقـادهم بالقصـاص والمعاد والجزاء الأُخـروي والحياة الأُخـروية الخـالدة ، ولم تكن هـذه مثبتة في كُتبهم الـدينية ولم يـأت في العهد العتيق سـوى قولـه : (انك لا تحيـي الأشرار مرة أُخرى لأنهم لاقوا جزاءهم ولكنه يشير ان المتقين سيخلدون) .

ومن المسلم أن اليهـود لم يخـامـرهم يـوم البعث حتى القـرن الأول الميلادي مخامرة كاملة ، ولم يكن لذلك الخيـر صراحـة عن الجنّة والنـار . وفي القرن الأول الميلادي صـرح أحد أئمـة اليهود : « مـا لا ترضـاه لنفسك لا تـرضاه لبشـر مثلك . ولم يكن للنسـاء أهميـة تـذكـر بـالنسبـة للرجـال . يفرض الختان بعـد ثمانيـة أيام من الـولادة . والتعليم الديني يبـدأ في السنة الثـالثـة عشـرة من العمـر ، والـزواج يجـري في الكنيسـة . والعبـادة عصـر الجمعة والاستراحة المطلقة في السبت ، يعتد بالأعياد .

اليهود في الماضي والحاضر :

بعد الضربة الماحقة والسبي الآشوري ، تـلاها احتـلال أورشليم بأمـر نينـوس الامبراطـور الرومـاني وتشتت اليهود مـرة أُخرى ، وظلّوا حتى القـرن العشـرين مشتتين ومحفـزين ومعـذبين أخص بيـد المسيحيين ، بسبب أن اليهود قتلوا عيسى الناصري ، ولقد ظـل المسيحيـون والكنيسة تجـري على اليهود أقسى الأوامر والمظالم ، وما أشهـر كلمة الفتـاة اليهوديـة التي وجهتها إلى أولئك الذين حكموا عليها بـالحرق حيـة في محكمة التفتيش العقـائديـة في مدينة ليشبون الاسبانيـة (تجده في هـامش كتاب تـاريخ الأديـان ص ٣٠ الطبعة الثانية) ، وتلخص كلمتها حين تخاطب الـذين حكموهـا : « إن كنتم لا تـطبقـون علينـا الأحكـام المسيحيـة فعلى أقـل تقـديـر عـاملونـا كمعـاملة إنسان » . وكان اليهودي في العالم محروماً مشـرداً مهانـاً بيد المسحيين حتى قيام الصهيونيـة في المجر ، والـدعوة للعـودة إلى فلسطين في مستهـل القرن

العشرين ، ويتبع ذلك وعد بلفور سنة ١٩١٧ وهو وعد من الإنكليز لليهود ، وأصبحت أرض فلسطين منذ ذلك العهد مركز الفتن في العالم أخص بين اليهود والعرب ولا تزال ، وحدثت حروب عدة بين الطرفين منها في ١٩٤٨ و١٩٦٣ و١٩٧٣ ولا تزال لهذا اليوم بينهم حالة حرب ، وربما هددت العالم بالحرب العالمية الثالثة ، وفلسطين مركز قلق عالمي ، وكانت هذه البقعة مركزاً غير عادي عند العهد القديم ، فقد كانت مقر أكثر الأنبياء. كما كانت الممر الرئيسي بين آسيا وإفريقيا ، كما كانت مقر أشد الحروب الطائفية الصليبية ، وفيها جرت أشد المذابح بين المسلمين والمسيحيين ولا زالت مقر القلاقل منذ أول القرن العشرين .

أخيراً إن المعتقدات المذهبية اليهودية تشكل أهم عناصر الدين المسيحي ، حتى قيل إن المسيحية وليدة الدين اليهودي .

المسيحيــة :

المسيحية دين جاء به سيدنا المسيح (عيسى بن مريم) لإصلاح ما اعوج من دين اليهود ، دين خير ما وصفه ومن نزه نبيه الكريم وأمه الطاهرة العذراء القرآن الكريم . دين يقوم على التوحيد ونبذ المنكرات وإقامة البر والإحسان والخلق السامية والسلوك الاجتماعي المتين .

بيد أن من المؤسف أننا لا نجد لأصل الإنجيل ووصايا سيدنا المسيح (ع) من أثر ، وما تجده إنما هي أناجيل وضعت في المئة الثانية بعد ميلاد سيدنا المسيح (ع) ، تناقض الواحدة الأخرى وتتناقض الواحدة منها في الأقوال ، وهي في كثير من الأحيان تخالف المنطق السليم والسلوك الطبيعي ، ممزوجة من أنقاض اليهودية المتأخرة المتفسخة والشرك الذي كان في ذلك العصر في مصر وروما والفلسفة اليونانية والأديان الأخرى ، كعبادة مهر الايرانية التي انتشرت في أوروبا كما مرّ .

فأقاموا عوض التوحيد التثليث (الأب والابن وروح القدس) وأصولاً لا تمت أبداً إلى المبادىء الحقيقية التي دعى إليها سيدنا المسيح ، فكان

منبعثاً من نفوس وآراء قامت بما أوحت لها أنفسها واستهدفت أغراضها ، لا تمت في أصل من أصولها إلى المنطق ولا تستنير بالعلم والحقيقة ، توصي بالإطاعة العمياء والإصغاء إلى افراد بعدوا عن الحكمة وبلغ بهم الغرور والتعصب أقصاه ، يحاربون العلم والعدل وينشرون مبادئهم تحت راية الظلم والقسوة الفظيعة واستئصال شأفة العلماء والمحققين والفلاسفة والمصلحين باسم الدين .

قالوا : بان عيسى الناصري المصلوب ابن الله ، ونشروا ديناً لم يأت به المسيح (ع) بل هم وزمره تحت تأثير الشروط الزمنية والمكانية جدوا في نشره قسراً وأعلنوا له جنبه عالمية خلاف ما كان عليه اليهود . وانتقلت الروحانية المذهبية تدريجياً من البساطة إلى التعقيد ، واستبدت به الكنيسة وأوجدوا في هذه مدارج ورتب من رجال ونساء ، وبمرور الزمان تكاملت وحسبوا مبدئياً أن عيسى سيعود ويصلح العالم وبدأ بالنشر جماعة من الحواريين أمثال بول يبشرون بعودة المسيح والثواب الأخروي .

ساعد على ذلك ما كانت عليه الدولة الرومانية من المفاسد والانحطاط الاجتماعي والمظالم واستبداد السادة بالرعية ، مما بعث بالمظلومين لانتظار من ينجيهم ، وآخر يخفف عليهم الآلام بيوم القيامة يوم الجزاء الأخروي ، مما ساعد على انتشار المسيحية بين المظلومين ، ينقذهم بقوى خارقة للطبيعة، وبدأ باعتناقها الامبراطور كستانتين الأول في القرن الرابع الميلادي .

الأقانيم :

قال اليهود الذين آمنوا بعيسى بأن الله واحد . بيد أن هذا الدين حينما انتشر في أوروبا المشركة تناوله العيسويون المرقيون ، وهم فرقة من المسيحية ، قالوا: إن عيسى ابن الله جاء من السماء لنجاة البشر ، وقبلوه رباً ، وأضافوا للأب الابن وروح القدس ، ومن هؤلاء الثلاثة (الأرباب الثلاثة) شكلوا رباً.

كانت هذه الفكرة طابقت روح المجتمع الأوروبي الذي عدد الآلهة وبجل الكاثوليك عيسى وأمه مريم ويوسف ، باعتبار الثلاثة يحملون أجل المناصب السماوية ويليهم الأنبياء ويجلون الأرواح كمبدأ ابتدائي .

روح القدس :

حسبوه في البدء نفحة من الله منذ بدء الخليقة ، وانه الذي سبب نجاة الأرض بعد طوفان نوح ، ثم وردت حول روح القدس نظريات مهمة ، وسوف نرى كيف انقسم الدين إلى مذاهب لهذا السبب .

تطور المسيحية :

كانت المسيحية في البدء تعتنق جميع المبادىء اليهودية الأصلية ، ثم بدأت في تطورها حينما دخلت أوروبا ، وادخلت في مبادئها من نظريات وعقائد الرومان المشركين والفلسفة اليونانية والعقائد الايرانية والمصرية . فأخذت الخير والشر من المذاهب الايرانية ، وكما اعتقد الايرانيون أن متراً منجى البشر ادخلوا عيسى منجي البشر وأبقت الأب هو الرب الأكبر آخذة ذلك من مبدأ اليهود القائلين بالله (يهوه) كما أبدلت كلمة اهريمن إله الشر الزرتشتي باسم الشيطان وأخذ منهم أيضاً يوم البعث (يوم القيامة) وأخذت التثليث من المعتقدات المصرية والهندية ، وأخص منهم الفيلسوف اليهودي المولود قبل المسيح بعشرين سنة في مصر ، والقائل بأن الله واحد وصدرت منه كلمة (لوكوس) أصبحت واسطة بين الله والعالم وروح صدر من الكلمة فكون مثلثاً أوجده من عقائده اليهودية والفلسفية الأفلاطونية . كما أن المسيحية اعتقدت بالأجنة والأرواح والملائكة كبقايا من الحياة البدائية ، ومنها تقديس الخبز والشراب المأخوذ من أولئك الذين ساروا على المبادىء التوتمية المشتركين في لحم ودم الموجود التوتمي ، ومنها أخذت غسل التعميد ، وأخذوا الناقوس من اليونانيين وأخذوا الجبة التي يلبسها القساوسة من القسس في معابد ايزيس إله المصريين .

الكتب المقدسة عند المسيحيين :

١ ــ العهد القديم وهي كتب اليهود وهو التوراة وغيره حتى ظهور السيد المسيح (ع) .

٢ ــ العهد الجديد وهو عبارة عن ٢٧ كتاباً ورسالة ، منها أربعة أناجيل و٢١ رسالة تنسب إلى بول والقديسين الآخرين ، وكتاب مكاشفة يوحنا ، مع العلم أن عدد الأناجيل الأربعة انتخبت من ستين إنجيلاً ، وهي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا وقد فرضت من قبل الكنيسة انها كلام الله وحرم على قارئها الشك والترديد بأنها غير نازلة من السماء .

ووضع المرقيون أول إنجيل في ١٣٤ ب.م. في اليونان ، وبعده جاء إنجيل مرقس بسنين ٢ إلى ٣ في روما ، وبعده متى ويحتمل أنه وضع في انطاكية ، وفي ١٤٠ ب.م. ظهر انجيل يوحنا ، ويلي الثلاثة انجيل لوقا حيث ظهر في ١٥٠ ب.م. والمعتبر من العهد الجديد بعد هذه الأناجيل الأربعة كتاب أعمال الرسل وينسبوه لأحد الحواريين .

وتوجد رسائل تنسب لبول وأخرى تنسب ليعقوب وبطرس ويهودا ويوحنا ، ويرى فيها كثير من المتناقضات ، وما ذلك إلاّ أنها وضعت من غيرهم ونسبت لهم .

مؤسس المسيحية :

لا ينكر أن المسيح (الابن) له مقام يساوي (الأب) بنظر الكنيسة ، وأكثر المحققين يجدون أن المؤسس الأصلي للمسيحية هو سن بول . وتقول الأناجيل أن عيسى حصل نتيجة معاجز حصلت بين مريم وروح القدس وينسبونه لأبيه . ويعدون عيسى رباً ظهر على شكل البشر لا بشر سمي لدرجة الربوبية وكان (قبل ولادته) بشّر به أحد أنبياء بني إسرائيل ، وذكروا معاجزه ومناوءة أحبار اليهود له ومناصرة الرومان للأحبار حتى صلبوه . حسب اتباعه من اليهود بأن عيسى بعد موته سيعود ، ويكون

يوم عوده يوم البعث ، ويزول أثر المذنبين من العالم وتسود العدالة ويصبح الكل أرواحاً وتزول الوضعية الجسمية وعندها ينزل عيسى من السماء بصفته الإلّهية .

وفي قضية البعث لهم أقوال متناقضة ، وأخيراً قالوا بالجنة والنار والبرزخ وهو محل وسط وعلى الصالحين التذرع والتوسل بالأولياء والقديسيين ليكونوا لهم شفعاء .

أُصول العقائد عندهم :

أول مجلس مسيحي اقامة أول امبراطور اعتنق المسيحية هو كنستانتين في نيسه سنة ٣٢٥ ب.م. وفيه قطعوا بربوبية المسيح والأُصول التالية :

١ ــ العهد العتيق والجديد كلام الله .

٢ ــ ان الأب والابن وروح القدس أرباب من الأزل .

٣ ــ الابن صار بشراً حينما تصور بعيسى وباختياره فدى نفسه لنجاة أرواح الناس.

٤ ــ بعد موته رفع للسماء حياً ومتى عاد فهو يوم البعث .

٥ ــ البابا ممثل الله على الأرض وهو معصوم من الزلل ويوجد غير الأب والشيطان أولياء وملائكة وقديسون مسيحيون ، ومريم أُم الله شخصية سماوية

٦ ــ من ينكر ما مرّ فهو مرتد .

٧ ــ مظهر المسيحية هو الصليب . وإليك الأنظمة المسيحية .

شراء الخطايا :

اعتقد المسيحيون أن ذنب آدم وإخراجه من الجنة ذنب أزلي له ولأولاده جعله سيء الحظ حتى ازاله المسيح بدمه ، فكان قرباناً للبشر ،

وأشـار إلى ذلك سن بـول وأصبح مهمـاً دون أن تذكـره الأنـاجيـل ، وكـانت الفكـرة الأولى عند الحـواريين الأولين إنما أراد المسيـح أن ينجي اليهود من إرهـاق الرومـان ، وترى الكنيسـة اليوم أن عيسى بـإراقة دمـه قـربـانـاً للبشـر نجاهم من غضب الرب .

المحبــة[1] :

يحسبها المسيحيون أمـراً مهماً أن تشمـل المحبة جميـع البشر . منهـا الصلح مـع الجميـع ، ومتـابعـة الأنـداد وحب الأضـداد والعفـو والاعـراض والانقيـاد تجاه الأشـرار . يعني من ضربـك على خدك الأيمن أدر لـه الأيسر ومن سلب رداءك قـدم لـه قبـاك أيضـاً . وتعتبـر الكنيسـة أن العشق من ذات الله ، بينمـا يرى فـلاسفة اليـونان أن الله هـو العقـل الأكمـل والمـطلق وهـو منـظم الكون . ورغم كـل ذلك فقـد أُقيمت باسم المسيحيـة أشـد المـظالم أمثـال محاكم التفتيش وغيـرها ، ومـدت الكنيسة سلطانهـا في شتى الشؤون حتى حسبت نفسهـا من الناحيـة الدنيـوية فـوق الامبـراطـور وان لهـا انتمـاءاً للرب ، أخص أواخـر القرن الخـامس بعد الميـلاد وبقي حتىٰ السنـة ١٨٧٠ حيث أعلنت لجنـة من كبار علمـاء المسيحيين ان البابـا معصوم من الـزلل ، ويلي البابا الأساقفة والكشيشون ويجردون أنفسهم عن طبقـات الناس سلوكـاً وعملاً . ويتبع أولئك نساء تركوا الدنيا وخصوا أنفسهم للدين .

الشعائر المسيحية السبعة :

١ ــ التعميـد لادخال الطفل في الجامعة المسيحية .
٢ ــ العشاء الرباني وهو آخر طعام عيسى (ع) .
٣ ــ التثبيت أي إدخال الطفل رسماً في نظام الكنيسة .

---

(١) مع مزيد الأسف ، خالفتها الكنيسة عمـلاً ، في كل المـوارد أخص منها في محـاكم التفتيش والأحكـام الصادرة بـالموت على العلمـاء والحكماء والحـروب الصليبيـة ، وكثير مظالم أُخرىٰ .

٤ ــ التوبة وهو اعتراف المسيحي بذنوبه وتوبته وعودته لاحضان الدين (لا يقر بها البروتستانت) .

٥ ــ تلقين الميت للعالم الآخر .

٦ ــ الدخول في زمرة الكشيشيين إلى الكنيسة .

٧ ــ الزواج ـ مرسوم التزاوج على يد الكشيش بألفاظ ورسوم خاصة .

الجبر والاختيار :

وقد سبقت هذه الفكرة انشعاب المسيحيين إلى عدة مذاهب منها من تقول بالجبر ومنها بالاختيار .

القائلون بالاختيار يرون الفرد مختاراً في حياته طريق الخير أو الشر ، وعليه حسابه ، ويسندون ذلك إلى رسالة يعقوب . ومن الفرق من يرى الاختيار ولا يرى النجاة إلاَّ بالغفران والرحمة الإلٓهية فالكاثوليك قالوا بالاختيار ، وعكسهم البروتستانت .

كما نرى اختلاف الآراء في المسيحية في الجبر والاختيار ، ونرى لديهم المتناقضات في الجهات الأخلاقية كالزواج وعدم الزواج وأُخرىٰ يوصي بعمل ويوصي بتركه ، والمحققون يعللون ذلك بسبب أن المبادىء المسيحية من وضع أفكار البشر وحسب مقتضيات الظروف والأزمنة بمرور الأيام .

الارثوذكس والنسطوريون :

أهم الموارد الخلافية بين الارثوذكس والكاثوليك أن الارثوذكس تقول إن روح القدس منبعث من الأب والكاثوليك يقولون من الابن . كما يرى الارثوذكس يحق لكل شعب أن يكون له رئيس ديني ولا يقولون بعصمته . ولرجال الدين الزواج بحرية ، ولهم استعمال لغتهم في العبادات وأمثالها .

وهناك مذاهب انفرد كل واحد منهم بقول دون الآخرين كالنسطوريين واتباع أوتيشه ومنهم الأرمن .

الاباء المسيحيون :

هم الذين قرروا وفصلوا في المبادىء المسيحية ما يجب أن يتبع وما يترك وفي مقدمتهم سنت أوكستن ، كان في شبابه مانوياً المذهب ثم تابع المسيحية .

الخطيئـة :

اشتد الشعور بخطيئة الإنسان مع ربه في القرون الوسطى ، وعلى الناس تحمل الآلام لكسب الحياة الآخرة (مرت في البوداثية) وسببت البؤس حيث اعتقدوا أن الله يحب المعذبين المنكودين حتى المتعمدين أخص في القرن ١٨ . فقد وضعت ما دام كوبون مذهب التزهد وزجر النفس وتكبيتها ولا تزال العقيدة باقية ، وحتى حسبوا من عاش متنعماً كان مذنباً ، ومن ارتضى الشقاء فاز بالسعادة في الآخرة ، واتخذ ذلك المبشرون وسيلة للتبشير ، وعلى الإنسان أن يعتقد أنه ذو خطيئة ذاتاً ، ومذنب ، ولا بد له من الغفران وتحمل الآلام حتى التي يصطنعها المرء لنفسه ، ولقد وصلت تلك بدرجة تخالف المنطق السليم والعقل . وتحقر البشرية تجاه هذا المعتقد الديني ، وأصبح العلم والحكمة والفلسفة ومن يتبعها في المسيحية ، بل كل معقول ، لايجرؤ أحد الدفاع عنها ، وكل ما عندهم أن العلم والحكمة والفلسفة إنما هو تتبع أُصول المسيحية كما وصفه الآباء لا الإنجيل ، وقالوا : إن العقل منبعث عن إنسان خاطىء فعليه اتباع التعاليم المسيحية دون فكر ومنطق ودون جدال . (تاريخ الأديان الصفحة ٣٣١ الطبعة الثانية) . واستخدم المسيحيون العقل والفلسفة وكل شيء للدفاع عن المسيحية وتطبيقها معها ، كما جاء في إنجيل يوحنا ١٤ - ٦ قوله (إنا الحياة والسراط المستقيم لا يتقرب أحد للأب إلاَّ عن طريقي) واتخذت الكنيسة هذه وسيلة للسيطرة على العلم والعلماء والعقل والعقلاء .

فما كانت فكرة إصلاحية ، إسلامية أو غيرها ، تنبعث إلاَّ قضي

عليهــا وظلوا بعيـدين عن المعــارف أخص الإســلاميــة في أوج ظهـورهــا وانبثـاقها ، لا سيمـا المعـارف الإسـلاميـة التي بـدأت في ٦٣٥ حتى دخلت أسبـانيا في ٧٥١ وقـادت مختلف العلوم العالميـة وكملتها ونشـرتهـا ، وظـل يتسـامى حتى القرن الثـاني عشر . وانتجـوا أجل الأدمغـة العلمية أمثـال ابن سينـا والفـارابي وابن رشـد . وحينمـا تـرجمت الفلسفـة وبعض العلوم إلى الـلاتينية في القـرن الثالث عشـر منعته الكنيسـة في البدء ، وحينمـا وجـدتـه منتشـراً ولا مناص منـه صممت أن تطور الفلسفـة وتجعلها مسيحيـة ، وتقدم لـذلك أمثـال تومـاس داكن وألبـرت كـرانـد ، ولا زالت الكنيسـة تصـر على تحـديد العقـول في دينها بـالعقاب الصـارم باسم الخـروج على الله ، بـاسم السحـر واتباع الشيـطان واتبـاع الخـطيئـة واتخـذوا من تفسيـر بعض المتـون لضرب المخالفين قسراً منها :

كمـا جـاء في إنجيـل لـوقـا ١٤ ـ ٢٣ وانجيـل يـوحنـا ٦١٥ قـولـه : (ادخلوا الناس قهراً) و (من خالف يرمى مثـل الغصن خارجـاً وييبس وتلك تجمع وترمى في النار وتحرق) ، فـاتخذ الآبـاء هذا لإرغـام الناس والأديـان الأخـرىٰ قهـراً للدخـول إلى المسيحيـة والحكم على المخـالفين بـالمـوت حـرقاً ، كمـا عملوا ذلك في محـاكم التفتيش وإقامـة المجازر الـدمـويـة في مخـالفيهم من أهـل الآراء والأديــان في شتىٰ صنـوف العلمــاء والحكمــاء والمصلحين النــاقــدين وكــل معــارض بــزعمهم . من مختـلف الأديــان والمـذاهب أكان يؤمن بـالله ورسله وعيسى المسيـح سـواءاً أكـان مسيحيـاً أو يهـودياً أو مسلمـاً أو غيره ، وقـد رأيناهم مـا عملوا باتبـاع الديـانة الفـارسيـة (مهر) حينما بدأت تنتشر في أوروبا قبل ظهـور الإسلام وأفعـالهم القاسيـة الشنيعــة مــع مسلمي الأنــدلس ، حيـن تضـعضـعت دولـتهـم ومــا فعـلوه بـالمسلمين في الحـروب الصليبيـة بـل مجـازرهم المـذهبيـة داخـل أوروبـا نفسهــا ، ولا زالت الكنيسـة على تعصبهــا الأعمى ، ولقـد بلغ بــالكنيسـة وأعضائها الغـرور لدرجـة عبروا بهـا عن أنفسهم بالـوسائط السمـاوية لشـراء وبيـع الجنّـة وإسنـاد العفـو والغفـران في القـرن الخـامس عشـر . وحسبــوا

أنفسهم مركز العالم وفي هذا القرن وبعده توسعت العلوم ودخلت أوروبا وسهلت الطباعة فالنشر ، ومنها وصلوا إلى حقائق لدرجة شكوا بأصل المبادىء المسيحية ، وجاءت الاكتشافات الأمريكية ، وبعد الوصول إلى الصين والهند لمسوا آثاراً من الثقافة والتمدن غير المتصور أدى بهم إلى أن يستزيدوا من العلم والتحقيق وطلب حياة مرفهة أكثر ومطالعة الطبيعة وأسرارها ، مخالفين بذلك الكنيسة ، وعندها شعروا بأقوال وأعمال الكنيسة غير المشروعة وحكمها الاستبدادي ، وشاطر الناس الملوك بذلك . وكان ذلك سبباً لقيام مخالفات مذهبية وغير مذهبية ، ومنها ظهور المذهب البروتستانتي ، وبدأها لوثر سنة ١٤٨٨ ـ ١٥٤٦ ورفض شراء وبيع الخطايا موجهين أشد النقد بذلك للكنيسة ، وأباح للكشيشين حرية الزواج وأقام كالون مركزه في جنيف مقيماً جمهورية بروتستانتية . بيد أن لوثر وكالون لم يدخرا جهداً من تحطيم مخالفيهم هم أيضاً كما فعلت قبلهم الكنيسة الكاثوليكية .

ويمكن القول إنهم رفضوا البابا متوسلين بالكُتب بيد أنهم ظلوا متمسكين بالخطيئة وتجاهل العقل والمنطق والسير على أغلب المفاسد ، ثم ظهرت بعدها مذاهب أُخرى رفضت الادخال القهري للدين أو شراء الخطايا والاعتراف ، أو وساطة الكنيسة بين الناس والسماء ونشرت مبادئها للعامة ، وهذا أدى إلى انقسام الممالك الأوروبية والأمريكية المسيحية إلى مذاهب وفرق وتضعيف سلطة الكنيسة وانتشار العلوم وبعدها ظهور المحققين .

حتى الكنيسة تأثرت بالعلوم والفنون وسمحت بتجسيم اشكال آلهة اليونان القديمة على جدران الكنيسة لتزيينها ، وظلت الكنيسة متعصبة تجاه الفرق والمذاهب الأخرى ، فقامت المجازر والمذابح الكثيرة بين الكاثوليك والبروتستانت لمدة خمسين سنة ، وأينما وجدت الأغلبية المذهبية هجرتها المذاهب الأضعف إلى بقاع أُخرى . وبمرور الزمان توجه كل مذهب متأثراً بالمحيط والعلوم إلى ناحية خاصة ومنها المذهب لثيوسيْلسُ Les Theo soples

يجدّون للوحدة المسيحية مع العقائد البودائية والهندية واليهودية والمذاهب العرفانية .

ومن المؤسف أن المذاهب الجديدة قلما تجد فيها ما يرغب فيه الإصلاح ، ومنها من عادت بالقهقري ، مثل لوثر اراد طرد الموارد العلمية والعقلية من المعتقدات المسيحية ، فهو يرى لا علم إلاّ ما ورد عن المسيح ، والفائدة من هذه المذاهب هو تقليل نفوذ الكنيسة وفتح طريق الانتقاد الذي جرهم للتحقيق والدخول في المعقولات والعلوم رغم آبائهم وخلاف رغبتهم . بيد بسبب الاكتشافات وانتشار العلوم ضعفت العقائد المسيحية المستهجنة والقول بربوبية المسيح ، أخص منذ القرن السابع عشر الذي أماط اللثام عن أكابر الرجال والكتاب مثل غاليلو ودكارت ونيوتن ولاك وبيكن وكيلر وغيرهم ، أُولئك الذين فتحوا باب الدراسة والتحقيق العلمي ورفعوا مقام العقل وتلاه القرن التاسع[1] عشر في التقدم الصناعي والاقتصادي والاجتماعي وبقت الكنيسة على جمودها السابق دون تعديل ، وأما القرن العشرون بما جاء فيه من معاجز العلم فقد شملت العقائد الجديدة حتى رجال الدين وانحدروا للمطالعة والتحقيق .

تمجيد الإسلام وتنزيهه وإسناده للأديان السماوية :

ولتوضيح ما مرّ وكيف خدم الإسلام الأديان السماوية ونزهها وأشاد بها نذكر من القرآن آيات فيما يخص الدين المسيحي وأحياناً اليهودي ، وكيف يشيد القرآن بأصل هذه الأديان أخص اليهودي والمسيحي ، ويقدس ويجل الرسل وأخص سيدنا موسى (ع) وسيدنا المسيح (ع) ومن اقتدى بهما لتوحيد الله وتنزيه واتباع أحكامه .

إليك الآية ٦ من سورة البقرة : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا

---

(١) قال ويكتور هوكو في القرن ١٩ في كتاب ـ تاريخ جناية واحدة ـ في كل قرية فرنسية شمعة تشع نوراً وذلك هو المعلم وهناك فم ينفخ عليها وذلك هو الكشيش .

والنصارى والصابئين من آمن بـالله واليوم الآخـر وعمل صـالحاً لهم أجـرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

تـرى كيف نطق القـرآن الكريم وسـاوى بينهم . وجـاء في ٨٦ منـه : ﴿ ولقد آتينا مـوسى الكتاب وقفينـا من بعده بـالرسـل وآتينا عيسى بن مـريم البينات وأيدنـاه بروح القـدس. . . ﴾ الخ ، ١١٦ منـه : ﴿ وقالـوا اتخذ الله ولـداً سبحانـه بل لـه ما في السمـوات والأرض كل لـه قانتـون ﴾ ، ثم نـراه يجمعهم جميعاً لدين جـدهم إبراهيم الخليـل (ع) في ١٣٥ منه : ﴿ وقـالوا كـونـوا هـوداً أو نصـاراً تهتـدوا قـل بـل ملّة إبـراهيم حنيفـاً ومـا كـان من المشـركين ﴾ و١٣٢ منـه : ﴿ ووصى إبـراهيم بنيـه ويعقـوب يـا بني إن الله اصـطفى لكم الدين فـلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمـون ﴾ و١٣٦ منه : ﴿ قـولـوا آمنا بالله ومـا أنزل إلينـا وما أنـزل إلى إبراهيم وإسمـاعيل وإسحق ويعقـوب والاسبـاط وما أُوتي مـوسى وعيسى وما أُوتي النبيـون من ربهم لا نفـرق بين أحـد منهم ونحن لـه مسلمـون ﴾ . ومن سـورة آل عمـران الآيـة ٩٥ منـه : ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبـراهيم حنيفاً ومـا كان من المشـركين ﴾ ، و٩٦ منه : ﴿ إن أول بيت وضع للناس الذي ببكـة مباركـاً وهدىً للعـالمين فمن تبـع إبراهيم كـان على الحق ﴾ و١٩٩ منـه : ﴿ وإن من أهـل الكتـاب لمن يؤمن بالله وما أنـزل إليكم وما انـزل إليهم خاشعين لله لا يشتـرون بآيـات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ .

وينتقد القرآن بني إسـرائيل وبهتـانهم في مريم وعيسى (ع) في سـورة النسـاء الآيات ١٥٣ إلى ١٥٦ منـه : ﴿ وبكفرهم وقـولهم على مريم بهتـاناً عظيماً ﴾ ١٥٧ منـه : ﴿ وقولهم انـا قتلنا المسيـح عيسى بن مريم ومـا قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم. . ﴾ الخ. ١٥٨ منـه : ﴿ بل رفعـه الله إليه وكـان الله عزيزاً حكيماً ﴾ فاتحـدوا جميعاً بـوحدانيـة الله ونسبة القـدرة والخلقة لـه وحده .

١٧١ من سـورة النسـاء : ﴿ يـا أهـل الكتـاب لا تغلوا في دينكم ولا

تقـولوا على الله إلاّ الحق إنمـا المسيـح عيسى بن مـريم رسـول الله وكلمتـه ألقاها إلى مريم وروح منه فـآمنوا بـالله ورسله ولا تقولـوا ثلاثـة انتهوا خيـراً لكم إنمـا إلّه واحـد سبحانـه ان يكون لـه ولد لـه مـا في السمـوات ومـا في الأرض وكفى بـالله وكيـلاً ﴾ ، و١٧٢ منـه : ﴿ لـن يستنكـف المسيح ان يكـون عبداً لله ولا المـلائكة المقـربون ومن يستنكف عن عبـادتـه ويستكبـر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ ، والجميع أمام الله متساوون إلاّ بالتقوى .

من سـورة المـائـدة الآيـات ١٤ ، ١٧ ، ١٨ منـه : ﴿ وقـالت اليهـود والنصارى نحن أبناء الله وأحبـاؤه ، قل فلم يعـذبكم بذنـوبكم بل أنتم بشـر ممن خلق. . . ﴾ الخ . فالكل نؤمن برسل الله وكُتبه .

و ٤٦ منـه : ﴿ وقفينا على آثـارهم بعيسى بن مـريم مصـدقـاً لمـا بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيها هدىً ونوراً. . . ﴾ الخ .

وينـظر ما ورد في القـرآن أن اليهود زلـوا عن أحكام التـوراة والنصارى زالين عمّا جاء في الإنجيـل ، ولو أنهم اتبعـوا ما ورد في كتبهم لاهتـدوا كما ورد في الآيتين ٦٥ ، ٦٦ منه : ﴿ ولو أن أهـل الكتاب آمنـوا واتقوا لكفـرنا عنهم سيئـاتهم ولأدخلناهم جنـات النعيم ﴾ و٦٦ منه : ﴿ ولـو أنهم أقـامـوا التـوراة والإنجيـل ومـا أنـزل إليهم من ربهم لأكلوا من فـوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ .

ففي الآية الأخيرة يظهر أن أهـل الكتاب لم يعملوا بكتـابهم ولو عملوا لأثابهم وآتاهم أجراً عظيماً . وتؤيد الآية ٦٨ ما مـر : ﴿ قل يـا أهل الكتـاب لستم على شيء حتى تقيمـوا التـوراة والإنجيـل ومـا أنـزل إليكم مـن ربكم. . . ﴾ الـخ . وحاشـا لرسـل الله أن يستنكفوا عن عبـادة الله ، وحاشـا لكتب الله أخص التـوراة والإنجيل أن تنسب لله نقصـاً وشركـاً وولداً وكفؤاً . ومن ادعى ذلك فهو كافر ويعاقبه أشد العذاب .

تؤيدهـ الآية ٧٢ منه : ﴿ لقد كفر الذين قالـوا إن الله هو المسيـح ابن

مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنّة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ و٧٣ منه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلّه إلاَّ إلّه واحد وإن لم ينتهوا عمّا يقولوا ليمسن الذين كفروا عذاب أليم ﴾ فالمسيح عبد الله ورسوله وروح ألقاه في مريم .

و٧٥ منه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأُمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر إنّىٰ يؤفكون ﴾ .

و١١٠ منه و١١١ إلى ١١٦ منه : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلّهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علّام الغيوب ﴾ .

١١٧ منه : ﴿ ما قلت لهم إلاَّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم. . . ﴾ الخ . ولقد بشر التوراة والإنجيل بظهور محمد ورسالته كما جاء في سورة الأعراف الآية ١٥٧ : ﴿ الذين يتبعون الرسول الأُمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. . . ﴾ الخ . راجع ذلك في إنجيل برنابا وقد خالفته الكنيسة ، ويتجلى لنا أن التوحيد أصل في جميع الكُتب السماوية أخص منها التوراة والإنجيل والقرآن وما نشاهده خلاف ذلك فهو تحريف محض قد حرفوه فيما بعد وهم المحرفون والمشركون في الخطيئة سواء ما جاء في الآية ٣٠ من سورة التوبة : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. . . ﴾ الخ . ولقد كان منشأ الفساد إنما هم رجال دينهم ، و٣١ منه ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلاَّ ليعبدو الله وحده. . . ﴾ الخ .

ونرى في سورة مريم من ١٦ إلى ٣٦ فيها يذكر جملها والخطاب الروح الذي أرسله الله لها والذي تمثل لها بشكل بشر وكلمها وأجابته قائلة في ٢٠ منه : ﴿ قالت أنّىٰ يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴾ فأجابها في ٢١ منه : ﴿ قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً ﴾ ، وبعد حمله بدأت بولادته متأثرة فكلمها من تحتها وبعد ولادته حملته وأتت به قومها فأنبوها فأشارت إليه فخاطبهم ، كما في الآية ٣٠ منه : ﴿ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ ، وفي الآيات بعدها إلى ٣٥ منه : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وجاء في سورة الأنبياء من ٢٥ إلى ٢٩ منه ، وكذلك سورة الحديد الآية ٢٧ منه : ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاَّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ .

ولقد بشر سيدنا المسيح بظهور نبي الإسلام (محمد) كما أيّد ذلك إنجيل برنابا وكما كان قبيل الإسلام بشر المتنبئون بذلك وأشار إليه القرآن في الآية ٦ من سورة الصف :

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ولما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ .

ترى من كل ذلك أن دين الإسلام ما خرج عن المنطق السليم فقد آمن بالرسل وكتبهم ونزه دينهم وخلصه من الشوائب والخطيئة والدنية التي دسها المغرضون . وترى فيه المنطق السليم والرأي السديد القويم .

٣ ـ المسلمون :

دينهم الإسلام . والله ربهم . ومحمد نبيهم[1] . والقرآن كتابهم[2] ، والكعبة قبلتهم : وبالعدل الإلٓهي ويوم الجزاء إيمانهم . تلك هي أهم الأُصول ويتفرع عليها من الواجبات : الصلاة والصيام والخمس والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . اتفقت عليها جميع المذاهب الإسلامية . وسن أُسس أخلاقية وأنظمة اجتماعية في القرآن الكريم والسنة الغراء . فكانت شريعته شريعة فطرية طبيعية كاملة جمعت ما يحتاجه الفرد والجماعة من الضروريات كما حوت سمو الأخلاق وتهذيب النفس بين الأفراد والجماعات والفرد والجماعة . وساوىٰ بين الطبقات القوية والضعيفة والسيد والمسود والأبيض والأسود والرجل والمرأة . ووضع حقوق الإنسان بالكتاب والسُنَّة (راجع بذلك سورة الحجرات وخطبة حجة الوداع ويوم غدير خم) وقضى بذلك على الأنانيات الفردية والتعصبات والتنابزات جمعاء من فردية وجماعية . وأدلى بنصوص آمرة وناهية وأُصول المعاملات والإيقاعات والقضاء والأحكام فكانت شريعته شريعة كاملة للعالم كله بما فيه من بشر جاءوا متساويين الحقوق من ذكر وأُنثى (من أب وأُم) متساويين في الحقوق والواجبات وحد لكل أمر حداً . هذا هو أجلى مظهر بين في كتاب سماوي واقعي وعلى من شاء أن يدرك ما جاء به من كتاب وسُنَّة عليه أن يتصفح كتاب الله وسنة نبيه ، وثم

---

(١) الإمامة تلي النبوة وتكملها كما جاء في آية الولاية ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ راجع بذلك موسوعتنا موسوعة المحاكمات .

(٢) يتبع الكتاب والسنة النبوية، قال الله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه. . .** ﴾ الخ . وقال رسول الله (ص) : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إنّ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ، وكما قال رسول الله (ص) : إني تارك فيكم كتاب الله وسنتي ، راجع بذلك موسوعتنا أعلاه الكتاب الرابع .

يراجع تاريخ حياته بالذات وبيئته وحظ هذه البيئة من الناحية العلمية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية (ولمن شاء أن يعرف الموجز مراجعة خطبة الزهراء بنت محمد (ص) بعد ممات أبيها على المهاجرين والأنصار) ثم عظمة محمد (ص) وحكمته وكرمه ، في القول والعمل والإنشاء . بيد انه رغم كل المحاسن ما كاد أن يوافيه القدر إلاَّ وكادت أن تنشق أُمته من بعده لولا أن حرص عليها اللجنة الطيبة من الصحابة والعترة الطاهرة من آل البيت . ومن المؤسف رغم كل ذلك انحرفت عن وصاياه والسير الذي أمر به توا بعد وفاته وعن الخليفة الذي نص عليه (راجع بذلك الجزء الأول إلى الرابع من موسوعتنا في المحاكمات) .

أخص في عهد الأمويين والعباسيين وتنقسم إلى فرق بسبب وقوع زمام الحكم بيد غير أهله وإدخال شوائب شوهت على الأُصول التي لا يمكن أن تزول قط، لأنها قائمة بنص جلي غير ما نراه في الأديان والأُمم الأُخرىٰ . نعم رغم هذا بما أدخلته الأغراض الشخصية من التفسير والتأويل المنبعث من غير أهله[1] وإذا ما نظر الفرد المطلع وتحقق وتأمل في النشأة الأولى . في الكتاب والسُنّة وحكم العقل السليم ولم تؤثر عليه التعصبات والعادات الدينية والبيئية لأدرك الحقيقة ، وأدرك عظمة هذا البناء الشامخ الأصيل السهل الممتنع القائم على الفطرة والطبيعة البشرية ، دون تكلف وبصورة سمحة . وسنعود في آخر هذا الكتاب لنقارن بين العقائد والآراء والأهواء والأديان ونستخلص منها الحقائق الصحيحة التي هي أليق

---

(١) فقد منع الخليفتان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في عهد خلافتهما تدوين الأحاديث والسُنّة النبوية وسار على ذلك الخليفة عثمان بن عفان (رض) حتىٰ مرّت السنون (٣٥ سنة) ومات من مات في الحروب من الصحابة ونسي من نسي وخرج أكثر الصحابة متفرقين في الأمصار ولم يسمح العهد العلوي لكثرة القلاقل بذلك ، حتىٰ جاء عهد الأُمويين فغيروا وأبدلوا بما يوافق سياستهم ولا يخفىٰ على أحد تلاعبهم بالأحاديث ودس الأخبار التي يسببها انشقت الأُمة في المذاهب وضعفت .

وأصلح للجميع . قلنا إن الأمر يحتاج إلى دراسة تاريخية قبيل ظهور الإسلام دراسة تاريخية عامة للعالم وخاصة للبلاد العربية وأخص لقريش ، دراسة دقيقة من الناحية العقائدية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية والسياسية والادارية والأخلاقية ثم دراسة خاصة للسلالة المحمدية وعقائدهم ومناوئيهم وأشد المناوئين من الأقرباء والأباعد ، بعد ذلك إلى انتقال الحكم وكيفية انتقاله ومن أصبح خليفة والعلل الموجبة للاختلاف منذ البداية وأسباب الفتن والعلل التي أدت إلى الانقسام في الآراء والمذاهب[1] . ولا نريد أن نطيل البحث في أمر ليس من اختصاص هذا الكتاب ، وكل ما نريد استدلاله والأخذ به هو ما يصلح لحكومة عالمية يستقر البشر تحت شريعته ، ولا بد لنا كما أشرنا إلى أقسام وفرق بعض الأديان ، أن نذكر شيئاً من الفرق الإسلامية التي تجاوزت السبعين ، ومنهم أهل الأصول المتكلمين في التوحيد والعدل وإثبات صفات الباري والتمييز بين الذات والصفات والأفعال والتكلم عن الواجب والجائز والمحال وإثبات الإمامة والخلافة والوعد والوعيد والتحسين والتقبيح والسمع والعقل (المنقول والمعقول). ومنهم المعتزلة حيث يقولون بالتوحيد والعدل وإن المعرفة معرفة عقلية أكثر ، قبل وبعد صدور الشرع ، والإمامة اختيارية لا بالنص ، ويتبعون واصل ابن عطاء تلميذ حسن البصري ، ويرتكز على أربع قواعد ، وقد تشعبوا إلى طوائف ، منهم من قال بالجبر ، ومنهم بالاختيار ، ومنهم من نسب الخير والشر للإنسان ، ومنهم لله ، ومنهم من قال بجواز النبوة وأمثالها عقلاً ووجوبها سمعاً ، ومنهم من أوجبها عقلاً ، ومنهم العابدية والتنويه والرازئية ، ومن هؤلاء الخوارج والصالحية وقد جمعوا بين الجبر والاختيار . ومنهم الشيعة وهم يعتقدون بالعصمة في الإمام وبالنص ووجوب النص عليه . وأما أهل الفروع وهم يعتمدون على الكتاب والسُنّة والإجماع والقياس ، فأكثر الأصوليين هم العراقيون ،

---

(١) راجع موسوعتنا المحاكمات .

والفروع هم الحجازيون ، ومن حيث المذاهب فأشهرها الحنفية والمالكية والحنبلية والشافعية وهم الذين يقولون بجواز الإمامة اختياراً ، ويخالفهم المذهب الجعفري بدليلين (المعقول والمنقول) حيث يقول : إن الإمامة لا تكون اختياراً بل هي لا تأتي إلاَّ بنص[1] ، والكل يأخذون بالقرآن والسُنَّة . غير أن الأربعة الأولى كل أخذ من مصدر جمع الأحاديث وأبدىٰ رأيه فيها ، فالحنفية يتبعون الإمام أبا حنيفة والمالكية يتبعون الإمام مالك بن أنس والحنبلية الإمام أحمد بن حنبل والشافعية الإمام محمد بن إدريس الشافعي . وكل منهم من الرجال الذين ألّفوا وجمعوا أو اجتهدوا وأفتوا . أما الفرقة الجعفرية فيتبعون الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب حفيد محمد (ص) من فاطمة الزهراء (ع) ، يقولون : إننا نتبع الإمام بالنص من رسول الله إماماً بعد إمام وبأخبار متواترة منهم . ولهم بذلك أدلّتهم المنقولة والمعقولة .

فالإسلام دين وشريعة كاملة ، أصلح ما وجدناه على حد ما جاء به أهل الأديان السماوية من أهل الكتاب وأهل الآراء والأهواء من الناحية العقلية والفطرية الطبيعية وأبدته التجارب العملية . دين جمع أحدث ما قال به أفلاطون وجماعته من الموحدين نظرياً ، وعجز من تطبيقه عملياً . وقد طبقه صاحبه (محمد صلّىٰ الله عليه وآله) عملياً فأخرجه كأصلح ما يمكن أن يسير عليه البشر لإقامة حكومة عالمية يقضي به قضاء مبرماً على الاختلافات العقائدية المبتذلة والتنابزات المذهبية والتعصبات الطائفية والقبائلية والجنسية والشعوبية الكونية ، فيه المساواة والرأفة والعدالة والبر والإحسان ، جاءت جميع هذه في سورة واحدة هي سورة الحجرات عدا ما ضمته السور الأخرى من الأسس والأنظمة للأمة . قال تعالىٰ في الآية ١٣ من سورة الحجرات :

---

(١) راجع موسوعتنا موسوعة المحاكمات .

﴿ يا أيُّها النَّاس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ .

دين أول ما يقوم على التوحيد ونسبته الكمال والقدرة المطلقة والإبداع في الخلقة إلى فاطر السماوات والأرضين الذي قدر كل شيء فأحسن خلقه ، ذلك الذي عجزت عن إدراك آلائه وبلوغ ساحة حكمته وجبروته وحد أوصافه تحديد زمان ومكان أعظم العقول البشرية من حكماء وفلاسفة ، وكان أقصىٰ علمهم هو إدراك جهلهم ونقصهم أمام هذه القدرة اللامتناهية ، وكل ما استطاعوا إدراكه إنما هو من آثار دلّت على وجوده وقرائن وإمارات برهنت على ثبوته ، وذلك غاية علم العالمين ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « ألا وإن البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير» .

إني أتيت بنموذج واحد من فلسفة ونظرية لأشهر الحكماء لوضع حكومة مثلى ، فكانت نظرياً حتى عهد قريب مرضية ومقبولة ودلّت على عظمة كاتبها ، بيد انها كما قلنا لم تطبق عملياً ومن البعيد ان يمكن تطبيقها لما تحويه من شؤون وأُمور لم يحسب بها أفلاطون قدرة الغريزة ولم يقم بهذه الحكومة أساساً عملياً لإيجادها وإدامتها وبقائها ، وأخذنا عليه بعض الإقرارات الأُخرىٰ ، ولا ننسى أن أفلاطون كيف نشأ في محيط علمي وفلسفي وتلقى الحكمة من أجل الأساتذة مثل سقراط ، وكان محيطه وتربيته قد أهّلته مضافاً إلى ما يحمله غريزياً من المؤهلات الوراثية ، كل تلك كانت لها أثرها الفعّال ، يضاف إلى ذلك قيامه في محيط جميل من حيث الطقس والمنظر الطبيعي والجغرافي ومجهز بالنسبة لذلك اليوم بكل الوسائل الثقافية ، هذا إلى ما يحيط به من حضارات ومدنيات قريبة تستطيع من معرفة ذلك بالدراسة التاريخية والجغرافية . وأما الآن فنبحث عن نموذج من الشرائع أستطيع أن أقول انها شريعة سماوية واقعية ، لا يستطيع إنسان مهما بلغ من القدرة الفكرية والعقلية أن يأتي بها

على هذه الدرجة من الكمال ، كما لا يلائم أوضاع البشر في كل عصر ، وإذا نحن تصفحنا حياة محمد (ص) من الناحية التاريخية والجغرافية في ذلك العصر وكيف عاش وما امتاز به من الصفات الإنسانية وما تحمله في سبيل بعثته من الأحوال ، الحياة القبائلية في ذلك العصر ، الوضع الاقتصادي ، الدرجة العلمية ، الوضع الاجتماعي والأخلاقي ، الوضع الجغرافي لذلك المحيط من الحر المحرق والجوع المدقع والجهل الفظيع والعادات والأخلاق الذاتية والحزازات القبائلية . كيف استطاع هذا اليتيم الفقير البعيد عن مناهل العلم والأدب والفلسفة والحكمة والثروة والقدرة أن يأتي بما عجزت عن إتيانه أحكم الحكماء وأعظم العظماء وأرقى المربين والمعلمين ، ليجمع شتات أمّة مبعثرة ضعيفة جاهلة إلى العلم والحكمة والثروة والخلق السامي والشريعة السمحاء وتشكيل دولة عظمى تحطم امبراطوريات العالم وتقهرها ويضع لها قانوناً أساسياً عملياً ونظماً وقواعد جمع فيها كافة ما تحتاجه دولة عالمية وفي كل زمان ومكان ، وسن سنناً وجاء بنصوص قاطعة في أصلين : القرآن والسُنّة[1] .

فالقرآن هو القانون الأساسي ، تجمعت فيه كل الأسس والقواعد القانونية والأخلاقية الفردية والجماعية وفيه التربية وفيه التهذيب ، فيه الأصول النظرية والأصول العملية ، ويلي ذلك سنته في حياته ، جاء بأصول وفروع ، بدأها بالتوحيد كما وضع فروعاً . وضع كل شؤون الفرد والجماعات الكبيرة والصغيرة من العرب وغيرهم أحصاها صغيرة وكبيرة ذكرتها كتب الأصول والفقه وجعل لكلٍّ باباً وكتاباً ، ككتاب الطهارة . وفيه جمع أصول النظافة وأصول تطبيقها وأصول التجنب من الأوساخ والقاذورات بدرجة من الاتقان الذي لم يصل التعقيم الحديث إليه .

---

(١) لولا منع الخليفتين الأول والثاني رضي الله عنهما من تدوين السنة لما وجدت اليوم اختلافاً مذهبياً بين الأمة ـ راجع موسوعتنا المحاكمات .

الكتاب الثاني :

هو كتاب الصلاة وما فيها من تمركز الفكرة وتهذيب الأخلاق وتزكية الروح والبعد عن الماديات والغرور والكبر والظلم والاستبداد والحث على عمل الخير والبر والإحسان وما توحيه من قوة الإيمان والشجاعة والطمأنينة ومكارم الأخلاق والأمر بالقسط والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات ، حينما يتوجه بكله إلى الخالق المبدع رب السمٰوات والأرضين الواقف على سرائر الأعمال ، والمجازي على الحسنات والسيئات حيث يتجه كل صباح مبكر قبل طلوع الشمس وعند الظهيرة وعصراً وعند الغروب وعند العشية بعد أن غسل يديه ووجهه ومسح برأسه ورجليه متقبلاً القبلة قائلاً : ﴿ **بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ، الحمدُ لله رَبِّ العالمين ، مالِك يوم الدِّين إيَّاك نعبدُ وإيَّاك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّآلِّين** ﴾ فقد بدأ باسم فاطر السموات والأرضين وحمده وعبده واستعان به دون غيره ، وطلب منه سبيل المكرمات والطيبات والابتعاد عن السيئات والمساوىء ثم يبدأ قائلاً : كلمة التوحيد ونسبة الوحدة والقدرة لله وحده والنعمة ويبرئه من الشرك والنسب التي تنافي عظمة الخالق المبدع الوهّاب القدير ذي الكمال والعظمة والقدرة المطلقة .

ثم يعود بعظمة ويسبحه ويستغفره ويشكره قولاً وعملاً . بذلك ينطق الصغير والكبير والسيد والعبد والعالم والجاهل على حد سواء، ليعرف نفسه بالنسبة لغيره على حد سواء في الحاجة والنقص والخضوع والسكينة وطلب الصفح والمغفرة ، وليعرف أن هناك قدرة وقوىٰ فوق القوى ، إلٰهاً مسيطراً على الأعمال ، مبعث الخير وواهب السعادة ومجزي ومقاصص المتجاوزين ونكال الظالمين . تلك هي النزعة التي يريد أفلاطون تلقينها للأفراد بالقصص الخرافية للابتعاد عن الشرور والاقبال على الخيرات للآمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تلك كانت بنظره غير حقيقية ولكنها هنا أصبحت حقيقة ، وأية حقيقة عظمى؟ هذا إلى صلاة الجماعة وما توحيه

في النفوس من حب الأُلفة والموعظة الحسنة والقيام بالبر والاحسان ونشر السلام والأخلاق الفاضلة والآداب والفضيلة ، لا يدرك كنهها إلاّ من أتاها بشرطها وشروطها ، وقد حق لها أن يقول فيها محمد (ص) : إن الصلاة عمود الدين ، إنْ قُبِلَت قُبِلَ ما سواها وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها . وقال : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

لعمري والله لقد صدق في قوله ، فهي عمود الدين وهي من أكبر الروادع عن المنكرات والفواحش . وخير المهذبات للأخلاق والبواطن ، وأحسن المشوقات للبر والإحسان وعمل الخير وأكبر الروادع عن كل شر .

وأوجب الزكاة والخمس بموجب الآية ٦٠ من سورة التوبة في قوله تعالىٰ : **﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾**. ويدخل في الزكاة زكاة الفطرة المفروضة على المكلف الحر الغني كل سنة عند هلال شوال عن نفسه وعياله ، وتعطى لمستحقي زكاة المال ، والأقربون أولى بها ، والجيران من الأقربين . وخلاصة الزكاة أن يؤخذ حق معيّن من الأغنياء لسد عوز الفقراء من نفس البيئة .

والخمس كما جاء في الآية ٤١ من سورة الأنفال قوله تعالىٰ : **﴿ واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾** . ونرى في كلا الآيتين موجز من ينفق عليهم ، وأما شرح ذلك مفصلاً ومأخذه مفصلاً فيأتي في السنة النبوية ، تلك السنة التي دائماً تفصِّل المجمل وتكمل الكتاب ، والتي هي المصدر الثاني بعد الكتاب والتي لا يمكن أبداً الاستغناء عنها . تلك وموارد أُخرىٰ كالخراج والجزية والأنفال وهي الواردة في الآية : **﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾** .

وهنـاك موارد أخـرى تشكل منـابـع الثـروة للدولـة ، وتمتـاز الشـريعـة الإسلامية بأنها شريعة فطرية تجمع حق الفرد وتحتـرمه بـالوقت الـذي تراعي لأقصى حـد حق الجماعـة ، فهي تكاد تكـون قـائمـة وآخـذة الحـد الأعـدل والأوسط بين الشـرائع القـديمة والحـديثة ، وبـالوقت التي تحتـرم حق الفرد احتراماً أكيـداً وتقول : النـاس مسلطون على أموالهم وأنفسهم ، نـراها تثيـر في الأفراد والجماعات روح الإنسانيـة في البر والإحسـان والعمل الحـر على شريطة أن لا يضر بالآخرين من أفراد وجمـاعات ، فتمنـع الربـا منعاً بـاتاً[1] لكيلا يستثمر الإنسـان أخاه الإنسـان ظلماً وقهـراً ، ولكيلا يستغـل ثروتـه إلاَّ في نـاحية تجـارية أو صنـاعية أو زراعيـة فيستفيد منهـا هـو وغيـره ، ولكيـلا يكدس الثروات دون جدوى وحرصاً[2] ويحرم منهـا نفسه وغيـره ، وبالـوقت يمنع البذخ دون جدوى والبخل دون جدوى . قوله تعالىٰ في سـورة المائـدة الآيـة ٣١ : ﴿ **ولا تجعل يـدك مغلولـة إلى عنقـك ولا تبسـطهـا كـل البسط فتقعـد ملومـاً محسـوراً** ﴾ . . . وقـولـه في الآيـة ١٩ من سـورة الـذاريـات : ﴿ **وفي أمـوالهم حق معلوم للسائـل والمحروم** ﴾ ، هـذه الآيـة تفـرض على الأفـراد والجمـاعـات الانفـاق على المحتـاجين والمحـرومين من أمـوالهم الخـاصة ، ومثلهـا الآية ٣٣ من سـورة النور : ﴿ **وأتـوهم من مال الله الـذي أتـاكم** ﴾ تحريضـاً على البر والإحسـان ، وقولـه تعالى في الآيـة ٧ من سورة الحـديد : ﴿ **انفقـوا مما جعلكم مستخلفين فيـه** ﴾ ، وقولـه تعالى في الآيـة ٢١٨ ، ٢١٩ من سـورة البقرة : ﴿ **يسئلونـك ماذا ينفقـون؟ قـل : العفـو** ﴾ أي انفقـوا ما فـاض على احتياجـاتكم ، وما أكثـر الآيات والسُنَنْ المحـرضة

---

(١) راجع الآيات من ٢٦١ حتىٰ ٢٨٣ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣٤ و٣٥ من سورة التوبة :

٣٤ منه : ﴿ **. . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشـرهم بعـذاب أليم** ﴾ و٣٥ منه : ﴿ **يـوم يحمى عليها في نـار جهنم فتكـوى بهـا جبـاههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ .

على البر والإحسان والإنفاق والعرف المعقول على النفس والغير، كقوله في الآية الخامسة من سورة النساء: ﴿ولا تأتوا السفهاء أموالكم...﴾ الخ. وقوله (ص): (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)[1].

فيقسم العالم اليوم في حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية إلى ثلاث مكاتب:

١ ــ المكتب الرأسمالي، وهو القائل بحرية الفرد المطلقة خصوصاً في الاثراء دون تحديد ورادع من الناحية الاجتماعية، فيجعل له حق امتلاك ما شاء من رؤوس الأموال الصغيرة والكبيرة حتى المنابع الطبيعية الكبيرة من مقاطعات وغابات ومعادن وحتى آبار النفط أو مراكز المعادن والمؤسسات العامة، ولا ننسى في الولايات المتحدة ملوك النفط والنحاس وغيرهم، ولا ننسى اللوردات في إنكلترا وملكياتهم الواسعة ولا ننسى كيف كانت الملكية في أوروبا حيث كان المالك يملك المقاطعات الكبيرة وما عليها حتى من البشر والحيوانات والأنهار والجبال ويحق للرأسمالي إقامة المصالح الكبيرة الضخمة وامتلاك الخطوط الحديدية وما شابه ذلك. وبإمكانه استخدام الأفراد في أي عمل، سواء كان هذا العمل في المباحات والطبيعيات مثل جمع الكلا والحشيش واستخراج المعادن وإعطاء العامل أقل ما يرتأيه من الأجور.

٢ ــ مكتب الاشتراكية، ومنها الشيوعية، وهو القائل بحق الاجتماع والجماعة، ولا يعتبر الفرد إلاّ كعضو لبناء ذلك المجتمع، فهو يفقد الصفة التامة الموجودة في الرأسمالية، وكل شيء إنما هو حق الجماعة وما للفرد إلاّ ما يقدمه للمجتمع من عمل، فالعمل هو المصدر الرئيسي للثروة

(١) كما مرّ في الآيتين ٣٤، ٣٥ من سورة التوبة.

حيث يعتبر كل ما هو موجود إنما هو ملك الدولة ، وحق الفرد إنما يكون على نوع ومقدار العمل الذي يقدمه للاجتماع .

٣ ــ مكتب الإسلام يحفظ حق الفرد ويحترم الجماعة ويحدد للفرد حقوقه في الملكية ويحضه على الانفاق المشروع في الأعمال الخيرية والإنسانية ويحذره من الإسراف ويمنعه العكس ، أعني يمنعه الإمساك وكنز المال .

الانتاج في الشريعة الإسلامية : ويحصل الناتج من رأس المال (الأرض والآلة والبذور في الأرض والسماد وما شاكل) ثم العمل ، ففي الملكية الخاصة للعامل أجره المسمى أو أجرة المثل ، والزرع الناتج من الأرض لصاحب البذور وللأرض أجرة المثل أو المسمى ، وللآلة أيضاً أجرة المثل أو المسمى . وعلى هذه قامت المضاربة والمزارعة والمساقاة، تلك كانت في الملكية الخاصة.

أما في الملكية العامة وهي الحاصلة :

١) بالجهاد المسلح لبلاد عربية أو غير عربية وعادت للمسلمين ، فللخليفة اقطاعها وأخذ خراج عنها لصرفة على المرافق العامة[١] ، وليس للفرد البتة امتلاكها .

٢) ما حصله خليفة المسلمين بالمصالحة .

٣) المياه الطبيعية ، سيان السطحية أو العميقة والناس شركاء في ثلاث الماء والنار والكلأ[٢] ، ولمن أحدث بئراً حق التقدم للاستفادة منها ، ولكن ليس له بنظر بعض الفقهاء بيعها بل تركه عند انتهاء عمله للمحتاجين الآخرين .

٤) كل مادة أولية في الأرض ، فلكل فرد الاستفادة منها وليس له

---

(١) راجع بذلك وسائل الشيعة والاستيصاب . (٢) كتاب المبسوط .

امتلاكها[1] وللفرد الاستفادة منها أكانت منجماً أو منبعاً وبئراً للنفط وليس له بيعها .

٥) كلما اشترته الدولة أو حصلت عليه بالهبة أو المصالحة وكل شيء ليس له صاحب .

٦) الصحاري والغابات والمراتع وكل تركة لا وارث له .

٧) غنائم الحرب الحاصلة دون رضاء كل تلك تدخل في الآية ﴿ **يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ .

ففي الموارد العامة والمباحات ، فعمل العامل هو الأصل وما نتج إنما كله للعامل سوى حق يتعلق بالآلة ، أكانت مسماة أو أجرة مثل ان لم تكن للعامل .

وهذا يختلف عن القوانين في المكتب الرأسمالي إذْ في الرأسمالية إذا استخدم الفرد في المباحات يعطي أقل ما سمي له ، بينما في الإسلام إن الناتج إنما هو من حق العامل وليس للغير سلب ذلك الحق منه طالما أن المال مباح وعام المنفعة .

٤ ــ الصوم : وهو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى الغروب في شهر رمضان بشرط السلامة والإقامة وان يكون بالغاً رشيداً . والمفطرات هي الطعام والشراب والجِمَاع والاستمناء واستعمال الحقن من غير طريق الفم والكذب[2] وكل محرم ، ويعتبر شهر رمضان شهراً مقروناً بكل أعمال الخير من بر وإحسان واجتماع وتهذيب .

فيه يكثر الافراد قدر ما يستطيعون من الفضائل قولاً وعملاً ، ومن المعونة المادية والمعنوية ، ويكثرون فيه من الاجتماع والزيارات والوعظ

(١) تذكرة العلامة الحلي .

(٢) على الله ورسوله والأولياء .

والتهـذيب ، وتكثر فيـه المجـالس التي هي أشبـه بمؤسسـات تعليميـة وتثقيفيـة ، وفيـه يكثـر إطعـام الفقـراء وإكسـاء المعـوزين وإنشـاء الأعمـال الخيرية ، ويقل فيها النزاع والكذب والافتـراء والنصب والاحتيال والتعـديات والتجـاوزات على الأغيار ، وتبـذل فيها النفـوس أقصى ما تتحمله من تـزكية النفس وصدها عن المنكرات وحثها على المبرّات . فيها يشعـر المرء بكثيـر من الأمـور التي لم يتعودهـا من تحمل الجـوع والعطش والصبـر على تحمل المشـاق والأذى وصـد طغيـان النفس وتسـاوي الأغنيـاء بـالفقـراء وتقـرب الـطبقـات مـع بعضهم في المجـالس والمعـابـد ومحـلات الـوعظ والإرشـاد والابتعـاد عن مجـالس اللهـو واللعب وكلمـا من شـأنـه إفسـاد النفس وتثبيط العقل والوجدان .

٥ ــ وأوجب الحج لمن استطاع إليـه سبيلاً مـرة في العمر على شـرط أن يكون حراً رشيداً مستطيعـاً بالـزاد والراحلة وإمكـان المسير . فيـه تتساوى كل الطبقات في لباسها وهياكلهـا وأقوالهـا ومجالسهـا ، لا يعرف فيهـا السيد من العبـد والضعيف من القـوي ، كـأنهم جميعـاً أمـام الله كيـوم المحشـر الجميع وبصوت واحد يلبون : ﴿ **لبيك اللهم لبيك لبيـك إن الحمد والنعمـة والملك لـك لا شريـك لـك لبيـك** ﴾ . وينـدب فيـه أشيـاء ، منهـا تنـظيف الجسد وقص الأظافر وأخذ الشارب وأخذ العانة والإبـطين والغسل ، وتـروك الاحرام الواجبـة ١٤ ، أهمها تـرك الصيد وإمسـاكه وأكله وحتى الإشـارة إليه أو الاغلاق عليه وذبحه والتجنب عن تحريـك الشهوة من جمـاع ولمس ونظر والاستمنـاء والفسـوق من كـذب وجـدال وحتى قتـل أي حي وقـطع الشجـر والحشيش في غير ملكة عدا الفواكه والنخل وعدم لبس السلاح اختياراً .

وفي كـل سنة يقـدم للحج جمـاعات الإسـلام المستطيعـون ماليـاً من كافة الأقطار والأجناس ، من السود والبيض والسمر والصفـر ، مهما اختلفـوا أو تبـاينوا خلقـاً وأخـلاقـاً وهيـاكـلاً قـوة وضعفـاً نسـاء ورجـالاً ، ليتعـارفـوا فيما بينهم وليبتعدوا عن الحياة المادية وليتثقفوا عملياً وليشاهـدوا عملياً نـوعاً بارعاً من المسـاواة والتواضـع وأبعد مـا هنالـك من مكارم الأخـلاق والابتعاد

عن الكبرياء والجدال والعصيان والتعدي ، يوماً بل أياماً يجدون فيه اللذة العظمى بالانخراط إلى المسلك الإنساني الواقعي والحياة المجردة من الماديات والتعصبات ، ويرى كل مسلم اخوانه من المسلمين الآخرين المجتمعين لنفس العقيدة والدين والتوحيد ولنفس الغاية وعلى نمط واحد . اجتماع سنوي لا يضاهيه أي اجتماع عظيم في المؤتمرات العالمية والمجامع والنوادي بما يضمه من أبعد الأصقاع ومختلف المسالك العادات والعرف ، يتعارفون ويتحادثون ، فيؤدي ذلك إلى إصلاح حالهم من النواحي الاجتماعية بعد الاطلاع على أوضاع مختلف البلاد الإسلامية ، ويؤدي إلى تحسن الوضع الاقتصادي بالمتاجرة المؤقتة والاتصالات التي تليها بعد المعارفة وما يجده المرء بعد اتمام الحج من مختلف الأذواق والأزياء واقتباس أحسنها[1] .

إن هذه الفرصة التي تحصل للمسلمين في اجتماعهم على هذه الشاكلة البعيدة عن شعورهم بالمشاكل الاقتصادية في كل سنة تستطيع أن تلعب دوراً مهماً للتقرب إلى بعضهم وإصلاح شؤونهم ، ومن أهم الأسباب والبواعث إلى شد أزرهم ومعاضدتهم ، إنْ شاءوا أو أدركوا فلسفة الحج الواقعية .

اجتماع سنوي مفروض لمن استطاع إليه وفرغ له ، أي اجتماع عظيم وبالغ في الأهمية ، إنّ أدرك المسلمون عظمته ، وإنْ بنوا عليه البناء المحكم لرفع التفرقة ، وإقامة أصول الوحدة الإسلامية بين العرب ومختلف الأمم الأخرىٰ التي يجمعها الإسلام ، وعادوا لنشر السلام وتجديد أصول الدين ونفي عوامل الخذلان ، والركون إلى الصفاء والمروة، وإحلال التقارب فيما بينها ، وبناء ذلك على الأصول ونبذ الفروع التي أسست

(١) ولنعود اليوم إلى الاجتماعات السياسية والعلمية والصناعية والأدبية كاليونسكو وأمثالها وكم يستفيد منها الحاضرون وغيرهم وحسنه أنه يجمع ذوي التقوى وذوي اليسار وأهل الخير .

على البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم قالوا ما جاء به القرآن إلى أهل الكتاب ﴿ **تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا تعبد إلاَّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ . وسعوا كما أمرهم الله في القرآن بالبر والرحمة للنوع الإنساني لتهذيبه والإشفاق عليه من طريق الدعوة الصالحة الحكيمة لنشر المبادىء الصالحة القائمة على العقل والمنطق والفطرة الصالحة والأنظمة والقوانين الطبيعية المفروضة طبيعياً وعقلياً اتباعها .

٦ ـ الجهاد : وهو فرض إذا استوفى الشروط وأهمها الرشد والحرية والذكورة وعدم العجز ، كمرض أو نقص عضوي أو عمى ، ودعوة الإمام أو خليفته بالنص لدفع عدو مداهم . وفي الحرب والدفاع يراعي أقصى حدود الارفاق في نساء وأطفال العدو والعدو نفسه إذا أسلم ، ويمنع استعمال السموم في الحرب ، وكثير من موارد الارفاق الأُخرى مما فرضه الإسلام دون غيره وراعىٰ فيه كل شروط الإنسانية والخلق الرفيعة ، ورمى من وراء ذلك كله الإصلاح والسلام لا الحرب والانتقام والغنيمة كلما وضع أُصولاً محكمة في غنائم الحرب راعىٰ فيه المحارب وغير المحارب ، وكان هدف الإسلام من وراء كل ذلك هو توحيد العقيدة ونشر العدالة والمساواة الواقعية ورفع الظلم والتعدي ورفع مستوى الإنسانية وإبعادها من مختلف الكوارث من فقر وجهل ومرض .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وهذان يجبان كالجهاد عند توفر الشروط لا مجال لتفصيل ذلك[١] . وهي من الوسائل الطبيعية التي تثير الرأي العام في الاستحسان والتقبيح

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ **ولتكن منكم أُمة .. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...** ﴾ الخ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **كنتم خير أُمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ...** ﴾ الخ ..

فـراداً أو جمـاعـات بنـزعـة العقـل ونـزعـة الـوجـدان ، وتكــون أكبـر رادع للمتجـاوزين والمعتـدين وأعـظم مشـوق للمقسـطين والـذابين عن حيــاض الحق ، وهي تقـوم أحيانـاً مقام القصـاص والتعزيـرات ، بـل هي خيـر رادع في محيط يتبـع الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر عن إتيان المنكـر وخيـر وازع لـلأمر بـالمعـروف . فهمـا رقيبـان نفسيـان لـلأفـراد على إتيـان الخيـر والابتعـاد عن الشر تحت سلطة العقـل وحكم الوجـدان ، ولهـا أسمى مقـام لسلوك الحياة الإنسانية السعيدة ، تلك في الواجبات الأساسية .

وقد وضع الإسـلام أُسساً عـامة لكـل شيء لتشكيل حكـومته العـالمية فتكلـم عن :

١ ــ العقـود : ومـا تشمله من قبـول وايجـاب في المتـاجـرة والاجـارة والوديعة والمزارعة والمساقاة والشركة والمضـاربة والكفـالة والـوكالـة والرهن وأمثالها التي تستلزم طرفين للإيجاب والقبول .

٢ ــ الإيقاعات : كـالنـذر والهبـة والعتق والوقف ومـا شاكـل مما يقـع من طرف واحد .

٣ ــ الأحــوال الشخصيـة : من زواج وطــلاق ونفقـة ارضــاع ونسب ووصية وميراث . . الخ .

٤ ــ الأطعمة والأشربة والصيد .

٥ ــ القضاء والشهادات والحدود : (كحد الـزنا واللواط والسـرقة . . الخ) .

٦ ــ القصاص والديات .

وأولاً وأخيراً عن واجب الاعتقاد .

١ ــ العقـود : وهـو بحث مسهب ومفصــل لا مجـال في بحثنــا هنـا للتفصيـل فيه ، ونكتفي بنبـذة مختصرة كمثـل في واحدة منهـا مثـل التجـارة وهي البيع والشراء ، وفي الإسلام قد تكـون واجبة إذا لم تكن للمـرء مصدر

معيشة من سواها وإلاَّ كانت مباحة . وقد تكون ممدوحة ومستحبة إذا أراد وقصد بها التوسعة لعمل الخير ، وهي مذمومة ومكروهة إذا استعمل الاحتكار عند المحتكرين ، أو مباحة إذا لا ضرر من فعلها ولا ضرورة تستلزمها ، وهي محرمة إذا كانت معاطاتها في محرم فيها ضرر فردي واجتماعي كتعاطي المسكرات وما يمنع اليوم من تجارة المخدرات كالكوكايين والهيروئين أو بيع سلاح للأعداء وما فيه على إعانة عمل غير إنساني ومحرم وما إلى ذلك المحرم نصاً . الربا ويعتبر خارج عن البيع والتجارة . وفي التجارة أحكام وشروط وخيارات وتفاصيل وأركان بنيت أسسها على أسس متينة حكيمة ، ضمنت فيه أقصى أصول العدالة وحفظت فيه حق الفرد والمجتمع لا بعد ما يمكن أن يتصوره الفرد ، مما عجزت عن إتيان مثله الأنظمة والقوانين القديمة والجديدة .

وبحثت في العقود عن الاجارة والوديعة والمزارعة والمساقاة والجعالة المسابقة والرماية والشركة والمضاربة ، وبحث في الديون والرهن ووضع لكل منها حدوداً وشروطاً وأحكاماً ، كما بحثت في الضمان والمصالحة ، وتكلم عن الحوالة والكفالة والوكالة والهبة والابراء والوصية .

٢ ــ الإيقاعات : وهي التي تصدر من طرف واحد مثل الوقف والنذر والعتق ، ولكل منها تفاصيل وحدود وشروط وأركان لا تتم إلاَّ إذا توفرت فيها .

٣ ــ البحث في الأحوال الشخصية بما في ذلك من نكاح وطلاق ، وما تضمه من الرضاع والنسب والوراثة والنكاح ، يدخل في العقود التي يجب فيها الإيجاب والقبول ، وأما الطلاق فهو إيقاع من طرف الزوج ، وفي الأحوال الشخصية ، وأخص منها النكاح والطلاق ، فهي أقصى ما وصل إليه عقل البشر وأبعد ما يتصوره العقل من المتانة والحكمة والدقة وأعظم الأسس والقواعد والقوانين التي يمكن أن تقوم عليها السعادة للجنسين ، روعي في وضعها في الأحكام الإسلامية ما لم تجده في دين

أو رأي أو عقيدة قديماً وجديداً ، فيها ترى مآلاً سعيداً للجنسين قامت فيه واشتركت الفطرة الطبيعية والعقل السليم ، وإذا ما تعمقنا في فلسفة عقد الزواج الدائم وبجانبه عقد الزواج المنقطع لتجدن فيه الحل الوحيد للمشاكل الجنسية عند البشر ، والحل الوحيد لانقاذ الملايين من أولئك الذين ولدوا لا يعرفون أمهاتهم وآباءهم محرومين ، يحملون في حياتهم أكبر عقدة نفسية في الاجتماع طالما بعثتهم للانتقام الذي حرمهم من ذلك العطف الأبوي ، وربما ملايين كل سنة يولدون من الاتصالات الجنسية غير المشروعة ويتركون في قارعة الطريق حتىٰ يجدوا حتفهم أو من يلتقطهم أو يسلموا إلى المعاهد الخيرية حتى إذا ما بلغوا أو أدركوا بكوا حظهم ، إلى جانب ذلك ما يخلق ذلك العمل الجنسي غير المشروع في العواطف والوجدان عند الأب والأم الذين اضطروا بحكم العادة والعرف من جهة وتخلصا من العار ، وما يمكن أن يقال أو ما يشعرون به من حجر عثرة أمام طريقهم في الزواج في المستقبل، فهم رغم ما يتحسسونه تجاه أولادهم من الحب الغريزي ، يضطرون إلى التجاهل وإلى تركهم إلى القدر إلى حيث لا يدرون ، وهذه أوروبا وأمريكا تتكدس بأمثال هؤلاء الأولاد والآباء والأمهات .

تلك جميعاً حلها الإسلام وأقام لها قواعد وأنظمة حفظ بها تلك الحقوق وأوقف تلك المظالم وقضى على تلك العقد النفسية . وفي الزواج والطلاق راعىٰ مصالح الجنسين لأقصى ما يمكن أن يصل إليه عقل البشر وتتوفر فيه مصالحه الغريزية والجنسية . لا نجد تلك أبداً في أي دين أو فرقة أو ذوي رأي وأهواء .

ولا تجد في قواعده أي أمر خرافي أبداً ولا نجد فيه غير الحكمة والدقة والصلاح لخير البشر في الحال والاستقبال .

ولم يكن الإسلام ديناً وعقيدة فحسب ، بل فيه ما يحتاج الفرد والمجتمع في كافة التشريعات لإقامة حكومته ، بما فيها من تشريعات

وقوانين وأنظمة تخص الإدارة والاقتصاد والصحة وما يحتاجه مجتمع عالمي في كل أدواره قابل للانعطاف والتغيير من جهة ، وثابت من جهة أخرى ، لهذا فقد وضع أصولاً عامة حفظاً لسلامة الأبدان والعقول ، وابتعاداً عن الأمراض الجسمية والعقلية الناتجة من تناول الأطعمة والمشروبات وحددها .

٤ ــ عن الأطعمة والأشربة والصيد :

المباح وغير المباح وجعل لكل منها قواعد وأصولاً كلية وتفصيلية في القرآن والسُّنّة ، وقد أدرك علماء الصحة والطب وعلم النفس حكمة هذا التشريع ، الموجز في القرآن والمفصل في السُّنّة ، فكان في ذلك إعجاز وحكمة قصوى دلّت على سمو هذا الشرع ومتانة أصوله التي لا مجال لتفصيل ذلك هنا ، ومن شاء فبإمكانه الوصول إلى الموجز والمطول منه .

٥ ــ القضاء . الشهادات . الحدود . ويتبعه القصاص والديات :

وفي هذه جمع أصول العدالة والحكم ، وما يلزم توفره من شروط وأحكام لرجل القضاء ، وإقامة البينات ، وأصول العدالة القائمة بعضها بالحدود والنصوص وما يتبع فيها القصاص وما يلزم في أخرى من الديات ، فجمع بإيجاز وتفصيل أقصى ما بلغته أدمغة الفلاسفة والحكماء ، من أراد نظريات مقرونة إلى تطبيق عملي جمع فيها ما يجب فرضه فطرياً وطبيعياً مقروناً بما يتقبله ويستسيغه العقل السليم ، مراعياً في ذلك منتهىٰ ما يمكن رعايته من مصالح الأفراد والجماعات في الحاضر والمستقبل ، وأقام بذلك أصولاً وقائية رادعة من تكرار التعدي والتجاوز ، تأديباً للمتجاوزين وترضية للمظلومين والمقهورين والمعتدى عليهم ، وإقراراً للرأي العام ووجدان الفرد والمجتمع ، وإعادة الحق إلى نصابه ولأهله كأقصىٰ ما يمكن أن يتوصل إليه أدمغة المفكرين ، وقد دلّت التجارب بمرور الزمان أن هذه الأحكام أصلح أحكام استطاع مجتمع راق أن يتوصل إليها ، ولا زالت القوانين الحديثة من حين وآخر تغتذي منه وتستمد منه كلما أعياها الأمر واضطرتها الحيلة .

إنني طالما فكرت بأن أضع أسس حكومة عالمية تقوم دعائمها على أسس طبيعية فطرية دائمية ليست كتلك التي وضعها من قبلي ، ويضطر من حين إلى أخرىٰ من تبديل هذه وتغيير تلكم لأنه لم يرع فيها القواعد والأصول الفطرية الطبيعية الثابتة .

وكنت أعتقد أن الحكومة العالمية إذا أردنا أن تكون دائمة باقية يجب أن نبحث عن القوانين الطبيعية في كل شيء نحتاج إليه ، وليس لنا أن نشرع أو نبتكر آنياً كيفما نشاء بحكم الأهواء والعواطف والأغراض الشخصية ، لا بل علينا البحث عن كل شيء عن قانونه الفطري الطبيعي ، ومتى وجدناه وحق لنا أن نطلق عليه اسم قانون كقانون الجاذبية للأرض ، هذا وإن نعلم أن هناك قوانين تشد أزر بعضها وان هناك قوانين طبيعية تخالف مفعول بعضها بعضاً ، وإلَّا لما أمكن لاطنان الحديد والمعادن أن تحلق في الجو وتخالف قوانين الجاذبية . نعم استطاعت ذلك بقوانين أخرى أيضاً . وان هناك قوانين طبيعية اقتصادية وصحية واجتماعية ومنها جزائية وحقوقية وفي كل مورد شئنا ودخلنا وفكرنا فهناك علة ومعلول وقواعد وقوانين ثابتة في جميع حياتنا المادية والمعنوية ، منها ما تأتلف ومنها ما تختلف ولم يكن بين هذه الحوادث الكونية أبداً شيء كما يقال يأتي على طريق الصدفة ، والصدفة التي نقولها إنما ترتبط بنواميس وقوانين وأصول طبيعية أتت طبق أصول وقواعد قد جهلناها أو جهلنا بعضها ، فهناك علل قريبة وبعيدة بالنسبة لنا من حيث المكان ، وهناك علل قريبة وبعيدة بالنسبة لبعضها من حيث الزمان ، وهذا القرب والبعد قد يمتد بالنسبة لجسمنا أو موطننا أو الكواكب التي تسير بنا أو المجموعة الشمسية وارتباطها بالنسبة لنا ولغيرنا أو ما له صلة أبعد ، وأبعد الاجرام والمجموعات السماوية الأخرى أو هي تتدانى للصفر حتى تصل إلى تأثير الذرات والجواهر غير المرئية ، هذه بالنسبة للمادة أو لها صلة بالنسبة للزمان القريب الحاضر أو البعيد ساعة أو يوماً أو أسبوعاً أو شهراً أو سنة أو قرناً أو أعقاباً وألوف السنين والملايين والبلايين ، وهكذا كما تبقى تأثيرها لمثل تلك الأزمنة ، فقد

قرأت قبل بضع سنين أن علماء الفلك اكتشفوا كوكباً بعده النوري مليون سنة ، انفجر قبل مليون سنة ، وأمكنهم مشاهدة انفجاره خلال هذه السنين وانتشرت من ذراته مئات الألوف كحجم الشمس وأمثال تلك وما تبعته من الطاقات والأنوار وما تقره على أطرافها القريبة والبعيدة ، وما ذلك إلاّ قطرة من بحر توصلنا إليه في علومنا وإدراكنا ، فنحن قد نسيطر تارة كل السيطرة على سير حياتنا وقد نؤخذ اضطراراً على خلاف رغبتنا ، جهلاً مرة أو بحكم الغرائز المتمكنة منا تارة أُخرىٰ .

فإذن هناك أُمور بعيدة المدى وقوية التأثير في حياتنا ، ولها أُصولٌ وقواعد يجب أن نبحث عنها ، ثم نضع ما استطعنا معرفته من قواعد وقوانين ثابتة نستمد ونثبتها شيئاً فشيء ، ولسوف نضرب أمثالاً على تلك في شروحنا القادمة .

٦ ـ الاعتقاد بالله الأحد الصمد ، وتلك دلّت عليه آلاؤه وما نشاهده من الوجود المادي والمعنوي ودقة الصنع والنواميس الكونية المتقنة ورابطة العلة والمعلول ، وقد شهد بذلك أعظم الفلاسفة والمفكرين حيث قالوا وان قصرت حواسنا وعقولنا لإدراكه، فقد أجمعت على وجوده وكماله وقدرته وعدله وعظمته وخلقته، وكلما يدل على الكمال والصفات الحسنى المطلقة مما شاهدوه من آثاره وخلقه وآلائه . في أنفسهم كما مرّ وشرحنا ذلك وفي غير أنفسهم من العالم الخارجي من حيوان ونبات وجماد في الأرض والسماء[١] .

أليس قبيحاً بذوي العقل أن يرى الكتاب والطاولة ومختلف المصنوعات الصغيرة والكبيرة والسيارات والمحركات والبيوت والمساكن والمعامل والطائرات وإلى ما لا يعد ويحصى ، ويدخل الدوائر فيشاهد

---

(١) أوجه نظر قارئي الكريم لمراجعة دائرة معارف فريد وجدي في فصل ما يذكره في الجزء الأول عند ذكره (آله) بين الماديين والقائلين بوجود الروح والله .

أنظمتها وكتبها ، ويدخل الجامعات والشركات والمؤسسات وكل شيء صنعه ودبره البشر ، ويرى القرى والمدن ، وعندما يسأل : « من صنع هذه؟» فيقول : إنها وجدت عفواً أو بدون صانع لمجرد أنه لا يستطيع أن يدرك صنع التلفزيون أو الراديو أو آلة أُخرى فكيف خلق الإنسان؟ وهو كعالم جمع فيه من الأجهزة والأنظمة والغرائز والعقل والروح وكل جهاز من أجهزته المنظمة المرتبطة بالجهاز الآخر من الدقة والاتقان وفي حالة تجدد وما فيه من أسرار ، هذا كمثل من الاحياء ، وخير مثل ، أيمكن أن نقول انه خلق عفواً لمجرد أننا نجهل خلقته؟ ولماذا خلق تلك الخلقة التي تقوم جميع أعمالها على نظام وقواعد منسقة ومنظمة ، حركته فكره ، عقله ، قواه الأخرى إرادته؟ أكل تلك خلقت عفواً؟ ليس لنا غير الإقرار بأنه لا يمكن ذلك ، وان عقولنا قاصرة عن إدراك عظمة الخالق ، ولا بد لنا من الإذعان على كمال خلقته وعظمة خلقته في كل شيء ، وهذا الخالق أيخلق بدون قصد ولا يقيم العدالة ولا يضع لخلقه قصاصاً وجزاءً ومآلاً؟ أيترك خلقه سدى ؟ يتجاوز ذو العقول على غيرهم ، ويتلقىٰ الظالم والمظلوم حتفه دون جزاء؟ لا يمكن قبول ذلك . لا بد للخلق من قصاص متىٰ أقررنا بوجود وعظمة وكمال الخالق . ولا بد لنا أن نعترف بأن الموجد واحد ، وإلاّ لعلا بعضهم على بعض واختلت وتضاربت إرادتهم . تلك هي حقائق لا يمكن إنكارها .

ومن جهة أُخرى أليس أصلح للبشر أن ما قلنا بأن الله واحد وأنه حكيم قدير . من خلق كل شيء وجعل لكل شيء علة ومعلولاً وقواعد وأُصولاً وانه عادل ومن عدله يوم الجزاء والميعاد ، أليس هذا أصلح وأعقل وأقرب لإدراك البشر من أن نقول ما قاله ذوو الآراء وجعلوا لكل قدرة إلّهاً فمنهم من اتخذ الكواكب ومنهم الماء أو الهواء ومنهم الحيوان ومنهم الحجر أرباباً ومنهم من أنكر الكل؟ ذلك ما تدرك حقيقته ذوو العقول السليمة ومن العار . على الإنسان أن ينسب حياته لما جاء به أهل الأهواء والزندقة ولا يفكر تفكيراً عالياً ويتأمل في خلقته ونفسه على أقل تقدير ،

ومن الظلم أن ينسب لله ما يدل على الجهل والسفاهة والبلاهة بعد أن شاهدنا عظمته في خلقه كما قال الإمام علي عليه السلام: «ألا وإن البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير».

المقارنة بين العقائد والآراء المارة :

لم نكن باحثين بالتفصيل عن كافة الأديان والعقائد والآراء التي حلت بالبشر منذ قيامه لليوم، إذ هناك ربما آلاف الأضعاف من الفروع والعقائد التي لا مجال لذكرها هنا، وإنما بحثنا ذلك على سبيل الإيجاز والاختصار، وأخذنا بالأديان الأصلية والآراء والعقائد الأصلية ونماذج من الفروع.

ولا يسعنا في هذا الكتاب أن نأخذ كل واحد من هذه ونناقشها ونذكر محاسنها ومساوئها، وإننا نكتفي بدرج ذلك المختصر في أصوله لتمحيصه من قبل ذوي الألباب الحية والعقول الثاقبة، وقد تحتاج أكثر النظريات التي جاء بها الافراد من ذوي الآراء والعقائد والأديان إلى تجربة عملية غير التحكيم العقلي المجرد، ولنا أن نحكم على أساس العلم والتجربة المارة، فنحن نشاهد أننا نتقبل كثيراً من أقوال الحكماء لما تحويه من المنطق والاستدلال والبراهين، ولكن من جهة ثانية نأخذ بأشخصها وأشهرها مثل أفلاطون وأجل مؤلفاته بموضوعنا الجمهورية ونظرياته لوضع كتاب الجمهورية لتأسيس حكومة مثلى لحياة البشر السعيدة، تلك التي يتقبلها الحكماء والفلاسفة والمهذبون، لم تنجح في وقت من الأوقات ولا زمن قصير وربما شعر نفسه بنقص فيها قبيل أن يوافيه الأجل؟ فلماذا لم تطبق؟.

إنه وضع جمهوريته تلك ولكنه لم يجعل لها الضمان ولم يحدد الشروط اللازمة التي تلزم الجماعة على اتباعها وعلى الاستمرار عليها. والجزاء العملي الذي يحفظ سلامتها من أيدي العابثين ويحفظ لها السلامة والبقاء، ذلك نمط واحد ومثل من نظريات الحكماء. ثم نعود لنتساءل

وناقش أفلاطون بعد هذا: إنك أبديت رأياً، وهو أن يلقّن الأفراد تلقيناً باطنياً يمنعهم ويحذرهم من التجاوز بالنظام الذي فرضته في جمهوريتك ، بسرد قصص وخلق قضايا مثل تلك التي جاء بها الأنبياء ، بالثواب والعقاب والوعد والوعيد في هذه الدنيا ويوم القيامة يوم العودة يوم الميعاد ، فهل كنت مؤمناً بهذا اليوم؟ وهل كنت مثل الأنبياء تحسب أن الله سوف ينشىء النشأة الآخرة ويحيي الناس مرة أُخرى ويقاصّهم جميعاً ويجازي المحسنين بالجنة والمسيئين إلى النار؟ أم أردت تمر بذلك مر الكرام ولم تكن مطمئناً في ذلك؟ أم أنت تنكره في حين أنك تؤمن بالله والعدل الإلهي وكماله ومن العدالة أن يجزى المحسنين ويعاقب المسيئين؟ أولئك الذين بذلوا في سبيل الحق والإنسانية وسعادة خلق الله ما أمكنهم حتى بذلوا بما لهم من مادة وروح وتحملوا أقصى مراحل الشقاء في سبيل تفانيهم ، فراحوا ضحية الظلم والجور بيد الطغاة المردة والمستبدين المتجاوزين ، وهؤلاء الذين علوا واستبدوا وحكموا وجاروا وظلموا وهتكوا وغاروا وقتلوا الأبرياء ثم عاشوا إلى آخر حياتهم متنعمين ، ألا ينافي ذلك الاعتراف بالوحدانية والاتقان والكمال من الخالق القدير العادل أن لا يقاصص ولا يجازي؟ فلماذا جعل ذلك تلقيناً وأراد أن يأتي بقصص ربما كانت خرافية تنافي العقول السليمة؟ إذ الإنسان على الأكثر وإن فقد أكثر الأحيان قدرة المحاورة والاستدلال الظاهر بيد أنه له حتى في صباه وأحياناً في سن الرابعة والخامسة والسادسة تلك القوة من التمحيص وقبول المعقول ورد غيره ، لهذا نرى كثيرين من أُولئك الذين يتبعون عقائد فاسدة حتى الذين أتبعوها اعتيادياً منذ النشأة الأولى كثيراً ما يعودون إلى رشدهم وينتقدون منطقاً كلما لا يأتلف والعقل السليم .

ثم نعود إلى كثير من الأديان الأُخرى فنجدها خلطت حقائق وأوهاماً لايتقبلها العقل ، وعلى الأخص العلم الحديث القائم على الملموسات والمحسوسات ، هذا العلم الذي خلق أعظم من معاجز المسيح فأحيا الموتى وبدل القلوب والأبصار ، وعالج ما هو أشد من البرص والكمة ،

مثل السل والأمراض الزهرية والأمراض العفنة وداء الكلب وغيرها ، واستطاع بالعمليات الجراحية والآلات الدقيقة التي ابتكرها أن يعمل فوق ما جاء به الأنبياء مثل بساط سليمان فوصل إلى الكواكب وعاد منها وإلى أعماق المحيطات ، ونظر إلى النجوم التي عجزت العيون بل أعيت العقول من تصور عظمتها ، فلم يبق لعبدة الكواكب الثابتة وغير الثابتة متى أدركوا الحقيقة البقاء على دينهم ، وإذا محصنا بدقة ما اصطنعه البشر من إله مما تصورته أفكاره وصنعته يداه من أولئك الذين عبدو الحجر وغيرهم الذين قدسوا الحيوان وعبدوه ، والذين اتخذوا الشمس أو القمر أو الكواكب الأخرىٰ أرباباً ، ونسبوا لها القدرة والخلقة ، أو اتخذوها شفعاء ، أو الذين نسبوا إلى بعض الناس الذين جاؤوا بالخوارق التي عجز الغير من اثباتها في ذلك اليوم ، بيد انهم أنفسهم عجزوا عن ذب ورفع الأذى عن أنفسهم ، أولئك الذين كانوا كبقية البشر بحاجة للأكل والشرب والنوم كالبشر العادي عن أولئك الذين أُمرو بالقسط والعدل وأُمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وكانت لهم عقول مهذبة لا تحيد عن الصراط المستقيم (كسيدنا المسيح) ، فنسبوا لهم بحكم الجهل أو الأغراض العامة أو الخاصة ولغايات خاصة وعامة بعد موتهم ، نُسب لهم البعض الخروج على الدين وآخرون الدعوة إلى الربانية والألوهية . كلاً . لا يكلف الله نفساً عملاً إلاّ مشروعاً موافقاً لصالح الفرد وصالح المجتمع . وعقلاء القوم وذوو الرأي عليهم المعول لدرك الحقائق ، فنحن لا نرجو ولا نأمل من بشر عاقل أن يقول إن مدينة لندن أو نيويورك بما فيها من تخطيط وعمارات ومعامل ومحركات ومصنوعات وكتب وعلوم ومنظمات وكل ما تحويه ، كل منها فرادى ومجموعة ، انها وجدت دون صانع ومنظم ومبدع ، أو يقول إن الذي أوجدها كان دون عقل ووعي ، أو أن يقول إنها تسير بدون نظام وخطط ، فكيف القول بما هو أعظم شأناً وأوسع مجالاً مما يعجز من بلوغ كنهه عقولنا في التصور والإدراك في النظام الكوني العظيم من خلقة الأفلاك ، وما تحويه من حركة وقدرة وطاقة وذرات ، وما تحويه ، وتنطوي

عليـه من قوانين من عنـاصر ومـركبات . ممـا يدهشنـا كلمـا أدركنـا بعقـولنـا وحواسنا المحدودة الصغيرة بالنسبة للمكان في هذا الكـون وعمرنـا المحدود بالنسبة للزمان؟ وهذه المحـدودية لمشـاعرنـا وأفكارنـا وإحساسـاتنا ، وذلـك النقص الـذي يكفينا من دركـه إذا علمنا أننـا لا نستطيـع الحيـاة في درجـات معـدودة قد لا تتجـاوز الخمسين درجة مئـوية ، في حين أن هنـاك المـلايين من الدرجات ، ومثلها أنظارنـا بمداهـا وما نستـطيع رؤيـاه ، ومثلها اسمـاعنا بسماعها وشمنا وذائقتنا وكـافة حـواسنا على نفس النسبـة في النقص . وليس لنـــا غيـر هـــذا مـن الـطاقـات ومـن الحـــواس من تلك التي مـــوزعـــة على المخلوقـات الأخرى ، فكيف نستـطيع إدراك الحقيقـة إلاَّ بقدر محـدود؟ بيد أن هنـاك أموراً بـديهية عـارٌ علينا ونحن نـدركها بعقـولنا الصغيـرة أن نجـادل فيهـا ، فكيف نعبد حجـراً صنعناه بـأيدينـا ، أو كـوكبـاً كـان بعـد أنْ عـرفنـا مـاهيته ، أو إنســاناً عجـز عن دفع الضـرر عن نفسه أو جلب النفـع لهـا؟ أن نتخذه ربّاً ينفع ويضر ، أو ننكر العالـم الذي نراه ونشـاهده ونسمعـه ونلمسه؟ وكيف تفـرض علينا فـروضاً لا يقبله العقـل والتجربـة والعلم ، فانـظروا إلى كافة الأديان ومحصوهـا تمحيصاً عقليـاً ، وآراء الحكماء تلك التي قـام عليها الدليل العملي خلال آلاف السنين ، هل تجـدون مذهبـاً وديناً ورأيـاً صحيحاً يخـالف النـظام الـــطبيعي ؟ رأيـاً صحيحـــاً لا يقصـد بـــه إيصـال السعـــادة للمخلوقات أخص منه البشـر . أمنطق صـائب ذلك الـذي يقصد بـه الابتعاد عن العلم والجـر إلى الجهل؟ هـل يساوي دينـاً يأمـر بـالمعـروف وينهي عن المنكر ويعطي الحرية الفكرية والروحية والمنطقية والبدنية للأفراد في مجـال المنـطق السليم الذي يستسيغـه ذوو الـرأي الصـائب البعيـد عن كـل غـرض شخصي؟[1] .

---

(١) ما أحلىٰ الآية القرآنية قوله تعـالىٰ : ﴿ بشر عبـادي الذين يستمعـون القول فيتبعـون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

إن أشرف ما خلق الله الإنسان هو العقل والوجدان ، ذلك الذي يحكم على المرء أن يسعى لسعادة نفسه وغيره وعدم التجاوز على حقوق الآخرين وعدم اذاهم روحاً وبدناً ، وعدم سلب حريتهم الفكرية والجسمية وسلب حقوقهم البدنية والروحية والعقلية[1] .

تصفحوا الأديان على هذا الضوء وفتشوا الآراء والنحل والأهواء ، فما لم يقم على العقل والفطرة فاضربوه عرض الحائط ، وكلما يقصد به زجكم عقلياً وبدنياً أو روحياً في قيود تسلب منكم الراحة والسعادة أو يوصي لكم بالتفرقة والوهن ، أو تسمح لكم بالتعذيب النفسي أو تعذيب الغير فاضربوه عرض الحائط ، ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ ، و﴿ **ما جعل الله لكم في الدين من حرج** ﴾ ، صدق الله العظيم . فكل فرد له حد لإشباع أي حاسة من حواسه وسد رغبة من رغباته من منظر ومسمع ومأكل ومشرب وما شاكل ذلك، فللفرد ذلك على شرط أن لا يضر نفسه في اتيانه إيّاه ، ولا يقوده طمعه إلى سلب حق الآخرين وسلب حرياتهم ، وربما أول بعض أهل الأديان والنحل والأهواء سبيلهم في بعض الأمور على ذلك وحكمت عليه العادة بالاغضاء عن كثير من المساوىء ، ولكن لا تأخذكم العزة بالإثم وحاولوا إدراك الأحسن واتباع الأفضل فذلك حكم العقل السليم ، وتلك من وحي الفطرة الصحيحة والخلقة الطبيعية الواقعية .

---

(١) راجع محاكم التفتيش التي أسستها الكنيسة كمحاكمة وحرق كل من خالف عقائدها دون مبرر باسم الشريعة وحاشا لدين الله من ذلك .

لبلوغ الحكومة العالمية المثلى وإدراك السعادة

أقــول :

١ ــ مـاذا يثمـر الحب والمعـونـة المتبـادلـة؟ كيف يمكن خلقهـا في النفوس كجزء لا ينفك عنهم؟ .

٢ ــ كيف نوجد الشعور الحي والأجسام والعقول السليمة؟ .

٣ ــ كيف نخلق الـوجـدان والضميـر والشعـور والإحســاس الـواعي لإقامة العدل والإنصاف والبر والإحسان؟ .

٤ ــ كيف نقـدر أن نكون أنـاساً مهـذبين منـزهين من الـرذائـل دائبين على الفضيلة؟ .

٥ ــ كيف نـوجـد الحنــان بين أفـراد البشــر ذلـك الحنــان الصـادق المنبعث من الأبوين لأبنائهم؟ .

٦ ــ كيف نـوجد في أفـراد البشـر تلك الـروح الفـطريـة من الخصـال الحميـدة التي يتصف بهـا بعض الأحيـاء كـوفـاء الكلب وكـدح وكـرم النملة وأمثالها؟ .

٧ ــ كيف نـوجـد في أفـراد البشـر العشق لسلوك الفضيلة والشجـاعـة الروحية والبـدنية الإرادة النفسيـة ونكران الـذات في سبيل بـذل الخير العـام والخاص وبذل العون والمساعدة لكل ذي روح دون مقابل؟ .

٨ ـ كيف نوجد في الافراد ، روح التواضع لتوقير الكبار سناً وعلماً ، واحترام الضعفاء ومعونة الصغار رحمة ورأفة وإشفاقاً بهم وقتل الحرص والجشع والجبن؟ .

٩ ـ كيف يجب أن نكون قدوة صالحة؟ وكيف يجب أن نبعث في الأفراد خلقاً سامية يكونون بها ثقة للمعاملة والمشورة ومحلاً للأمانة والاطمئنان مادياً ومعنوياً؟ .

١٠ ـ كيف نقدر إقناع الأفراد للإصغاء واتباع القول والعمل الحسن واستيضاح ذوي الخبرة كل في علمه وفنه؟ .

١١ ـ وكيف نستطيع بعث روح في ذوي الخبرة كل في فنه وعلمه بمد ما لديهم لسعادة أنفسهم وغيرهم من الأحياء؟ .

الجواب :

الجواب على جميع الأسئلة المارة وكل سؤال إصلاحي آخر المؤدي لسعادة البشر إفراداً وجماعات في شتىٰ شؤونهم الحاضرة والمستقبلة وقاية وعلاجاً ، إنما هو في جواب واحد تنطوي تحته كل الأجوبة التي تنتهي إلى الهدف المرموق والثمرة المطلوبة : بإقامة دين الفطرة دين الطبيعة دين الله ، الله وحده بالصراط المستقيم إليه ، وإقامة حدوده من أمر ونهي وفروضه ونـدوبه ، دين المنطق السليم ، دين العلم والعمل الصالح . دين القول والفعل النزيه ، دين البر والإحسان ، دين الفضائل الإنسانية ، دين العدالة والمساواة ، دين الاخوة والمعونة والتواضع والحكمة والصدق والنزاهة والأمانة والوفاء ، دين النظافة والعفة والسلامة والسلام ، دين الفتوة والشهامة والبسالة والإرادة ، دين الدعوة لكل خير والنهي عن كل شر ، الدعوة للسعادة والحذر من الشقاء كل ما مرّ ذكره له نصوص واضحة مبينة في كتاب الله وسنة رسوله .

وبالتالي دين التقوى الجامع لكل حميدة والورع الناهي عن كل ذميمة قال تعالىٰ : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

خير الحكومات

تحدثنا قبلها عن الحكومات واتجاهها من الناحية الاقتصادية وقسمناها إلى ثلاث كتل :

١ ـ الديمقراطية .   ٢ ـ الاشتراكية .   ٣ ـ الإسلام .

والآن نعود إليها مرة أُخرى لنعرض على بساط الشرح أهم الفروق فيما بينها والتحدث عن كل منها ، وإن لها وجهتين ، وجهة تجمع الحسنات ، تلك التي يتمسك بها المدافعون عنها ويستدلون بها على فضلها في مسالك الحياة ، ووجهه تجمع السيئات وبها يتمسك خصومها لدحضها . ونحن لا نشك أن لكل منها ذلك من محاسن ومساوىء ، غير أن من العدالة أن نحكم كقضاة مستعرضين الصفحتين ، وما طبق كل منها والآثار التي خلفته والنتائج التي أعطته ، وتمحيص ما وجه لكل منها من نقد وما تركته من خير وشر وأيُّها أحق أن يتبع ، إلاَّ جمع الأوفر والأقرب لبلوغ هذا الإنسان إلى القرار ، إلى مناهل السعادة وأبعدها عن الورطة في مهاوي الشقاء ، نجد الأهداف والغايات المطلوبة لجميعها تكاد أن تتقارب حتى تلتقي مع بعضها ، وما الخلاف إلاَّ بالمسالك والطرق المؤدية لبلوغ الأهداف ، وما الحياة السليمة القويمة إلاًّ بعد العلم الحاصل من التحقيق والتجارب والنتائج الحاصلة بعده ، أو كأننا رجال من الخبراء الكيماويين أو الفيزيائيين في مختبراتنا وقد أدركنا بعد التجربة والتحليل والمزج أو التركيب على ما نهفوا إليه أو هو أقرب إلى ذلك وما معنى ما

هو أقرب ، فالأقرب إننا حصلنا على مادة نقية خالصة ١٠٠٪ أو فيها شوائب وكم هو في المائة ، تلك في الكيمياء ومثلها في الفيزياء وأخرى تجمع بين العلمين وتسندها العلوم الرياضية . قلنا تقريباً إلى الواقع وعلينا أن نكون بعد التحقيق أناساً واقعيين نتابع الحقيقة ونؤمن بها . ولا شك وأن لنا أن نعتبر كل مادة ونعطيها مكانتها من الأهمية من حيث الضرورة الماسة لها ودرجة نقاوتها ، وبعد أن أدركنا من هذا المثل المادي وتقربنا به لإقناع النفس نعود للموارد الاجتماعية ونطبق عليها الحياة الاجتماعية والمعنوية وكل شيء له ما يقابله من الموارد الطبيعية ونتساءل هل طبق كل من أرباب الكتل الثلاث ما أدلوا به من الآراء لبلوغ الهدف والغايات المشتركة؟ من حققها من تقرب إليها؟ من تخلف؟ ما هي العلل الموهنة؟ ألا زلنا نتخبط. ولا زلنا نتذمر.

١ ـ الرأسمالية والديمقراطية :

هذه الديمقراطية وما جاءت به من مناهج وخطط وأنظمة وقواعد وما أعطته من ثمار ، ما أعلمته من حرية الفرد الفكرية والبدنية والمعاملة والسيرة والعدالة والمساواة ، فقد وجدناها جميعاً مضاعة مهضومة العوية بأيدي عصابات تطلق على نفسها رسمية وشبه رسمية ، ومطلقة العنان تتحكم بالفرد والجماعات ، مرة تموه الحقائق وتزيفها وتطليها على الغفل ، وأخرى قاهرة جبارة ترهقهم بالقوة والغلبة ، والكل مقهور ومغلوب تحت نير وضغط القوة الحاكمة أو السلطة الجائرة ، وأخرى تحت نفوذ الكتل القوية من عصابات الشركات بما فيها الكارتل والتريست وغيرها ، أو في معرض الأهواء من العصابات السرية والأغراض الشيطانية والبهيمية تتوالىٰ على هذا الإنسان المسكين أشد الأهوال من بني جنسه باسم الديمقراطية تارة ، والشيوعية أخرى والفاشيستية ثالثة ؛ كما مرّت عليه الدهور مقهوراً قبلها تحت نير السلطات المطلقة والدكتاتورية والعقائد الفاسخة ، والأهواء الشريرة من جهل مطلق إلى جهالة اجتماعية في

العقائد المتضاربة المتناحرة إلى العادات المستقبحة والاستهتار والانجراف في الرذائل ، والادمان على الموبقات والاعتياد على ما يسبب تبلبل الأفكار أو تحريف الأذهان أو السطوة على الأبدان أفراداً وجماعات ، بالأسلحة المادية أو الاستحواذ على العقائد والأرواح بالكتب المضلة والدعايات المخلة والمنبهات والمخدرات المذلة . تقول حقاً مبهجاً للخواطر وتفعل منكراً أشد من الكبائر ، تطري سعادة الإنسان قولاً وتدعو للوحدة ومده بأنواع المعونة ، وتسومه شقاءًا بالفتن والشقاق وسلب ما لديه من مؤنه . نفاق قائم[1] وتلون دائم . هذه الديمقراطية اتخذت من الحرية مطية لإطلاق أيادي شركات الترست والكارتل والأحزاب ، لتفعل ما تشاء بالعالم في الافراد والجماعات للإستيلاء على مؤنة للأمم المستضعفة بالقوة والغلبة وبث الفساد والنفاق والإطاحة بحكومات مناضلة كادحة لنصب دكتاتوريات جائرة جارحة تغصب الشعوب حقها ونقتّر عليها رزقها ، تلقي فيها الفتن وتبث فيها الاحن ، وتثير فيها الحروب وتبليها بالخطوب وتمدها بأسلحتها الفتاكة ، لتسلب ثروتها وتمزق وحدتها وتخمد جذوتها ، بقصد فرض سيطرتها لسلب ثروتها وحد قدرتها ، ناسية أن الإنسان أخو الإنسان ، والديمقراطية تأبىٰ الظلم وتأمر بالبر والإحسان . فكأنها حسبت في عدوانها سبقاً وظلمها لها حقاً .

---

(١) هذا النفاق الذي هو أشد من الشرك على البشرية وكم حذر منه أهل الآراء وأهل الأديان منهم القرآن ونبي الإسلام وأئمته .

نرى القرآن كيف يصور لك هيكل المنافق ويفرق بين مظهره الخارجي الجميل وباطنه المحشو بالخبث كما جاء في سورة البقرة الآية ٢٠٤ : **﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾** والآية ٢٠٥ منه : **﴿ وان تولى سعي في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾** و٢٠٦ منه : **﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد ﴾** .

ألا ترى هذه تنطبق على هؤلاء الأفراد والجماعات والدول المتكالبين على مطامع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

. . . .

= الدنيا ، والذين لم يألوا أي جهد لسد جشعهم من أية موبقة فردية وجماعية ، لسلب ثـروات الأفراد والشعـوب وإدامة الحـروب الطاحنـة وسلب الحريـات وتمزيق شمـل الأمم ، وبث الفسـاد والتفرقـة حتى بين العوائـل وإحداث أهـول الأسلحـة الفتـاكـة المدمرة والنيران المحرقة ، تلـك الـتي عمّـت الجميع وشملتهم بضـرامها وخـرابها وإليك الآيات الأُخرى المنطبقة على الكتلة الأولى المعبرة عن نفسهـا بالـديمقراطيـة والمعتقدة بالعدل الإلّهي أوامره ونواهيه؟.

قوله تعالى في سورة البقرة الآية ٨ : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخـر وما هم بمؤمنين ﴾ و٩ منه : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعـون إلاَّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ و١٠ منه : ﴿ في قلوبهم مرض فـزادهم الله مرضـاً ولهم عذاب أليم بما كانـوا يكذبـون ﴾ و١١ منه : ﴿ وإذا قيـل لهم لا تفسدوا في الأرض قـالوا إنمـا نحن مصلحون ﴾ و١٢ منه : ﴿ ألاَ إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ و١٤، ١٥ ، ١٦ منه : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قـالوا إنـا معكم إنمـا نحن مستهزؤون * الله يستهـزىء بهم ويمدهم في طغيـانهم يعمهـون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ .

ويتبع ذلك الآيات ١٧ إلى ٢٠ منه ولا ترى في أي دين سماوي أو إنسـاني من يجيز الظلم والقسوة والاعتداء ذلك عهد عقده الإنسان مع الله في وجدانه وضميـره ، ومن ظلم فإنما قد نقض ذلك العهد والميثاق .

وجاء في سورة البقرة ٢٧ منه : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثـاقه ويقـطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ ولا ترى هؤلاء إلاَّ يلبسون الباطـل لباس الحق ويكتمـون الحق نفسه حتى قـال أيضاً في ٤٢ منـه : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالبـاطل وتكتمـوا الحق وأنتم تعلمون ﴾ هؤلاء الـذين يحرفـون القانون ويـأمرون ويقـولون بـالعدالـة وعملهم عكس قولهم يخـاطبهم الله بالآيـة ٤٤ منه : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

حتى لتجد هؤلاء يشيدون دور العبادة من كنائس ومساجد وغيرها لأغراضهم . وإليك مـا أوضحته الآيـة ١٠٧ من سورة التـوبة ﴿ والـذين اتخذوا مسجـداً ضراراً وكفـراً وتفريقاً بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ . =

= نرى القرآن يخاطب منافقي أهل الكتاب ويناشدهم بترك النفاق والتلون وتلبيسهم الحق بالباطل بقوله في سورة آل عمران الآية ٧١ : ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ كما يؤكد ذلك في الآيات ٧٨، ٩٩، ١٠٠ منه ، وترى المنافق يحاول أن يتلون ويكذب حتى على منافق مثله . فاسمع قوله في سورة الحشر الآية ١١ : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لأن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون ﴾ . ١٢ منه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ ١٦ منه : ﴿ فكان عاقبتهما انهما في النار . . ﴾ الخ .

وترى النفاق يدخل على يد المنافقين بأساليب وأشكال دقيقة وكثيرة وأعمال المنافق دائماً مناقضة للإنسانية والدين والوجدان . ومهما حاول المنافق أن يتظاهر بالفضيلة والإيمان فلا بد أن تنكشف حقيقته وتتجلىٰ موبقاته . كما جاء في الآية ٦٠ من سورة النساء : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به . . ﴾ الخ . والآية ٦١ منه : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾. و٨١ منه : ﴿ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول. . . ﴾ الخ . وقد يبلغ المنافق لإدراك رغباته من فرد أو جماعة أن يتظاهر له بالمحبة والوداد والإخلاص حتى يغري المقابل ويجلب مودته وإخلاصه بيد لا يعمل ذلك إلاَّ لمكر واحتيال ويقصد بذلك غايات دنيئة والوقيعة ، وترى من سورة آل عمران تحذيراً من أمثال هؤلاء في الآية ١١٩ : ﴿ ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ والآية ١٦٧ منه ، وهناك فريق من أمثال هؤلاء الفاسقين أو الكَفرة أو أعداء ذوي الإيمان وخصوم الإنسانية يحاول اطراء أعوانه وأمثالهم والحط من كرامة أندادهم من ذوي المزايا الرفيعة والخلق السامية والضمائر الحية أو المخلصين من المتقين فيجادلون الأغيار دفاعاً عن أقرانهم رغم علمهم بهم . أو ترى الدفاع يصدر من جاهل غير مأخوذ على عقله أو مشتبه في أمره فمن يعرف حقيقة خائن منافق كذاب ويدافع عنه قد

= خان الله والناس وخان نفسه فهنا نرى الآية ١٠٧ من سورة النساء تصرح بذلك : **﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾** و١٠٨ منه : **﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾** و١٠٩ منه : **﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً ﴾** .

نرى في سورة التوبة كيف يعبر القرآن عن حقيقة المنافقين ونرى فيها حقائق تنطبق كل الانطباق على السياسات العامة والاعتداءات والتجاوزات المخالفة للخلق الرفيعة والضمير الحي والأديان الإلّهية الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر . جاء في سورة التوبة ٦٧ : **﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾** ، وفي ٦٨ منه : **﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها . . . ﴾** الخ .

ذلك جزاؤهم في الآخرة وأما جزاؤهم الدنيوي تجاه الأديان السماوية فهو جهادهم بكل الطرق من يد ولسان وقطع دابرهم كما جاء في ٧٣ من سورة التوبة : **﴿ يا أيُّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير ﴾** و٨٥ من سورة التوبة : **﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾** وجاء في سورة التحريم الآية ٩ : **﴿ يا أيُّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير ﴾** فنرى المنافق والكافر سواء بل نرى المنافق أحياناً أشد عذاباً كما جاء في سورة النساء الآية ٤٥ : **﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾** تلك كانت من آيات القرآن المجيد فيما يحمله المنافقون من روح ، خبيثة ومقاصد دنية وطرق لوصولها مشينة . والآن اسمع ما أنذر به خاتم الرسل وحذّر منه وصيّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أولئك الصفوة من خلقه والكلام صفة المتكلم وكلام الملوك ملوك الكلام وما أبدع الآية الكريمة : **﴿ بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾** جاء في الجزء الخامس من نهج البلاغة عن الإمام علي بن أبي طالب لواليه محمد بن أبي بكر

= حينما أراد من يحذره من المنافقين نقل له عن رسول الله محمد بن عبد الله (ص) قوله :

(فإنه لا سواء أمام الهدى وأمام الردى وولي النبي وعدو النبي . ولقد قال لي رسول الله (ص) : إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيقسعه الله بشركه ، ولكن أخاف عليكم كل منافق الجنان ، عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون) .

وقال أمير المؤمنين علي (ع) في الخطبة ١٨٥ الجزء الثالث من نهج البلاغة يصف فيها المنافقين قوله :

(نحمده على ما وفق له من الطاعة وذاد عنه من المعصية ، ونسأله المنة تماماً ، وبحبله اعتصاماً ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خاض إلى رضوان الله كل غمرة وتجرع فيه كل غصة وقد تلوّن له الأدنون وتألب عليه الأقصون وخلعت إليه العرب أعنتها وضربت إلى محاربته بطون رواحلها حتى نزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار وأسحق المزار .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، واحذركم أهل النفاق . فإنهم الضالون والزالون المزلون يتلونون ألواناً ويفتنون افتناناً ويعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكل مرصاد قلوبهم دوية وصفاحهم نقية يمشون الخفاء ويدبون الضراء وصفهم دواء وذكرهم شفاء وفعلهم الداء العياء حسدة الرخاء ومؤكدو البلاء ومقنطو الرجاء لهم بكل طريق صريع وإلى كل قلب شفيع ولكل شجو دموع يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء إن سألوا الحفوا وإن عذلوا كشفوا وإن حكموا أسرفوا قد أعدوا لكل حق باطلاً ولكل قائم مائلاً ولكل حي قاتلاً ولكل باب مفتاحاً ولكل ليل مصباحاً يتوسلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم يقولون فيشبهون ويصفون فيموهون قد هونوا الطريق واضلعوا المضيق فهم لمة الشيطان وحمة النيران أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) .

ونحن إذا دققنا في الكتاب وما جاء عن رسوله وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعدنا إلى رجال السياسة في الكتل الثلاث الرأسمالية والاشتراكية ، والمنافقين من أهل الكتب الذين كما قال الإمام الشهيد الحسين بن علي (ع) عنهم : (الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فإذا محصّوا بالبلاء قل الديانون . =

هذه الديمقراطية أطلقت لنفسها عنان السباق لابتكار أهول المدمرات والأسلحة الفتاكة وفرض تجارتها بالقوة على الشعوب الضعيفة ، ملقية بينها الفتن لتفرض عليها شراء الانقاض من الأسلحة المتخلفة والاستعاضة منها كلما لديها من ثروات ، وصم أفواه الأحرار بالعقوبات الصارمة وأشد أنواع النكال ، وكيل التهم وبث الفساد المادي والمعنوي في الأرض بالنشر والدعاية والانجراف إلى الأوباء الاجتماعية ، والعودة إلى الحياة الوحشية ، من قتل العواطف والمروءات الإنسانية ، والأدواء للاعتياد على كل ما يسلب من الأفراد والجماعات قوة الإرادة وعزة النفس والمروءة والحنان والشفقة . ناسية أنها تقوم على خلاف الواقع الإنساني والحقيقة الاجتماعية ، إذ انها وهي تستمر بالقضاء المبرم على الضعفاء ، حتى إذا استأصلت دابرهم قامت المنافسة بين الأقوياء واستمر ذلك حتى التهم الأقوى الأضعف ، وانتهىٰ الأمر للقضاء على الكل وبقاء الأقوىٰ وحده ، وعندها على من تفرض بعد سيطرتها وتبيع غلتها وتوزع تجارتها البائرة ، إلَّا ما كان جديراً بها أن تزيد من قدرة شراء الشعوب المستضعفة لمساعدتها المادية والعلمية لإنتاج مواردها الأولية التي هي بحاجة إليها لتبيع لها حاصلاتها الصناعية؟ إلَّا ما كان الأجدر بها عوض الإكثار من الأسلحة المدمرة ابتكار ما يزيدها سعادة وبهجة من

= والواقع إن وجدت انحرافات من الكتلة الثالثة فينطبق عليه الحديث في المنافقين ، والقول ما خانك الأمين ولكن اؤتمن الخائن ، وإننا في الواقع لم نجد يوماً ما من الحكومات الديمقراطية ولا الاشتراكية تلك السلامة المرموقة التي جاء بها نبي الإسلام وطبقها في زمن حياته التي حكم بها وطبق كتابه وسنته وعادت تنقلب بعد وفاته ، إلَّا ما أراد تطبيقه وصيّه أمير المؤمنين علي عليه السلام في عهده وأطبق على مناوأته المنافقون باسم الدين . إن ما قلته وأقوله يلمسه أولئك الرجال المحققون المخلصون الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ذوو الضمائر الطاهرة النقية ، أولئك الذين لم تعم أبصارهم العصبيات وتعكر عليهم الحقيقة الشوائب أو الجهل المطبق ، أو من استحوذ عليه الشيطان فأزله عن طريق الهداية والصواب .

العلوم والصناعات المستطرفة ونشر المعارف وصد الغارات والعدوان والوقوف أمام تكاثر الجرائم وتحديد النسل ، وكلما يقودها حقاً إلى الألفة والاتحاد والاخوة والانضمام إلى الوحدة الإنسانية ، وتنزيه النفس مما تصون به ذاتها والآخرين ؟ بيد اننا نراها وهي تورط غيرها وتموّه الحقائق وتبث الفساد وتنشر الرذائل تلك الموبقات والخدع ، وإذا بها اعتلت بتلك الأدواء ولا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله ، وإذا الفساد ينخر جسم أفرادها وجماعاتها ، والنار التي أضرمتها تلتهمها ولا تستطيع وقاية شرها ، رغم ذلك لا تفيق من سكرتها ولا تهتدي إلى طريق الصواب ، تلك هي الكتلة الأولى المدعية بحمل علم الحرية والثقافة والحضارة المنحرفة المماطلة المزيفة المخادعة الظالمة المنافقة الماكرة ببني الإنسان ، باسم العدالة والمساواة والحرية والاخوة والتعاون والتآخي ، ورغم كل ذلك الادعاء ثبت انها تبث الفساد وتخرب البلاد وتفتت الاكباد وتقتل العباد وتوصم الأحرار المصلحين بالشغب والعناد والصلحاء الناقدين بالفتن للجهاد تزجهم السجون وتسقيهم المنون ، تاركة كل منتهز رذيل وفاجر دخيل من كل صعلوك باع ضميره وشرير أطاع نظيره وحقير ناقم ومدعٍ مخاصم وأمير حاكم ومهلك قاصم .

فإذا ما فحصتها جميعاً بعين الحكيم العليم وتحريت دقائقها تحت العدسة المكبرة وبعدها بالعدسة المقربة ، لوجدتها كلها نشأت تحت أغراض من نفوس سقيمة زلوا عن الصواب والحقيقة وما راعوا بها إلاّ ما يشعر به الفرد الأناني المتعصب لمنفعة ذاتية محتملة آنية مؤقتة تثير الكوارث ، مستعيضاً عن منفعة أكيدة دائمة آمنة من النكبات والحوادث الحقيقية . (راجع شركات الترست الأمريكية ذات مصانع الأسلحة والمتاجرة بالذهب الأسود) .

الحقيقة إن الديمقراطية والأحسن أن نقول الرأسمالية حكومة تاجرة ، تضع موازين التجارة الحرة وتبيح لنفسها لكسب أرباح مؤقتة مبالغة بالتوليد مهما كان هذا التوليد معمراً أو مدمراً للسلام أو الحرب يحتاجه الفرد

والجماعة أم لا ، وتعطي لنفسها كل الحق بيع ذلك في الداخل والخارج بشتىٰ طرق الدعاية الصادقة والكاذبة والخداع والحيلة حتى يبلغ درج الإكراه وبث الفساد وإقامة الفتن وإثارة المخاصمات، والتحريض على الحروب ، إنْ كانت تجارتها الرابحة مواداً حربية مدمرةً وتكثير بؤرات التدخين واستعمال المواد القاتلة من مشروبات كحولية أو مواد مخدرة سامة أمثال الكوكائين والهيروئين واضرابها ، ونشر الدعارة والفجور بين الشباب وحتى الصبيان والشيوخ ، من طريق المجاملات والآداب مرة أو الاحتيال والتزوير أخرى أو الإكراه والعنف إنْ لزم ذلك . بين النساء والرجال والافراد والجماعات لا يثنيها عن عملها رحمة أو شفقة أو نظرة إنسانية ، تستبيح كل الطرق لكسب ربح مؤقت ولو أطاحت بكيان أمتها وسمعتها ، وعم الويل والثبور الأمم والشعوب ، متنافسة متناحرة مع أقرانها وأبناء وطنها في الداخل أو أشباهها في الخلق والخلقة في الخارج ، في نظرتها القريبة العاجلة أعمتها وأصمتها عن العواقب الموحشة التي تجر إليه نفسها وذويها وأبناء جلدتها والشعوب الأخرىٰ تنافساً مستمراً وكدحاً متزايداً وجشعاً نامياً غير راحمة نفسها ولا مشفقة على غيرها ، مورطة ذاتها وغيرها أخص الشعوب الأضعف بالاستحواذ على مقدرتها وأخذ زمام السلطة الحاكمة في البلاد ، باغراء تارة والتهديد أخرى والاطاحة ثالثة ، ونصب من يتابعها من أولئك الذين فقدوا الذمة والضمير والوجدان والحكمة ، وغير عادلة في انتاجها الضخم ولا مراعية الضرورة والحاجة ولا العاطفة والرحمة ، افراط في كل شيء مذموم فالانتاج الضخم سيان عندها ما ينفع أو يضر لكسب دخل أكبر حتى لو أردىٰ بالقريب والبعيد ، افراط في الصرف وسيان عندها الحسنات والسيئات افراط في البذخ المجدي والمضر ، افراط في المتعة المفيدة والضارة ، افراط وبذخ في المأكل والمشرب والمكسب متعبة نفسها وغيرها ، بذخ وافراط في المسكن والملبس غير هيابة ان ما تبذخه عن حد الاعتادل عدا أنها يضرها ، فهو يسد فاقة الجياع البائسين من اخوتهم في شتى بلاد العالم ، منهم من سلبهم قوتهم وسعادتهم وحرياتهم

وتركهم تحت كابوس القسر ونير العبودية من كل سلطان فاجر وأمير جائر وتاجر ماكر ومواطن غادر يسومونهم سوم العبيد ويذلونهم تذليل البهم ان تحيد ، ليس لهم حق رأي اعتراض يقومون به أو دهم ويوحدون به عددهم، أو حق اعتراض على من جرَّدهم ظلماً من حقهم ، لا مسكة لضمير يؤنبهم أو إحساس وعاطفة تردعهم أو نخوة تحجمهم أو أثره تصدهم ، تلك هي حكومات الرأسمالية ظلم قائم واعتداء دائم وجشع ملازم وخصام لا ترى له وئام وحرب لا ترى فيه سلام ، عقول طائشة أثيمة ، لا بد أن هائمة سقيمة ، حادت عن الحكمة والسداد وهوت إلى حضيض الفساد ، في قولها الصواب وفي أعمالها العذاب وجوهها باسمة وقلوبها قاتمة ، يريك القريب بائناً والأمين خائناً ، والعفيف ماجناً والسلام شائناً ، يحرق الحرث والنسل في حساب الدرهم ، ويهدم البلاد ان أحس مغنماً لا قبيح في سبيل اكتسابه ولا حسن سوى الثروة المادية في حسابه ، كل متنقب بنقاب المتقي الكريم والمخلص الحكيم والناصح السليم ، حتى إذا انزاح النقاب ظهرت وجوه ضواري مكشرة وشياطين متنكرة عجولاً في جشعة لجوجاً في طمعه ، حتى ليصبح أحياناً المقنوص في صيده ، والمغلوب في كيده ، والمصاب بسهمه ، والمسموم بسمه الذي أعده لخصمه ، تصفح جحيم المستعمرين ، واستعرض تاريخهم الأسود ، المملوء من العهد البعيد إلى العهد القريب بالموبقات والشجون ، بالنكبات بالتجاوزات بالمظالم بالفتن بسلب الحقوق المشروعة ، وإزهاق الأرواح البريئة والادعاءات الباطلة والدعايات السافلة ، يطمئنك بصدقه وأمانته وهو يعد لك الخيانة العظمى ، ويصفح عنك في التوافه ليوقعك في الكبائر ، ويعرض عنك بالعفو ويهبك الحقير ليقدر منك ، ويسلبك أعز ما تملك ، ويقدس الله امامك ويتعفف ويدفعك إلى الشرور والفجور . تلك هي الرأسمالية المتحلية باسم الديمقراطية .

٢ ــ أما الكتل الاشتراكية ـ الشيوعية :

ومميزاتها القائمة على مصالح الجماعة وليس لافرادها رابطة تجارية

فيما بينهم ، فتلك ما تقوم بها الدولة ، وهي وإن خلت أفرادها من التجارة الحرة والاحتكارات ، بيد أظهرت التجارب على مدىٰ الأيام أن شعوب هذه الدول الاشتراكية مسيرة ، بل ومكبلة تحت نير زمرة تتحكم بها ، وتقودها دون إرادة ومشورة ، كآلة صماء لا حول لها ولا قوة في إدارة شؤونها ، وإبراز آرائها ، وإدلاء أي فكر أو نقد أو اعتراض ، بل قد نزعت عن نفسها أية مسؤولية تجاه الفرد الآخر مهما تورط هذا في جسمه وماله أو داهمته نكبة طبيعية أو غير طبيعية ، ومعنى ذلك أن الإنسان في مثل هذه الحكومات فقد أجل وأغلى ما يحس به في قرارته في نفسه وذاكرته ، ألا وهي حرية العمل والاكتساب المشروع والنزعة النفسية للتقدم وإبراز آرائه والنقد الحر ، لا أبداً فكل الطرق الحرة أمامه مسدودة ، وليس له إلاّ اتباع ما خطته وحددته له الدولة في مسيرته في جهوده ، في عوائده في نفقاته وثرواته وآرائه وأقواله وأعماله ، تلك من جهة ، ومن جهات أُخرىٰ تكاد حس العاطفة والمعونة والمساعدة المرجوة بين أفراد هذا المجتمع تكون مفقودة ، والدولة هي المصدر والمعاد تقدم على قدر وتحاسب الأفراد كما مرّ أن حادوا عن مناهجها رأياً وقولاً وعملاً تحت رقابة وكبت دائمين ، بينما تجمع الدولة الفائض الذي فترته على أفرادها لتقوم به وتعمل كل ما تعمله الشركات الكارتل والترست من ضخامة الانتاج في شتى ما تقوم به الدولة الرأسمالية وشتى مساوئها ، من انتاج المدمرات وبث الجواسيس وخلق الفتن وبذل الجهود للسيطرة على الشعوب الأضعف لاستنزاف ثرواتها واستنهاض افرادها في وجه حكوماتها ، وإثارة القلاقل والحزازات ودس العقائد المخالفة ، ومدها بالأسلحة وتدريبها على العصيان ، وخلق عصابات مناوئة في الدولة والأُمة والشعب الواحد ، وإلقاء الفتن بين العائلة الواحدة والمدينة الواحدة والدين الواحد والعنصر والوطن الواحد ، تتبع خطى الدول الرأسمالية حذو النعل بالنعل ، بل أشد جهداً أو أكثر بذلاً وأقوى خصومة تجاريها في جلب التعاسة وبث الويلات وإثارة الحزازات والاغتيال والغارات دون أن يردعها حس للرأفة وشعور بالعاطفة .

بـل أشد بعـداً في الضمير الحي والـوجدان وحس المسؤوليـة الدينيـة التي يتمتـع بهـا أكثـر شعـوب العـالـم الـرأسـمـالي المعتقـدة بـالله مستهتـرة ومستخفـة بالـدين وأعوانـه ويوم الـدينونـة . يوم القيـامة والحسـاب والرقـابة الغيبية الإلّهية والدعوات الدينية بالحب والرحمة ، ونشر الدعايـات المذهبيـة المليئة بالفضائل في المعونة والألفـة والبر والإحسـان والعفو والغفـران والكف عن الـرذائل من الكـذب والنفاق والخصـومة والشقـاق وسفك الـدماء ونكبـه الأبرياء وهضم الحقوق وبث الفسوق .

٣ ـ الحكومات الدينية :

هي الحكومات المتمركزة على العقائد السمـاوية الإلّهيـة، الفطريـة ، الطبيعية ذات الرسائل المنبعثة من الرسل المتمركزة في العدسة الجـامعة لهـا في شخصية أبي الرسـل (إبراهيم الخليـل)[1] . الجد الأعلى لمـوسى (ع) وعيسى (ع) ومحمد (ص) .

وإبراهيم الخليل (ع) هو الذي دعـا إلى عبادة الله وحـده ، وهو الـذي حـطم أصنام قـومه ورزقـه الله على الكبـر اسمـاعيـل الجـد الأعلى لمحمـد (ص) وإسحٰق أبـا يعقـوب (اسـرائيـل)، الجـد الأعلى لمـوسى (ع) والجـد الأعلى لمـريم ابنة عمـران أم عيسى (ع)[2] . هؤلاء هم خيـرة الـرسـل ذوو الشـرائع السمـاوية ، أولـو العزم الـداعون لعبـادة الله الواحـد الأحد الصمـد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

سيـرة هؤلاء تختلف اختلافـاً بائنـاً عمن سبق . فَصِلَة هؤلاء إلّهيـة بين

---

(١) راجع القرآن المجيد سورة إبراهيم الآيات ٣٥ إلى ٤١ ، وسورة النحل الآيات ١٢٠ إلى ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٣ جاء في القرآن الكريم : ﴿ مثـل الذين ينفقـون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنـابل في كـل سنبلة مئة حبـة والله يضاعف لمن يشاء . . . . ﴾ الخ .

الخالق والمخلوق ، ذلك الخالق الحكيم المبدع العادل القدير المحيط الواقف على السرائر والضمائر الحاكم على الأرواح والعقول والنفوس والشاهد على الخفيات والناظر إلى أرق الأحاسيس والمشاعر والمدارك لأقصى النوايا والأقوال والأفعال ، الذي لا تأخذه سِنَة ولا نَوم المجازي للخير والمقاصّ للشر ، ذو الكمال المطلق الداعي للفضيلة والناهي عن الرذيلة .

هؤلاء الأنبياء والرسل كل منهم إنما هو بشير ونذير بشير لمن أطاع الله ورسوله وسلك الصراط المستقيم ، واهتدى وهدى وأطاع الله ورسوله ، ممتثلاً أوامره ومنتهياً عن نواهيه وملبياً دعوته وأخلص نيته وزكّىٰ روحه ، وردع نفسه وجوارحه عن الموبقات ، عن الظلم ، عن الخيانة ، عن النفاق ، وقبلها عن الشرك ، باذلاً في سبيل الله وارضائه ما له ونفسه ، منكراً ذاته في سبيل اسعاد غيره وبث المحبة والرأفة والمعونة المادية والمعنوية لخلق الله في سبيل الله ، ناهجاً خير السبل ومرتدعاً عن كل موبقة وزلة وخطيئة وظلم روحاً ونفساً في ضميره ووجدانه باطناً وظاهراً ، ليس كالخائف من القانون وحسب ويعمل سراً ما شاء على خلاف المؤمن بالله في دينه . تلك هي التقوىٰ والزهد والورع ، ذاك صاحبها يرى الله بقلبه وروحه في كل نواياه وأقواله وأعماله .

هذه الرابطة العميقة هذه الدعوة البليغة ، هذه النظرة الماحصة المتغلغلة في النفوس هي أرق وأدق من الحب الغريزي بين الوالد والمولود والعواطف والإحساسات والحنان المنبعثة من الأمهات لفلذات أكبادها هي أبعد مدى من رعاية الأب الحريص على افراد عائلته ثقة فوق كل ثقة ، ونزعة فوق كل نزعة ، ومودة منشؤها العلم الباطن ، والإيمان المتأصل ، والتقوى المستحكمة في الروح في الذات في النفس ، فالمرء قد يخادع غيره ببدهيهات ، ان يخادع الله وهو يدرك أنه معه في روحه ، في دمه ، أقرب إليه من حبل الوريد ، واقف على أسراره ، بل وأخفى ، ومحيط بأعماله وأفعاله ومحاسب ومقاص إيّاه في دنياه وآخرته ، وما من كبيرة ولا

صغيرة إلاّ وأحصاها ، والجزاء إن لم يكن عاجلاً فهو آجل ، وإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . فأين تلك الحكومات من هذه الداعية للخلق الحميدة والفضائل العديدة والآراء السديدة؟ حكومة العدل والبر والإحسان المشمولة برقة العاطفة الإنسانية والمنبعثة من طهارة الضمير والوجدان ، إلى الحب الأصيل والمعونة المتبادلة المستندة للتقوى ، للزهد ، للورع والقناعة والثروة المعنوية والإرادة الحكيمة والانتاج المجدي ، إلى العلم والعمل المثمر للمستخدم والمستحكم والضابط للغرائز البهيمية والسائق بها تحت إدارة ودراية[1] وإرادة العقل السليم الواعي ، إلى الحياة السليمة ، إلى الفضيلة ، إلى الوحدة في العقيدة الصالحة الجامعة أصلاً وذاتاً فطرياً وطبيعياً للخير ، منبع الأنوار والمباهج والخلوص والصفاء والصدق والوفاء والحب والولاء والسعادة والهناء . ذلك هو دين إبراهيم الخليل ، وهذه شريعته المنتقلة إلى بنيه اسماعيل واسحاق وأولادهم واحفادهم والذين اقتفوا أثرهم من الأنبياء والرسل من ذريتهم الداعين إلى الله الأحد الصمد ، مبدع الأكوان وما فيها ، الواقف على السراء والضراء ، المتمركز على العدالة والأمر بها والداعي إلى المحبة والبر والإحسان والصادح إليها ، مرسل الرسل قادة وقدوة لخلقه الذي أوجب طاعتهم يحملون هداه بما يوصيه إليهم ، والهادي برسله عباده لطرق الحق والموضح لهم الابتعاد عن طرق الضلالة تحت إحساس الضمير والوجدان، وبما وهبهم من بصيرة وإرادة وقوىٰ مميزة وجعل لهم قصاصاً في هذه الدنيا ، وأُخرىٰ ليوم يجمعهم فيه بعد موتهم ليشملهم بعدله الحسنى لمن أطاع وأحسن والردى لمن صد وافتتن . فكانت العدالة أصلاً من أُصوله في العقيدة وميزاناً لحكمه عند القصاص في الخبيثة والحميدة وإسداء الخير خير خصلة

---

(١) راجع الآية ٥٩ من سورة الأنعام : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو . . . ﴾ الخ . والآية ١٥ من سورة قٓ : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ .

يتحلى بها الإنسان ، يـرضي به وجـدانه ويستـر به جنـانه ويـوسع بـه بالحب سلطانــه ويكسب بهـا من القـريب والبعيـد امــانـه ويـزيـد في الملمــات والمعضـلات أعوانـه ، فيها طهـرت سريـرتهم وعليهـا كـانت سيـرتهم وبهـا فـاضت كُتبهم وسننهم ، من الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر والتحريض على التقوى والتحذير من النفاق بما بشر وأنذر .

فهـذا التوراة ويليـه الإنجيل[1] ويختمهـا القـرآن ، ومـا أحسن الختـام وأكمله ، جمع وأعاد ما ضاع وتشتت وأجمـل وفصل من الأحكـام والعضات فمـا نسخ وأثبت والتي سنورد منهـا على سبيـل المثـال ليقف منهـا القـارىء ويقارن ويستخلص الصادق الـوفي والمخلص التقي ، من الكذاب المـداهن والفاسق الخائن .

ويمتاز دين إبراهيم الخليل والأديان السماوية التـالية لـه والسائـرة على هداه ، بأنها دين الفطرة ، دين الـطبيعة ، دين العقـل والمنطق السليم ، دين الـوحدة والتـوحيـد ، دين العـدالـة والمسـاواة دين الاخـوة والمـروءة والعفـو والغفران والأمان والسلام والوئـام ، دين الرأفـة والشفقة والمحبـة . وبالتـالي دين السعادة وهو يتميز بأصول ثلاثة :

١ ــ التوحيد[2] .

---

(١) جاء في الكتاب المقدس (الله محبة) يوحنا ٤ : ٨ وجاء في المزمور ١٤٥ : ١٦ عن الله (تفتـح يدك فتشبـع كل حي رضي) وفي التثنيـة ٣٢ : ٤ والمـزمـور ٣٧ : ١٠ و١١١ : ٣٦ و١٠ : ١١ قـولـه : (وأمــا الـودعــاء فيـرثــون الأرض ويتلذذون في السلامة) .

(٢) التوحيد أصل في الأديان السماوية في التوراة والإنجيل والقرآن فالعهـد القديم يؤيـد ذلك وإليك العهد الجديد بأن الله واحد لا شريك له . راجع مرقس ٣ : ١٢ ويوحنا ٢٠ : ١٧ و١٧ : ٣ ، وكـورنتوس ١٥ : ٢٨ و٨ : ٥ و٦ ومـزمـور ٨٣ : ١٨ راجـع دائـرة المعـارف الكـاثـوليكيـة ١٩١٠ المجلد الثـامن الصفحـة ٣٢٩ كمـا الأصنـام والتماثيل راجع الخروج ٢٠ : ٤ ، ٥ وكورنتوس ٥ : ٧ وتثنية ٧ : ٢٥ .

٢ ــ النبوة ويتبعها الوصاية نصاً .

٣ ــ العدالة[1] ويتبعها الاعتقاد بيوم القيامة (المعاد) .

---

(١) ونذكر ما جاء في العهد الجديد : ان الله عادل وراجع بذلك : تثنية ٣٢ : ٤ واشعيا ٢٣ : ٢٢ وخروج ٢٠ : ٥ و٤ ج ٣٤ : ٦ والمعاد (يوم القيامة) رومية ٦ : ٥ وأعمال ٢٤ : ١٥ ولوقا ٢٣ : ٤٣ وجاء عن حسن اتحاد الناس وبلوغ السعادة : أعمال ١٠ : ٣٤ و٣٥ و١٧ : ٢٦ كما نص صراحة عن قيام حكومة عالمية صالحة :

اشعيا ٦٦٩ و٧ وتدمير كل سلاح مخرب ومدمر (حزقيا ٣٩ : ٩ و١٠ مزمور ٤٦ : ٨ ، ٩ أو ٤٥ : ١٠٩) وأشاد بالأبرار (رؤيا ٥ : ١٠ و١٤ : ١ و١٢ : ١٠) .

وجاء في الولاء والمحبة (مزمور ٤٥ : ١٦ و٤٤ : ١٧ يّس) وإن المحبة مظهر لتلاميذ المسيح (أيوحنا ٤ : ٨ ، يوحنا ٣ : ١٨ ، غلاطية (٦ : ١٠) وعن محبة الإنسان للإنسان : (يوحنا ٣: ١١ و١٢ ومتى ٥ : ٢١ ، ٢٢) .

وان العطف يشمل الجنين لذا كان الاجهاض مخالفاً للتقوى : (خروج ٢١، ٢٢، ٢٣، ١٢٦، ١٢٧: ٣ يّس) ونقدم نبذة مما ورد في القرآن . والقرآن ملي بالتشريع للأصول والفروع من الأوامر والنواهي والنصائح الثمينة والعضات البليغة في التوحيد والرسالة والولاية والمعاد والعدالة والبر والإحسان وكلما فيه السعادة وفيه العلم والحكمة لمن صغى وتدبر . قال تعالىٰ : ﴿ **وبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب** ﴾ ، وفي كل باب من أبوابه ننتهي بالفرد والجماعة إلى الحياة الدنيا والحميدة والآخرة السعيدة فيه الحب والألفة والتعاون والمساواة والعدالة والعفو والمغفرة والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي من كذب وخداع ونفاق وخيانة وفسق وفجور ، ومجمل القول لكلما يسوق المرء للفضيلة وللحياة الهنيئة السليمة ويبعده عن الرذيلة والحياة المريرة الأليمة ، وأصول المعاملات وجميع ما يحتاجه في الموارد الحقوقية والجزائية والإدارية والاقتصادية وغيرها مما مر . وسوف نورد نبذاً من كل موضوع ونكتفي بالمجمل عن المطول والقليل عن الكثير كي لا يضيق بنا الكتاب .

فقد ورد كثير في التوحيد ونشير إلى نبذ منه وهو الأول ، سورة إبراهيم الآية ٥٢ منه : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إلّه واحد وليذكر أولو الألباب** ﴾ والإسراء الآية ٢٢ منه قوله تعالى : ﴿ **لا تجعل مع الله إلّه آخر فتقعد** =

. . . .

= مذموماً مخذولاً﴾و٢٣ منه : ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلاَّ إياه. . . ﴾ الخ . و٣٩ منه : ﴿ ولا تجعل مع الله إلَه آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ وسورة الإخلاص كلها في توحيد الله عزَّ وجلَّ قوله تعالىٰ : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وكثير غير ذلك .

الأصل الثالث : انه عادل ومن عدله المعاد والقصاص للخير والشر يوم القيامة . وقد نزلت فيه سور كثيرة نذكر منها ما نزل في سورة النحل الآيات ٢٢، ٣٠، ٣٨، ٤١، ٦٠، ٦١، ٨٤، ٩٠ منه قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل. . . ﴾ الخ . وما ورد في الميعاد منها الآية ١٠ لسورة الإسراء .

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ وسورة لقمان الآيتين ٣٣ و٣٤ وسورة عبس من الآية ٣٣ للآخر وسورة الكهف ٤٨ منه : ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعداً ﴾ و٤٩ منه : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضر ولا يظلم ربك أحداً ﴾ والآية ١٠٣ منه : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ و ١٠٤ منه : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ .

وجاءت أثمن النصائح والنواهي في سورة الإسراء في الإخلاص لله وللوالدين الآيتين ٢٢، ٢٣، ٢٤ : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلاَّ إياه وبالوالدين إحساناً. . . ﴾ الخ . و٢٦ منه : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ و٢٧ منه : ﴿ إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ و٢٩ منه : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ و٣١ منه : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيَّاكم إنَّ قتلهم كان خِطأً كبيراً ﴾ و٣٢ منه في منع الزنا : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ وفي القتل ٣٣ منه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله. . . ﴾ الخ . و٣٤ في مال اليتيم : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاَّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ كما جاء عن الوفاء بالعهد ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾ و٣٥ منه في حق الناس في البيع والشراء وفيها قوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا =

. . . .

= بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ و٣٦ منه منع الدخول فيما لا يعني المرء ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ و٣٧ منه في التواضع : ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ و٣٩ إلى ٤٤ في توحيد الله ومثله سورة لقمان الآية ١٣ وإلى وصايا كثيرة أُخرى في الإسراء ولقمان بل كثير من سور القرآن الأُخرىٰ وفي شتىٰ الشؤون الاجتماعية وأخص الأخلاقية كالآية ٥٣ من الإسراء ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ان الشيطان ينزع بينهم ان الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ .

٣ ــ وجاء في الأصل الثاني وهي الولاية بعد الله الآية :

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ فالأولياء ثلاثة : ١ ــ الله . ٢ ــ رسول الله . ٣ ــ من قدم الزكاة من المؤمنين في حالة الركوع وذلك وصي رسول الله كما وردت بذلك الأحاديث (راجع المفصل عنه في الأجزاء من الأول إلى الرابع من موسوعتنا المحاكمات بإسناده) تلك هي الأُصول وتلي بعدها الفروع من الأوامر والنواهي وقد مرّ الكثير منها ومن الأوامر الصلاة والصيام والزكاة والخمس والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكل منها نصوص قرآنية موجزة وأحاديث نبوية مفصلة ، وهناك وصايا ونصائح ثمينة كثيرة آمرة وناهية في شتىٰ شؤون الحياة كالآيات ٩٠ ، ٩١ من سورة النحل في العدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكرون ﴾ و٩١ منه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ وراجع أيضاً الآيات ٩٧ ، ١٢٥ ، ١٢٨ سورة وفيها أثمن الحكم وما أبدع ما شبه به وطرىء القرآن المقربين إلى رحمته راجع الآيات ١١١ ، ١١٢ من سورة البقرة وضع دائماً التوحيد والإيمان والتقوى والبر والإحسان هي الميزة المفضلة للتقرب إليه وإن دين إبراهيم هو أساس دين أهل الكتاب راجع ١٣٥ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ وها نذكرها بالتالي : ٩٧ سورة النحل : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثىٰ وهو مؤمن فلنحيينه =

= حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . و١٢٨ منه : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

و١٢٥ نحل أيضاً : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بالمهتدين ﴾ . ويثبت القرآن إن الرسل الذين جاؤوا بعد إبراهيم الخليل (ع) ساروا على نفس العقيدة .

١٢٠ من سورة النحل : ﴿ إن إبراهيم كان امه قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين ﴾ .

١١١ من سورة البقرة : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ .

١١٢ من سورة البقرة أيضاً : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

١٣٥ منه : ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

١٣٢ منه : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه إسحٰق وإسمٰعيل ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ .

١٣٦ من سورة البقرة : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم واسمٰعيل واسحٰق ويعقوب والاسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

١٣٩ و١٤٠ منه : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى؟ قل: أنتم أعلم أم الله ؟ . . ﴾ الخ .

٦٦ من سورة آل عمران : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلم وما كان من المشركين ﴾ .

ومن الآيات الجليلة في سورة البقرة الحاثة على الانفاق والمشوقة للبر والإحسان والتعاون والمساعدة .

الآيات ٢٦١ حتى ٢٧٤ نذكر ٢٦١ منه : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾. =

. . . .

= ٢٦٣ من سورة البقرة : ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ﴾.

٢٦٦ منه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه . . . ﴾ الخ . ترى كيف يحرض على الانفاق المادي والانفاق المعنوي ويمنع الأذى مع الصدقة ويمنع الانفاق الرديء والاحتفاظ بالطيب وإليك الآية ٢٦٨ منه كيف يشيد بالحكمة وأهلها :

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يتذكر إلاّ أولو الألباب ﴾ وترى الحكمة في اتباع العظات والنصائح الثمينة في القرآن جلية واضحة ثم يعود في الآيات التي ٢٧٤ منه يشيد بالفضائل والمساعدات والنفقات المادية والمعنوية وبعدها في الآيات ٢٧٥ ينهي عن الاجحاف والظلم من الربا وما فيه من الموبقات والقصص ويوصي بالارفاق والصدقة والمساعدات لذوي العسرة حتى ٢٨٠ منه وبعدها في ٢٨١ منه يقدم أصول المعاملات والمكاتبات والعهود وآدابها وترى كثيراً من الآيات المشوقة للمحسنين المؤمنين ، منها في سورة الإنسان الآيات ٥ إلى ٢٨ منه ، فيه انذار للكافرين وبشارة للمتقين منها في سورة الرحمٰن والمرسلات وغيرها .

إلى هنا بعض ما لمحنا إليه في الحاشية من مختصر المجمل من الكتاب ، ونحن نأمل أن يسعدنا الحظ ببيان المجمل من السُنّة وسيرة محمد (ص) العظيم وما جاء به وقاله وعمله وخطه ونصح ووعظ .

ولمن شاء أن يتصفح تصفحاً عادلاً لأذهله ما جاء به من العلم والحكمة وما طبقه في زمن حياته وكيف انتجت تربيته النخبة من ذريته وصحبته ، وكفى بعلي المعترف بفضله من العدو والصديق ، حينما يقول ما أنا إلاّ عبد من عبيد محمد ، ومن أراد المزيد أن يطالع ما ورد في نهج البلاغة لعلي ونهج الفصاحة لمحمد (ص) .

وكما نزلت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آيات في القرآن نزلت بها أحاديث منها ما جاء في نهج البلاغة المجلد السادس منه في الكلمة ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧ وفي وصف الفروض الكلمة ٢٤٤ قوله (ع) (فرض الإيمان تطهيراً من الشرك ، والصلاة تنزيهاً عن الكبر ، والزكاة تسبيباً للرزق ، والصيام ابتلاءاً لإخلاص الخلق ، والحج تقوية للدين والجهاد عزاً للإسلام ، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام والنهي =

. . . .

= عن المنكر ردعاً للسفهاء ، وصلة الرحم منماه للعدد ، والقصاص حقناً للدماء وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم ، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل ، ومجانبة السرقة ايجاباً للعفة ، وترك الزنا تحصيناً للنسب ، وترك اللواط تكثيراً للنسل ، والشهادات استظهار أعلى المجاحدات ، وترك الكذب تشريفاً للصدق ، والسلام أماناً من المخاوف ، والإمامة نظاماً للأمة ، والطاعة تعظيماً للإمامة ﴾ .

ترى كيف أوجز أمير المؤمنين علي (ع) الفروض وعلل فرضها وخير الكلام ما قلَّ ودلَّ ، والحق أن كلام الملوك ملوك الكلام ، وفيه ترى كيف ختمها الله بالإمامة وانها فرض من الله ونص منه في الكتاب والسُنَّة فصلناها في موسوعتنا المحاكمات .

وللإمام علي (ع) أقوال بليغة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صميم الإيمان والنهج القويم والصراط المستقيم وقوام الدين وأُسلوب المتقين . قال جاء في الجزء السادس من نهج البلاغة الكلمة ٣٦٥ قوله :

(انه من رأىٰ عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين) ، وقال كلمته ٣٦٦ .

(فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه فذلك المستكمل لخال الخير ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ويضع خصلة ومنهم المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه ، فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاثة وتمسك بواحدة ، ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميت الأحياء ، وما أعمال البر كلها إلاَّ كنفثه في بحر لجى ، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق وأفضل من ذلك كلمة عدل عند إمام جائر) .

وقال عليه السلام في كلمته ٣٦٧ منه :

(إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد بأيديكم ثم بألسنتكم ثم بقلوبكم فمن لم يعرف لقلبه معروفاً ولا ينكر منكراً ، قلب فجعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه) ومما قاله عليه السلام في خطبته القاصعة (٢٣٤) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله :

(وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه وأيامه ووقائعه فلا تستبطؤا وعيده جهلاً =

والأصول الثلاثة هي أُسس دين إبراهيم (ع) والرسل من بعده ، بيد ان طوارىء طرأت سببت في ضياع الكُتب المقدسة ، التوراة والإنجيل على أيدي الغزاة والحكام المستبدين والمشركين ، ثم تشتيت الكلمة وتشويه العقيدة مما طرأ عليها من آراء ومذاهب ، ومزقتها إلى فرق عن أُصولها القويمة المارة مما سبب ظهور الإسلام بكتابه المقدس القرآن ، الذي أعاد الأُسس القويمة بالأُصول في التوحيد في كثير من آياته وسوره أخص سورة الإخلاص وما ورد من الآيات الجمة في العقاب والثواب كالجزاء الصارم للكافرين بالله والمشركين به وما قرن ذلك بالقصاص في يوم الجزاء الحسنى للمحسنين والنكبة للمسيئين . قال تعالىٰ في سورة

= بأخذه ، وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه فإن الله سبحانه لم يعلن القرن الماضي بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحكماء لترك التناهي).

وجاء في الجزء الثالث من الخطبة ١٥٥ منه قول الإمام علي عليه السلام : (وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق الله سبحانه ، وانهما لا يقربان من أجل ، ولا ينقصان من رزق... الخ). وترى من خطبته عليه السلام ١٢٩ من الجزء الثاني لنهج البلاغة كيف يتعرض للمنافقين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال عليه السلام : (لا يخدع الله عن جنته ولا تنال مرضاته إلّا بطاعته ، لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به) ولكم أمر الله عبادة في القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونكتفي هنا بذكر آيتين منها ، قال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ والآية : ﴿ **كنتم خير أُمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾.

والقرآن من أوله إلى آخره مليء بأجمل الوعظ والنصائح وأُصول الأخلاق الفاضلة والحياة الاجتماعية وكلما يحتاجه الفرد والجماعة من نظم وقوانين في شتى شؤونهم للحياة الهانئة السعيدة المنظمة المتكاملة .

الإسـراء الآية ١٣ : ﴿ **وكـل إنسان ألـزمناه طـائره في عنقـه ونخرج لـه يـوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً** ﴾ ، و١٨ منه : ﴿ **من كان يريد العـاجلة عجلنا لـه فيهـا ما نشـاء لمن نريـد ثم جعلنا لـه جهنّم يصلاهـا مذمـوماً مـدحوراً** ﴾ ، و١٩ منـه : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لهـا سعيها وهـو مؤمن فـأولئك كـان سعيهم مشكوراً** ﴾ ويتبع ذلك ٢١ منه .

كمـا نص الكتاب على الـولاية وإلـزامهـا على المؤمنين بـالله وولايتهم لرسولـه بولايتهم لـوصيه وخليفتـه نصاً ، كمـا في آية الـولاية قـوله تعـالىٰ : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتـون الزكـاة وهم راكعون** ﴾ ، وقولـه (ص) في غديـر خم : (من كنت مولاه فهـذا علي مـولاه) وقـولـه (ص) : (إني تـارك فيكم الثقلين كتـاب الله وعتـرتي أهـل بيتي) ، راجع بذلك موسوعتنا المحاكمات لدرك إسناده .

ولقد مرّ وذكرنا الفروق الاقتصادية بين الكتل الثلاثة :

١ ــ الرأسمالية ٢ ــ الاشتراكية . ٣ ــ الإسلام .

فكان الإسلام المظهر الكامل للديانة السمـاوية التي بـدأها أولـو العزم من الـرسـل ، أخص إبـراهيم الخليـل (ع) ومـوسى الكليم ، والسيـد المسيـح ، وخـاتمهم محمـد عليهم جميعـاً صلوات الله . والمـميـزات المعنوية المـارة هي المميزات التي تحـوي طيها كـل الفضائـل ، وما الميـزة المـالية والاقتصـادية المـارة الذكـر سوى حسنـة من حسناتهـا التي يتميز بهـا الإنسـان على سائـر مـا خلق الله ، بمـا أودعـه الله فيـه من العقـل والعاطفـة والحكمـة المتسـاميـة ، إنْ اهتـدىٰ بهـديهـا ولم يغلب عليـه هـواه وغـرائـزه البهيمية ، ومتىٰ تغلبت فعندهـا تستخدم تفكيـره الإنساني النـامي لمصالحهـا المتسـافلة ودنـايـاه المتكـافلة للحضيض ، كمـا وجـدنـاهـا في الكتلتين الـرأسمالية والاشتـراكيـة المـارتين ، وفقـدهـا الحكمـة والعقـل السليم في سلوكها بما يضر بها وبغيـرها واستحـوادها على هـذا البشر المنكـوب المتعثر

الزال عن جادة الصواب ، يورط نفسه بنفسه ويوقعها في المهالك ، جاراً معه أبناء جنسه فكأنه مقاد إليها قهراً . فلماذا؟.

لماذا منه هذا السلوك؟ ورب سائل يقول : وأنت الذي تنسبه للكتلتين وما أصابها من النتائج المهلكة فقد أصاب الثالثة نفس النتائج بل وربما هي اليوم أضعف منها بالأمس ، وربما أجبت أنها انحرفت عن جادة الصواب وزلت وعندها تساوت في النتائج والخطايا والمساوىء ، وإذا ما محصنا ببصيرة فاحصة ودقيقة وجدنا الكتلتين كانت دخيلاً في إغفال الكتلة الثالثة وتألبهما عليها مادة ومعنى منذ أن كانتا قبل اليوم تشكلان الحكومات المطلقة والدكتاتوريات المستبدة ، ولا ننسى رغم ما أصبحت حكومة الدين منحرفة مخذولة فهي بقدر ما تحمله من العقائد الدينية تحمله من الرقة والرأفة لبني نوعها ، لأن ذلك من طبعها ودأبها ودينها ، وإن وجدت يوماً روحاً باطنية تنتحل الطيبات وتكافح الموبقات وتشمل الضعفاء خيرها وتقف دون المظالم مدفوعة بالعاطفة لا القانون ، فإنما هي ما تحمله من التقوى المذهبية وما يوحيه لها ذلك السر الخفي للتقرب لمن تكن له الطاعة لبلوغ الخير في الدارين وتخشى معصيته لدرء الشر والقصاص .

بل استطيع أن أقول لك : ما خانك الأمين ولكن اؤتمن الخائن . وشتان بين منافق يتظاهر بالعصمة ، ومغفول مأخوذ على أمره أو ملحد لا يؤمن بالله ويوم القيامة ، مؤمن معتقد من قرارة نفسه بالله مطيع أوامره منته عن نواهيه . هذا من جهة ، ومن جهات أخرى ترىٰ منشأ الكتلة الثالثة من البداية مصدرها الوحي الإلٓهي الكمين والضمير والوجدان والفضيلة والإحسان ، قامت منذرة للمنغمسين بالموبقات ، وحاثه على الحسنات ، لصد المظالم والرذائل والمخاصمات والتعديات ومنع الكذب وقمع النفاق وصد الخيانة وقطع دابر المنكرات ، مهما كانت مادية أو معنوية وإثارة العقول لتحكيم إرادتها وتعظيم العلوم والحكمة وذم الجهل والطيش والرعونة ، وإعادة الحريات المسلوبة ، حرية الأبدان وحرية الأفكار ، حرية

الأعمال والأقوال وإظهار الحقائق وتساوي الأفراد ونشر المعارف الإنسانية ، شريعة التوحيد لإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى رَوْح الله ومحمد خاتم الرسل حبيب الله (الذي بشّر به التوراة والإنجيل) .

تلك التي قامت من الطبقات المستهانة لشد أواصر العدالة بين الأفراد والجماعات المستضعفة ، وان الداعين إليها لم تخدعهم المناصب ولا الثروات ، ولا الوعد ولا الوعيد ، أُمناء صادقون جادون مصممون مضحون مخلصون ، احرار محررون ، يحفزهم الضمير الحي والزهد والتقوى يبذلون النفس والنفيس مما يملكون بما تغمرهم من العقيدة بالله الصمد واتباعهم ومؤيديهم ابرار متقون .

بينما نجد الكتلتين الآخريين قامت اما من بين البرابرة السفاكين ، أو الغزاة الطامحين ، أو قطاع الطرق الجشعين أو الخونة المنافقين . تعرفهم من سابقتهم وسلوكهم وآثارهم واتباعهم واذنابهم ومن تابعهم وشايعهم ، والطيور على أمثالها تقع .

وإنْ قامت حكومة باسم الإسلام وعملت ما عملها الأولان فهي منافقة كذابة ، فهي زمرة تقبعت بقبع الأخيار ، وتكِّنُ نوايا الأشرار وقلوبهم مليئة بالكيد والشقاق والكذب والنفاق ، فهم كما قال الشاعر :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة   ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

هم أشد من المشركين خطراً ، ومن الزنادقة الملحدين ضرراً . وسم من شئت وعد إلى أعماله وثماره وما أعقب وما فعل ومن حرم ومن وصل ، ثم تعال معي مرة أُخرىٰ إلى الكتل الثلاث وطبق مناهجها على حكومة الطبيعة والفطرة ، في العدالة ، في التساوي في الفضيلة في الدخل والتوزيع في نشر الحقيقة ، قبول المنطق والإدارات الصالحة المترابطة المستحكمة والتضامن ثم طبقها على حكومة جسم الإنسان الحي المار مثله ، من وحدة العمل المشترك والمصالح العامة والخاصة وتضامن الحجيرات وكبِّها على عملها وبذل الأجهزة المنظمة في مسعاها في الخدمة

العامة والخاصة والوعي الذي تبذله كل حجيرة وكل جهاز وكل مركز واشتراكها في العمل الصحيح والنية الصادقة مع المخ والمخيخ الحاكم الراعي والمسترعي والقائد والمقاد وعلى حد السنة المحمدية (كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته) . هذا يخدم ذا وذا يخدم ذاك ، والكل يخدم الفرد والفرد يخدم الكل ، هذا يتلقىٰ الأنباء يسلمها صادقة وذلك يستلمها ويوزعها صادقة ، العطف والرحمة والاسعاف عندها وظيفة ، والبر والإحسان والصلة فيها غريزة ، والدفاع عن حياضها خصلة مستأصلة ، والإحساس والشعور فيما بينها أثره ووراثه إنْ تألّم السن أو تألمت العين أو أي جارحة أصابها كلها أو بعضها الألم ، هبت كلها لكفاحه ، وإن جاع مدته جميعها يد المعونة لنجاحه ، وإن غزاها غاز تألب الكل لصده ، وإن قرّت العين بمنظر أو الأذن بسمع أو الذوق بمطعم طرب الكل مشاركاً له في سعده .

تلك ما أودعها الله في خلقه وتابعه عليه انبياؤه في نسقه ، تلك هي حكومة الله في العالمين من اتبعها سلك طريق الصواب ، ومن تخلّف عنها زلّ للهوان والعذاب .

ونحن ان أعدنا السور والآيات القرآنية في الأموال وأُصول توزيعها وحث الأفراد على البذل في سبيل الله وعدم كنز الذهب والفضة (الأموال) بقصد اشغالها واشغال الأيادي العاملة بها أو توزيعها وبذلها في قوله فيمن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها للمحتاجين وما ينذره الله به في يوم القيامة ، ومن جهة أُخرى منع الربا أو إباحة التجارة والحثّ على العمل **﴿ ليس للإنسان إلاّ ما سعىٰ وإن سعيه سوف يرى ﴾** تلك في المساعدات المادية ، وأما المساعدات المعنوية فهي الأُخرىٰ كثيرة وثمينة كما جاءت الآية **﴿ كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تعطي أكلها كل حين بأمر ربها ، وكلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾** وقوله تعالىٰ : **﴿ قول معروف ومغفرة خير من**

صدقة يتبعها منًا وأذى ﴾ والآية : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وجاء في الأحاديث النبوية قوله (ص) : (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم) ، وقد كان (ص) مثال الأخلاق والفضيلة حتى وردت فيه الآية : ﴿ وإنك لعلىٰ خلق عظيم ﴾ ، وقد دلّت عليه أقواله وأفعاله وسلوكه .

أعظم ميزة لحكومات الله : التقوىٰ :

إن العلل والأمراض الاجتماعية تكاد تنحصر في الإنسان لسبب واحد هي: تحكم غرائزه الجامحة التي لا تحد وعلى الأخص أن تغلبت على فكرته النامية المدبرة واستخدمتها لأغراضها .

أقول فكرته ولا أقول عقله لأن العقل هو الجوهرة التي مصدر الحكمة فلا يمكن أن ننسب له عيباً .

قلنا السبب هو الغرائز ، ولا يخفى علينا أن أنانية المرء وغريزته لذاته في حب الظهور والغريزة الجنسية وحب البقاء وجمع الثروة وحب الأهل وحب الاجتماع وغيرها ، هي سبب كل هذه المشاكل والعدوان والمخاصمات والظلم والاعتداء والتجاوز ، هي علل الجشع والكبرياء والطمع ، وهي علل القتل والغارة والنفاق والمعصية وكثرة الخطايا والانحرافات عن العدالة والاستقامة والمساواة والتعاون ، ولا يقف دونها سوى التقوىٰ ، والتقوى أم الفضائل ، الإيمان واليقين بالله وقدرته وقصاصه في الخير والشر والتواضع والقناعة ، ونكران الذات والإحسان المادي والمعنوي والعقيدة بأن الله محيط شاهد قدير ناظر محاسب مقاصّ شديد العقاب عند المخالفة عن أوامره ونواهيه ، رؤوف رحيم عند الطاعة والاستغفار والتوبة ، كل هذه فوق الرحمة فوق العاطفة وأرق من الوجدان والضمير . حتى لنجد الله قد أقرّ التقوى ودرجتها بالميزان الأوحد لاكرام عباده وتفضيلهم الواحد على الآخر ، قال الله تعالىٰ في سورة الحجرات

الآيـة ١٣ : ﴿ يا أيُّهـا الناس إنـا خلقناكم من ذكـر وأُنثى وجعلناكم شعـوبـاً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ .

وجاء في البقرة في الآيات ٢ ، ٣ شرحـاً للمتقين : ﴿ ذلك الكِتَـاب لا ريب فيـه هـدىً للمتقين الـذين يؤمنـون بـالغيب ويقيمـون الصـلاة وممـا رزقناهم ينفقون ﴾ ، و ٤ منه : ﴿ والذين يؤمنـون بما أنـزل إليك ومـا أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ و ٥ منـه : ﴿ أُولئك على هـدىً من ربهم وأُولئك هم المفلحون ﴾ .

ويخـالف المتقين مـا جـاء في الآيـات ٦ إلى ١٩ منـه والآيـات ٤٣ ، ٤٤ ٤٧ من سـورة المـائـدة بين كـافـر وظـالم وفـاسق من أُولئـك الـذين لم يحكمـوا بما أنـزل الله قولـه تعالىٰ : ﴿ ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فـأُولئك هم الكـافـرون ﴾ وفي كـل من هؤلاء من الكـافـرين والـظالمين والفـاسقين يوجد المنافق الذي دلَّت عليـه الآية ٢٠٤ بقـرة : ﴿ ومن الناس من يعجبـك قـولُه في الحيـاة الدُّنيـا ويشهد الله على مـا في قلبـه وهـو ألـد الخصـام ﴾ . والمنـافقون في أسفـل درك من الجحيم كما ورد في الآيـة : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ .

ولا نستـطيـع أن نضـع الكتلتين الآتيتين القـديمـة من الحكـومـات المـطلقـة والـدكتـاتـوريـة والحـديثـة الـرأسمـاليـة تحت اسم الـديمقـراطيـة والاشتـراكية ، مهمـا سميت من شيوعيـة وفاشيـة ، إلاَّ خـارج المتقين لعـدم رعـايـة مصـالـح غيرهم وحتىٰ مصـالحهم ، إلاَّ مـا يـدر عليهم درا آنيـاً من المنافع ، وإنْ جر ذلك إلى إهلاك غيرهم وسبب المجازر والمظالم .

أما المتقون وهم درجات فهم الكتلة الثالثة من الحكومـات وكل متقنـع بقناع غيره يظهر ما لا يبطن ، فهو ألد الخصام ومن الطبقـات الأولى الكافـرة أو الظالمة أو الفاسقة والمنافقة .

ومن مـزايا حكـومة المتقين رعـايـة ، دونهـا عـاطفـة الأُبـوة والأُمـومـة والقرابة والصداقة والوجدان والضمير ، نعم دونها كل ذلك .

فالتقي من يثق بالله ويثق بأنه عليم محيط بروحه وكل جوارحه وأفكاره وأقواله وأعماله ، واعتقاده ان الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها وإنه يحاسبه ويعاقبه عليها ، وأنه مأمور بالعدل والبر والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كل تلك سبيل الهداية والسعادة والألفة والانضمام إلى حكومة عالمية تحت رعاية من تجمعت فيه كل شروط التقوى والعلم والحكمة ، فأين أفلاطون من هذه الجمهورية؟ .

ولقد حاول أفلاطون في جمهوريته كل المحاولات أن يجعلها كاملة جامعة وقد ذكرناها باقتضاب وكيف حاول أن ينتخب لرياستها وزعامتها أبعدهم نظراً وأجمعهم أثراً وأنشطهم فكراً ، بيد اننا نراه في أواخر أيامه يراها ناقصة ولم تؤاتهِ الظروف ليصلح النقص ، وليت شعري هل أدرك نقصه حقاً؟ وهو لم يطبق أفكاره ونظرياته عملاً ولا ينكر أنه كان من أبرز الرجال الفلاسفة والحكماء المدركين إلى حاجة العالم المتخاصم المتبلبل المنحرف إلى نظام وإلى منظم ، وإن أفلاطون كان من الطبقات الارستقراطية وراثياً فوضع حكومته على تلك الشاكلة وحاول أن يقف صداً دون الانتهازيين لقلب هذه الحكومة بشتىٰ النظريات ، حتى بلغ درجات الخرافة وتلقين العامة أموراً خارقة تسبب خضوعهم وسوقهم للطاعة ، ولم نجد قبله ولا بعده من استطاع أن يثبت قدرته الحكمية قولاً وعملاً لتشكيل تلك الحكومة الصالحة سوى فرد واحد ، نشأ يتيماً أُمياً بعيداً عن أي علم وأي محيط علمي أو تربية مرموقة اجتماعية أو سياسية أو عملية ، يمكن أن يقال انه اكتسب منها شيئاً ، وهذا الفرد المنحدر من سلالة إبراهيم الخليل ، ذلك النبي الإنساني الحكيم كأنما تجمعت فيه كل المحاسن والفضائل المرموقة التي حاربها من قبله في جمعها وتطبيقها من الحكماء والفلاسفة المفكرين والأنبياء المرسلين ، تجمعت فيه نقية خالصة مشعة منذ صباه ، بآرائه الصائبة ، ونظراته الثاقبة وصدقه الفريد ورأيه السديد ، وكأن الأقدار شاءت أن يكون بزوغه من محيط أبعدها من الحضارة والثقافة والمدنية منهلاً وأشدها في الجهل والعصبيات والفقر محفلاً ، لتكون تلك

إحدىٰ معاجزه الإلٰهية الجلية ، وأبرز إلى مواهبه النادرة العلية ، فيبشر وينذر ، فتهب الجموع متألبة عليه ومشينة إليه ، بما لديها من حول وطول فيقاومها بالحكمة والسداد والصبر في الجهاد ، والدعوة إلى الرشاد ويجمع من الشتات لمه ومن الضعاف همه ، ومن البطاح قمه ، يقاوم بها خصمه ، ويشد بها حزمه يقابلها بالدليل المتين والكتاب المبين والسعي الرصين ، باذلاً غاية جهده لرضاء الله وحده وإيفاء وعده وإتمام أمره وقصده ، حتى بلغ بعد الجهود والمصاعب ، والخطوب والنوائب ، بما جاء به من خوارق ما أوضح به الحقائق ، ودفع عنها المآزق ، ومهد سبيل العدالة والمساواة وقضى على المنابزات في الألقاب وشرور العصبيات ، ما وجد الدهر مثيله هادياً ، وكعدالة قاضياً ، وكاهله هداة ، وكصحبه كماة ، وكدولته في القسط والبر والإحسان دولة وللحق كمثلها جولة وصولة ، ولولا القدر المحتوم والقضاء المبروم بحتفه وموته لشمل الدنيا بسعادة حكومته ، ولولا ما غلب الأمة من النفاق بعده ونبذ وصيته وخيانة عهده ، والحيلولة دون إحلال من أعلن الكتاب ورسوله بالاستخلاف والولاية على الأمة من بعده لما وجدت منغصة وغمة فأيامه في الدهر خالدة ، وسيرته لو سارت لكانت على الدنيا سائدة ، ولكانت الدنيا أمة واحدة ، حياتها وارفة سعيدة ، ومناهلها صافية رغيدة ، عدلها شامل ، عزها كامل ، جمعت محاسن الطبيعة وسارت بالفطرة في الشريعة .

وربما سألتني على من نص الكتاب ولمن أشار رسول الله . أقول : هو الفرد الأوحد الذي سبق الجميع بإيمانه ، وجمع بعد رسول الله كل فضيلة وراثية ، وحسنة ذاتية ، وتربىٰ في أحضان الفضيلة في أحضان النبي ، في أحضان الوحدانية أدوارها ، ونال من معانيها أسرارها ، وضحىٰ في سبيل الإسلام حتىٰ أدرك ثمارها ، ونزلت في فضله آيات الكتاب مختارها[1] ونصت بولايته بعد الله ورسوله الآيات واضحة ، ومن رسوله

---

(١) آية الطهارة قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم =

على مناصرته وآل بيته ناصحة ، أبو الأسرة الطاهرة ، والفضائل الباهرة ، من جمع كل حكمه أشار إليها أفلاطون في جمهوريته للزعامة ، ورفع الله ورسوله فيها مقامه ، الشجاع الباذل والعالم العامل والتقي الكامل ، والحاكم العادل ، أخو رسول الله ووصيه في صغره والكِبَر ، ومن خصه بزواج ابنته الزهراء دون البشر ، وأعلن أن عترته من ذريته فهم الخمسة أهل الكساء[1] والذي فرض على الأمة لهم الطاعة والولاء[2] وأعلن إمارته وخلافته له في كل فرصة سنحت وإن محبته وطاعته تجارة رابحة ، وكل مخالف له ومعاند فهو منافق ومن حاربه فقد حارب الله ورسوله فهو محادد لهما كافر وظالم وفاسق . ذلك هو الرجل الأول بعد النبي (ص) ، هو علي بن أبي طالب نفس رسول الله (ص) في آية المباهلة ونظيره في آية الطهارة . ومن شاء الوقوف على بعض سيرته فليراجع أجزاء نهج البلاغة وشرحها لابن أبي الحديد الشافعي المعتزلي . واكتفى هنا بقطرة من بحره وفصل من عهده وأمره لمالك الأشتر حينما ولاّه مصر . وما أجل هذا العهد الذي جمع طرائف العلوم والتقوى والحكمة ، ونوادر الحياة الاجتماعية السعيدة للأمة ومباهج الطبيعة الإنسانية في نظمه ، في كل جملة منه عقد جمان وفي كل فصل مناهل السلامة والرفاه والأمان . ولعمري واني أعرض للقارىء الكريم فصلاً من فضوله ليرى عظيم نظره فإن شاء المزيد للعهد استقصىٰ أثره .

= تطهيراً ﴾ وأجمع المفسرون أن أهل البيت خمسة : وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم .

(١) في آية الولاية : ﴿ إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ نزلت في علي وأجمع على ذلك المفسرون .

(٢) من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر أو ظالم وفاسق راجع الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ من سورة المائدة.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : (ثم اعلم يا مالك ، إني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وان الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك وشح بنفسك عمّا لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحبت أو كرهت ، واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ، ويؤتىٰ على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنك لا بد لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو ولا تبجحن بعقوبة ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحه ، ولا تقولن إني مؤمر أمره فأطاع ، فإن ذلك ادغال في القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير ، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ، ويكف عنك من غربك ، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك ، إيّاك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته ، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال) .

ثم مضىٰ يتكلم في الانصاف والعدل والتحذير من الظلم ، وبعد تكلم عن سلوكه مع الرعية وحذره من مشورة البخيل والجبان والحريص لأنها تجمعها سوء الظن بالله . ثم شرح له كيف ينتخب وزراءه ، وانتقل في كيفية معاملته للمحسن والمسيء ، ثم تلاها بكيفية اتباع السنن الصالحة . ونصحه بمجالسه العلماء وتكثير مدارسهم ومناقشة الحكماء في

صلاح أمر البلاد ثم عاد لتقسيم طبقات الرعية ، وتقسيم عمال الدولة فيهم وبيان عمل وأهمية كل من جنود وكتاب وقضاة عدل وعمال الجباية والتجار وأهل الصنائع والطبقة السفلى أهل الحاجة وكيفية إبلاغه حقه وكيف ينتخب منهم لكل مقسم ويمتحنهم ويمحصهم ، وإعطاء كل ما له وما عليه ، وأمره باتباع حدود الله في كل صغيرة وكبيرة وكيف عليه أن يراقب عماله وثم يتفقد أمر الخراج (جباية الأموال) وعماله الجابون ومن يجاب منهم وكيف يجب أن يسير من عدل وبر وإحسان ، ثم الدقة في انتخاب الكتاب وحفظ الأسرار والتمسك بالأمانة والدقة في الثبت واستخبارهم بالتجربة لا لمحض حسن الظن ، ثم أوصى بالتجار وأهل الصناعات وشرح حالهم وأوصى بهم خيراً مع تفقد الصالح والطالح منهم ، ثم عاد للطبقة السفلى وهو يقول : (ثم الله الله في الطبقة السفلى وفيهم القانع والمعتر) وأوصى بهم خيراً كثيراً ، وكيف يجب الدقة في سد عوزهم والسماع إلى قولهم ثم عاد لذوي الحاجات يوصي بهم ، ثم أوصى بالاصغاء والمقابلة لعماله والطالبين للمقابلة ثم وصاه في اجراء فرائضه الدينية لله ثم عاد يوصيه بأن لا يقاطع الرعية ويتفقدهم دون أن يمنعهم بحجابه ، وحذره من الخاصة والبطانة أن يغفلوه لمصالحهم ، ومن دقائق الأمور ، حيث يقول : (ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك لله فيه رضاً ، لأنه بذلك دعه لجنودك وراحة لهمومك وأمناً لبلادك ولكن الحذر من خداعه) وأوصاه في العهود والوفاء بها ان عقدت وحذره من سفك الدماء بدون حقها وحلها ، ثم عاد يوصي بالرعية وحذره من الاعجاب بالنفس وحب الاطراء ، والمن على الرعية وخلف الوعد إن وعدهم ، وحذره من العجلة في الأمور قبل أوانها أو التآني عند امكانها وعدم للجاجة متى تنكرت ، وعدم الوهن متى توضحت ، وحذره ان لا يستأثر فيما للغير فيه أسوة ولا يتغابىٰ ، ثم بدىٰ يعظه بالكتاب والسُنّة والسيرة الصالحة لرسول الله (ص) من تابعهم ، ثم دعىٰ الله لهما وللأمة .

إن من يتصفح القرآن وسيرة محمد (ص) وسيرة صحابته المتقين

وسيـرة سيـدنـا علي (ع) وآل البيت في أقـوالهم وأفعــالهم وأخص عليـاً في خطبه وسيرته وعظاته لا يجـد لها في عـالم الحكام والسـاسة بعـد رسول الله محمد (ص) نظيراً ، ويرى في نهجهم أقصى ما يتوخـاه الحكماء والفـلاسفة من الـرجاء والأمنيـات لحكومـة عالميـة مثلى ترتكـز في أصولهـا وقواعـدهـا ومنـاهجها على العـدل والحق المرمـوق والبر والإحسـان المعشوق والسـلام والأمـان الدائم والحب والهنـاء اللازم لمـا ميّـز الإنسـان عن غيـره من ذوات الحيـاة عقلاً وبصيـرة وغرائـز تنـازعـه مثيـرة ، اقتـرنت الأمـور بـالجبـر تـارة وبالاختيار أخرى ، والعزيمة بالقضـاء والقدر سـراً وجهراً ، واختلطت أنـظمة وقـوانين الطبيعـة والاجتماع فـلا تقـدر لهـا حصـراً ، فـأعيتـه الحيـل وظلت تتجـاذبه المتنـاقضـات بين الخيبـة والأمـل ، تـاقت النفـوس لمصـدر مبـدع الكـائنات ، يستمـدون من لدنـه عـونـاً ونصـراً ، ومن الـواقف على الأسـرار والمغيبـات ما غفلوا عن صـده جهلاً وقهـراً ، وأعياهم عقـلاً وفكراً ، آنـذاك أسعفهـم الأحد الصمد بحنـانه من أرضـه وسمائـه ، ومدهـم بخيـرة من رسله وأنبيائه ، فكانوا لعبـاده هداة وبـأمره سعـاة ، ومن اقتدى بهـم أدرك من التيـه والضلالة النجـاة، دعاة وقـدوة لكل فضيلة ، وسـراة مزكـون عن كل رذيلة ، منـزهـون ومن تـابعهم أمن من الـزلــل ، وإلى الحيـاة السعيــدة يـدرك بهم الأمل .

هؤلاء هم الكتلة الثالثة وهذه حكومتهم ـ الحكومة العالمية المثلى ـ



الكتاب الرابع

البحث والتحقيق في أرقى المجتمعات الحيوانية
ذات الحياة المنظمة كالنحل والنمل والأرضة



النحــل
عادات وأخلاق ومزايا وصفات النحل وأنواعه

كـانت هذه الحشـرة مرمـوقة منـذ العصور القـديمة بحيث كـانت محل مـطالعة من قبـل علماء اليـونان وقبلهم وبعـدهم ، بيد أن البحـوث المفصلة والمسهبـة والتحريـات الـدقيقـة عن حيـاتهـا وخصـالهـا تشعبت في القـرون الأخيرة وساعـد على ذلك مـا استخدم فيـه من الصناعـات والأدوات الدقيقـة لـلأشراف على سيـر حياتهـا في داخل بيـوتها[1] ومـا ساهم بـه البشر لتـربية هـذه الحشرة وتكثيـرهاً ومؤازرتهـا على تصنيع الخـلايا وتجهيـزهـا بـالبيـوت المنـاسبة ، وايجـاد وانتخاب أحسن المـراعي ودراسة أوضـاعها الاجتمـاعية داخل الخلايا وخارجهـا وما وضـع في هذا من الشـروح والكتب الجمّة التي يضيق بـذكرهـا وذكر مؤلفيهـا بحثنا هـذا . وقد تـوصـل الإنسـان إلى دراسـة مسهبة عن حياة هذه الحشرة ومـا تحمله من عناصـر القوة والضعف[2] وهـذه

---

(١) تعمل لها خلايا صنـاعية يجعـل لها من النـاحية الخلقيـة أبوابـاً سوداء ذات صفـائح زجاجية بحيث يكون بالإمكان دراسة البيوت من ورائها بسهولة ودون خـطر . وقد لا يروق للمرء في تباطؤ حركتها من وراء الزجاج ما يراه من الحركة الضعيفة لهـا داخل بيوتها كالرائي من أعـالي الجو وهـو في الطائـرة حركـة السيارات وغيـرها على وجـه الأرض غافلاً أي مجهود جبار تبذله .

(٢) من نقـاط ضعفها أن أقـل دخان يثـار حول الخـلايا يتـرك النحل بمـا فيه من النحـل المدافع عن الخلايا والعامل أو غيرهم صامتاً ساكتاً بدون حركة ومقاومة .

الخصال والعادات قائمة فيها منذ ملايين السنين لا نجد لها أثراً للتقدم وللتوسعة كما نجده في الإنسان الذي يحاول أن يغير حتى قوانين ونواميس الطبيعة لإرادته ، ولو بلغت به التجربة للقضاء على نفسه وربما طرأت تغييرات في حياة النحل منذ آلاف وملايين السنين بيد أن هذه التغييرات إنما هي بالنسبة للتغييرات الجوية الطارئة والتي من فطرة وغريزة هذه الحشرة ان تكيف نفسها بالنسبة للبيئة ، وحسن ورداءه المناخ أو الحر والبرد ، وما شاكل ذلك من العوارض الطبيعية .

الثقافة الاجتماعية :

وأهم ما يتصف به النحل إنما هو صفة الحكومة والحياة الاجتماعية[1] والاقتصادية والأعمال المنظمة والتخصص في الأعمال فطرياً ، بما تحمله كل نحله منذ الخلقة وتنقسم إلى طبقات وعلى رأسها :

١ ـ الملكة :

وهي الكل في الكل ، فهي أم الجميع ، وهي رمز الوحدة والأمن والاستقرار والنظام . هي التي تضع جيل المستقبل وتملأ خلايا الحضانة بالبيوض التي تحت اشراف الحاضنات والمربيات التي بمرور الزمن تصبح نحلاً. وهي رمز الشفقة والحنان . ولها عملها الجبار في حفظ بقاء الأسرة والنوع . فالنحل يتحمل كل شيء وكل كارثة وكارثة طبيعية وغير طبيعية تنزل به فتقضي على أفراده وطعامه مهما بلغ من الشدة من إنسان أو مهاجمين خارجيين غيره أو أوضاع ونكبات طبيعية يتحملها ولا تؤثر أو توقف سير حياته ونظامه ولا يربكه أو يقعده عن عمله أبداً ، بيد أنه إذا حس بأن كارثة أو مصيبة نزلت بالملكة في الداخل أو الخارج وانتشر النبأ

---

(١) ومن صفاتها ما تحمله من الروح الاجتماعية التي لا يمكنها أبداً أن تعيش لوحدها فهي أقدر على تحمل الجوع والعطش من أن تعيش منفردة وهذه الميزة أقوى فيها بكثير مما هو عند النمل .

بسرعة بين أفراد النحل تفسخ نظامها واضطربت أوضاعها ، وقعد كل فرد عن عمله وأهمل وظيفته ومعنى ذلك أنه فقد الحياة وفقد كل شيء ، فهي حقاً ما دامت قائمة فهي رمز الحياة ورمز النظام والمثابرة ومصدر الرأفة والقرار والعمل .

مدى سلطان الأُم :

الأُم ملكة مطاعة كما ذكرنا ما دامت قائمة بوظيفة الحمل والوضع ، فإذا فقدت هذه الصفة وهذه الميزة لأي سبب ، وأخص منها السن القانوني وأصبحت عاجزة عن أداء وظيفتها فقدت صفة الزعامة وتخلّت عنها لأميرة من الأميرات التي تتزعم مسند الملوكية ، ومتى ثبت لياقتها طبيعياً حكم على أية أميرة أُخرى بالابتعاد عن الأُسرة أو القضاء عليها في الداخل ، وهذا نظام طبيعي فطري قضت به على وقف منشأ الخصام والنزاع بين أفراد الأُسرة الواحدة أمام الأفراد الذين يحملون صفات الزعامة من الأميرات ، ولا شك أن الملكة المنتخبة هي أليق الأميرات من ناحية الصفات الطبيعية . وحيث أن هذه الصفة طبيعية عند الأميرات غير مكتسبة مثل البشر فلا يمكن بعد انتخاب الملكة نقل الأميرات في سلك المحافظين أو العمال أو المربين لفقدهن تلك الصفات ؛ لهذا لا مناص إلاّ التخلص منهن .

٢ ــ يلي الملكة في الميزة الأميرات ، وقد ذكرنا بعض الشيء عنها خلال بحثنا عن الملكة بأن الأميرات عبارة عن مجموعة من النحل تحمل كل ميزات الملكة للحمل والتلقيح والسيادة والزعامة كما تفقد الصفات الأُخرىٰ التي تتصف بها الطبقات الأُخرى . وهذه الأميرات تولد من الملكة التي تعتبر أُمها وتشاد لها مساكن خاصة ، وتفرق عن الملكة انها لا تزال باكرة وبانتظار يوم التلقيح والقيام بأعمال الأُمومة والملوكية متى فقدت الملكة قوتها وصفاتها لأي سبب وأصبحت عاجزة ، وطبعاً لا يستفاد إلاّ من

واحـدة منها ، والبـاقيات كمـا مرّ تقضي عليهـا الملكـة المنتخبـة بـالـطرد أو القتل كي لا تصبح عالة على إمارتها ومزاحمة لغيرها من جهات عديدة[1] .

٣ ــ الـذكــور :

والـذكور مجمـوعة من النحـل ليس لها أي صفـة وميزة حميـدة سـوى أنهـا تحمـل قـدرة التلقيـح متى دعت الحـاجـة إلى ذلـك ومن بين هـذه المجمـوعة إنمـا ينتخب بوقتـه ذكر واحـد تنتخبـه الملكـة من بين مجمـوعـة الذكور في يـوم يسمى يوم المعـاشقة ، تتـلاقح معـه في الجو الخـارجي عن الخليـة وفي الهواء الـطلق وفي حالـة الطيـران ، وفي أعلىٰ طبقـات الجـو ، ومتىٰ تم التلقيـح انتهت وظيفة الـذكور التي لا تحمـل غيـر صفـة التلقيـح ، وهي تصبح بعـد هـذا كـلاً على الأسـرة إذ إن من صفـاتهـا السيئـة أنهـا لا تعرف غير الأكل والاستراحـة دون أي عمل آخـر ، ولهذا متى انتهت عمليـة التلقيـح نـرى أن الـذكـر الـذي انتخبتـه الملكـة وفـرغ فيهـا مـا يحمله من الحـويتمات يسقط بعـد عملية التلقيـح مقضياً عليـه وأمـا البـاقـون فمن عـاد منهم قضى عليـه جوعـاً بسبب انتهاء المهمـة المسندة إليـه ، فتـرىٰ العمـال والخـدم المكلفين بتقديم الـطعام لـه خلال وطـول المدة تـركوه جـانبـاً دون إطعام حتىٰ يموت جوعاً وعندها حملوه من الخلايا ونبذوه خارجاً .

٤ ــ الـطبقات الأُخـرى من العمال الـذين يخرجـون إلى الخـارج إلى المناطق الزراعيـة وينتخبون العسـل ويستخرجـونه من النبـاتات ويعـودون بما حصلوا عليـه وهم يختلفـون من حيث العمـل حسب أعمـارهم وطـاقـاتهم ،

---

(١) وسيـأتي ذكر عـدد هـذه الأخيـرات وإن لكـل منهـا خـدم من العمـال والمحـافـظين والممـرضين والطاعمين وغيـره ، فتلك تقوم بمصـالح أُخـرى ، ومن جهة ثـانية قـد تزاحم الملكة وتنازعها وأمثـال ذلك الـذي نجده في الحكـومات الملكيـة القديمـة ، وكيف أن أحـد أسباب تـدهـورهـا هم كثـرة الأُمـراء بمـرور الـزمن ومـا يخلقـوه من القلاقل .

ويقسمون إلى أقسام ومن بينهم المختصون بانتخاب غذاء الملكة التي يختلف نوعه عن باقي العسل وهو الذي يكسبها القوة والقدرة على القيام بأعمال الحمل والولادة الأخيرة الأُخرى ويعطيها القوة والقدرة الفائقة وطول العمر بالنسبة لجميع أفراد النحل .

٥ ـ المحافظون والبوابون والدايات والجنود المدافعون والخدم وجماعة أُخرى تختص بشؤون الملكة كنظافتها والاعتناء بها وغير ذلك ، ومنها القائمة بالنظافة والشؤون الصحية داخل الخلايا .

٦ ـ الحاملة لآلة اللسع من حامض الفورميك كسلاح للدفاع عن كيانها ضد المعتدين المخالفين ولسعها عند الضرورة بصورة فردية أو جماعية .

٧ ـ الاخصائيون بالبناء والعمال في مقر الملكة وقصور الأميرات ومحلات الحضانة وبيوت الذكور والعمال والممرات اللازمة وحمل التهوية اللازمة وحفظ درجة الحرارة والرطوبة ، كل ذلك توضع أُسسه منذ أول شروعها بتأسيس الخلايا كمهندس معماري فني لا يخطىء أبداً في تصاميمه آخذاً كل الاحتياطات اللازمة للمستقبل القريب والبعيد . فهي دائماً ومبدئياً تبت في شؤونها العمرانية والاجتماعية وتضع كل تصاميمها منذ البداية بصورة متقنة لا تدع فيها مجالاً للضعف والفشل كما وجدناها كيف تنتخب الملكة وبعد انتخابها وانتهاء عمل الملكة الأولى تنحيها عن الحكم بصورة قطعية وتفويض الأمر للملكة الجديدة وحذار من أن تقع منازعات على الزعامة في المستقبل من طرف الأميرات يسمح للملكة بعد التأكد من لياقتها وقابليتها للعمل والحمل وقدرتها على ايجاد الناشئة الجديدة . نعم بعد التأكد من ذلك يترك لها الأمر لتقضي على كل أميرة وقطع دابرها حسماً لأية منازعة قد تقع بعد ذلك . كما نجدها تحتفظ بمجموعة كبيرة من الذكران ذوي البطون الكبيرة وتخصص لكل منها عاملين لخدمته وإطعامه أحسن الأغذية . وكل ذكر ليس له أية قابلية للعمل أو أي

تخصص آخر سوى قدرته على اجراء عملية التلقيح مع الأميرة الجديدة المنتجة في المستقبل حفظاً للنوع وصيانة لبقاء الجمهورية أو قل الدولة أو الامارة. وقد يكون بإمكاننا أن نسميها ملوكية وديمقراطية على أحدث ما يتصورها البشر ، وقد يمكننا تسميتها اسماً خاصاً بها لا من نوع التقسيمات والاصطلاحات التي استعملها البشر حتى الآن فنسميها ملوكية طبيعية فطرية فذة ، يعمل افرادها بجد ونشاط وتسودهم الطاعة التامة والانقياد الفطري تجاه واجباتها . قائم كل فرد وكل جماعة بما عهد إليه دون أن يتقاعس عن عمله أو يتجاوز على حق الآخرين ، وهذا النظام وهذه الطاعة فردية وجماعية تنطبق على كل واحدة منها حسب تخصصه الجسمي والطبيعي والغريزي شؤون ووظائف لا تحيد عنها يقوم بها ما دامت قائمة فيه، فإذا فقدت أو انتهت المهمة المطلوبة منه وفقدت الأُسرة الحاجة إليه أصبح وجوده عبثاً ، فأُهمل أو تجنب هو وانزوى حتى الملكة نفسها .

تنحي الملكة :

فالملكة بعد أن تفقد قدرتها على عملها الطبيعي للتلقيح والإدارة تخلّت عن العمل طبعاً بعد أن تنتخب أميرة من بين الأميرات لتحل محلها ، وهنا محل تأمل : هل هي التي تنتخب أو هناك سلطة أُخرى مسيطرة تضطرها لذلك وتترك القصر والأمر والنهي وتنزوي حتى تموت؟ .

مآل الذكور :

فالذكور عندما ينتخب من بينها ذكراً ، ويجري هذا بعملية المعاشقة مع الملكة ويفرغ فيها ما يحمله من لقاح حين عملية الاقتران المزاوجة في الجو الواسع وفي أعالي الفضاء يخر صريعاً وميتاً ويعود الجميع إلى الخلايا ،وبعد هذه العملية من التلقيح والمعاشقة والزفاف الممتاز بيومه وساعته والذي تحتفل به جميع أفراد النحل يعودون إلى مقراتهم وفي هذه اللحظة يقوم جماعة بحفظ الملكة وتنظيفها والاعتناء بها ، ومراقبون آخرون لحفظ سلامة الأميرات في بيوتها خوفاً من التعدي عليها إلى حين التأكد

من سلامة الملكة وسلامة حملها والتأكد من نجاح عملية التلقيح بصورة مرضية ، وبعد أن يطمأن الجميع من لياقة هذه الملكة في جميع الوجوه على أداء وظيفتها من الناحية الصحية والبدنية ، وانها سوف تؤدي وظيفة الحمل والولادة وسوف تضع ما تحتاجه الخلية من المواليد لأنها هي الوحيدة التي يجب أن تملأ كل الخلايا الخاصة بالمواليد ، يجب أن تترك في كل واحدة منها نطفة وتعهد بتربيتها إلى حاضنة ، نعم بعد التأكد من كل ذلك تصل الأوامر القطعية للخدم المكلفين بتغذية الذكور على ترك تغذيتهم ، ولأن هذه لا تعرف هي ان تطعم نفسها بنفسها وقد سارت إما طبيعياً أو عادة على أن يطعمها الآخرون ، وقد انقطعوا عن خدمتها وتغذيتها فهي بمرور الزمن تموت جوعاً ، وكلما ماتت واحدة نقلت جثتها ونبذت خارجاً ، وقام الخدم والعمال بخدمات جديدة يعهد لهم بها وتخلصوا من مجموعة كبيرة من المتبطرين من جماعة هذه الذكور التي لأهم لهم سوى الأكل والاستراحة .

القضاء على الأميرات :

كما أنه سمح للملكة القضاء على خصومها من الأميرات دفعاً لعدة أضرار ربما تكون في مقدمتها الخوف والمنافسة على الزعامة في المستقبل . ويلي ذلك الاستفادة من خدمها في الأعمال الأخرىٰ والاستفادة من قصورها لأميرات المستقبل .

إن ما نراه في نظام النحل نرى نظاماً يفوق نظام البشر اتقاناً وصرامة ونرى أموراً تنافي في الوهلة الأولى شؤون العاطفة البشرية والعدالة أحياناً مثل القتل العام للأميرات وترك الذكور يموتون جوعاً ولكن أليس هذا هو العمل الناجح ولو تركوهم على ما هم عليه إلّا يخل ذلك بنظامها واجتماعها ويضرُّها اقتصادياً ، أليس هذا إجحافاً بحق الآخرين من العمال والخدم والمحافظين . وقد يترك للأميرات والذكور الخيار لهم بالخروج والحياة الحرة خارج الخلايا والأسرة طالما لا فائدة ترجوها بعد ذلك ولكنها

تفضـل بعد هـذا الموت بعـد أن اعتادت على حيـاة الترف ولهـذا فإنهـا هي نفسها قضت على نفسها .

المقارنة بين حياتها وحياة البشر :

لا يمكن أن نـرى حـادثـة واحـدة تلك التي تقـع للبشـر فيمـا يخص المخاصمات والمنازعات بين أفـراد الأسر المـالكة للوصـول إلى الحكم في حيـاة الملكة والمنـازعات بين الملكيـة والجمهوريـة والانقلابـات الـدمـويـة والعقائديـة الاشتراكيـة والديمقـراطية والـدكتاتـورية ، تلك التي يستفيـد منها على الأكثـر فرد أو أفـراد على الحكم مهمـا كـان اسم حكـومتهـا ، وأرهقـوا الأكثـرية وخـرجوا على القـوانين الموضـوعة والنـظم الطبيعيـة والاجتمـاعيـة والأخـلاقية ، وجـروا معهم الظلم والعـدوان واعتـدوا على حـريـات الأفـراد والجمـاعات في الـداخل والخـارج ، وعبروا عن أعمـالهم مهما كـانت غيـر عادلة ، عبروا عنها ، لأعمال الإنسانية ، ووصفوها بكل الأوصـاف والميزات الحسنـة وأوصموا غيـرها من المخـالفـة بكـل دنـاءة وخسـة مهمـا بلغت من السمو في العدالة .

وأكبر ميزة للنحل الذي يمتاز به على البشـر هو : قيـام كل طبقـة وكل فـرد بعمله وعدم تحـديه لغيـره . والنحل منـذ بدء الخليقـة على سيـرة طبق القانون الطبيعي بصورة متقـه عجيبة فحفظ لافـراده واجتماعـه حسن السلوك من الناحية الاجتماعية والاقتصـادية والسيـاسية وكـل شيء ، بيد أن الإنسـان طالما تحدىٰ القانون الطبيعي ولا زال يتحـداه وجـاء بذلـك بأسمـاء ما أنـزل الله بها من سلطان ، باسم الديمقراطيـة والاشتراكيـة والنازيـة وما جـاء به من العقائد والقوانين أسماء ومغتريات وأنظمة يحـول مجرى القـانون الـطبيعي ، إشبـاعاً لغـريزتـه من الجشع السيـاسي والاقتصـادي ، الاستئثـار بكـل شيء لنفسه والتجاوز على حقوق الآخرين ، ففقـد بذلـك سعادتـه وحريتـه في كل شيء . فهل إن الحريـة تقضي أن يسلب الدكتـاتور حـرية الافـراد ، ويسلب حرية نفسه في التمتع بـالاجتماعـات إلاّ محاطاً بالمحـافظين والحـراس ليل

نهار؟ وقد حاول الإنسان أن يجر الويلات حتى على النحل وبقية الحيوانات ، ويجرها إلى التجاوز على قوانينها ، وأن يعودها على ما لم تكن اعتادته من قبل ، وهذا ما لا يمكن حمله إلّا من طريق واحد هو مساعدتها على ما هي عليه لا على مخالفتها لقوانينها ، وكان الأحرى به أن يستفيد منها وهي أتقن منه نظاماً وحكمة وأكثر بكثير مما هو عليه من الخروج على كل النظم والقوانين .

إن النظام القائم بين أفراد النحل نظام قام على التعاون ، كل على قدره ، وأعظمها تضحية أكثرها قوة . فالأُم هي منبع الحياة وهي مصدر ومنشأ الجماعة ، بها ومنها قامت جماعة النحل وهي أكبرها جسماً وأطولها حياة وأكثرها سهراً وأشدها حباً للأفراد لأنها أُمهم والجميع بنوها ، لهذا هي محل آمالهم وأمانيهم وطاعتهم ، لها طاعة حب ، بل انها أهل لهذه الطاعة بإخلاصها وتضحيتها ، فإذا صادف وإن أحسوا بفقدها احسوا بفقد حياتهم ، والقضاء على كيانهم كلهم بما فيهم . وانقطع كل عن عمله خارجاً وداخلاً فلا يساوي ذلك مصيبة مماثلة ، فهم يتحملون كل كارثة بصبر وثبات سوى فقدان الملكة ، أعني أُمهم .

فهل يستطيع البشر ان ينشىء حكومة مبناها الحب الصحيح الواقعي واللياقة الذاتية الطبيعية وتعاون الأفراد المنقطع النظير ونظامهم المتقن ودأب كل على تخصصه وسعيهم المستمر واشتراكهم بعد ذلك بما في المخازن، لا كل نفسه ، بل الكل للجميع ؟ هذا إلى أخذهم بنظر الاعتبار لكل أمر محتمل استعداداً للمستقبل مهما كان أمده قصيراً أو طويلاً ، ما مرّ ذكره من ذكر الأميرات ومعاملة الذكور ، ومن جهة ثانية إحساسهم بالوقائع الطبيعية ، فمن هطول الأمطار والثلوج قبل أوانها واتقاء اخطارها والصمود في بيوتهم وحفظ البناء في المحلات الصالحة من الخارج وعمل اللازم عمله في الداخل للتهوية وحفظ درجة الحرارة .

وفي ظل هذه المزايا الكبيرة الباهرة يكاد أن يكون النحل من أسعد

الحشرات بل الحيوانات الحية إن خلصت من شر الإنسان وويلاته وتجاوزاته رغم ما يستفيد من عسلها ويستفيد من عملية تلقيحها الاصطناعي يحمل المواد اللقاحية من شجرة لأخرى في البساتين فتكثر وتحسن نكهتها وتزيد عطور أزهارها .

وهنا طبقة من العمال والخدمة التي تختص برعاية عشرة آلاف من البيض وثمانية عشر ألف دورة وستة وثلاثين ألف نحله صغيرة وستة آلاف أميرة هؤلاء العمال خصصوا منذ تكوينهم لهذا العمل الشاق . فهو شاق لهم أو عادي؟ ومن عين وخصص لهم هذا العمل؟ ومن يدري وربما أن سعادتهم بهذه الخدمة وأداء الوظيفة المحولة لهم ليس هؤلاء فقط بل كل طبقة من النحل يجد نهاية اللذة في الجد والسعي في عمله وفي عمله الخاص دون كلل أو ملل بصورة منظمة وباستمرار ، وما دامت هذه الوظائف قائمة تكون الأسرة أو الجمهورية أو الملوكية قد أدت لمجموعها ولافرادها الخدمة الكاملة الصادقة العادلة المؤدية لسعادة الفرد والمجموع ، فإذا فرضنا وإن أخل أحدهم من جهته بعمل تُرى ماذا يحصل لكل فرد وللمجموع وبالتالي للخائن الذي أخل بوظيفته؟ هذا وإذا تجاوز إلى أكثر من ذلك وتداخل في أعمال الآخرين واغرى هذا واشغل ذاك وتجاوز على الثالث كما يعمله البشر؟ ويا ترى أليست العاقبة غير الشقاء وغير الخيبة والاضطراب والخسران للجميع للسيد والمسود وذلك الشقاء الذي يسود البشر؟ فهل آن الأوان أن ينقضي ويسلك السبيل الطبيعي والمنطق السليم ويهتدي ويقتدي بحشرة صغيرة في حياتها المنظمة البسيطة؟ لا شك وأن هذه الحشرة في سيرها المعتاد المحافظ المبني على الجد والمعاضدة خلصت من أهم أسباب الشقاء كالحرص والجشع ومن الحسد والكبرياء والظلم والاستبداد وكل ما من شأنه التعاسة والشقاء ، وكل ما يعود على النفس بالحسرة والندامة . وبالعكس هي تحمل الحكمة والصبر وروح الكد والمثابرة والاخلاص والإطاعة وخدمة النوع . انظر إلى هذه السعادة ، إلى تقسيم الأعمال وإلى الاشتراكية الطبيعية في العمل في السيادة في

الأكل والشرب وفي كـل شيء ، وإلى ما يسـوقه لهم هـذا إلى كل فـرد وإلى المجموع من الراحة والمتعة ، ولـو قدر للبشـر أن يسير على هـذه الشاكلة ، كيف كانت حياته مليئة بالسرور والبهجة!

رمز الوحدة :

قلنـا إن الملكـة هي الأم وهي رمـز الـوحـدة ولم الشتـات والشمـل ومصـدر الطاعـة والنظام والألفـة والكـل أولادهـا وبنـاتهـا والعمـال كلهم من الإنـاث بنـاتهـا ، وإذا اقتضت الضـرورة فبـالإمكـان انتخـاب واحـدة منهـا وإطعامها الـطعام الخـاص للملكة لتكـوين قواهـا وتجهيزهـا بما للملكـة من مؤهـلات ، وإذا فـرضنـا لأي سبب من الأسبـاب ، بسبب مـرض أو حـادث طبيعي في الخـارج أو الداخـل ، أصيبت الأم الملكـة بعـارض اقعـدهـا عن عملها ، وقلنا سابقاً أن النحل يدرك ويتنبأ بعض الحوادث ، وقـد يكون نـوع من التنبؤ ان الملكـة لم يبق من عمرهـا سوى بضعـة أيام أو سـاعـات ، وإن عـارضاً أصـابها وأقعـدها ، أو بسبب الهـرم ، مما أيقن بـه الاخصائيـون من الخـدم أو الندمـاء أو أطبائهـا وممـرضيهـا ، وأعلنـوا هـذا الأمـر دون اتخـاذ الحيـطة وانتشـر الخبـر قبيـل انتخـاب خلف لهـا ، دون انتخـاب منـظم يلم الوحدة ، ولو لأمد قصير حتى انتخاب ملكـة جديـدة ، وقلنا قـد يكون ذلـك بنـاء على وقع جـدي أو صدمـة آنية لم تتـرك لتلافي الأمـر ، كما لـو حـاول إنسان اقتناص الملكة من مقرها ، فماذا يحدث يا ترى؟

نعم ترى ان النبأ خلال فترة قصيـرة انتشر في أقصى نقـاط الجمهوريـة بين افـرادها في الـداخل والخـارج وترك كـل وظيفتـه . العـامـل تـرك عمله وناقل العسل إلى المخازن ترك وظيفته ، والمحافظون تـركوا حفظ المخـازن الأبـواب ، والمستخدمون والمربيات وكل فرد منها ترك عمله ، فاضـطربت أوضـاع المملكة واختـل كل شيء ، كمـا أن المـدافعين عن كيـان المملكـة والجمهـورية تـركوا وظيفتهم فشملت الفـوضى هذه الـوحدة المتـراصة ودب الضعف إلى هـذه القـوة المستحكمـة واشتغـل المتـطفلون والمعتـدون

والمتجاوزون من طبقات الحشرات للتسلل إلى داخل الخلايا والمخازن والعبث بما شاءوا أو القضاء على من أرادوا ، فإن دامت هذه أمداً طويلاً قُضي على هذه الجمهورية بالفناء ، وإذا قدر وإن عادت الملكة المفقودة إلى مقرها ولو بعد فناء أكثر الخلايا والافراد ونهب كل المخازن ، نعم إن عادت أسرعوا بإعادة النظام والسعي للترميم والإصلاح وإعادة الجمهورية إلى ما كانت عليه بالسرعة الممكنة .

وإذا فرضنا أن الملكة لم تعد ولكنهم استعاضوا بها بإحدىٰ الأميرات وقامت بواجبها ، عادت الحياة أيضاً إلى مجراها الطبيعي بمرور الزمان . ومن هذا نرى كم في الوحدة من أثر بليغ لاكساب السعادة وتقدم الأفراد والمجموع ، وكم في التفسخ من دمار مهما بلغت الأفراد بالكثرة ومهما كان فيهم من أخصائيين . فهذه المملكة كما ذكرنا لم تفقد من أفرادها أحداً ولا فقد أي عامل آخر من عوامل قوتها ولم يدخلها أي ضعف غير فقدانها الملكة ، تلك التي كانت رمز وحدتها والرابط بين جميع أفرادها ، لهذا قبل كل شيء يلزم بذل كل الجهود لحفظ هذه الوحدة المتراصة وضبطها بشتىٰ الوسائل ، والحرص على سلامة الملكة لحفظ الأفراد والجماعات أرواحهم وممتلكاتهم من تسرب عوامل الضعف والانهيار الذاتي في الافراد واتقاء هجوم المخربين من المتسللين والمتجاوزين على كيان المملكة . ولعلَّ أفراد النحل بلغ بها الذكاء أو بلغت بها الغريزة إلى إدراك هذه الوحدة وأثرها البليغ في شتى شؤون حياتها الممثلة في ملكتها الأم ، لهذا تراهم يتفادون بأنفسهم وسعادتهم وأموالهم لحفظها وسلامتها وإعادتها وإعادة خليفتها إلى مقر الزعامة والحكم ، لتستقر أوضاعهم وتعود لهم الحياة الطبيعية ، وبسبب هذه القوة المتراصة تعود لهم حياة النجد والسعي وبها تعود لهم مباهج الحياة وملذاتها ، وبها يلذ لهم روح الكفاح عن حياض الوطن عن أنفسهم وأولادهم وأموالهم وعزتهم . ولنتساءل عمّا تحمله النحلة من الأفكار قبل فقد الملكة وحين فقدها وبعد ذلك . ما هو الدافع لسيرها وثبوتها؟ هل هو الحب لأُمها أو الامتثال الأسمى؟ أم هو

الإيمان المطلق بوجودها وأمرها ونهيها؟ أو علل وأسباب أُخرى؟ مهما كانت فالنتيجة تكاد تكون واحدة ، ألا وهي أن الملكة كما ذكرنا هي العامل الأقوىٰ لِلَمّ كلمتها وجمع شتاتها . ومصدر قوتها وحياتها ، فالملكة الأُم لا يمكن أن يستعاض عنها أبداً كما يمكن أن يستعاض بفرد أو أفراد من العمال والخدم وغيرهم[1] أو جعل بعضهم في مقر الآخر باعتبارها واحدة وذات مزايا فائقة وهذا ما يجب رعايته في حياة البشر . ولطالما وجدنا أوضاعاً مشابهة في حياة البشر كما نشاهد أحياناً في الحروب ، حينما يقضي على زعيم البلاد مهما كانت قوية كيف يؤثر ذلك على تدهورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ومجمل القول إن النحل منذ أقدم العصور وهو يسير طبق أنظمة طبيعية خاصة لا يحيد عنها ، باسم العقل أو الغريزة وهذا السير ضمن سعادتها ونظامها وحياة النوع وبقاءه من الإبادة ، وهو رغم إحساسه بالألم والابتهاج والجوع والعطش والحب والبغض، كل ذلك لا يؤثر على عواطفه لينحرف عن القانون الطبيعي .

ومن أبرع هذه الغرائز التي لا يمكن أن تخلو من حكمة وتفكير هو إذا فرضنا وتقرر تعيين ملكة جديدة ، فالقديمة كما قلنا تنزوي لأي سبب ذاتي أو صادر من مقام آخر جماعي أو فردي ، ولكن الذي يستدعي النظر أنه إذا ما قام نزاع بين الملكة القديمة والملكة الجديدة استوجب رعاية السيادة الجديدة وحد سلطة القديمة بصورة سرية[2] ومستترة كي لا تثير شعوراً وسخطاً عاماً إلى الوقت الذي يتخلصون منها حفظاً لسلامة الأُسرة

---

(١) إذ ان الأم ، كما ذكرنا ، محل ثقة الجميع ومنبع الحكمة والذكاء والمتخصصة لإدارة شؤون أُسرتها بما تحمله لهم في شتى الأحوال والمزايا والمعرفة علمها بأفراد أُسرتها وعطفها وحنانها لهم وملكاتها العقلية والجسمية التي تمتاز على كل فرد منهم وفرط ذكائها ودرايتها بكافة شؤون وقواعد وقوانين الأُسرة ومتطلباتها كفرد فوق أفراد أُسرتها المنتمين إليها .

(٢) حفظاً للجماعة والأُسرة والمملكة وإدامة بقائها وبقاء النوع وحفظاً لبقاء الأصلح .

وشد كيانها ودفعاً لعوامل الضعف من فوضى واضطراب ، لأن مقام الملكة الشامخ وان اسند إلى غيرها ولكنها الأم للباقين ويعرفها من في المملكة ، ولولا تعيين خلف لها لاضطربت أركان المملكة كما ذكرنا سابقاً ، ويكفي لعظمة مقامها الشامخ قبل تعيين خلف لها انّ بفقدها تفقد المملكة كيانها وتتعرض للتخريب والسلب والنهب ، وبوجودها وحفظها مهما أصاب الأفراد الآخرين وبيوتهم وذخائرهم من قتل وهدم وإبادة وتخريب ، كل ذلك سيعود إلى تشييده وإعادته مع حفظ سلامتها ، والنحل الذي يعرف أنه لا يمكن سرقتها وانتشالها تعويض أم أخرى مكانها ، كما فعل الإنسان على سبيل التجربة ، فكان عاقبة الملكة الجديدة الموضوعة مكان الأم الحبس حتى الموت ، بيد أن علماء النحل أوعزوا ذلك إلى عادات الزنبور . سيان الأم من جهة حينما نرى تبديل مقرها وأعضائها تتوحش وتنزوي وتتجنب هذا من جهة ومن جهة فإن عادة النحل بالنسبة لها وطبقاً للمثل المعروف : يكاد الغريب أن يقول خذوني .

هذه الحالات النفسية هي التي تجعل الملكة الجديدة تفضح نفسها بنفسها ، ولكن بعض علماء النحل جربوا أنهم بعد إخراج الملكة من الخلايا جاؤوا بملكة أخرى وحبسوها مدة لوحدها ، حتى شعرت بالجوع والغربة ، لأن النحل شديد الميل للاجتماع . وبعد مدة وضعوها في مقر الملكة المفقودة ، وهي بالنظر لجوعها ووحشتها في الانفراد ، تظهر ميولاً لجماعة النحل ، وان كانوا غريبين عنها هذا من جهة ، ومن جهة ثانية تستقبل بلهفة لشدة جوعها ما يقدم لها من الطعام ، وهذا الاستيناس والألفة يؤلف بينها وبين افراد النحل ويأنسون بعضهم وتبقى بينهم حية . وهنا قولان : الأول ، يقال إن النحل إنما يعرف ملكته لسلوكها وانقيادها وعدم توحشها ، ذلك السلوك الطبيعي الذي سارت عليه الملكة الجديدة . والرأي الثاني يقول إن النحل في المرة الثانية أيضاً عرف أن هذه ليست ملكته الحقيقية ، بيد أنه وقد فقد ملكته الأصلية وشعر من هذه الألفة والحنان فرجح قبولها حفظاً لجمع شمل المملكة . واقتنع بذلك ، وكيفما

كان فقد كانت التجربة تجربـة ناجحـة . ومن حيث الواقـع ان قصد الـطبيعة هو حفظ نسل النحل وسلامته ، فإذا تـأكدت الملكـة من جهة ونحـل الخلية من جهة أُخرى ان الأُمور في التناسل وحفظ النوع سيبقى جـارياً كمـا يرام ، قام الجميع كما كان في عهد الملكة القديمة وحفظ نظام الخلية .

ومن الحقائق التي لا يمكن نكرانهـا أن النحل يقـدس ملكته مـا دامت تقـوم بواجبـاتها ، فـإنْ هي أهملت أو تقـاعست لأي سبب كـان ولـو لبضعـة مـرات ، حتى لو كـان اصطنـاعياً ، كمـا يحاول علمـاء النحـل اجـراءه على سبيل التجربة، نرى أن النحـل يسوق ملكتـه (أمةً) لتـرى حتفها في احـدى غرف البلاط الملكي ونصب أُخرى محلها .

يمكننا قياس ذلك مع قدرة السلطة الحاكمة عند البشر .

الديمقراطية الموجودة عند النحـل لانتخاب زعيم يقـوم بوظـائفة قيـاماً حقيقيـاً ، كيف يعمـل معـه عنـدمـا يجـده تقـاعس عن واجبـاتـه مهمـا كـان السبب ، فمن هو المنفذ الواقعي عند النحل فرداً أو جمـاعة ؟ وهـل هو أمـر غريزي أو قائم على التعقل أو كلاهما ؟ وطـالما وجـدنا أمـوراً استثنائيـة عند النحـل تدل على التفكيـر فمثلاً لـو ادخـل فـار أو حلزون الى الخليـة قضت عليه النحل حـالاً واخرجـوه خارج الخـلايا ، وان لم تقـدر احاطـوه بالشمـع واقبروه جانباً من الخلايـا ، كما يضعـون حواجـز سمعية في بعض المـداخل لمنـع دخول الحشـرات المؤذية . فـالملكة لهـا المقـام الاسمى عنـدهـم مـا دامت تؤدي واجبـاتهـا ، وهي رغم سلطتهـا العـظمى ومقـامهـا الاسمى فهي اسيرة مقيده بيدهـم اذا شعروا بفتورها عن اداء واجباتها الخاصة .

فالاحترام المقـام لها انمـا هو نـظام عام مقـدس وقانـون طبيعي ، وما دام يصـدر فيها بـاعتبارهـا تخدم الجميـع والكل حتى الملكـة يخدم الـواحد الآخـر ويخدم الجميـع ، ولا يقعده عن واجبـه سوى المـوت ، وان تقـاعس كمـا مر أقصى من الجـامعة بـأي نوع من أنـواع الاقصاء مهمـا كان مقـامه .

فأي حكومة متقنة مقرونة هـذه وهل بـامكان البشـر ان يقيم كهذه الحكـومة ؟ والنحـل دائب وكـامـل في دأبـه في أي نـاحيـة من حيــاتـه ، حتى الحيــاة العمـرانية فهـو يزيـد أو ينقص الخلايـا حسب الحاجـة ، ويزيـد وينقص في البلاط الملكي حسب الحاجة والجميع منـظم ومدبـر في أي شأن وأمـر مهما كـان كبيراً أو صغيـراً ، حتى في أمر الملكـة ، فمن وضع لهـا هذا النـظام ؟ ومن هو المسيطر الأعلى والحاكم المطلق والمـدبر الحكيم وراء كـل ذلك ؟ ومن الـدلائل التي تبـرهن بها بـان النحل يقـوم بـاعمـالـه الى ابعـد التفكيـر والتـأمل وان التصميم على وضـع الخطط صـادر من خبراء اخصـائيين وأوامر صادرة من مصادر حـاكمة واقعيـة ، فهي اذا ارادت ان تغير مكـانها أو سعت لبناء خلايا جديدة ارسلت الى كافة الاطراف ، يـرسلها وخبـرائها ، وبعـد أن تبت في أمـرها على الاستقـرار في الجهـة المـطلوبـة انـطلق افـرادهـا لتلك الجهة فان كانت جاهـزة سكنوهـا ، والا خططوا ووضعـوا التصاميم وقـام كل جماعة بعمله ونقلوا مـا يحتاجـون على قدر من مـاء وشمع وغيـره ، وقسموا اعمـالهم بين الافـراد كـل حسب تخصصـه ، فكـان منهم المخـطط والبنـاء والعمال وغيرهـم ينجزون ذلك بدقة فائقة تفوق ما يقوم؟ .

صنع الخلايا :

قلنا أعلاه ان النحـل بما لـه من الخبرة والتخصص منـذ أول ما يقـوم بـالبناء وتشييـد الخلايـا يراعي مبـدئياً كخبيـر ومخطط كلمـا يمكن ان يحتاج في المستقبـل . فهو يـراعي الأصول الصحيـة ومتانـة البناء وانتخـاب الشمع الصـالـح والمخـازن المـلائمـة لكـل نـوع من محتـويـاتهـا والمســاكن ومن يسكنهـا ، الى مراعـاة سهولـة المـرور والعبـور للخـدم والعمـال والأميـرات والملكة كل بحسبـه ، بما يحتـاج كل منهـا ، وايجاد مخـازن مناسبـة وغرف ضرورية وطرق ومعابـر ومئات الأمـور الأُخرىٰ التي لا مجـال لذكـرها الآن ، كل تلك يضع تصاميمها منذ البدايـة بما تحتـاجه من تهـوية وطقس مـلائم .

أمـا الخلايـا الاصطنـاعية التي يصنعهـا الانسان فتحتم عليـه ان يـراعي فيهـا الأصول الطبيعية التي يقوم به النحل والا تركتـه واضطرت هي نفسهـا لصنع ما تحتاج اليه .

النقد الموجه للنحل والانسان :

يحسبه البعض قليل الفطنة جشعاً او ابلهاً مستـدلين بانـه يزج نفسه في طعـام او شراب دون خبـرة ودراية ووعي كـافٍ لـدرجـة أنـه قـد يمـوت فيـه ودخوله في محلات لا داعي لدخوله واستمـراره ومحاولتـه للخروج من نـافذه زجاجية دون ان يعي ان النافذة الـزجاجيـة غير قـابلة المرور منهـا . على أن هـذا النقد اذا وجـه للبشر ادركنـا ان للبشـر اغـلاطـاً أعـظم وانحـطاطـاً الى السفليات اشد . منها اعتياده على كلما يقربـه لدرجـة الموت واحط درجـات الشقـاء من مسكـرات ومخـدرات ومنبهـات وافـراطـه من الأمـور الجنسيـة وتعـرضه لافتـك الامراض التنـاسلية مـع علمه ودرايـه وقصد وارادة . ومنهـا اشعاله نيران الحروب وقيامه باعمال متناقضة بين الغـريزة والعقـل وتجاوزاتـه على غيـره من بني جنسـه وكـافـة مـا خلق الله من حيـوان ونبـات . ومن الغـريب اننا نصف أنفسنـا بالعقـل والفكر والارادة وقـد استخدمنـا العقل في سبيـل الغـريـزة فكنـا في وحشيتنـا ابعـد بكثيـر وفي قسـاوتنـا أشـد من اشـد الحيـوانات ضـراوة ووحشية وقسـاوة لا على غيرنـا ولا في سبيـل سـد رمقنـاً فحسب بـل تجاوزنـا في ذلك على أبنـاء جلدتنا واحيـانا على أقـرب النـاس الينا ، لا لشيء بل ارضاءً لكبريائنا واستهانة بمقـدسات الغيـر . واذا اقتضت الـظروف استعملنا اشنـع وأهول المنكـرات باسم العـدل والانسانيـة وحكمنا كما شئنا واطلقنا ما شئنا عليها من الفاظ . وما القنـابل الـذرية على نيـازاكي وهوريشيما ، وما الفتك بملايين اليهود من رجـال ونساء وأطفـال قصر ابـرياء في عهد النازية الا مثال صغير من ذلك ، فهـل بامكـاننا أن نـأتي بمثل حتى صغير جداً عمله وحشي تجاه بني نوعه على هذه الشاكلة ؟ .

وقد ننتقد النحـل تجاه عمله نحـو الملكة والأميـرات والذكـور ، ولكن

يمكن توجيه ذلك توجيهاً منطقياً ومعقولاً ، بحيث لا تكـون ولا نعتبر مقصـرة في عملهـا ، بعد أن علمنـا أن حياة الفـرد في مملكـة أو جمهـوريـة النحـل تقـوم على المساواة والعمـل المتقابـل . وقلنا إن النحـل كثيـراً مـا يتنبـأ عن الحـوادث الطبيعيـة قبل أوانـه وربما كـانت عنده مقـاييس دقيقة في ذلـك أو حس وشعوز آخر لا يوجد لدينا بـإمكانـه أن يدرك أن ملكتـه يعرض لهـا علة أو مرض أو شيء آخر يؤدي بهـا للهلاك بعـد بضعة سـاعات أو أيـام ، وهذا ما يدعوها إلى نصب غيرها ثم حمل الملكة القديمة إلى مستقـر تهدأ بـه ولا تعمـل إلى أن تلقى حتفها وأن لهـا علمها سلفـاً بهذا المـوت الحتمي . إذن في مثل هذه من الظلم أن نصمها بالظلم . وأمـا الذكـور فما يـدرينا بعـد أن أصبحت في غنى عنها أو عزت لهـا بذلـك ومثلها الأميـرات ، لهذا لا داعي ولا ضرورة يدعوها لاطعامها وما قدمـوه لها سـابقاً كـان على سبيل الاحتيـاط والضرورة حفظاً للنـوع ، ولكن حيث انتهى الأمر واطمـأنوا على حيـاة النوع لا تجد داعياً لبـذل جهود وطـاقات لا لـزوم لها ، ولمـاذا بذل هـذه الخدمـة وترك عاملين وأكثر لكل نحلة بطرة لا تشتغل ولا فائدة منها ، فالأحـرى تركهـا ونفسهـا وعلى نفسها أن تقـوت نفسها ، فمن منهـا عملت لنفسهـا عـاشت ، وإلاّ ماتت جوعاً هذا في العمال وأما في الأميـرات فإن إطعـامها من جهـة لا داعي لـه ، ومن جهـة ثـانيـة فـإن وجـودهـا يكـون خـطراً على المملكـة ، فالأحرى إما أن تدخل في زمرة العمال أو تخرج إلى حيث تـريد ، وفي غيـر ذلك فإنها تعرض نفسها للخطر ولهذا نرى قسمـاً من العمال والأميـرات تترك المملكـة وتخـرج وتنجـو بنفسهـا . والحقيقـة هـذا أمـر لا يخـالف العـدالـة والمنـطق السليم ، فإذا كـانت هذه فـروضنا صحيحـة ، فإن مملكـة النحـل مملكـة لا ينقصهـا شيء من المنـطق السليم ، وكـل شيء تعمله مـطابق للقانون الطبيعي والمنطق السليم .

حواس النحل :

النحـل مجهز بحـواس تختلف عن حواسنـا فهـو يفقـد السمـع ولكنـه

يتفـاهم وينشر أخبـاره بما لـديـه من حـواس وزوائـد ، لهـذا نـراه يعـود إلى المحل الأول إذا كان فيه طعام كما نراه يعـود مرة أُخـرى مع جمـاعة وتتـزايد هـذه إذا كان الـطعام كثيـراً ومن النوع الـذي رغب لـه النحـل . وقـد وجـد علمـاء النحل أن لـزنبـور العسـل نحـو اثني عشـر ألف زائـدة وخمسـة آلاف حفـرة في أطراف بـدنه ويمكن أن يكـون لكل منهـا عمل خـاص تقوم بـه ، ومع هذا فإن النحل يقسم أعماله في الـداخل والخـارج من الخلايـا ، ولكل منها تخصصاً في عمل ما يقوم به منذ الصباح الباكر .

بناء الخلايا :

ويعمل النحل أربعة أنواع من الخلايا .

١ ـــ الخلايا الملكية وهي على شكل استثنائي يشبه البلاط .
٢ ـــ خلايا الذكور وهي كبيرة واطئة .
٣ ـــ خلايا صغيرة للعمال والمخازن .
٤ ـــ خلايا رابطة بين الكبيرة والصغيرة .

والنحـل يبـدأ البنـاء من الأعلى . وهنـاك أنـواع من النحـل بـالنسبـة لتخصصه : فمنهم اللبان . والعامل والمهندس والبناء والمخصص للحضـانة والتنظيفات والمحـافظين وغيـرهم . ويتخلل الخلايـا الممرات ويكـون البناء منشـورياً ذا زوايـا تتصل ببعضهـا وجـدران مجـاورة لبعضهـا ، بنـاء محكمـاً حـافظاً لمحتـوياتهـا . وإذا ما فحصت الخـلايـا وممـراتهـا من حيث الـدقـة الهنـدسية لمـا وجـد فيهـا نقصـاً مـا . فهـل النحـل يعـرف هـذه الـدقـة في الحسـاب والهندسـة؟ وهل يجـوز أن نقول إن هـذه الدقـة جـاءت عفـواً ولا تـزال عفواً في جميـع أعمالهـا؟ كيف وهي مصنوعـة بحيث لا تجد خليـة لا تستفيـد من الضيـاء ولا تبقى خليـة صنعت عبثاً لا يستفـاد منهـا، لا يشـك المفكـر إلاّ أنها صنعت بنـظر مهندس قـدير . ولقـد أثبت النحـل في جميع أعماله هذه الدقـة ، حتى انه عنـدما يقسم بيـوضه في الخـلايا لا تجـد البتة

انه اشتبه أن يخلط بيوض الذكـر بيوض الانثى ، لا ولا تجـد اشتباهـاً واحداً بـل كل جنس يضعـه في خلايـاه الخاصـة به كمـا ويغذيهـا بغذائهـا الخاص بها . وأروع من ذلك أن الأم حين الوضع تعرف ما ستلد لتضعـه في حفرتـه ومكانه .

نمو النحل وتعليماته :

ويتدرج النحل في الكبر فيتقدم لمعـرفة سلوك الـطرق والممرات ، ثم يتـأهل للخـروج والدخـول والذهـاب والإياب لنقـل الطعـام ، كل هـذه لهـا أصـول يتمرن عليهـا تـدريجياً شيئاً فشيئاً قليـلاً فقليـلاً ، حتى لا يغلط أو يشتبه في تعيين أهدافـه ومراكـز طعامـه ومذاخـره . والأمر الـذي نحن نسميه تصميماً إنما هو عند النحل منهج ملزم باتباعه .

الطبيعة تكثر النحل :

في كل مرة يخـرج النحل من الخليـة تترك قلة منهـا لحفظ الخلايا وما فيهـا ، وحينما تخـرج الأميرات مـع الملكة يصحب كـل أميـرة جمـاعـة من العمـال غالبـاً ، ويذهبـون لتشكيل عـائلة جديـدة ومنهم من يتبـع الملكـة أو يتركها ، كـل ذلك يسيـر طبق سنن وأصول كمـا يكون اتجـاههم واستقرارهم حسب خطة وقواعد خاصـة. ومن تبع الملكـة وبقي في الخلية أصبـح تحت رحمـة الملكـة الجـديـدة لتقضي هـذه عليهـا في السـاعـة المعينـة ، إذ ان المحافظين يحافظونها إلى أن يثقوا أن الزواج الناشىء ليلة الـزفاف نـاجح ، ومتى تـأكد الجميـع ، أو قل الجهـة الناظـرة لذلـك ، إن الملكة حملت مـا تحتاجه الخلية سمح للملكة الجديـدة أن تقضي على جميع الأميـرات لتنفرد بالحكم وتأمن شر المزاحمين .

الاستثنـــاءات :

وجد في بعض خلايا النحل أن هنـاك أكثر من ملكـة واحدة تعيش في المملكة الواحدة ، حتى انه وجد في إحدى الممـالك النحليـة أن تسعين أماً

تعمل وتعيش فيها وهي من نـوع نحل آبيس تعيش في سـورية وأنـواع أُخرى مشابهة لها في قبرص .

وقـد وجد أن النحـل يطور نفسـه حسب المحيط فـإذا نقـل من محيط إلى محيط آخر أشد برداً وأطول شتاء يضطره لـلانزواء نجـده يزيـد في جمع العسـل ، وبالعكس إذا وجـد الفصـل معتـدلاً والأزهـار دائمـة فهـو يقلل من ذخائره أو يترك جمع العسل بتاتاً كما جرب ذلك في كثير من المناطق .

وطالما أن للنحـل مثل هـذه الحساسيـة والشعور امـا عقلياً أو غـريزيـاً فهـو قابـل للتـطور في كثيـر من جهـات أُخـرى. وكمـا أن في كـل نـوع من الخيـوانات وحتى الإنسـان افـراداً ليست لهم ليـاقـة العمـل وهم عـالـة على غيرهم فهم يعيشون كطفيليات على كـد غيرهم . نجـد مثل ذلـك في مملكة النحل إذ هناك نوع منها لا يستـطيع أن يعيش إلاّ طفيليـاً على غيره وعلى مـا يجمعه الغير من أفراد النحل ، وأحيـاناً يكـون خطراً عليهـا وهذا النـوع يعتبر وحشيـاً بعيداً عن الحضـارة . كما أن هنـاك نوعـاً من الـزنـابيـر تعيش نصف متحضـرة فهي تعمل وتشتغـل ، بيد انهـا لم تبلغ درجة الاتقـان في أعمالهـا في بيـوتها ونـظامها فهي كـالإنسان النصف المتمـدن . وهناك أنـواع أُخـرى تعيش وحيدة وهي أيضاً قليلة الحضارة كما وان هنـاك فصائـل أُخرى متعـددة تختلف عن بعضها بمزايا متباينة .

الختـــام :

لو استطاع الإنسـان أن يعيش كالنحـل في حياتـه البسيطة مـراعياً فيهـا بضعة أُمور رغم كونها في منتهى البسـاطة إلاّ أنهـا في غايـة الأهمية لضمـان استقـراره وسعادتـه وسلوكه، كيف كـانت حياتـه؟ نرى أن النحـل يسيـر طبق قـانون طبيعي مـوحد لا يحيـد عنه في حكـومته وسيـاسته بـالنسبـة لـطبقـاتـه وأفـراده ، فكل طبقـة وكل فـرد فيها لا يحيـد عن عمله المـوكـل بـه ، وهـو دائب عليه بصورة لا ينفك عنه ولا يبد له بعمل آخر ، هـذا مع حفظ النـظام والطاعة المبنية على الحب المتبادل بينـه وبين أُمه وإخـوته وأخـواته . فـذاك

مكلف بحفظ الأمن ، وهـذا وظيفتـه مـراعـاة النـظافـة وتـطبيق الأصـول الصحية . وذلك يعمل بالبنـاء ، وهذا بـالتمريض ، وغيـرهم بتجهيز الـطعام ونقله لتغذية الأفراد المشغولين داخل الخلايـا ، وقلة أخرى مكلفـون بإطعـام الملكة وأخرى بإطعام الأميرات أو إطعام الذكور ، وهكـذا ، ومجموعـة عهد إليهم إحضـار طعـام الملكـة المختـار المخصـوص بهـا ، وجمـاعـة كـانت وظيفتهم مـلأ المخازن هـذا مع مـراعاة كـل منها بـالكمية المقـدمـة والنـوع المخصص .

٢ ـ التسـاوي الاقتصادي : فـلا تـرى أن فـرداً أو جمـاعـة يجمـع أو تجمع لنفسها كلاً فالكل يخدم الكل وما جمعوه فهو للكل .

٣ ـ الحرص المتناهي على حفظ النوع وسلامتـه واتباعـه خططاً ثـابتة ومعيّنة ومتقنة مراعية في ذلـك المستقبل القـريب والبعيد ودقـة فائقـة متوخيـة فيه كل نقص قـد يقع في المستقبـل . في نوع بنـاء المساكن وعـدد الخلايـا وأنـواعها وممـراتها وأحـوالها الصحيـة وسلامـة أفرادهـا وسعـادتهم وسهـولـة الحركة والنقل .

ورعـاية التغيـرات الجويـة في الأزمنـة المختلفـة ، ولا يقـل عن ذلـك الـدقـة والنـظام الـذي يتبعـه المتخصص بجمـع العسـل وتحضيـره ونـوعـه وكميتـه ؛ وكل جمـاعة تتبـع نفس الدقـة والمهـارة في الأمـر الـذي اختصت به ، وحتى الملكة الأم وهي أعظمها تضحية وخدمـة ورعايـة وتكليفاً إذْ على عـاتقها يقـع حفظ النحل وتعيين طبقـاته في المستقبـل ، وهي رمـز الـوحـدة والاتحـاد والقـدرة والنـظام والإدارة ، وهي مبعث الحب والحنـان والعـدل والمسـاواة ، بيد أنـه يظهـر أن لهـا المقـام الأسمى مـا دامت تؤدي مـا عهـد إليها من الواجبـات والتكاليف ، فـإذا ما بلغت بهـا الشيخوخـة الدرجـة التي يقعـدها عن العمـل أو مرضت وخـانتهـا قـواهـا ، صـدرت الأوامـر بتنحيهـا وإحلال غيرها محلها طبق رسـوم واحكام . ولـلآن لا يعرف من هـو المصدر لهذه الأوامر والمنـظم لهذه الأنـظمة التي هـو فوق أوامـر الأم الملكة . هـل

أن هنـاك مصدراً أعلى فـوق الملكة يـراعي المملكة ، أم أن هنـاك مجـالس مؤلفـة من عدة أفـراد منها الأم؟ إن الأم والأفـراد كل بحسبـه منذ بـدء خلقته تسيـر طبق أنظمـة خاصـة تتحكم بها في كـل عهد وكـل زمان ومكـان بحيث تلزمهـا ذاتـاً وغـريـزة على اتبـاع هـذا السلوك . إن هنـاك أموراً تـدل على التفكير وأساليب منطقية لا يمكننا تجاهلها . انزواء الملكـة وتركهـا للحكم . وإبـادة الأميرات من قبـل الملكة الجـديدة ، وانقـطاع العمال المكلفين على اطعام الذكور عن عملهم مباشرة بعد ليلة الزفاف ، وتلقيـح الملكة هـل كان مشـروطاً من قبـل على الأميرات انـه يجب عليها أن تغـادر مساكنهـا بعد ليلة الـزفاف ، وتكـون أسراً جـديدة مـع الذكـور فتقاعست عن واجبهـا ، فكانت النتيجـة أن صـدر عليهـا حكم الاعـدام قتـلاً وعلى الـذكـور جـوعـاً حتى الموت؟ .

وإنْ لـم يكن شرطاً ، فهـو حقيقة واقعـة ، إذْ كل أميـرة تركت الخـلايا وكونت لها حياةً جديـدةً خلصت من هذا العقـاب الصارم . فهـل كانت على أقـل تقديـر عالمـة بهذه العـواقب؟ ولماذا لم نتـركها قبـل ليلة الزفـاف؟ وإذا تعقلنا وتعمقنا في الأمر وجدنا أن النظام السـائر عليـه النحل هـو نظام كـامل دقيق بالنسبة لها ، لهذا لو أمكن أن يتبع البشر بالنسبة له مثل هذا لبلغ

صحيـح أن البشر يختلف عن النحـل بنمو عقله وغـرائـزه وتشكيـلات جسمـه وآرائـه ، بيـد أنـه يستـطيـع ان يجمـع إنْ شـاء كـل تلك الحسنـات والحسنـات الاخـرى التي يتصف بهـا غيـر النحـل، وأن يضـرب بكـل المساوىء عرض الحـائط، وإنْ اعتراف العقـلاء الذين أعيـاهم إصلاح هـذا البشـر إن البشر بـإمكانـه أن يعيش سعيداً أكثـر من كافـة الحيوانـات على أن يحـد الغرائـز ويجعل قيـادتهـا بـإرادة العقـل لا أن يستخـدم العقـل لإشبـاع الغرائز . هذا ربما كان السبب الوحيـد لويـلات الإنسان . ومـا أحلى الحياة الجمـاعية وأسعـدها للبشـر إن قامت الحكـومة على أسـاس الحب المتبـادل والمصالح المتبادلة. والاحساس بالحـاجة الأدبيـة والعلمية ، والعقـل السليم

المتـزن في الجسم السليم منبعث من وجـدان حي سليم ، عـدل إنسـان رباني كامل التهذيب خال من عوامـل العنف والخوف ، هـذه الحياة القـائمة على الشعور بالمحبة والاحترام والامتثـال الأدبي بين الآباء والأبنـاء وكثير من الحيوانات والحشـرات كالنحـل والنمل والأرضـة ما تقـدمه الأم في التعـاليم المقرونة بالمودة والحنان لأولادها ، وما يقوم بـه الأولاد من الطاعـة أو يطلبـه هؤلاء من آبـائهم أداءه على أسـاس الحـاجـة أو مـا يجـري بين العشيقين والمحسنين لبعضهم حتى بين الإنسـان وبعض الحيوانـات كالكـلاب . ولما تجده بين المتفوقين أدبيـاً وأخلاقيـاً أو دينياً على غيـرهم وشعور الأغيـار بهذا التفـوق وامتثالهم لهم على هـذا الأساس ، ومـا ينتـج على أسـاس هـذه من الطاعة المتبادلة .

مـا يتصف به بعض الأفـراد من رجـاحـة في العقـل ويصبحـون محـلاً للمشورة كالحكماء والعرفاء في القديم وفي الجديد ، ومثلهم المتخصصـون في فنهم من أطبـاء وفنيين ورجـال الاجتمـاع وغيـرهم ، كـل في فئـة ، تعـاليمهم لازمة الاتبـاع عما يبـدونـه عن تخصصهم لـلأغيـار ، ومثلهم آراء القضـاة والحكام الـذين عرفـوا بـالقسط والعـدل والـرأي الصـائب ، كقضـاة ومراجع التقليـد في الفقه الجعفـري وقضاة انكلتـرا ، وأمثالهم الـذين أجمع الناس على تبحرهم في الفقه والأصول ومـراعاة أصـول العدالـة والمساواة ، ومثلهم أئمة الدين الذين قطع النـاس على تقواهم ، وعلمهم الـذين ينظرون لله ويخـافونـه في كل كبيـرة وصغيرة ويـرجون ويخشـون في حكمهم ونهيهم يـوم الجزاء . تلك أمثلة يستـطيـع أن يقتـدي بهـا الإنسـان وتكـون منهـاجـاً وقواعد لسلوكه في الحياة .

النمـــل

قلنـا إن الطبيعـة تركت في كـل شيء أنظمـة وقوانين وقـواعد ، سـواء كـانت هذه حيـة أو غير حيـة ، وعلينا مـراعاة ذلـك ، ودون أن نتغـاضىٰ عن أي منها سواء كانت هذه بعيدة عنا أو قريبة خـارجة عنـا أو داخلية ، مـادية أو معنوية ، مراعاة كل ذلك في حياتنـا الماديـة والمعنويـة مطبقين أقـربها لنـا ، فإن جهلنا القـريب فالـذي يليه بـالقرب مهمـا كانت تلك وفي أي نـاحية من نواحي حياتنا الاجتماعية والصحية وروابطنا بـأنفسنا . وخـارج هذه النفس ، والبحث عن تلك القوانين والقواعد الطبيعية التي باتبـاعها نعـود في أي مورد وجهـة إلى الحقيقة الـواقعية ومنهـا السلوك الاجتماعي والـروابط الاجتماعيـة في الإدارة والمـواصلات والاقتصـاد وفصـل القضـايـا الحقـوقيـة والجـزائيـة والصحـة والمرض (أُصـول الوقـاية والعـلاج) وأُصول التغـذيـة وكـل شيء تتطلبه الحياة ، لهذا أوردنـا نظام الحكـومات والحيـاة الاجتماعيـة بين بعض الكـائنات الحيـة التي تعيش مثلنا في حياة جمـاعيـة ، فتكلمنـا عن النحـل ونتلو ذلـك بـالكـلام عن النمـل ، وأخيـراً البحث عن حياة الأرضـة ، ثم البحث عن الحيـاة الجماعيـة للحجيرات في البـدن الإنساني ، وتمـركز كـل قسم منها في ناحية ما وما تشكله من نسيج وجهـاز وتشابـه وتضامن هـذه مع بعضهـا وسلوكها تجـاه نفسهـا وغيـرهـا ، وبعـد ذلـك الاستفـادة من الحيـاة الأحسن والسلوك الفـردي والجمـاعي الأصلح والـلازم اتبـاعـه والأنسب في سير البشر . ولنا في حياة النمل وسلوكه الفردي والاجتماعي وتضـامنه وكـده ونظامه المتقن في شتىٰ شؤون الحياة منبع فياض .

النمـــل :

يعتبـر النمل على صغـره من الحشرات التي يعتـد كثيـراً بسلوكـه بمـا يحمله من مـزايا ويضمُّه في حياتـه من الأسرار المـدهشة ومـا تختص به من صفات ، الأمر الذي دعا قادة الفكر منـذ القديم كـأرسطو وبيني ـ ادووانثي ـ سـوامرون ـ لنيـه ـ ولليام كولد وغيـرهم من القدمـاء البحث عنه ومـا ورد في الكتب القـديمـة المقـدسـة مثـل القـرآن عنهـا كمـا وردت في سـورة النمـل الآية : إذ قالت نملة :

﴿ يا أيُّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحـطمنكم سليمان وجـوده ﴾ مما يدل أن النمل يفكر وان النمل يخاطب بعضه بعضاً .

ونـذكـر من العلمـاء الحـديثين في الـقـــرون الحـديثــة الأخيـرة رنــة انـطوان ، ذشولـد دور مور في كتـابه « تـاريخ حيـاة النمل » في سنـة ١٨٦٠ وبعـد ذلك سنـة ١٩٢٥ حصل على مـذكـراتـه ويلر الأمـريكي ونشـرهـا في نيويورك، وكان رومور وهـو فرنسي قـد كتبها زمن وفـاة لويس الخـامس عشر عن عمـر يعادل ٣٢ سنـة . وقد ذكـر أن النمل يستـطيع أن يعيش سنـة بدون غذاء في أرض رطبة .

ومن العلمـاء لـووانـدون ، وسـارل لـونـد أكبـر الفـلاسفـة والعلمـاء الطبيعيين على الأخص في الحشـرات ، وبيـر هور صـاحب كتاب « أُصـول حيـاة النمـل الـوحشي » ، واسمـان الألمــاني الــذي قضى ٣٠ سنــة في التحقيقـات العلميـة ولـه بحـوث مسهبـة . ومن علمـاء الحشــرات الاستـاذ مورلود ويلر ورويلتريك وشارل دالت .

ويجـدر بنا أن نبحث بصـورة موجـزة عن صفات ومـزايا وأسـرار النمل لنقف على سلوكـه وحيـاتـه الاجتمـاعيـة ونـوع حكـومـاتـه ثم مقـارنـة ذلـك بالإنسان .

العائلة النملية :

تتألف هذه العائلة من :

أ ــ الملكة وهي أنثى ومصدر التوالد وإيجاد الأولاد وتعيش حوالي ١٢ سنة .

ب ــ يلي الملكة الذكور والإناث .

جـ ــ العمال وهم خنثى (لا ذكر ولا أنثى) مثل النحل ويعيشون ٣ ــ ٤ سنوات . وللذكور والإناث أجنحة تبقى لهم ما داموا بكراً لم يتلاقحوا، فإذا ما تلاقحوا سقطت أجنحتهم . ويختلف النمل عن النحل أن للنمل أمهات عديدات في البيت الواحد ، في حين أن النحل كما مرّ ذات أم واحدة لجميع من في الخلايا ، وهي الملكة ذات السلطان .

ويعيش ملايين النمل في مملكة واحدة ذات بيوت وإمارات كثيرة ، وسيأتي ما تتصف كل منها في الأصول الاجتماعي والعمراني والإداري وطبقاتها ، ومراعاة قواعد وأنظمة كل منها ، وطاعتها العمياء وانقيادها ودأبها في أعمالها تحت سلطة لا يعلم للآن مديرها ورئيسها ، وتحت سيطرة أية قدرة وقانون تسير أمورها ، لهذا كثرت نظريات العلماء في تلك ، وما أقرب ذلك شبهاً بنظام الحجيرات في البدن الإنساني في بعض الوجوه ، ومثل ذلك نحل العسل . لولا أن الحجيرات للبدن الواحد تمتاز بثبوتها وفواصلها في البدن الواحد ، وما لتأثير القوة الكهربائية في ضبط هذه في الجذب والدفع بالنسبة للفواصل الموجودة ، وما أشبه هذه الفواصل بالفواصل الموجودة بين الكرات السماوية بالنسبة لحجمها ومدى الفواصل بينها . هذه الحياة الصغيرة ما أشبهها بتلك الحياة الكبيرة . يقول العلامة ويلر لو فرضنا أن في قدرتنا أن نضغط الجسم الإنساني بحيث يجمع ما به من الحجيرات والقوى الكهربائية وأزلنا الفواصل لا ترى سوى جسم صغير هو بضعة مللمترات مكعبة ، وليس هذا العمل بالمستحيل ،

فقد أوجدت الطبيعة ذلك في كثير من السيارات مثل (كوكب الشعراء اليماني) والأقمار التابعة للسيارة زحل بحيث أن لتراً من الماء لو نقلناه إلى أحدها أصبح له وزن يساوي خمسين ألف كيلو غرام .

ترى من هو الذي يعلم النمل والنحل عمل بيوتها وخلاياها ، وعدد المساكن والخلايا الحجم اللازم لكل منها حينما تراها دائبة على عملها؟ وعندها نقول يا ترى من هو الباعث على قيام الحجيرات في البدن الواحد في حالة الجوع ، والعطش ، والخوف والفزع وكل إحساس إرادي أو غير إرادي وشعورها بالشبع والارواء عند تناول الفرد المقدار المناسب وإجراء القدر الضروري والعمل اللازم؟ ترى كيف أن جميع جوارح البدن تشترك في هذا الاحساس وتتفاوت من أجله؟ إننا في الواقع لليوم عاجزون عن تشخيص القدرة العظمى والقوى المبدعة والمنظمة والمسيطرة في البدن الإنساني بالنسبة للحجيرات ، ومثلها في بيوت النمل وخلايا النحل بالنسبة لهذه الحشرات . وما أعجزنا عن تشخيص ما يشابهها في الأجرام والكرات السماوية ، إذا ما أحصيناها لوجدنا الشمس لا تساوي حجيرة بل أقل من حجيرة لو قارنا الحجيرة للبدن الإنساني والشمس إلى مجموعة الأجرام الكونية .

ونزداد عجباً حينما نشاهد العمل المنظم الفني عند النمل المبني على تصميم سابق لتأسيس مأوىً أو طعام أو غير ذلك ، مع أخذ كافة جوانب الاحتياط والانتخاب من عود وحشيش وشراب وانتخاب المكان المناسب بالنسبة للطقس والرطوبة والرياح وغير ذلك . ذلك الرشد ، تلك الحكمة ، هذه التعاليم هذه المعرفة ، هذا النظام الفردي والاجتماعي ، من هو الموجه والمدبر والمسيطر؟ هل هي تمشي حسب تعقل أو غريزة أو كليهما؟ وأي غريزة تجعلها تنتخب الأنسب والأحسن؟ أم هي تمشي حسب رأي وعقل وإدراك ؟ وإذن لماذا هي باقية كما كانت عليه منذ آلاف السنين؟ هل هي مقيدة بعقائد ، أو تحت سلطة لا تسمح لها أن تحيد عمّا هي عليه؟ .

هـذا ما لا يمكننـا الجواب عليـه : هـل هي شبيهـة بحجيـرات البـدن الـواحد المـوجهة إلى هـدف واحد لخـدمة عـامة وخـاصة؟ عـامة كمجمـوع ولمجمـوع الحجيـرات ، وخـاصـة كـل لنفسـه؟ لا شـك انهـا تتفق مـع الحجيـرات من جهة وتبتعـد عنهـا من جهـات، فـالنمـل كـالحجيـرات ذات تخصص وكل دائب على عمله الخاص .

طبقات النمل :

إن النمل مقسم إلى طبقات ولكـل منها اختصـاص يختص به ، فمنهم من اختص بـالبناء فهـو يجيده ويتقنـه أكثر من غيـره وليس لغيره القيـام به مـا دام هـذا مـوجـوداً ، ومن النمـل من هـو مختص بـالحمـل والنقـل ، ومنهـا المحارب مجهز بوسائل الدفاع والهجوم ، ومنها من اختص بأعمـال التناسـل وحفظ النـوع وغيـر ذلـك . وهنـا التخصص ليس على أسـاس التـربيـة والتعليم ، بـل لما يحمله من مؤهـلات جسميـة حيث يـأتي تفصيـل ذلـك ، فمثلاً إن النمل المحارب يمتاز بقوته وشكل فكيه ورأسه وقواطعـه وما يحمـل في جسمـه من آلات القـطع والبتـر والإبـادة ، وهكـذا غيـره ومـا يحمله في عمله الخـاص ، فهو مثـل الإنسان في التقسيم ، ويختلف عنـه أنه الإنسـان قلمـا يراعي المؤهـلات الجسمية في ذلـك وإنما يقـوم على أسـاس التـربيـة والتعليم من جهـة أو على أسـاس العنعنـات العـائليـة ومـا يحمله من طبـاع وخلق موروثه أو مكتسبة . فلم يكن الحمال أحياناً أشـد قوة وأمتن عضـلات من المهنـدس ، ولم يكن الضابط لـه مؤهـلات جسميـة أكثـر من غيـره غيـر التـدريب والتعليم وما يجهـز به من أسلحـة . وهل أن النمـل يتأثـر بالتـربيـة والتعليم وعنـدها يمكن وضـع العامـل مكـان المحـارب وبـالعكس؟ مـا هـو الـداعي أن يسير النمـل على هذه الشـاكلة من النظام وأن تكـون حكـومـاتـه بهذه الشاكلة من الجمهوريات؟ .

يقول الاستاذ هوبران أصـل النظام بين النمـل يقوم على أسـاس الحب والـطاعـة . ويقـول الاستـاذ اسيـان مبني هـذا الحب في اقـامـة النـظام

الجمهوري إنما هو ذكاء النمل، وهذه الغريزة الباعثة للحب بينها وبين أفراد النمل وغير النمل هي الباعثة لأصل النظام بينها .

من العجيب أن النمل يتفادى في سبيل جنينه أكان في بطنه أو بعد ولادته دفاع المستميت ويحافظ على حفظه ويدافع في كافة موارد الخطر دفاعاً شديداً ، كأنما يتوقف حياة كل النمل على حياته ، وما أشبه هذا الدفاع بدفاع حجيرات البدن الواحدة تجاه بعضها عند حصول خطر تجاه نقطة في البدن . وما تقوم به كافة الحجيرات في الدفاع والهجوم والألم والسرور وبذل الجهود وبلوغ الخير ورفع الشر بشكل جماعي .

خصائص النمل :

تعتبر النملة على عكس ما عرفها القدماء متناهية في الكرم والسخاء ، مجدة ، كدودة من أجل غيرها ، صبورة دائبة ، تقدم ما تجمعه في بطنها الذي يشبه المعدة والذي يؤلف أعظم أقسام جسمها لتغذية أبناء جنسها بحب غريزي ، دون أن تطلب عوضاً عن ذلك أو تحسبه ديناً ، فهي مجبولة على ذلك بل ان النملة تقدم ما تحمله حتى لغير أفراد فصيلتها وقبيلتها وحضيرتها ، وحتى لو كانت عدوة لها ، فهي تقدم لها أو لهم ما عندها من طعام قبل المعركة وعند نهاية ذلك تعود للحرب .

التوالد :

الأُنثى ضعف حجم الذكر ولها أجنحة ، ولكل أُنثى غالباً ستة أزواج ، ويتم التلقيح والمعاشقة في حالة طيرانها في الهواء . وبعد أداء التلقيح تموت الذكران وتنزل الأُنثى وتسقط أجنحتها ثم تقوم على تنظيم وتنظيف نفسها ، ثم تذهب إلى مقرها وتشرع لتبيض وتعيش بما جمعته في جسمها من الطعام ، وتبيض أولاً عدة بيضات لا تلبث أن تفقس وتصير حشرات فتغذيها أُمها ، وتبقى بضعة أشهر أُخرى وربما امتد أمد ذلك إلى سنة ، وهي باقية في محلها ، وفي كل مرة تبيض بضعة بيضات وعندما

تجوع تأكل واحدة أو اثنين منها ، وتغذي الأُخرى حتى تبيض آخر ما عندها ، وهؤلاء يكبرون ويشتغلون وبعد ذلك لا تشتغل الأُم بل على أولادها تهيئة غذاءها وهكذا تتشكل العائلة . ومن العلماء الذين طالعوا حياة النمل . هوير . كوك بيشمان وجان في كتابه (لاسيوس) وقول وغيرهم قد وجدوا أن للنمل نحواً من عشرين ألف نوع لحد اليوم . فمثلاً يوجد نوع من النمل يسمونه كاربارا يعيش في إفريقيا الجنوبية له ملكة ذات حجم كبير يساوي ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ حجم النمل العادي منها ، وتحمل عندما تريد أن تطير في الهواء للملاقحة اثنى عشرة نملة كبيرة على أرجلها . وبيض النمل صغير بدرجة لا يرى بالعين المجردة ويحتاج إلى مكبرة .

عمر النمل :

الذكور من النمل تموت كما مرّ بعد عمل التلقيح . والعمال تعيش ٥ ـ ٦ سنوات ، والانثى تبقى حية لتعمل دورين أو ثلاثة أدوار من أعمال التفريخ وبعدها تموت . ويختلف النمل في حياته عن النحل بأنه يعيش طويلاً بلا غذاء حتى ليكتفي بوجود رطوبة مختصرة في مقره .

وتختلف انثى النمل عن انثى النحل انها بعد التلقيح قد تذهب إلى غير مقرها الأول ، وهي أينما ذهبت يستقبلها نمل تلك المنطقة بشوق .

بيوت النمل :

تختلف بيوت النمل باختلاف أنواعها وربما تشابهت هذه بنظامها ، كاختلاف البشر ، فمنها ما هي في غاية النظام والترتيب حيث نرى في مساكنة المخازن المنظمة وعمل البيض وبيوت الحضانة والاصطبلات والصالونات ومحلات الصغار ومحلات الكبار، كل على حدة ، وبيوتها ذات مناخ وحجم يناسبها ، كما نجد منها ذات نظام يدل على ذوق ورقي ودقة لحفظ الطعام والذخائر ، وأُصول رعاية فراخها وبيضها . بينما نجد قسماً منها مهمل غير منظم وذا حياة مبعثرة ، وما أشبهه بطبقات البشر من

حيث النظافة أو بحجيرات الجسم الانساني . فنرى في الإنسان السليم حجيراته وأنسجته تقوم بنظام مرتب كل بوظيفته ، بينما أجسام الناس السقيمة لا تقوم حجيراتها كلها أو بعضها بوظائفها المنظمة ، وعلى العموم يمكن تقسيم أنواع بيوتها إلى ثلاثة أو أربعة أنواع ، وهي غالباً تعيش تحت الأرض وكثيراً ما تكوّن طبقات حتى تصل إلى عشرين طبقة ، ومنها التي تعيش في الغابات يكون ارتفاع بيوتها ما يقارب المترين وسعته عشرة أمتار ، ومنها ما تنظم مجاري التهوية وتحافظ على طقس مناسب وتراعي أصول الصحة والنظافة ، ومنها ما تعيش مجموعات في مساحات نحو ١٥٠م٢ منظمة ومرتبة في جميع شؤونها ، ومنها ما تفقد ذلك النظام كما نشاهد ذلك في حياة البشر المثقف وذي الحضارة المتوسطة والبدوية والبشر الذي يعيش أقرب إلى الوحوش في مجاهل افريقيا وبعض الجزر . وقد نقل عن المستر كوكو قميس في تبسلوانياً انه اكتشف أن النمل عملت مدينة لها مسافة تساوي نحواً من أربعين هكتاراً تحوي على ١٦٠٠ بيتاً منظماً عمقه ١م وسعته أربعة أمتار وفي كل بيت ما يقارب ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ نملة . ولا يهم النمل الليل أو النهار بالنسبة للضياء . وهو يحافظ جداً على نظافته اليومية الخاصة والعامة بالنسبة لجسمه وبيته ومملكته ومهتم بالأعمال الرياضية . وشديد الحرص على نظام البيت . وأصول التغذية ورعاية أفراد العائلة . وهو في أصول التغذية يسلك طريقين :

أولاً ، ما يجمعه ويحمله بين فكيه ويأتي به لمخازن بيته ويجري عليه ما يلزم اجراؤه لامكان حفظه لأمد طويل ، مراعياً درجة الحرارة وإمكان حياته في الحر وعدم إمكان ذلك في الفصول الباردة .

ثانياً : ما يحمله من الغذاء في بطنه في كيس خاص ومنه يقدم طعاماً لذويه وأبناء جنسه وحتى لغيرهم من الغرباء ، إذ النمل كريم جداً ، ومن صفاته الخلقية العالية أنه يود مساعدة الغير حتى لو كان عدوه فيقدم له عن طيب نفس ما يحمله عندما يراه بحاجة لذلك .

استراحة النمل :

حينما تأتي النملة إلى مقرها بحملها الثقيل الذي أتعبها غالباً ، أو قل بعد التعب أو الفراغ من العمل المجهد ، يستقبلها أفراد اختصوا بهذا ، فيأخذون ما تحمله بين فكيها ، وما هو في كيس بطنها ، ثم تجري لها التنظيفات مما علق بها من الأوساخ والقذارات وتمرغ اطرافها ، وتقاد إلى مرقدها الهادىء للاستراحة والنوم العميق .

سكان الأشجار :

ما مرّ بحثه كان عن سكان طبقات تحت الأرض . وهناك أنواع من النمل تتخذ من جذور الأشجار بيوتاً ، فهي تحفرها وتعمل بها طبقات ذات سقوف وأعمدة وحواجز رقيقة مصقولة كأنها من مادة العظام القديمة . تقيم هذه الطبقات بصورة منظمة فتؤلف منها قرية أو مدينة داخل شجرة أو مجموعة من الأشجار متقاربة . كما أن هناك نوعاً يعمل بيوته في قشور الأشجار وهذا النوع يستعمل هذه البيوت بصورة مؤقتة حيث يهاجر ويترك بيوته لجماعة أخرى من النمل تهاجر هي الأخرى إليها .

بيوت النمل الاصطناعية :

قام جماعة من العلماء والباحثين عن حياة النمل أمثال هوبر ، أو فول ، لوبرك واسمان ، ميس أول ، شارل ترافت ، ويلر ، كوفر وغيرهم بأساليب متعددة وكل بطراز خاص ولمجموعة خاصة من النمل على عمل مساكن اصطناعية من الزجاج والخشب والجص والاستفادة من التراب الرطب على شاكله بيوتات النمل ، مراعين في ذلك الحجم والنمط الخاص بها ، وبذلك سهلوا دراسة حياة النمل وكشفوا كثيراً من أسراره بعمل ذلك وإسكان الكل فيها .

النمل المحارب :

النمل أكثر من كافة الحشرات تمدنا ونظاماً وكثيراً ما رأينا في طبقات النمل طبقة قوية تمتاز بطراز جسمها الذي خصته بها الطبيعة، تقوم بالدفاع عن الطبقات الأخرى ، وهذا أصل اجتماعي لمن يعيش بصورة جماعية وتوجد هذه الصورة أكثر بين النمل ذوي الأجنحة . وقد يوجد هذا الدفاع عند النحل (زنبور العسل) ، وذلك عندما يصبح عرضة لغارة جماعية من الأغيار (من النمل الغرباء) حينما ينسكب العسل لسبب ما .

والنمل أكثر الحشرات عدداً من النحل والإنسان ، مجهز طبيعياً بتجهيزات بدنه الدفاعية والهجومية القوية ، بما في ذلك في فكه وأسنانه وذنبه اللاسع ، وطبعاً فيما بينها اختلاف في الشدة والضعف ، وبهذا تستطيع القضاء على غريمها بقطع أعضاء الأخرى أو لسعها وافراغ سمومها فيها ، وهذا اللسع لا تستعملها إلاّ عند الضرورة .

فنون النمل الحربية :

يمتاز النمل بفنونه الحربية الموجودة عند الإنسان في الدفاع والهجوم ، بل وتمتاز على الإنسان في كثير من الأحيان لدرجة يكتسب الإنسان منها خبرة وعلماً في هذه الفنون ، وتختلف هذه باختلاف أنواع النمل شدة وضعفاً ، فهي تعرف معارك الميدان والحملات الصاعقية والحملات الجماعية وحرب الرّبّيات والخنادق والهجمات الفجائية غير المترقبة واستعمال الخدع الحربية والاستبسال والحروب الهادئة واشغال مراكز الاعداء بصورة أكثر وأدق مما هو عند الإنسان ، وتستعمل الدفاع السامي والحروب والهجمات المستميتة ، كما تعرف الانسحاب المنظم السريع . والنمل رغم كونه هادئاً فهو يعتبر أشد الحيوانات لياقة في الدفاع عن معاقله . وهو رغم ما يحمله من سلاح قوي فهو يحترم أفراد وأموال الآخرين نهاية الاحترام . ومع هذا يوجد بين النمل أشد قوة وأكثر

تجهيزاً ، ويعطي لنفسه حق التجاوز فيما يجده بين الآخرين ، ورغم ذلك فهذا الصنف يعتبر أذكىٰ أنواع النمل وأكثره حضارة ، وقد وجد في هجوم قبيلة على أُخرى ان الغاية إنما الاستيلاء وتصرف البيت بما فيه من إناث وبيض وأطفال ، كما وجد أن من دافع كان هدفاً للهجوم ، ومن لم يدافع فله الخروج سالماً إلى حيث شاء . وعلى المهاجمين الغالبين تربية أطفال الأسرى حيث فيما بعد يصبح الأسرى جزءاً من هذه القبيلة الغالبة ، ويكتسبون أخلاقهم ، وان كانوا من حيث الفطرة الجسمية مختلفين لأن النمل يختلف ذاتاً من حيث الذكاء والنشاط والقدرة الجسمية والفكرية ، وليس أخذ الاسرى من شيم وخصائص النمل بصورة عامة إلّا بصورة استثنائية ، وهو من شيم النمل الخيلي ، والنمل المعارك يمتاز بفكيه وعضلاته القوية ، وهو بحاجة ماسة لاستخدام الاسرى لأنه عاجز عن ايجاد الطعام ، كما انه عاجز عن بناء المساكن حضانة الفراخ ولا بد له من الخدم وإلّا مات جوعاً هو وفراخه ، وعكس ذلك العمال لهم خاصة فائقة للخدمة ، وهم ذوو عواطف رقيقة وبيدهم معونة واحياء النوع الخامل من النمل الذي لا يعمل بمدهم الطعام .

إن النمل الخيلي له قابلية فائقة ومدهشة لخوض المعارك والتضحية بما له من الغريزة المعنوية والبناء الجسمي فهو لا يعرف التراجع . وبغية وصوله للنصر يقضي على الصغير والكبير وحتى على القريب والصديق المقاوم حتى يدرك بغيته من الغنائم .

وهناك نمل أحمر دموي اللون شديد المقاومة والدفاع في مختلف الميادين والمعارك إلّا أنه لا يطبق المقاومة أمام النمل الخيلي .

الثورة على الأسياد :

كما يحصل عند البشر ثورة الأسرى يحصل مثله عند النمل ، فتهيج وتثور من شدة ضغط المؤسرين وظلمهم . كما يوجد نوع من النمل هادىء وحليم جداً في حياته الاجتماعية وجنى التغذية والتربية ، بيد أنه غالباً ما

يقع تجاه غارة المهاجمين ، فيكـون ضحية لـلأسر والعسف ، وحينمـا يضيق به الرحب من شدة وطئه الأمرين يثور بما لديـه من حول وطـول وقوة ، كـأنه كتلة واحدة وتقضي على تلك الشرذمـة الطاغيـة وتطردهـا ، ولكن غالبـاً تبوء بـالفشل ويقضي على نهضتهـا بعد تكبـدها خسـائر فـادحة . كمـا يقع أمثال ذلك في حياة البشر .

الملكية عند النمل :

النمـل كالإنسـان تتملك البيوت والـطعام والأولاد والأسـرى والمـزارع المجـاورة وغير ذلـك ، وتشابـه بعض الناس فتتجـاوز على حقـوق الآخـرين وتقـع بينهم معارك داميـة ومنها مـا يقع بين النمـل العـادي ونـوع من النمـل العائش على الأشجار وأكـل ألبابهـا المسمى بالنمـل الأبيض، وحتى أن النمل العادي يأكل ذلك النمل وتفصيل ذلك في كتاب لوركنيون تحت عنوان المعركـة بين النمل.

عواقب الحرب والاختلاط الاجباري :

مرّ آثارهـا عند النمـل كما هـو الحال عنـد البشر . فقـد جربـوا عندمـا يجمعـون أنواع النمـل سواء من نفس الجنس أو فصـائل مختلفـة ، تقـع في البـدء بينهم معارك تكـون دامية أكثـر كلما ابتعـدوا واختلفوا عنصـراً ، وبعـد مـدة تختلف حسب تباعـدهم وأحيانـاً يـومين أو ثـلاثـة أيـام ، بعـدهـا تهـدأ أوضـاعهم ويسود السـلام ويقومـون بصورة جمـاعية لبنـاء مسكن أو عمـل ، كمـا يتأثـر الواحـد من أخلاق الآخـر وعاداتـه . حتى لتجـد النمـل المعـارك (الخيلي) المـار ذكـره والمختص بـدخـول المعـامـع والمعــارك فحسب ، والـذي لا يعرف حتى تهيئـة طعامـه يتعود العمـل مـع العـاملين وهكـذا يلين طبعه الوحشي . وهذا عينه نجده بين البشر إذا حصـل لهم مثل ذلـك . وإذا محصنا علة الهدوء والسكينة بعد العـراك كان السبب تغلب جمـاعة وانـدحار أخرى وإطاعة المغلوب لأوامر وسيـطرة الغالب وعنـدها تصـدر أوامر الغـالب وتعود الحياة إلى مجاريها .

النمل الوحشي :

هناك نوع من النمل الوحشي في البرازيل وافريقيا الجنوبية والمكسيك وغيرها من آكلة اللحوم ، وهي لا تعتبر مهاجمة بل بقصد الأكل والتخريب ، إذا حلت مكاناً لا تبقي من الحيوانات الصغيرة والكبيرة غير العظم رغم كونها عمياء ولم تخلف غير التخريب . فهي تتقدم كجيش جرار وليس بطاقة أي كائن أبداً المقاومة أمامها . تسير بقيادة ولأهداف معلومة وتشبه حملتهم بغارة لآلاف الذءاب الكاسرة الجائعة على قطيع من الغنم ، بل وأشد إذْ هم يأكلون ويحملون ، وكانوا قديماً في المناطق الموجودة بها هذا النمل يقدم لها المحكوم عليهم بالاعدام فلا تبقى منه سوى الهيكل العظمى . ومن غرائزها انها إذا قتلت في منطقة تركتها وهذا ما يعمله المزارعون في البرازيل .

وعندما تزحف جيوش النمل فهي لا تبقي في طريق سيرها على حي حتى لو كانت قرية قضت عليها بما فيها . ولم يكن لهذا النمل بيوت منظمة كغيره فهو دائماً في حالة حركة .

روابط النمل :

كيف تعرف النملة العمياء العائشة في الظلام وكيف تشخص ذويها وبنيها وتهتدي طريقها وغير ذلك؟ .

لا يستطيع أحد الجواب القطعي على ذلك للآن ، بيد أن المجربين لاحظوا سبعة ثقوب على خرطوم أو فك النملة ، فقطعوا أحدها فعندئذٍ ضلَّت طريقها إلى الدار ، وقطعوا الأُخرى ففقدت تشخيص ذويها ، وعندما قطعوا الثالثة ضلَّت طريقها ، وعندما قطعوا الكل فقدت تشخيص كل شيء ، فقالوا إن حاسة الشم هي التي تهديها في كل ذلك ، وهذه الحواس تختلف قوة وضعفاً باختلافها من حيث الفصيلة والسن والجنس أكان ذكراً أم أُنثى ، في حين أن هذه الحواس موزعة على جميع البدن في

بعض الحشرات . فمثلاً الفراشة تعرف طعم الأشياء بأرجلها ، وكل رجل تشخص ما لا تشخصها الأخرى وعند بعضها حساسية قوية جداً بحيث تقدر من تشخيص الشيء على بعد أميال ، أو تتأثر في الزمان القريب أو البعيد وتتأثر من العوامل الكهربائية والمغناطيسية أو قوى الطبيعة الأخرىٰ المكتشفة من قبل البشر أو التي لم تكتشف بعد ، وأمور أخرى لم يتوصل إليه البشر بحواسه وعلمه لليوم . وهذه الإحساسات التي توصلوا إلى بعضها لها أثرها الكبير عند النمل والحشرات بحيث أن فقدها يؤثر على تلك الحاسة . فالطرف الحساس في النمل يقوم مقام العين وحاسة الشم واللامسة والناطقة وغيرها من الحواس ، وما أسرع ما ينتشر أي خبر على وجود صيد أو حدوث خطرٍ على البيت بين العائلة والقبيلة الواحدة من النمل ، وقد أجريت مختلف التجارب على ذلك ، ووجد كيف أن النمل يشترك في المساعدات الجمعية ويسهل الصعب في العمل أو الحمل والنقل وكل شيء لا يطبق عمله بانفراد . رغم ما تجده من مساعدات النمل لنوعة تجد إذا مرض أو قتل أحدهم قادوه خارج البيت وتركوه ، ومثله النحل إذا مرضت نحلة أخرجوها من البيت وأحياناً القضاء عليها ، وهذا ما كان يعمله بعض البدو في القبائل البدوية قديماً ، عندما كان يصاب أحدهم بمرض مسر مثل الجدري فيتركون عنده ماءً وطعاماً ، ويرحلون عنه حذر العدوي ووقاية لبقية أفراد العائلة والقبيلة ، وبذلك يفدون الفرد لسلامة الجماعة التي سيصيبها نفس المرض. وقد يكون للنمل ذلك الشعور والمدى الصادق بمرض الموت لمريضهم ، أو هي غريزة طبيعية تحفظ بها سلامة النوع .

وشوهد أن جنود النمل لا تعير أهمية لإنقاذ غريق أو جريح في ساحة الوغى في الدفاع والهجوم . بيد أننا أحياناً نشاهد بعض الأنواع تراعي أفرادها في طعامها وحتى تبقى تمرِّض مجروحيها وعلى الخصوص الملكة وحتى بعد موتها . هذه الصفات موجودة عند البشر البدائي في أمر

عـدم الاكتراث بـالآخرين وعـدم مد يـد المساعـدة ، إلاّ عند أولئـك الـذين يحملون الـروح الأخلاقيـة الفاضلة ، أو المتـدينين الذين يـرجون بـإحسانهم الجزاء الأوفى في الآخرة .

قلنـا إن النملة عمياء لكنهـا تهتـدي إلى طـريقهـا ، ويقـال إنهـا تفقـد حس السمع ، غير أنها مجهزة بحـواس أخرى ، يقـال انه حس الشم الـذي يقـدر ان يميز بين أنـواع الروائـح لشتىٰ الأشياء ويقـدر مسافـاتهـا ، كمـا أن بعض الحيوانات مثل الطيور المهاجـرة والخيل وغيـرها لهـا حواس يسمـونها بالحس الثاني عشر لا توجد عند البشر .

الوعي عند النمل وتربية الدواجن :

قسم من النمـل كالإنسـان البدائي القـديم حتى عندمـا كان يعيش في الغـابـات ، كـان يحـاول أن يعيش في أمـاكن قـريبـة ومن الصيـد البـري أو البحـري أو يقوم بتـربية نـوع من الحيوانـات . هكذا نـرى أقسامـاً من النمل كل حسب غريزته وعـادته ، فمنهـا ما تجـاور الأماكن القـريبة من الحشـرات التي يستفيد من لحمها أو من حليبها ويحافظ عليهـا ويرعـاها . كمـا نشاهـد قسمـاً من النمل السمي (الآسيـوي) يأتي بـأغنـامـه وحشمـه إلى مسكنـه ، ويعمل لها حضيرة ويقص أجنحتها ويقـوم بتربيتهـا ويعتني بنظافتهـا ويحميها من التعديات ، كما يحمي مسكنه وفـراخه وأمـواله ويحـافظ عليها في الحـر والبرد ويقوم بتنظيف اسطبـلاتها والـخ . كما يجمـع بيوض بعض الحشـرات ويـأخذهـا لبيته ويعمـل على تفريخهـا وعندمـا تصبح افـراخاً يعتني بتـربيتهـا اعتنـاءه بافـراخه . وقـد وجد أن بعض النمـل يستفيد من نـوع من الـديـدان الأرضية بعد تـدريبها ليـركبها كـالفرس ويحـافظ عليها من الأغيـار باعتبـارها ملكاً له . كما وجد في الهند قبل هـطول الأمطار ان النمـل يحمل قسمـاً من الديدان التي تصير فيما بعد فراشه ويقوم بتربيتها كأنه عالم بذلك .

النمل يستفيد من الزراعة :

وهناك نمل يعيش على أشجار الغابات وعلى نوع شجرة تسمى (پارازيت) وتعمل بيوتها ظاهرة إلّا أنها قوية تجاه العواصف والأمطار ، وتقوم على تربية نوع من النبات حيث تستفيد من جذوعها لبناء بيوتها .

وهناك نوع آخر من النمل يقوم على زراعة نوع من النباتات التي تحمل أوراقها إلى حضيرتها ، والبعض تجمع نوعاً من الحبوب عند مدخل بيوتها وتغطيها بالتراب وعند هطول المطر تخرج فيستفيد النمل من لبانها لطعامه ومثل هذه الأخيرة توجد في شمال الجزائر وفرنسا . وفي المناطق الباردة لا يدخر النمل طعاماً لشتائه ، وفي المناطق الحارة يدخر لشتائه ويرتب الحشيش والبذور والطعام الذي يجمعه ، ويحاول أن لا يفسد والبذور لا تخضر وأحياناً يكسرها ويحافظ عليها في المذخر طيلة الشتاء ويخرج الفاسدة وغير المفيدة منها .

النمل الحائك للنسيج :

اكتشفت منذ ثلاثين ونيف سنة في المناطق الحارة ويقدسها البعض من السكان لأنها في المناطق الزراعية تدافع عن الزرع ، فهي ضد الحشرات المؤذية حيث تقضي عليها وتعمل بيوتها على أوراق الأشجار ، حيث توصل عدة من الأوراق الكبيرة ببعضها بنسيج تعمله من لعابها ، كما تعمل منه بيوتها ذات الطبقات وكما تربط بذورها بهذا النسيج . وهي إن أرادت إيصال ورقة بعيدة عملت من أنفسها حبلاً يوصلها نملة بأخرى حبلاً على قدر ما تشاء ، طويلاً يبدأ من النقطة التي بها الورقة وتثبتها إلى المحل الذي تريد ايصالها إليها ثم تقوم بربطها بالنسيج المذكور وعملها هذا مدهش حقاً . وقد وجد أن بعض النمل يحاول المستحيل حتى يدرك بغيته فهو يبتكر العبور من على سطح الماء والعبور من فوق النار وحتى ما لا يتصوره البشر من عظم التضحية والمثابرة مما يدل على فكر وتدبير سابق .

ذوات المذاخر :

في المناطق الحارة والمعتدلة يوجد نوع من النمل الذي يعيش على النبات وأخص منها الفواكه يجمع في بطنه العسل ما يساوي ٣ ـ ٤ ، أضعاف وزنه وأحياناً يصبح كحبة عنب ويأتي به ويدخره في بيته الذي يعمله بطبقات داخل الأشجار بطول ٣م وعمق ١م وعرض ١/٢ م وتبقى النمل أشهراً ثم تموت ، ويقوم النمل الصغار باستفراغ العسل منها ثم حملها بعيداً عن مساكنها .

ويستفيد سكان المناطق من عسل هذه ، وقد شوهد هذا النمل أحياناً يمتص من خلايا النحل من العسل لدرجة الافراط حتى الموت ، ولا يمكن تفسير ذلك بسهولة وعلى كل فهناك أسرار أعمق وأدق للنمل لم نتوصل إليه . والنمل في الإمارة أو المملكة الواحدة ينقسم من حيث التخصص والأعمال فهو داخل البيت له وظائف خاصة بكل نوع ومنها ما لا تخرج للفضاء الخارجي ، فهي إذن تختلف شكلاً وحجماً وقيافة .

النمل يطفىء النار :

في بعض المنشورات والمجلات ذكرها موريس مترلنج في كتابه « النمل » بأنه جرب أن نوعاً من النمل المسمى «روفا» كل واحدة من مجموعة ستة منها لها قابلية اطفاء النار .

اتقاؤها من ضرر الماء :

كما وجد انها إذا وجدت ماء يهددها تلقي فيه تراباً إلى أن تملأ الحفرة وهذا يدل منها على فكر وتدبير .

النمل الطفيلي :

ويسمى بارازيت فوانكل وهو نوع من النمل ، وينقسم بدوره إلى عدة أقسام حسب العمل الذي تقوم به وهي تعيش على كد غيرها ، فهي إما أن تسرق أو تغير وتسلب حقوق الآخرين في غارتها ، أو تحتال على

الغيـر ، فهي طفيلية على النمـل ، وقد ذكـرنا سـابقاً صفـات ومـزايـا النمـل الـراقية في الجـد والمثابـرة وحب النوع والبـر والاحسان ، بيـد اننا نـرى في نـدرة منها شـذوذاً لم يستطع لـلآن تفسير ذلـك ، رغم مـطالعـات ذوي الفن حـول ذلك ، حتى شـوهـد أن من هـذا النمـل الـطفيلي على صغـره يتسلق بيـوت النمل ويـدخل مسـاكنها ويصـل بيوت الحضـانة والبيض ويتقـرب إلى الملكة الأم وبسرعة فائقة بما يحمله من فـك قاطـع يقطع رأسهـا ، وعندئـذٍ تهـرب بقية الأمهـات ، وفي هذه الفتـرة من الـذعـر والخـوف تستـولي على البيوض والذخائر . وما أشبه ذلـك بما يحصـل لبعض البشر وبنفس الشـاكلة سيان منه الإنسان العائش على حالته البدائية والأشبـه بالـوحشية ، ومـا نجده بين الأمم المتحضـرة وأشدهـا تحضـراً تلك التي بـاسم الحضـارة والمـدنيـة تسلب ممتلكات غيرها وثروتها وتعيضها بالويل والدمـار والقتل والفقـر وتلقي بينها التفرقـة والنفاق . والفـرق بين المتوحشـة والمتمدنـة إن المتمدنـة تقوم بأساليب أشد فتكاً وأوسـع نطاقـاً وانها تسلب ثـروة أمة أو دولـة وتقضي على الآلاف عوض الآحاد .

وحسب ما انتهت إليه التحريات أن هناك نوعين من الطفيليات :

١ ــ نـوع يعيش على السـرقـة والغـارة والحيلة والنصب لسـد جـوعـه وامرار ، معاشه .

٢ ــ نـوع آخر يـرد بيـوت النمـل ويعيش بين أفـرادهـا وجمـاعـاتهـا ، والنمل يقدم لـه عن طيب نفس أنفس طعامـه وغذائـه حتى يفضله على نفسه وأولاده ولا يعلم للآن علّة ذلك . وعنـد البشر نفسـه من النوعين طبق النعـل بالنعل تماماً . وربمـا كان النـوع الثاني من طـراز الذين يعيشـون على الشعر والأدب والـدين وتهـذيب الأخـلاق من الـذين لا نشـاهـد بـالعين المجـردة سعيهم المـادي وعملهم بالمشـاهدة ، وإنمـا عملهم يقوم بـالتربيـة الروحيـة والعقلية والفكرية . . الخ .

كمـا أن هناك حشـرات طفيليـة غيـر النمـل تعيش على كـد النمـل أو

عليهـا نفسها . فـالتي تعيش عليها نفسهـا كتلك التي تعيش على الحيوانـات والإنسان كالقمل والبرغـوت والبق وما شـابه ذلـك . والتي تعيش على كدهـا كمـا في البشر الـذي يستفيد من الكـلاب والـطيـور المغـردة في صـوتهـا أو محـاسنها وظـرافتها وجمـالهـا ، وفي الـطفيليـة من يكمن في طـريق النمـل العـامل وعنـدما يـأتي هـذا بحمله من الـطعـام لاطعـام فـراخـه يتسلق هـذا الطفيلي ويلتصق ببطنه ويمتص ما يـريد من الغـذاء والنملة لا تمانـع بتاتـاً ، ومنها ما تفيد النمل حيث تقضي على الحشـرات المضرة والمـزاحمة للنمـل وتدافع عن النمل ، وكثير من هـذه الطفيليـات ذات خرطـوم طويـل ومخالب معقـوفة وقـد وجد منهـا مجمـوعـة في المنـاطق الحـارة قـد تصـل إلى ٣٠٠ نوعاً ، وهي تتصف بـالكسل والعيشـة على كد الآخـرين ، ويظهـر أن النمل يحب هذه الطفيليات ورغم ذلك فهي خطرة جداً لأكلها غذاء النمـل وأحيانـاً أكل النملة نفسها ، ومنها ذات أنواع كبيـرة وصغيرة ، ويـظهر أن النمـل رغم مـا تكون لـه من الأخطار فهي لا تحمـل تجاهها حقداً وربمـا أحيانـاً تعطف عليهـا كما نعـطف نحن على القطط وبعض الـطيـور أو الكـلاب ، غيـر أنـه على العموم هي تختلف عنه لأنها مجبولة غريـزياً على هـذا العطف والكـرم تجاه الأغيار . ونحن وجدنا الـذين يحملون عنصر الأنـانية وحب الـذات ولا نمـد يد المسـاعدة إلاّ بـأمل ومقـابل شيء ، فنحن نكـرم بعض الحيـوانـات الـطفيلية مثـل الكلب لأننا نستفيـد منه والهـرة لملاطفتهـا ، وأمـا التي نشعـر بضرر منها كالقمل والبرغوت وأي حشـرة صغيرة أو كبيـرة ، فلا نـألوا جهـداً من إبادتها والقضاء عليها سواء كانت من الحشـرات الصغيرة المـار ذكرهـا ، أو الأكبر كالفأر ، أو الأكبر منهـا أيضاً كـالثعلب وابن آوى والأرانب الوحشيـة التي تفتك بمزارعنـا ، كما أن هنـاك طـائفـة من البشر يعيش طفيليـاً على كد الآخرين ، وهؤلاء على نوعين أو ثلاثة النـافع والضـار والمعتدل ، ولا نقـدر أن نحسب المعتـدل أحيانـاً إلاّ ضاراً لأن وجـود هؤلاء الأفـراد لمجـرد عـدم كـدهم وسيرهم مـع أفـراد البشـر يعتبـر ضـرراً يلزم امـا تهـذيبـه أو التخلص منه .

وبالتالي، يمكن القول بأن النمل أوسع نظاماً ، وفي أكثر الموارد أسعد حظاً في حياته ، من أكثر المخلوقات ، ومنذ ملايين السنين وهو يعيش على هذه الوتيرة المنظمة ، في حين أن البشر يتقلب في حياته . ورغم ما نراه اليوم من التقدم العلمي والصناعي فهو أقل سعادة من العهد الأسبق .

والنمل مجهز طبيعياً وغريزياً بما يكسبه مناعة وقوة أمام الصعوبات والشدائد وعوارض الطبيعية ، فهو في حرز من كثير مما ينتاب البشر من الأمراض الجمة كما أنه مقاوم أمام الحر والبرد والجوع والعطش بدرجة فائقة . وبما يحمله من الغرائز السامية ، شديد العطف ، كريم النفس ، ولا نجد نملتين في عائلة واحدة تتشاجران ، كما نرى ذلك في خلايا النحل حينما يسمح للملكة بالقضاء على الملكات والأميرات الأخرى حتى في نفس الخلايا المكونة للعائلة الواحدة ، وقد وجد أن العوائل والقبائل النملية المتجاورة كثيراً ما تساعد جيرانها في كل شيء حتى في نقل الأثاث والمهاجرة .

وتشعر النملة بالسعادة كلما وجدت مناسبة لمساعدة الأغيار ، ولا يثبط عزيمتها السوانح والمشقات ، في حين أن السعادة عندنا نحن البشر إنما تحصل في تخفيف الآلام التي تلم بنا .

وللنملة ميزة فائقة في التصاميم الجماعية والعائلية ، وهي تعيش سعيدة على ما تسديه من المساعدات للآخرين ، مساعدة تبلغ بها لدرجة الفناء .

مقارنة الإنسان بها وبغيرها :

الأمر الذي لا جدال فيه ان نظام العالم يرتبط بقوانين طبيعية واجتماعية واقتصادية ، بما فيه من حيوان ونبات وجماد وغيره ، من صغير وكبير ، يرتبط بمبدأ واحد وتحت قانون واحد لا زلنا نجهله ، وما نعلمه

إنما هو بنسبة ما نشغله من مكان وزمان ، في المكان والزمان غير المتناهي ، لهذا العالم وبما أوتينا من حواس وقوى ضعيفة محدودة وناقصة .

فالكل يتساءل عن المبدأ والمصير والعلّة والغاية والنتيجة . ما هو الفرق بيننا وبين باقي الحيوانات بما فيها النملة والنحلة؟ نحن ندعي أننا ذوو عقل وغرائز وهي ذات غرائز ، فما هو الفرق بيننا؟ ومن هو المتحكم في الحياة؟ أهي الغريزة أم العقل أو كلاهما؟ .

وهل هناك حد فاصل يفصل بينهما؟ وهل هي ذات عقل أيضاً؟ ومن منا أكثر صواباً ومن منا أكثر إرادة وتحكماً وقوة؟ ما هي الحواس والخصال التي تملكها وما هو سعة علمها وقدرتها ونسبة ذلك لنا؟

والحقيقة إننا نجهل كل شيء . ورغم عقولنا فنحن نجهل لماذا جئنا وإلى أين نسير . وتتحكم بنا فراداً وجماعات قوى لا طاقة لنا من مقاومتها . ويكفينا ما نجده على مدى حياة البشر من الصراع والنزاع المرير الفردي والجماعي الذي يستنكره العقل السليم ، صراع يتنافى مع روح العدالة والإنسانية والوجدان . كلنا نتساءل : لماذا؟ وكلنا يبقى صامتاً جاهلاً .

نعمل أعمالاً إذا كانت النملة والنحلة وغيرها ذات عقل ومقياس لحكمت علينا بالجنون والوحشية بكل ما لا يمكن تطبيقه على الفكر والمنطق والعقل . فهل آن الأوان أن ينصاع المرء وأن تنصاع الجماعات لنداء الوجدان والضمير وتسير بوحي العقل ونور الحكمة؟ لماذا لا تسير وكل منها تطلب السعادة وهذا طريقها الواضح؟ .

من عجائب الحياة اننا رغم عقولنا فنحن كالحيوانات الأُخرىٰ ، عرضة لافتراس أصغر الحشرات والجراثيم غير المرئية ولا حد فاصل بالنسبة لقوة الجسم وضخامته . وهكذا الحيوانات فقد تقتل الحشرات

الصغيرة الكبيرة بسمها ، كذباب تسي تسي ، ولمّا تتعرض الحيوانات الضخمة مثل الفيل والكركدن لنوع من البعوض لا يبقى لها غير العظام . وكأن الطبيعة تركت الخصام والتعدي والتجاوز بين المخلوقات ناموساً من نواميسها. وليست حقيقته القدرة والقوة بالنسبة للصغير والكبيل إلاّ لما تركته وجهزته به الطبيعة من سلاح وغريزة وخصال . وأشدها تجاوزا على حقوق الآخرين من بني جنسه وغير بني جنسه إنما هو الإنسان . ويبرر تجاوزه كما شاء . والذي طالما استخدم الناس لعقله وتفكيره في سبيل اشباع غرائزه الفتاكة حتى بنفسه وحتى للقضاء على نفسه وذويه .

وإذا عدنا لحياة النملة والنحلة واستخلصنا النتيجة والثمرة الحاصلة وجدناها أكبر سعادة وأقل آلاماً من هذا الإنسان . وإذا عدنا لتقسيم الأعمال بين هذه الحشرات لوجدناها لا تقوم إلاّ بعمل هو من تخصصها فالمعمار هو غير الزارع والزارع غير المستخدم والمرضع وهكذا كل يعمل بما يحسنه ومكلف به . ولكن الإنسان طالما وضع الشيء في غير موضعه .

ولو بحثنا في خصال الحيوانات لوجدناها على اختلاف أنواعها لا تتعدى ولا تتجاوز على الغير إلاّ لسد جوع أو عطش أو جمع ذخيرة محدودة كما في النمل والنحل . غير أن الإنسان هيهات أن يكتفي بما يكفيه ليوم أو سنة أو حتى ما يكفيه لطول حياته ، فهو لو أعطى الأرض أراد السماء أيضاً ، ولو أعطى المجموعة الشمسية تجاوز لغيرها بدافع الغريزة التي طالما تغلبت على العقل وحملته أشد الأتعاب والآلام وعذبت الوجدان عذاباً يهون معه الانتحار والحرمان من الحياة .

الأرضـــة

هي من الحشـرات الـذكيـة التي تعيش عيشـة اجتمـاعيـة كـالنحـل والنمـل ، غير أنهـا تختلف والنحل كـونها على طـرفي نقيض من حيث نـوع الحيـاة . فحياة النحـل تحت الضياء والفصـول الجميلة وفي أجمل المنـاطق المـزدانة بـالحشائش والـزهور والهـواء الـطلق ، في حين أن هـذه تعيش في ظلمـات وأماكن بعيـدة عن العيـون ، كمـا لـو شبهنـاهـا بـالأطمـار الأرضيـة والسجون الموحشة . والنحل للآن يتسابق البشـر لتكثيره لمـا فيه من الفـوائد الجمة ، وهذه بالعكس . ولهذا كـان توجـه علماء الحشـرات بصورة مفصلة ومسهبـة لدراسـة النحل وكـانوا أسبق لـدراسة النحـل عن هذه ، ورغم هـذا فقد تخصص علماء كثيرون لدراسة حياة هذه ، وقسموهـا إلى مائـة وخمسين فصيلة ، اكتشفوا منها ما يربو على ١٢ ـ ١٥ نوع تختلف باختلاف المنـاطق والقارات ، وهي مجـردة من كل سلاح أمـام أعـدائهـا ، بـالنسبـة للنمل والنحل ، ولكل منها وحسب المنـاطق التي تسكنها أسمـاء وفروق في شكلهـا ومعيشتهـا . وقـد ذكـر في العلة وراء عـدم دراستهـا ، وهنـاك علل أخـرى ، إن أهمّهـا تعيش بعيـدة عن مـركـز العلمـاء الـطبيعيين والعلمـاء المختصين بعلم الأحيـاء ، وأخص منهـا حيـاة الحشـرات ، وأخص منهـا اوروبا ، فإن هنـاك منها مـا لا يقاس بـالنسبة إلى مـا يوجـد منها في إفـريقيا وآسيـا وأمريكـا الجنـوبيـة واستـراليـا بعيـدة عن فحـول العلمـاء وبعيـدة عن الأجهـزة الضـروريـة لـدراستهـا . ومن جهـة أخـرى إنهـا تختلف عن زنبـور

العسل الذي بالإمكان صنع خلايا له ، وعن النمـل من صنع بيـوت زجاجيـة لـه ودراسة حيـاتها من وراء ذلـك بصورة جليـة ، وبيوتهـا العائقـة والتي أشد صـلابة من الصخـر والسمنت وقد لا تتـأثر بـالصلب وتنـزل امتـاراً إلى عمق الأرض ، وكثيـر منها تـدافع عن بيـوتها بصـورة جمعية وبلسعـات تحتاج إلى وقـاية قـوية منهـا . منها مـا تختار أمـاكن يابسـة وأخرى رطبـة وأخـرى على الأشجـار ، وفي كثير من المنـاطق الافريقيـة والأمريكيـة يضطرون لمـد سكة الحـديد وشق الـطريق لاستعمال الـديناميت لقلع هـذه الأبنيـة التي قـد يبلغ ارتفـاعها إلى ٦ ـ ٨ أمتـار وبدرجـة لا تتـأثـر من عبـور وإقـامـة الحيـوانـات الضخمـة على ظهرهـا مهما أقـامت حتى ان هذه البيـوت تبقى قائمـة وتنمـو عليها الأشجار . وإن هـذه الحشرة المبيـدة لكل شيء لا تتعـرض لبنائهـا وما نشـأ عليه كـأنه بنـاء مقدس ، وهـذه المادة التي تبنى بهـا وتصبـح أقـوى من السمنت تخـرجه مـائعاً من جـوفها ، ولهـا تخصص وخبرة كـل فرد منهـا في نـوع البناء ومكـانه وشكله . هـذه الأبنية لهـا متانـة وصـلابـة ومقـاومـة فـوق القصور أمام الأمطار الاستوائية الشديدة . وأما مـدة دوامها فقـد وجدت انهـا بنيت من أقـدم العصور ولا تخليهـا إلاَّ بسبب مرض يقضي عليهـا . وللقضاء على هـذه الحشرة استخـدم نوع من النمـل الذي بعـد معارك طـاحنة يقضي عليها .

ملكتهـا :

ولهـذه الحشـرة ملكـة وملك فـالملكـة يبلغ حجمهـا ٢٠ ـ ٣٠ ضعف الحشـرة العـاملة لهـذا يعمـل لهـا مقـر خـاص تبقى فيـه ويختفي الملك في ناحية تحت بـطنها الكبيـرة دون أن يقدر الخـروج منه ، في حين أن العمـال بقـدرتهم المرور بحـرية في الممـرات . . إن هـذه الحشـرة لا تقـدر الحيـاة بـدرجـة بـرودة تتجـاوز ١٦ ، لهـذا نـرى انهـا مهمـا كـانت درجـة الـطقس الخارجية فهي تقـوم بعملية دأخـل المخابىء بحيث تبقى درجـة الحرارة بين ٨٠ ـ ٨٥ فهـرنهـايت ، وتنـزل الحشـرة إلى أعمـاق الأرض لصنـع مخـابىء

وغـرف لها يصعب جـداً الوصـول إليها ، وحين الـوصـول تكثـر التجمعـات هناك ، ويشاهـد هناك في المخـازن قطع الخشب والحشيش النـاعم ويظهـر أن الحشرة عندمـا يقل طعـامها بسبب مـا ، تضطر لأن تـأكل من نفس البنـاء الـذي صنعته من عصـارة وإفرازات بـاطنية في جـوفها . وتتـرك فتحـات في الطوابق العليا المؤديـة إلى سطح الأرض بصـورة احتياطيـة حينما تفـاجأ بمـا يسبب فنـاء وموت عـدد كبير منهـا لنقلها إلى سـطح الأرض المواجـه لحرارة الشمس لنشرها، وبعد جفافهـا تستفيد منهـا للتغذيـة . كما وجـد أنها عنـدما يبلغ عـددهـا النسبي أكثـر من الـلازم تجمـع الـزائـد من نفس الحشـرة في مخـازن حية لتستفيـد من أكلها ومن لحمهـا الـطري ، وربمـا كـانت طبيعـة الأرض أو أكل نوع مشترك بينها وبين بشـر تلك النواحي ممـا نجده حتى في ساكني تلك الأسقاع من البشـر ، أنهم يأكـل بعضهم بعضاً . ذلـك ما بحث عنه في مساكن الحشرة في الكنغو البلجيكية .

وقـد تحير العلمـاء في تعليل ايجـاد الرطـوبة الـلازمة لهـذه الحشرة ، هـل هي تـأخـذ ذلـك من أصـول الأشجـار مـع العلم انهـا تعيش في أحـر الأمـاكن وأكثرهـا جفـافـاً ؟ أم هي تستفيـد من أكسجين الهـواء وهيـدروجين النبات وتشكل الماء وتعمل مـا تحتاجـه من المائـع لبناء مسـاكنها؟ وغـذاؤها من سلولوز النبات والأخشاب تحللها لتغذيتها بواسطة طفيليـات في جوفهـا ، أو خارجة بمساعدتها تحلل السلولوز وتتغذاه بعد مـوتها وتتجـاوز اعداد هـذه الطفيليات الملايين .

تختلف هذه الحشرة عن النحل في حياتهـا الاقتصاديـة والاجتماعيـة ، فهي أكمـل من النحل في هـذه الناحيـة ، فنحن نعلم أن السلطة في النحـل بيـد الاناث ، فمنهم الملكـة ومنهم العمال والأميـرات ، وأمـا الـذكـور رغم كثـرتهم فهم دون فائـدة تذكـر وهم عالـة على الجميع إلاّ مـا يجري لـواحد منهم ليلة الزفاف مـع الملكة ، وبعـدها يقضي عليهم جميعـاً ، فقطع جنـح من جناحهم وطردهم من البيت وتـركهم بيد القـدر حتى يموتـوا جوعـاً ، أما

هـذه الحشرة فـإنها تنقسم إلى عـدة أقسـام ، ومن بينهم العمـال وهـم خليط من الـذكران والإنـاث وبيدهم اعـاشـة الجميـع ، فكـل عـامـل يقـدم طعـام الجـائع من الـطبقات الأخـرى بإشـارة واحـدة ممـا يخـزنـه من الـطعـام في جوفه ، وإذا مـاتت الحشرة أو نـزعت جلدها القـديم التهمتها كغـذاء بلحظة واحدة ، وأما نظافتها فيجـري بصفة عمليـة إذ أن إفرازاتهـا تستعملها امـا في الصنـاعات الخـاصة بهـا أو للتغـذيـة ، فـالإفـرازات يستفـاد منهـا لإحـداث الأنـابيب أو الغرف أو المقصـورات للملكة والملك أو عمـل فتحات للضيـاء أو التهوية ، ولهـا قدرة فـطرية على الصنـاعات الكيمـاوية من احتيـاجاتهـا ، فهي مع انها عمياء وتفقد حس الشم تشعر بكل ما في الطبيعة ملذاً لها .

العمــال :

والعمال قسمان ، قسم أكبر حجماً وذو قواطع تصلح للسيـر لمسافـات بعيدة وقطع الأخشـاب وحملها للداخـل وهم أقلية ، والأكثـرية أصغـر حجماً وعملها الخدمات الداخلية في ايجاد الطعام كما مرّ لجميـع السكنة وخـدمتها والعمـل الداخلي وتنـظيم وتنظيف مـا تحتاجـه المملكـة وتعتني بـالحضـانـة والتربية والشؤون الأخرى الداخلية .

الجنــود :

وعلى طبقة العمال طبقة الجنود من حيث الأهمية

وتلي طبقة العمال طبقـة الجنود من حيث الأهميـة ، وهي من الذكـور والإناث ، وهذه عدة أقسام ومنهـا ما تحمـل في رأسها مـائعاً تـزرقه من بعـد عـدة سـانتيمتـرات على أعـدائهـا فتفلج حـركتهـا . هـذا إذا أضفنـا إلى مـا اتصفت به من عظمـة ابنيتها وقـلاعها ومهـارتها وإبـداعها بـالنوع والمتـانة ، التي تريده بـدرجة لا يقـدر ألد أعـدائها من النفـوذ إلى داخل مـدينتها ، مـع العلم انهـا لا قدرة لهـا غير مـا ذكر على الـدفاع ، وانهـا خير طعمـة للنمـل وكثير من الحشرات الطفيلية ، ويعتبر النمل ألـد أعدائهـا ولهذا يقضي بعض

السكان على الحشرة باستخدام أنواع خاصة من النمل ، وربما كان النمل خير حشرة حفظتنا من شر هذه الحشرة وحددت حياتها في بعض الجهات . لهذا ترى هذه الحشرة إذا ما حدث ثلم في جدار إحدى بيوتها رممتها في طرفة عين ، وإذا ما عملت منافذ للتهوية أو للخروج جعلت عليها أشد الحراس والمدافعين ، وإذا ما هاجم الثلم نمل أو غيره وجد أن المدافعين مدوا خراطيمهم ليذرفوا المائع على المهاجمين ، في حين إن آخرين أعلنوا الخطر في الداخل فجاءت النجدة بمحافظين جدد ومرممين لسد الثغرة ، وخلال هذه الفترة يضحون على قدر المهاجمين بالتضحيات حتى يتمكنوا من سد الثلمة ولو على بعد . وهم يقاومون لدرجة فناء كل الجنود ، وقلما يستطيع النمل من التغلب على جميع البناء لسرعة ما يبذله العمال لترميم وشدة ما يبديه الجنود للدفاع . لأن بذلك مصير حياة أو ممات المملكة . ويظهر أن هذه الحشرة ذات سمع ، وتسمع الأصوات إذ عند الهجوم يسمع من المدافعين في الخارج والداخل أصوات مرتبة كدق الساعة ، ويعتبر عدد الجنود نحو خمس أفراد المملكة ، وفي أحرج ساعات الخطر بإمكانهم أن يعملوا ما يروق لهم مع السكان ، بيد أنه لا يكون ذلك وكأنهم يسيرون طبق قوانين دقيقة ومقدسة ، حتى وجد أن عددهم إذا زاد عن المقدار المقرر قضوا على الزائد كما مرّ ذكره ، والجنود قد تقوم في غير وقت الدفاع والهجوم بأمور عامة والقضاء على الزائد إنما يتم بعدم تغذيتها وموتها جوعاً إذ ليس بإمكان ١٠٠ عامل ان يقابل جندي . والعجيب كيف يحسب ويعد الزائد وما هو السبب؟ هل تلك قضية اجتماعية أو اقتصادية أو صحية توجب ذلك تلك من الأسرار الغامضة للآن .

وتختلف هذه الحشرة عن النحل والنمل انها ذات صوت تتفاهم مع بعضها ، وانها تسمع بعضها ، وانها رغم وسعة رقعة المملكة تتبع ملكاً واحداً ونظاماً واحداً .

العائلة المالكة :

ويتألف أولاً من الملك وهو صغير خجول خائف يختفي طي بطن الملكة .

الملكة وهي مهيبة الجسم بالنسبة لبقية الأفراد ، بحيث يبلغ طولها في بعض الأنواع ١٠٠ مليمتر ومحيطها ٧٧ مليمتر ، في حين ان الافراد بطول ٧ ملليمتر ومحيط ٤ إلى ٦ ملليمتر والام سمينة كثيرة التوالد بصورة مستمرة تضع في كل ثانية بيضة ليلاً ونهار بدون انقطاع ، ويتناوله الخدم للحضانة ويحيط بفمها مئات الحاملين للغذاء بصورة مستمرة ، في حين تحيط بها أُلوف أخرى تتناول افرازاتها الجلدية والبدنية بشهوة فائقة وتحيط بها أُلوف المحافظين لئلا يصاب جلدها الأبيض الناعم الرقيق المقدس بأذى ، وجماعات أُخرى من الجنود المحافظين الصغار حذر حصول خطر على الملكة يواجهون الخارج وظهورهم للملكة ، ويتقدم أولئك بصفوف منظمة محاربون أكبر جسماً ذوو الأنابيب الحاملة للمائع المار ذكره في الحروب . وحينما تفقد الملكة (بعد ٤ ـ ٥ سنوات) قدرتها على الحمل والبيض قطعوا عنها الطعام وماتت جوعاً ، ولكن بأمر من يكون ذلك؟ وذلك سر من أسرارها . وعندما تلفظ الملكة أنفاسها الأخيرة التهمتها الحشرات بلهفة عجيبة وعينوا في الحال مكانها أُخرى لتقوم بنفس العملية والملكة لا تخرج بتاتاً من بيتها الضيق الذي تملأ فضاءه .

التزاوج :

بالإمكان أن نقول ان هناك نوعاً رابعاً غير العمال والجنود والعائلة المالكة التي حكم عليها القدر ان تبني تحت الأرض مدى عمرها ولا ترى ضياء الشمس يطبق عليها أعظم الأنظمة والقوانين الطبيعية . هناك قسم آخر يتألف من الجنسين وتتجاوز الملايين ذات أجنحة وهذه ذوات نظر وأجنحة لا تستطيع هضم السلولوز لفقدها الطفيليات المعائية ، لذا هي

عالة على غيرها وليس لهـا سوى التجـول في الداخـل حتى اليوم المـوعود ، وهو يعتبر يـوماً في آخـر الصيف في المناطق الاستـوائية ، وبينمـا هي داخل تلك المخابىء المسدودة ، ولا توجد سـوى منافـذ الهواء إذا بنـا نجد ألـوف الثقـوب ـ تتفتح في القمم المـواجهة لسـطح الأرض ويهرع المحـافظون إلى النوافذ وفي اللحظة الموعودة يسمح المحافظون لخـروج هذه المـلايين ذات الأجنحـة لتقوم بعمليـة المعاشقـة ، في حين ان الثقوب تسـد حال خـروجها لمنع المهاجمة ولتسد طريق عودة الخارجين لتموت إمـا جوعـاً أو على أيدي النمـل أو الطيـور أو الحشرات الأُخـرى ، وحتى الإنسان لـه سهم أوفر منهـا لأكله إمّـا نيَّةً أو طبخهـا ، بـاعتبـارهـا من ألـذ الأطعمـة وتعـرض كثيـر منهـا للبيـع ، ويمكن القول إن أفـراداً من هذه المـلايين بطريقـة من الـطرق بعـد التـزاوج والمعاشقـة تدخـل ثانيـة إلى الدهـاليز وتكـون ذخيرة ليـوم الحاجـة لنصبها عند الحاجة مكان الملكة التي فقدت خواصها .

ويمكن التسـاؤل في علّة هذه التضحيـة من المـلايين؟ تلك أيضـاً من الأسـرار التي لم نتوصـل لتفسيـرهـا إذا علمنـا أن هـذه المملكـة تسيـر طبق أنظمة اقتصادية واجتماعية دقيقة .

وقـد وجد أن هنـاك في بعض المناطق وفي مملكـة واحدة أكثـر من أم كـل مستقلة عن الأخرى ، فتـوجد اثنتـان أو ثلاث وتـوجد ست كمـا وجد ، إن الزواج قد يقـع بين أكثر من مملكـة وقد يتجـاوز ست ملكات في مملكـة واحدة ، والملكة تكـون من التي كانت لهـا أجنحة وشـاهدت أشعـة الشمس كمـا مرّ . ولا يمكن أن يكـون الملك إلاّ وطنياً (غيـر أجنبي) وتختلف هذه الحشرات في درجة التقدم والمدنية فمنها المنحـطة ومنها المتمـدنة كثيـراً أو أعلى درجات التمدن .

ويـظهر من حيـاة وسلوك هذه الحشـرة انهـا أوسـع مجـالاً وأقـدر على العمـل الذي تـريده من النحلة في إدامـة حياتهـا ، حتى انها تستـطيع عنـد مساس الحاجة ان تطوّر نفسها ، وتكون لها أجنحة وعيـون وغير ذلـك ، كما

لها قدرة كيماوية في صنع المواد الضرورية لبيتها وتغذيتها ودفاعها ، ولها القدرة على معرفة الضروريات والدقة الفائقة في أحوال الملكة واتخاذها الاحتياطات كما مر ، وقطع غذائها بمحض انها تصبح عديمة الفائدة ، واتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لإدامة الحياة من تحضير ملكة أو ملكات ، وكأنها مختارة من ايجاد النوع الذي تريده من البيض للجيل القادم والعدد اللازم (توجد بعض هذه الخواص في زنبور العسل) ، وقد تبلغ أنواع الطفيليات الساكنة مع هذه الحشرة في مملكتها نحو ٤٩٦ نوعاً تقريباً ، ولم يتوصل البشر إلى دراستها ومفعولها . وهي تعيش بين درجة حرارة فوق العشرين لأن البرد يبيدها وتحت ٣٦ لأن الحر يقتل طفيلياتها التي هي قوام حياتها .

أضـــرارهـــا :

يمكن القول أن منطقة تعيش بها هذه الحشرة لا يستطيع الإنسان أن يقيم بها ، لأنها تبيد كل شيء من خشب ونبات وأكل وما صنع من آلات ولباس وحتى أعظم الأشجار وبالخفاء وبعد فوات الفرصة ، وكم وصفت قضايا في منتهىٰ العجب وتحير العقول لهذه الحشرة من إتلاف أعظم الأشجار وأثاث البيوت والألبسة أو السقوف ، وحتى محتويات العلب الصلبة والحديدية لأن الحشرة بإمكانها إحداث الثلم في الحديد والقصدير والرصاص ودخول العلب والقناني ذات الأغطية المعدنية ، وبإمكانها الصعود من القناني الملساء بإفرازها المائع على القناني في الملساء وفقدان هذه صفة الصقل ، وطالما أكلت ألبسة وأسلحة أشخاص يدرسون حياتها وطالما قضت على الحوانيت بما فيها من المأكولات .

وحتى وجد ان هذه الحشرة أكلت التصاوير وإطاراتها ولم يبق سوى الزجاج الذي أحكمته بلعابها إلى الحائط كي لا يسقط ويكون فرقعة لأن جميع أعمالها في الخفاء . وحتى انها مرة أكلت سفينة اسبانية سنة ١٨٨٧ رست على شاطىء ميناء فرول. كما انها سنة ١٨٤٠ دخلت خمس توت

عاظمة جزيرة سنت هلن بواسطة مبعد وابادت في مدة قصيرة نصف المدينة وهدمتها . وسببت سنة ١٨٥١ اندحار فرنسا امام الانكليز في جزيرة انتيل بسبب نفاذ مهمات غذاء الفرنسيين على يد هذه الحشرة، وهي في جزيرة فرموزا تسبب تخريب الأبنية السمنتية . وهذه الحشرة تزداد مقاومة أمام المتفجرات الديناميتية وتعود بسرعة تبني بشكل أقوى وأعمق .

القوة المبدعة :

الحياة الداخلية لهذه الحشرة إذا ما فحصناها لهذا الحد الذي توصل إليه البشر في البناء في الحياة الاجتماعية الصحية الإدارية وفي كل صغيرة وكبيرة نجدها كاملة ، قد روعي فيها أبعد وأدق ما يلزم لمواصلة النوع والطبقات كل بحسبه ، ونتساءل بعد التأمل والتعمق عن النظم وعن القدرة الحاكمة المديرة والمدبرة لهذه الملايين الصغيرة والطبقات المتمايزة ذات الأنظمة والقوانين الوقتية المسهبة المنظمة الدائمة الحافظة لاستمرار حياتها ونشأتها وثباتها؟ من هو الحافظ لموازنة تلك من الاختلال والتدهور والاضمحلال؟ أهو الملك؟ أو الملكة؟ أو الجنود أو العمال أم الجماعة ذات الأجنحة من الذكور والإناث أم هناك جماعة منتخبة منهم؟ لا يمكننا إذا دققنا وتعمقنا في تفكيرنا أن نقبل أياً منها . ترى كل طبقة منها بحد ذاتها ذات نقص تكملها الأُخرىٰ وليس لها حول ولا قوة على الأمر والنهي بصورة انفرادية ، لكل وظيفة لا تستطيع أن تحيد عنها ، وإذا ما حاد نزل عليه حكم القصاص بكل صرامة وشدة وتنفذ فيهم جميعاً أحكام باتة عامة وخاصة لا تحيد عنها .

فمن هو ذلك المسيطر الخبير المنظم ؟ من هو الحاكم المطلق المبدع القدير؟ هو الملك؟ ذلك المخلوق الذميم الخائف المنزوي تحت بطن الملكة الذي ليس له حول وطول؟ أم الملكة المسكينة المسجونة المسجاة المضحية بحياتها لإدامة حياة النوع المعتبرة كأداة للتوالد المستمر والعاجزة عن القيام حتى بطعامها وإذا ما عجزت أقل عجز أو تقاعست عن

واجباتها قطعوا عنها الطعام حتى الموت والتهموها التهاماً ذلك القانون الصارم في المملكة للقضاء على كل من لا يؤدي وظيفته أو تنتهي وظيفته للمملكة؟ أم هم الجنود والضباط المحرومون من الغريزة الجنسية والذين قد أوقفوا حياتهم على أهمية الاستعداد للدفاع والهجوم مع فقدهم آلة البصر وأهم شيء فقدانهم القدرة على هضم الطعام مثل الملكة فهم تحت رحمة دائمة للتغذية من العمال؟ .

أم هم الجماعة ذات الأجنحة والنظر من الذكور والإناث الفاقدين أيضاً للقدرة على هضم الطعام ، والذين هم وبصورة دائمة تحت رحمة العمال لتغذيتهم وهم بعد ذلك وبعد انتخاب أفراد منهم كاحتياط ليحل محل الملك والملكة يبعثون كلهم بمجموعهم مهما بلغ عددهم من عشرات ومئات الملايين إلى الخارج ليتمتعوا لحظة قصيرة وليصبحو لقمة سائغة لأعدائهم أو يموتوا جوعاً دون أمل للعودة؟ لماذا؟ من هو الحاكم ولماذا لم يطبق عليهم ما يطبق على الملكة وغير الملكة من قطع الطعام والتهامهم في الداخل؟ أليس عجيباً ومدهشاً؟ ما هو السر في هذا الاستثناء؟ .

لم يبق إلاَّ العمال، المحكوم عليهم مدىٰ حياتهم بأشق الأعمال من هضم الطعام وإطعام الباقين ، فهم رغم عملهم الجبار والذي يتوقف على حياتهم حياة جميع من في المملكة فهم أشد رقة من الرقيق والأسير المقيد . فمن هو إذن المنظم المسيطر؟ من هو ذلك الذي حفظ حياة هذه الحشرة آلاف السنين من الانقراض وأمدها بالحياة والنظام؟ من هو الذي عيّن لها هذه الأنظمة والقوانين القاطعة من حياتها التي لا تحيد عنها؟ يحق لنا أن نتساءل وأن نندهش نحن البشر بما نحسب في أنفسنا من القوى العقلية والفكرية المميزة كيف لم نستطع أن نؤلف جمهورية تدوم مائة سنة إلاَّ وتعرضت للطغاة من أفراد البشر فبدلت قوانينها وأنظمتها الطبيعية والمنطقية وجاءت بما تشتهيه بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وسنت

لاجراء اغراضها ما تحسبه لنفسها ساداً لمطامعها وأغراضها ومشبعاً لغرائزها وجشعها غير مبالية ما تجره في الحاضر والمستقبل لها ولشعوبها والعالم من النكبات؟ وهذا التاريخ الحديث والقديم خير دليل وشاهد بما جرته هذه الأفراد من الويلات والمصائب بما شنته من الحروب وجهزت له خيرات البلاد وخيرة الشباب للحروب وبما سنته في الداخل من أنظمة وأطلقت عليها اسم القوانين .

إن ما نشاهده في حياة هذه الحشرة كله يسير طبق نظام مرتب وثابت يدل على انها تسير على أرقى نظام منطقي طبيعي يلائم حياتها ، وهناك أمور لا نستطيع تمييزها وأسرار لم نبلغ كنهها لأننا نفقد الدراية والإدراك لأسرارها . قلنا من هو الذي سَنَّ لها تلك الأنظمة؟ ومن هو الذي ألزمها؟ ومن الذي يواظب على اتباعها؟ من الذي يوحي لها بالهجوم والدفاع الذي تقوم به فرادى وجماعات في مملكتها على القدر اللازم من الخطر المداهم ؟ ومن الذي يهديها في الأمور الصغيرة والكبيرة ويدبر مصالحها على هذه الصورة الدقيقة من الحكمة والعناية الفائقة؟ كيف استطاعت على ضعفها ونقص حواسها أن تقهر البشر وتتغلب على أعظم المشاكل وتقوم بما يعجز عنه أعظم النحاتين والبنائين والمهندسين والكيماويين؟ من أين لها هذا التخصص وهذه المعرفة؟ كيف جمعت كلمتها واتفقت في العمل فبلغت من الضعف قوة قاهرة؟ أليست تلك عبرة للبشر العاقل لإيجاد حكومة يتساوى فيها أفرادها في أمورهم المعيشية والاقتصادية والفكر والعقيدة والطاعة المثلى ، وقيام كل بما عهد إليه في التخصص دون أن يتجاوز ويتحدى الآخرين للقضاء على هذا الجشع والطمع ، للقضاء على هذا التحايل والنصب ، للقضاء على الأنانية الشخصية؟ ومن اسرارها انها تستطيع أن تقدر نوع البيض لكل فصيلة قال بعض العلماء المتحرين أنها تقدر أن تنتج النوع الذي تريده والمقدار اللازم ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فمن هو الذي أعطاها هذه المقدرة التي فاقت مقدرة البشر؟ وربما كان من

أسرارها المهمة انها تستطيع أن تتنبأ ما يلزم اجراؤه وانجازه للمستقبل ، بما يلزمه من أدق الأمور الاحتياطية في جميع شؤونها .

قد يمكننا أن نجد أدق من هذا النظام في سير مجموعة حجيرات البدن الإنساني البالغة ستين ترليون حجيرة ثابتة في مقرها وتقوم كل باختصاصها وأعمالها بصورة مرموزة ومستمرة ليل نهار كل طبقة تسير بأعمالها بدقة ونظام ستأتي على ذكره .

صحيح أننا عقلاء مفكرون ، ولكن هل نعلم عن هذه الجمهورية البدنية العظيمة وما تحويه من أسرار؟ وهل بإمكاننا أن نغير مسير قوانينها وأنظمتها كحجم حجيرة حية في كل لحظة تموت وتقوم مقامها حجيرات أخرى؟ أي قوة عظيمة تلك التي تسيرها؟ أية قوة مبدعة تلك التي نظمتها وإدارتها وسيرتها؟ وكيف اننا في غفلة وأية غفلة عن سيرها وعاجزون منتهىٰ العجز عن تدبيرها وتعادل قواها وتنظيمها ، والعجز كل العجز في الحيلولة دون فناء البدن ؟ ما هي مادة الحياة وكيف تزول ؟ اننا عاجزون عن ادراك ما هو داخل بدننا واعجز منه عما هو خارجه ؟ .

من الذي يوحي لنا بالحاجة للطعام والحاجة للماء والحاجة للنوم والحاجة للاستراحة من هو المدير والمبدع لكل ذلك التفكير ؟ العقل ، القضايا الوجدانية ، وروابطها بالاجهزة ، وروابط الاجهزة بها وتأثير كل في نفسها وغيرها ، اليست هذه أبدع واعجب وأعظم من حياة النحل والنمل وهذه الحشرة ؟ سبحان من أبدع الكون بما فيه من عظيم الاسرار .

نعود لنتساءل عن حياة هذه الحشرة ونقول عن اعمالها التي تقوم بها ، أهي لها مؤسسات منظمة قد تدير امورها ذات ارادة قوية ورأى سديد لا تزعزعه الايام والسنين والقرون ، مقدسة عندها جميعاً ؟ ام ان لها مليكا يملك كل الطاقات العظيمة لتلك الانظمة واجزائها ؟ ام نقول انها انما تسير طبق غرائز منظمة تفرض عليها ما نراه وكما نرى في داخل النسوج

والحجيرات البدنية ؟ ان النظام الغريزي الجاري هو فوق تدبير العقل والتفكير ومهما كانت أكان مصدرها العقل أو الغريزة أو القوى والحواس الأُخرىٰ ، نتساءل من أبدع ذلك فيها وأوحى لها بذلك التدبير وحفظ نوعها من الابادة ؟ لا شك أننا نقف عاجزين أمام هذه الاسرار الطبيعية الشيقة المنظمة الحكيمة التي يحق لاهل العقول والعلوم والفنون ان يطأطئوا لها الرؤوس ويتخذوا منها قدوة لسلوكهم في كثير من شؤون الحياة . اننا نبلغ منتهى العجب والاستغراب عندما نقف امام كل نظام منسق من هذه الحشرات وغيرها ونحاول ان ندرس حياتها ، فيا ليت شعري ونحن نقدس تفانيها وجهودها ونظامها معجبين ومبهورين لتلك ، لماذا لا نصلح نواقصنا على ضوء تلك ؟ ونتساءل : هل ان هناك من المخلوقات من يدرس حياتنا ويشاهد فينا المتناقضات ، وأموراً تخالف كل منطق سليم وأي قانون طبيعي وما أكثرها من البشر ؟ هل ان دراستها مثلنا ، وقفنا امام أمر منسق ومنظم تعجز عن تفسيره قلنا ان فيه سراً ، مثل التضحية السنوية لهذه الحشرة من ذوات الاجنحة والعيون الخارجة من مكامنها الى الفضاء الخارجي لتفني جوعاً أو بيد اعدائها ؟ لماذا يكون ذلك ؟ ما هي العلة وما هي الغاية ؟ أوامر صدرت أم غرائز حكمت ام علل أخرى نجهلها ؟ أهي أصبحت عالة على مجتمعها أم هناك حكمة لا ندركها أو لذة قصوى تبلغها لعملها ؟ ولماذا نرى أن هناك في داخل مكامنها تجمعها حية وتقتاتها تدريجياً ، اذا صدر عليها حكم بالموت لذنب أو علل أُخرى ؟ اتلك تضحية وفداء ولها بذلك شعور ديني تريد به الزلفى في الآخرة أهو حكم هتلري حينما كان يقضي على جموع اليهود ؟ أم حروب لاشباع غرائز فردية ؟ وأمثال تلك ما نجده في زفاف نحل العسل والقضاء على الذكور والاميرات ؟ وأمثال هذه مما يمكننا توجيه وتعليل بعضها بعقولنا ويخوننا الفكر في درك أُخرىٰ .

امتيازات الحشرة هذه على الانسان :

١ ـ تسلطها على أي عضو من أعضائها وبامكانها ان تزيد أو تنقص ما تشاء من الذكور أو الاناث أو أي طبقة وفصيلة تريدها وتقضي على أي قسم ليست المملكة بحاجة لها .

٢ ـ استتباب الامن ومراعاة النظام والقانون الذي تجده في مدنها واحيائها ومملكتها لا نجده عند ارقى مجموعات البشر .

٣ ـ دأبها المستمر على العمل عند العامل والحارس والجندي والام ، (الملكة) والملك وكل فرد وطبقة لا تجده في جسم حي آخر .

٤ ـ التضحية العظيمة في سبيل الواجب المعهود لها يبلغ أقصى درجاته .

٥ ـ الاعمال الجبارة بالنسبة لحقارتها وذمامتها ، من أبنية ضخمة تمتد كيلو مترات بدرجة من الضخامة والمتانة بالكاد تفجرها المفرقعات القوية ، بما تحويه من فنون الهندسة في المساكن والممرات والحجر وكل ما تحتاجه من تهوية ونور مع رعايتها أصول الصحة واحتياجات المستقبل ، وكل ما يمس بحياتها الصحية والادارية والاجتماعية وغير ذلك .

٦ ـ تعيش بهدوء ولا يرى بينها مشاجرة ونزاع ولا بد انها ازالت مسببات النزاع من جشع واحتيال وتعدي وحسد وتعديات جنسية والانانية بالمساواة في الملك والغذاء وكل شيء ، وقيام كل بواجبه تجاه نفسه والغير ، على أنها دقيقة الرعاية في جميع شؤونها وواجباتها الداخلية والخارجية العمال في عملهم واحضار الطعام ، والصناع والمهندسون في البناء والترميم ، والجنود الى التضحية الفائقة في الدفاع والهجوم والملكة بدأبها ليل نهار بوظيفة الولادة . نعم كل شيء يسير على أحسن ما يرام وعلى أدق ما يتصوره الفكر وبصورة مستمرة . كيف نعبر ذلك للرقي الفكري المتناهي أم ماذا ؟ اليس هذا التقدم ارقى من تقدم البشر من

جميـع النواحي العملية والاجتماعيـة والادارية والسيـاسية ، ويفـوق في كثير من مـراحله نظام البشـر وتقدمـه ؟ فمثـلاً لا يمكن أن تـرى واحـدة من هـذه الحشرات تتشاجر مع أُخـرىٰ من أفراد داخـل مملكتها أو أي فـرد من نوعهـا في كل العالم ، في حين انها تقف ببسالـة حتى الموت فـرادى أو جماعـات للدفـاع عن حياض نفسهـا وامنها ونـوعها بشكـل فائق من النـظام العسكـري والتكنيكي الدال على أقصى وامهر ما يمكن أن يحسب لفرد عسكري .

وقد حسب كثير من علماء علم الحياة والكتاب :

١ ــ ان حيـاة هذه الحشـرة قد بلغ الـدرجة القصـوى في الرقى ، وان الانسان اذا ما استمر في حياته وتمدنه بدون نكسـه فربمـا بلغ بعد الفين الى ثـلاثـة الاف سنـة مـا بلغتـه هـذه الحشـرة من التمـدن والثقـافـة والسلوك ، ويستندون بما تمتـاز به من العلم والقـدرة عما مـر ذكره فـانها بـامكانهـا رغم ضعفهـا أمام الحـر والبرد ان تكيف حـرارة جو محيـطها التي تعيش فيـه أبناء المملكة بالنوع الذي يلائمها ، كما انها تكيف كـل قسم من حرارة محـلاتها التي تعيش بهـا بما ينـاسب ذلك كمقصـورة الملكة وغـرف الحضـانـة وغيـر ذلك .

٢ ــ وانهـا تعطي كـل جماعـة طعامـاً يناسبهـا فالجنـود والمهنـدسـون والعمـال والأفراخ وهكـذا الملكة التي بحـاجة الى طعـام أقـوى وأكثـر كـل على قدر حاجته ونوعه .

٣ ــ انها تحتاج الى الماء وتأخـذه من بخار الهـواء بصورة لم يتـوصل اليـه البشـر ، فكيف ومن أين تحصـل على هـذا البخـار وهي تعيش داخـل محلات مغلقة وفي مناطق حارة جافة ؟ .

٤ ــ انهم يتفـاهمـون فيمـا بينهم وينقلون الاخبـار بـطرفـة العين الى أقصى المملكـة ، ولكن كيف ذلك ؟ هـل بكـلام مثلنـا ؟ أو بـالاشـارة ؟ أو فـوق ذلـك بقـراءة افكـار الآخـرين ؟ بـالـوحي ؟ بمـاذا ؟ ولكن المهم انهم يؤدون تمـام مقاصـدهم بشكل احسن ، ولهم احسـاسات وشعـور فـائقـة في

أداء أمورهم وواجباتهم بدقة فائقة ولم يتوصل البشر حتى الآن رغم تتبعه العلمي والاطلاع ما وصلت اليه هذه الحشرات . وكانها لها علم بعيد الشعور بما نسميه بالمغيبات فهي تعلم ساعة موتها وتسعى الى المحل الذي تموت فيه ، وهي بمقابرها ومخازنها لان النوع يستفيد من اجساد موتاه فهي تصل الى المحل حيث تموت بعد لحظات وهي تعيش لاداء وظيفة تقوم بها ، فاذا ما تمت وظيفتها استعدت للموت .

انها اقامت حياتها على مبنى احتياجاتها واقامت امتن وأقوى الحصون في العالم واعظم القلاع عندما شعرت بالحاجة اليها لتحتمي بها ، آمنة من الد اعدائها واشدهم النمل وغيره ، آمنة لم يتوصل لامثالها البشر لا في زكفريد ولا في ما جينو ، تلك التي حار البشر بعقله ودرايته وكبره في التغلب عليها . ومن الناحية الادارية والاجتماعية عاشت في سلام دائم فيما بينها وآمنة من الد اعدائها ، في حين ان الانسان لا يخشى من أي مخلوق ولا يحذر أي مخلوق اكثر من انسان آخر من تعدياته وظلمه وتجاوزه وانانيته ومساوئه ، التي لا تعد الا تدل على ان الانسان لم يبلغ بعد شأو هذه الحشرات اذا علمنا ان الجهل منبع من أعظم منابع الويلات ، واخص منه الجهل الاجتماعي فمن الهمها هذه القدرة ومن سيرها هذه السيرة ؟ وكم هناك من الاسرار والخفايا التي هي اعظم ، ولنا في الطبيعة قدوة وعبرة وأدب .

وتعتبر هذه الحشرة من أرقى الأحياء حتى النحلة والنملة ، لأنك لا تجد منها فرادي تخرج عن مملكتها وتضل طريقها وتقوم باعمال يدل على البلاهة وقلة الذكاء كما تجد ذلك احياناً في بعض انواع النمل والنحل .

الكتاب الخامس

الجنسية أو التابعية



الجنسية والتابعية

المقدمة :

كـانت الأمور المثيـرة في البحث عن حكومـة عـالميـة مثلى يجـد فيـه الأفراد والجماعات حياة واقعيـة طبيعية ، يتخلصـون فيها من أعبـاء ومشاكـل هذه الحياة المعقـدة التي خلقتها الاغـراض الفرديـة أو زمرة من البشـر قرروا فيـه ما اوحت لهم غـرائزهم وأهواؤهم لبلوغ مأرب وغـايات خـاصـة عـادت بـزعمهم عليهم بالخيـر ، ولكنها بـاتت تحدد شيئـاً فشيئـاً من حـريـة البشـر باسماء ما انزل الله بهـا من سلطان ، ولا ترضيهـا الحياة الفـطرية السعيـدة ، واذا بهم يضعـون كمـا ذكـرنـاه أنـظمـة أو حتهـا لهم انفسهم واملتهـا عليهم اغـراضهم ، فسموهـا قوانين ، وتشعبـوا بها في مجـالات زادوها يـومـاً بعـد يوم ، حتى اصبحت متشابكة متخالفة تؤيد بعضهـا بعضاً أو تخـالفه بقـدر ما تسمح لهم لبلوغ مراميهم مهما ضاقت على هذا البشر المتعوس ، سعة الحياة ورحب العيش .

وحيث تلك الأهـواء والغـايـات تتغيـر وتتبـدل ، فمـا بـدلـون بقـوانين يبدلونها بين آونة وأخرى خفة وشدة بغية الـوصول كـل مرة إلى حـالة خـاصة وأمـر خاص يـريدون بهـا منافعهم ومصـالحهم وهم في كل مـرة يزيـدون في مضايق العيش وشد الخناق على سعادة الأفراد أكثر فأكثر .

ما أشقىٰ هذا البشر وقد خنق نفسـه بنفسه ، بـأساطيـر وضعها ونسقهـا وزينها بأسماء وألقاب هي من صنع يده ووحي غـرائزه مستخـدماً عقله لبلوغ

مراميه الدنية وشهواته العتية ، وتشعبت هذه الأنظمة والقوانين وكلما زادت زاد سخطه على الحياة التي لها قوانينها الثابتة التي إنْ شاء البشر أو أبىٰ فهي سائرة ، وما شقاؤه وتعاسته إلاّ لتلاعبه بالقوانين الطبيعية وخلق ما يخالفها أو يحدها .

ومن إحدىٰ تلك الأنظمة والقوانين التي ابتدعها وكيفها وأطلق عليها اسم الأنظمة والقوانين إنما هي قوانين وأنظمة التابعية والجنسية فقسم بقاع الأرض إلى مناطق وأقسام ، ممالك وإمارات ، مقاطعات ودول وشعوب وأمم ، لكل منها اغراضها وأهدافها ونزعاتها واضعاً لكل منها حدوداً وفواصل لا تعترف بها الطبيعة والفطرة ولا العقل السليم والمنطق القويم .

وإذا ما بعثت النظرة العميقة وتحققت تحقق الحكيم المدقق ما هي الفواصل التي تفصل الشعوب والدول والأمم عن بعضها ، أدركت الحقيقة . خذ منها وهي أقربها إلينا من دول إسلامية ، ملكية وجمهورية وإمارات في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وهم يعتنقون ديناً واحداً ومرامي وعمليات واحدة ، والشعوب الافريقية المجزأة إلى أجزاء صغيرة تفصلها عن بعضها البعض فواصل وضعتها الأغراض تعود عليها جميعاً بالضرر والقيود وتقيد الفرد والجماعة وتضر بكل فرد وكل جماعة ، ومثلها الشعوب الأوروبية المسيحيين والآسيوية والأمريكية ، وحاشا ان تكون الطبيعة قد حددت تلك الحدود ووضعت هذه القيود في الحد من النقل والانتقال من هنا إلى هناك ، ووضعت لها شروطاً من تعداها لقى الأمرين من عقاب صارم ومجازاة مريعة وتعذيب وإرهاق ، فما هو الفاصل الذي يفصل هذا القطر عن ذلك القطر، وهذه الإمارة عن ذلك القطر؟ ومن قال إن خيرات الأرض يتنعم بها شعب دون شعب وهم جميعاً يحملون نفس الشعور والاحساس بالسعادة والشقاء ، وكلهم يضمون نفس الأجهزة والأدمغة واللحم والدم والعظم ، وكلهم يحملون الغرائز البشرية ويتساوون فيها؟ .

أليس البشر كلهم متساوين بالدم والغرائز والعقل والشعور؟ ومحتاجين لنفس النوع من الطعام والماء والهواء، ويحملون نفس المطامع والأهواء، ويرجون ويتأملون على حد سواء لولا اختلاف المناخ والطقس؟ فما هذه التفرقة، والكل إذا عمّت التربية والتعليم وتساوت، لأصبحوا واحداً وفي حد ومستوى سواء؟ فما هذا التحديد؟ ومن وضعه؟ وما غايته؟ ومن أين نشأ؟ وكيف نشأ؟ وما هو الباعث؟.

١ ــ أهي العقيدة (دين أو نزعة)؟.
٢ ــ أهي العادات والعرف ؟.
٣ ــ أم هي اللغة ؟.
٤ ــ أهو اللون ؟.
٥ ــ أم الجنس ؟.
٦ ــ أهي الأرض (التربة) ؟.
٧ ــ أهو الزي ؟ .
٨ ــ أهي المهنة والوظيفة ؟.
٩ ــ أهي الخلقة ؟.
١٠ ــ أم الأخلاق ؟..
١١ ــ أم هو التوالد والتقارب العائلي ؟ أم غير ذلك؟.

هل بإمكاننا الاستفادة من هذا المجال من القانون الطبيعي في بدن الإنسان ودرسه وبحث المخلوقات الحيّة وسيرتهم مع بعضهم؟ هل لنا أن نبحث في المخالفات والموافقات الروحية؟ ما هي عقيدة أهل الآراء وأهل الأديان في ذلك؟ وعند مراجعة التاريخ الحديث والقديم ثم استنتاج نتائج هي أقرب للواقع للعمل عليه .

الجنسية ـ أو التابعية

ما هي الجنسية أو التابعية؟

تلك التي اهتمت بها الدول في القرون الأخيرة ، وجعلت لها مديريات مهمة ودوائر واسعة ، ووضعت لها القوانين والأنظمة وصرفت لها المصاريف الباهظة ، وأتبعتها بهويات يحملها الفرد تخول حاملها مزايا وصلاحيات لا تخول غيره ، وسرى هذا على الأفراد ما داموا في داخل قطرهم وأتبعتهم وميزتهم في الخارج بجوازات السفر ، ولكل حدودها وقوانينها لابن البلد يتمايز بها عن المقيم المؤقت أو الدائم الحامل لتابعية بلاد أخرى . وتركت لكل مواطن شروطاً وامتيازات تفرق بها عن المقيم المؤقت أو الدائم . فكانت هذه الأنظمة التي أطلق عليها اسم القوانين والتي ميّزت أفراد البشر في الشرق والغرب الواحد عن الآخر وأعطته صلاحيات وألقت عليه واجبات متقابلة كان لها دور مهم في سعادة وشقاء البشر في شتىٰ حياته ، وخلقت للبشر عراقيل كبيرة قيدت كثيراً من الحرية الفردية والجماعية من جهة ، وميرت تمايزاً بيناً بين الشعوب والأفراد فأسعدت جماعات وأشقت أُخرىٰ ، وخلقت أجواءا سياسية واجتماعية بعيدة المدىٰ ، لها اثارها في الحياة الفردية والجماعية ، وإذا بك ترى السياسات تلعب دورها المهم في هذا المجال ، والمحرك والمحفز لذلك ربما كانت مطامح ومطامع سياسية اقتصادية أو اجتماعية عنت بها الحكومات للحد من تسرب الأغيار داخل البلد المستقل من الثغور والحدود للولوج أو الخروج هرباً من الخدمات العسكرية أو غير العسكرية أو تهريب الثروات الخاصة

والعامة أو إفشاء أسرار أو استعلام أسرار خاصة وعامة . لهذا ترى القوانين هذه في تغير مستمر في ناحية من نواحيها ولغاية أو غايات ومصالح عامة وخاصة لمنع أفراد القطر من الخروج أو منع الآخرين من الولوج على قدر ما يهم أولى الأمر من الزمرة الحاكمة وأشدها تعسفاً تلك المصبوغة بصبغات دكتاتورية يتحكم بها افراد لا يراعون فيها الصالح العام بل المصالح الخاصة لزمرة معيّنة .

والجنسية ما هي إلاّ دعوة جديدة لخلق العصبيات القومية والشعوبية والتفرقة بين الأُمم والطوائف من هذا البشر وتنابزها فيما بينها ، وخلق مشاكل للفرد والعائلة والجماعات وخلق روح في الأفراد والطبقات تتمايز بها الواحدة عن الأُخرىٰ .

وهذا التمايز ما هو إلاّ مظهر من مظاهر قلّة العلم والحكمة التي تتمايز بها الشعوب الجاهلة أكثر فأكثر أو الشعوب التي تعتد بقوميتها وتستحقر القوميات الأُخرىٰ .

مظهر تتمايز به القبائل البدوية والعوائل التي يسودها الجهل المطبق . والتي تثير في أفرادها نخوة كاذبة تدرك بها الميزة على غيرها وترى في قراراتها دون دليل أو برهان أو رأي صائب محض أنانية ، إنها أجل قدراً وأرفع درجة من غيرها بالاحساب والأنساب ، دون أن يكون للعلم والحكمة والفضائل والرذائل أثر للشرف الرفيع أو لاعتداد بالذات ، وقد كانت هذه العصبيات القومية على أشدها منذ القدم في شعوب يسودها الجهل والفقر والعادات والخلق المستهجنة في الشرق والغرب ، ولم يكن التوسع العسكري مظهراً من مظاهر التفوق العقلي ، وان أدىٰ أحياناً بعد اشتداد الأزمات وسفك الدماء والتغلب بالقهر ، للغنى بعد المجازر والاثراء بعد الفقر والرفاه بعد الفاقة ، إلى نوع من التقدم مأخوذاً من الشعوب المقهورة الأوفر علماً مستحوذة على الغالبة بعلمها وحكمتها .

وقد ظهرت على أثر تلك المظالم في الشرق والغرب بوادر من المصلحين الداعين إلى أصول إنسانية وجدانية ، وإلى كبح جماح النفوس الثائرة الغالبة عليها أهواؤها من الغرائز لاشباعها دون رعاية عاطفة ورحمة ووعي عقلي ، للحد من جماح الطيش والاستهتار في الكثير ، وأدت تلك العصبيات إلى ظهور مصلحين بين أفراد البشر من أنبياء ومرسلين وحكماء مصلحين . وكانت الجزيرة العربية من المراكز الجلية الواضحة لظهور تلك الحزازات والتنابزات ومركزاً من المراكز التي تجلت بها قبل ظهور الإسلام ، من تلك الحزازات والعصبيات الفردية والقبائلية لما كانت فيه من جهل وفاقة .

وبالتالي ظهور ينبوع للعلم والحكمة استنارت به البلاد وانتشر إلى الغرب والشرق ، مهيباً بصرخات إنسانية وجدانية منطقية أقامت مَنْ في الأرض واقعدته ، وإذا الغافل يتذكر وذو الرأي يعي والنفوس تتنفس الصعداء ، وسنشرح فيما بعد فصولاً مهمة منه : ذاكرين عناصر ودوافع الجنسية . ثم تقسيم بحثنا إلى الجنسية في الإسلام وقبل الإسلام وبعده .

لذا نبدأ عن أسباب التقارب والتباعد في البشر :

١ ــ معنوية . ٢ ــ مادية . ٣ ــ مختلطة .

١ ــ المعنوية :

كالعقيدة ، ودرجة المعرفة (من علم وحكمة) الأخلاق ، التقارب الروحي ، وهذا القسم كان أشدها أثراً وأبعدها تأصلاً ورسوخاً .

٢ ــ المادية :

كالوطن (أرض المولد أو الإقامة) ، اللون ، الجنس ، الزي ، التزاوج والتوالد والتقارب العائلي ، والنشأة والخلقة والتقاطيع الجسمية .

٣ ــ المختلطة :

كـاللغـة والمهنـة والـوظيفـة ، المحيط والتـربيـة ، العـامــة ، النعـرة والشعور .

العقيــدة :

للعقيــدة المقـام الأسمى للتقــارب فهي بـالأخيــر وإن عبـرت عنهــا بـالمعنويـة بـل هي النتيجـة الحـاصلة حتى في المـاديـة والمختلطة وتكـوين الإحســاس العميق الراسـخ الباطن الـذي يـوجـه الفـرد للسلوك والسيـرة في الحيـاة تجـاه نفسـه وغيـره وشعــوره بـالسعــادة والشقـاء في كـل الـظروف والمجالات ، وربما شعـر الفرد في نفس الـظروف التي يحس بها الآخـرون شقاء يحس هو السعادة أو العكس نتيجة الاستنتاج الحاصـل من شعوره كـأن يشعر هذا العابد المتهجد في سلوكه وإيمـانه بـالسعـادة ، ويتـرحم على ذلك الـلاهي في مجـالس التــرف والمـلاهي ، أو مــا يشعـره الأخيــر في الأول ويحسبـه شقياً وهـو السعيد ، أو الحـاملون عقـائـد مختلفـة أُخـرى دينيـة أو سيـاسية أو اقتصـادية وغيـرها تجـاه الآخرين . وقـد ظهر وثبتت أن العقـائـد الدينية والحزبية السيـاسية والاقتصـادية والأخـلاقية وغيـرها هي أمتن الـوثائق التي تقـرب وتبعد الأفـراد والجماعـات الـواحـد لـلآخـر وعن الآخـر ، فقـد جمعت المسيحيـة رغم مـا فيهـا من المـذاهب دولاً وأقـطاراً مختلفـة حــول بعضها رغم اختلاف اللغـة والمناخ وأحيـاناً الـزي والخلق والأخلاق وغيـرها من لـون وعنصر . كمـا جمعت المسلمين من عرب وغيـر عرب في مختلف أقطار الأرض باسم الدين والعقيدة تجمعهم لـرب واحد وقبلة واحـدة وأُصول واحدة ونبي واحد وكتاب واحد ، ويخالفهم ويضادُّهم كـل الفرق التي تكفـر بهـذا الـدين ، حتى قيـل الكفـر ملّة واحـدة بينمـا نـرى في الآيـة القــرآنيـة العاشرة من سورة الحجرات قوله تعـالى : ﴿ **إنما المؤمنـون أُخوة فـأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلّكم ترحمون** ﴾ .

وتتبـع ذلك آيـات أُخرى تسنـد هذه الفكـرة . وهذا المؤمن قـد يكون

من أبيضها أو أسمرها أو أسودها أو أحمرها أو أصفرها دون طعن في العنصر واللغة وكل شيء ، بل تجمعهم العقيدة الواحدة هي كلمة التوحيد والأُصول الأخرىٰ المتبعة والتي مرّ ذكرها ، وهكذا المسيحية والبوذية والكونفوشيوسية وغيرها .

ولم تتجل الوحدة في العقيدة الدينية فحسب ، بل هناك العقائد الشيوعية التي تلتف حولها الدول الشيوعية والعقيدة الديمقراطية تجمع حولها الدول والأفراد الديمقراطية . ومثلها الفاشية وكل منها تجمع حولها أمماً ودولاً وأقطاراً من مختلف أركان هذه الأرض دون أن تعد الفواصل والابعاد والحواجز ويكفي حمل العقيدة والفكرة . ويتقرب الواحد للآخر على قدر ما تتوفر بينهم الشروط والمزايا وأُصول تلك العقيدة وتبتعد على قدر تخلفها عن تلك . إذْ نجد أن الدين الواحد بعد أمد تشعبت منه مذاهب فرقت جماعته في الداخل فهم بينهم ربما كانوا متنافرين ولكنهم يتحدون أمام الأديان الأُخرىٰ ، كما نرى ذلك في المذاهب الإسلامية والمسيحية وغيرها ، وكما نرى ذلك في الشيوعية وكيف انشقت داخلها إلى مذاهب فهي تتطاحن فيما بينها في الداخل ولكنها تقف أمام خصومها كوحدة تتميز بأُصولها .

وهناك العقائد الفلسفية وغيرها تجمعها الفكرة والعقيدة الواحدة في مختلف الدُول من شرق الأرض وغربها .

المعرفـة :

ومن أسباب التقارب العلم والحكمة والعقل ، المنطق ، والأخلاق السامية متى بلغت في البشر لحد ما بدأ يزيل الفروق المادية بين أفراد وجماعات البشر من الناحية المادية التي سيلي ذكرها من لون وشكل ولغة وزي وأمثالها ، بل يقدر الفرد أنىٰ كان ومن أين جاء ومهما كان عنصره ومرجعه ولونه وشكله وهيكله ولغته ، فهو يرى فيه القدرة وقوة الإدراك

والعقل المميز والمنطق ، وعندها يكون الكلام صفة المتكلم ، ذلك الكلام الذي يعتبر عن قدرته الفكرية ودرجة قواه المعنوية .

المعرفة التي تستنير بها الأفكار والعقول وتوقظ في الضمائر الوجدان وروح الإنسانية ومكارم الأخلاق والبر والاحسان والعدل والانصاف ونبذ للعادات المستهجنة والتقاليد المستقبحة ، وتعرفه طريق السلوك والصفاء ، وكلما نشطت تلك المعرفة ازداد حباً لأخيه الإنسان وإسداء الجميل مادة ومعنى من خدمة مادية وخدمة فكرية ومساعدات مؤقتة وأخرى دائمة . وهل تجد من هؤلاء إلاَّ مصلحاً حكيماً أو نبياً حميماً أو سيداً كريماً ، لا يقفون أمام الإنسان موقف الند للند فحسب بل يتجاوزون بالفضل والإحسان لإصلاح أحوالهم المادية والمعنوية من البر والعطف والإحسان والكرم الخلقي ونشر السلام والتقارب والألفة والمحبة بين أفراد الجنس البشري والرحمة والشفقة إلى كل ذي روح حساسة تشقى وتسعد؟ كما قال الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر : (واليه على مصر في العهد الذي كتبه له) :

(الناس إما أخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق) ، هذه هي المعرفة .

وعكس ذلك ما تجده في المجتمعات الجاهلة من التجاوز والتعدي والظلم من الكبير على الصغير والقوي على الضعيف ، فلا تكاد تتجاوز دارك أو محلتك أو مدينتك أو مجتمعك ، إلاَّ وكنت عرضة للغدر والاغتيال والتجاوز دون أن تكون منك بادرة وقصور . والظلم من شِيَم النفوس الجاهلة والفقيرة من المال والكمال . وإذا ما عدت إلى التاريخ واستعراض القديم بين المدن والقرى والقبائل لوجدت الغارة والغيلة والتجاوز بين الجارتين المدينتين والقريتين والقبيلتين ، بل وبين المحلتين في المدينة الواحدة وتجاوز أفراد هذه على هذه وغارة هذه على هذه في النفوس والأموال وحتى الأعراض دون ما مبرر ، حتى لتجد الرجل من هذه القبيلة

في كثير من الأحيان يجد القسوة والشدة من أفراد القبيلة أو القرية أو المدينة الأُخرىٰ دون أن يكون مذنباً وقد نجد الصبي لا يطيق المرور من زقاقه إلى آخر ، مجاور يلعب فيه الصبيان ، دون أن يكون عرضة لتجاوزاتهم دون أن يكون صدر منه ما يغيظهم ، وربما أدى الجهل إلى الخصام بين أفراد العائلة الواحدة . ومن درس التاريخ القديم أخص في البيئات الجاهلة أيد ذلك. فالعلم والحكمة والجهل والفقر هما من أهم وسائل التقارب والتباعد في أفراد البشر .

وهناك التقارب الروحي والأخلاقي قد يكون سبباً مهماً للتقارب والتباعد ، فالصفات المشتركة والعادات المماثلة تقرب بين الأفراد والجماعات والمخالفة تبعد بينهم . وقد قيل عدو المرء من يعمل عمله مما يخلق بينهم من روح المنافسة . أو يكون سبباً للتقارب إذا وجدت صفات روحية مماثلة بين فردين ، كأن يهوى هذا جمال الطبيعة ويماثله الثاني ، ويهوى هذا نوعاً من المطالعات والمداعبات أو النكات أو المصنوعات أو المخلوقات أو مشاهد وغير ذلك ، ويهوى الثاني نفس تلك فما يستمزجه هذا يستمزجه ذلك من ناحية روحية وأدبية ومادية بالسمع أو البصر أو الذوق أو الفكرة ، فترى التقارب بينهم واضحاً جلياً ، وبالعكس إذا حصل ما ينفر منه هذا يهواه الثاني وما يهواه الأول ينفر منه الثاني ، حتى قال الشاعر :

روحي الفدا لمعاشر أهل بصحبته انسجم

سيهون إجلالاً له أنّىٰ أطأطىء للقدم

إن شئت تعرف يا أخي على اليقين جهنماً

فجهنم الدنيا معاشرة المخالف إن لزم

وربما وجدت بين هؤلاء بسبب هذا التقارب أُخوة تفوق محبة الأشقاء في الحب والتعاون والتأييد وقد قيل في ذلك : « رب أخ لك لم تلده

أمك » كما قيل : « إن الأرواح جند مجندة ما توافق منها ائتلف وما تنافر منها اختلف » .

وحقاً ذلك وقد قال الشاعر :

سعة الفلات مع الأعداء ضيقة ... سم الخياط لدى الأحباب ميدان
لو ضمني بيت نمل والحبيب به ... لكان لي فيه بستان وريحان

ومن هو الحبيب سوى من أجد فيه بغيتي من صفاته وروحه؟ إما أن تكون مادية أو معنوية ، ولا أشك بالمعنوية إلاّ وهي المثلى إذ هي وحدها التي تكون بها الألفة الدائمة والحب وهذا التقارب الروحي قد يخلق حبيبين بين أفراد قبائل أو مذاهب أو مدن أو قطرين متنافرة ، كما قال الشاعر وهو يتغزل بحبيبته :

هي شامية إذا ما استهلت ... وأنا ضدها سليل يماني
هل رأيتم يا اخوتي أو سمعتم ... إن ضدين قط يجتمعان

فأقول إذا كنتما ضدين من قطرين ولكنكما شقيقان بالنفس والصفات والأرواح .

فالصفات المعنوية المارة الذكر تكون هي الصفات الأساسية للتقارب والتباعد ، وحتى بعد شرحنا الصفات المادية والمختلطة فسوف نجدها واحدة ، أي إنما هو ما يعود إلى الحس والشعور من شوق وحب وألفة ونزعة للتقارب ، وعلى عكس ذلك أيضاً ما يجده في تباعد إنما ما يحس به من نفور مادي يتحول إلى نفور بالذوق وتنافر في الشعور واختلاف في الطباع وكلها معنوية .

٢ ـ المادية :

الوطن ـ ما هو الوطن؟ .

أهي الأرض التي ولدت بها أنا؟ أم أنا وأبي؟ أم آبائي وأجدادي؟ أو

التي نشأت بها؟ أم التي غذتني؟ أو التي فيها أصدقائي وأحبابي وأهلي؟ أم التي أتحسس بالحب والحنان لها؟ أو غير ذلك؟ .

ربما ولدت في مولد أبي أو آبائي وأجدادي أو ولدت في مدينة أو قطر آخر لسبب من الأسباب ، كأن أكون ولدت من أب كان سفيراً في بلدة صديقة أو غير صديقة ولدت بها ، أو جاءت أُمي لزيارة ذلك القطر كالحاج لمكة وهو في إحدىٰ الأقطار الإسلامية النائية كأندونيسيا ، أو كان تاجراً أو كانت أُمي تلميذة في إحدىٰ الأقطار النائية عن بلدها ووطنها الأصلي ، كأن تكون أُمة تركية وأبوه مصرياً وكلاهما جاءا لتجارة أو ثقافة إلى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو أوروبا أو اليابان وحصلت الولادة بها ، أو حصلت الولادة في أرض أُخرىٰ سواء وطن الآباء أو غير الآباء كما مرّ وأصبحت النشأة في أرض أُخرىٰ .

هذه النشأة كم دامت؟ أهي كانت في سن الطفولة الأولى وقبل أن يحس الطفل بمحيطه وقبل المعرفة الأولى أم دامت لبعد التمييز؟ لتبقى له ذكريات ، أم دامت لعهد الصبا والنشأة الأولى وبدء الصحبة؟ أم حصل معها أصدقاء من الصبيان قبل عهد الدراسة وفي دور الحضانة؟ أم هي كانت في العهد المدرسي الأول في الابتدائية ، الثانوية ، الجامعية وانقسمت وتشعبت كأولاد السفراء ـ ذلك من حيث السكنى والأصدقاء والغذاء والهواء والطعام ، والمحيط والتربية والتعليم ، ودرجة الذكريات ودرجة الحنان ، أي منها الوطن؟ .

ماذا نقول لقريشي الأب والأجداد تربي في أرض نائية. أُخرى لنسل أو نسلين أو عشرة أو عشرين ، في أرض عربية أرض تركية أو صينية أو أوروبية ، وتعود على أخلاق أهلها؟ .

أهو لا يزال قرشياً؟ وماذا نقول لأعجمي جاء وتربىٰ بأرض عربية لنسل أو نسلين أو عشرة أو عشرين ، في أرض عربية أرض تركية أو صينية أو أوروبية وتعود بأخلاق أهلها ، ونسي أخلاق محيطه الأصلي وعاداتهم

وكـل شيء سوى ما يقال عن آبائـه وأجداده؟ أهـو لا يزال أعجميـاً؟ وهل إذا عاد القرشي بعد مئات السنين من بـلاد أوروبية أو صينيـة أو هنديـة أو غيرهـا وهـو لا يزال متخلقـاً بنفس الخلق من عـادات الأرض التي ولـد بهـا وتـربىٰ أهو قرشي أم صيني؟ أم أنه غير قرشي ولكن أبناءه قرشيون؟ .

إن هذه التفاصيل المارة الذكر تفـاصيل واقعيـة فكيف يجب أن تعالـج وكيف يجب أن تحـدد؟ كيف يعني ابن الوطن في العـراق مثـلاً بعـد الحكم العثماني؟

أصحيح أن كل من كان ينتمي إلى الحكم العثماني هـو عراقي؟ وكـل من كان لا يقبل بالسيطرة العثمـانية فهـو غير عـراقي وإن جاء الأول من عهـد قريب من اليونـان أو تركيـة أو ارمينية أو أفغـانستان أو أي بلدة عـربية أو غيـر عربية يقبل مواطناً؟ اما ذلك الذي ولد من آباء وأجـداد نسلاً بعـد نسل أكـان أصله قرشياً أو عدنانيـاً عربيـاً كان أو أعجميـاً فهو غيـر عراقي لمجـرد أنه لم يقبـل التبعية العثمـانية في عهـد الاحتلال العثمـاني ، ولمحض التخلص من نيـر السلطة الحـاكمـة وتخلصـاً من تعسفـاتهـا ، فهـو غيـر عـراقي؟ فيتحلىٰ الأرمني أو الشـركسي أو اليونـاني الدخيـل الذي كـان يومـاً مـا تحت السلطة التركية بالجنسية العراقية ، وتنـزع من هذا المـواطن العريق الـذي ما أراد أن يخضع لحكم أو سلطة حاكمة مستعمرة وتجنس بجنسية هنديـة أو أفغانيـة أو غيـرها؟ وإن كـان يشعر الأول الـذي خضع للحكم العثمـاني أنه يـونـاني أو شـركسي أو أرمني أو هنـدي أو صيني أصيـل من آبـائـه وأجـداده وحن لبلد آبائه وأجداده ويفتخر بها ، وبالعكس يشعر هذا الثـاني بالحنين لبلدتـه التي ولد ونشأ بها وتغذىٰ بتـربتها وحـوله الـزمرة والجمـاعة من أصـدقائـه من بني البلد ويحن إلى هـذه الأرض حنينـه لأمـه ولمن حـولـه حنينـه لإخـوتـه وهـو متمـاسك معهم عقيـدة ودينـاً ، وقـد رأىٰ أن فيها مـولد آبـائه وأجـداده وفيهـا مقابرهم وآثارهم .

أصحيح أن يثبت الأول في الوطنية وينفي الثاني منها؟ .

اللــون :

الأبيض الأري والسـامي في أوروبا وأمـريكا وشمـال الجزيـرة العربيـة وإفريقيا وإيران والهند وباكستان وأفغانستان واستراليا .

الأسمـر الآري والسامي في شمـال افريقيـا وجنوب الجـزيـرة العـربيـة والهند وباكستان .

الأحمر الهنود الحمر في أمريكا الشمالية والجنوبية .

الأصفر في شرق آسيا .

الأسود في افريقيا وأمريكا من الجنس الحامي .

كم نـرى بسبب اللون تمييزاً عنصـرياً أخص منهـا في أُوروبا وأمـريكـا وربما في أنحاء العالم الآخر ، وهي ميـزة ظاهـرة وكثيراً مـا تجد هـذه الميزة داخل الدولة الواحدة وربما كانت هذه الميـزة نفسية أو اجتمـاعية خلقيـة كما هي أخلاقية بين أفراد الشعب الواحـد ، تلك التي تراهـا في كثير من الـدول الجامعة للشعوب الارية والحـامية كـالولايـات المتحدة الأمـريكية وافـريقيا ، والسامية والحامية كما في السودان وشرق افريقيا .

ورغـم هذه الظاهرة النفسية نجد بعض الحكومـات تساعـد هذا التمييـز العنصري بين أفراد الشعب والقطر الواحد كحكومات افريقيـا الجنوبيـة ، وما يـلاقيه السـود من جور البيض ويقـابل ذلـك ما يـلاقيه البيض من السـود في شرق أفريقيا ووسطها ، وهذه الـظاهرة المـادية يعـاب عليها من مثقفي البشـر لمـا تخلق من الأجحـاف والعـداء ، وبـالتـالي من النكبـات وكم كـان لهـا مساوىء إنسانية على طول التاريخ البشـري وكانت لهـا منابـزات ومشاحنـات وفتن وصدمات على كـاهل أفـراد البشر مبعثهـا الجهل الاجتمـاعي والهمجية الكامنة في قلوب البشـر الذي ابتعـد عن الاصغاء للعقـل والضمير الإنسـاني الواعي .

وإذا محصنا ودققنا الحقيقة لوجدنا أن الثقافة لا تختص بلون ومثالها الفضائل والسجايا الحميدة والعلم والجمال الخَلْقِي والخُلُقي ولا عكسها ، فربما وجدت السمو والرفعة في لون وترى بالوقت نفسه عكس بنفس اللون كما تراه في الألوان الأخرىٰ أيضاً .

إن اللون لا يدل أبداً على مميزات دائمة للحسن أو القبح أو الشر والخير ، فالتربية والمحيط والعلم والجهل والثراء والفقر والمناخ والطقس لها أثرها الفعّال ولطالما كانت شعوب صفراء في أوج الحضارة وفي الوقت الذي كانت الشعوب البيض في حالة بربرية ، وكم كانت تزدهر البلاد الإسلامية بالعلم والثراء والسلام والطمأنينة ، في حين كانت أُوروبا وأمريكا في بحبوحة من المحنة والشقاء وترزح في جهل مطبق وغير ذلك ، فاللون ليس عبرة مميزة يجب عدها نموذجاً وأصلاً نفرق به أفراد البشر للتساوي في الحقوق وشرطاً مميزاً بين الأفراد والجماعات يقدر ما كانت للأثرات الروحية من الأهمية .

الجنس والعنصر والدم :

والأصح أن نعبر عن الثلاثة بالعنصر، قاصدين بها الأصل في الجنس والدم كأن نقول عنصراً أريا أو سامياً أو حامياً أو أحمر (الهنود الحمر الأمريكيين) والجنس الأصفر . فهي وإن امتازت أحياناً ببعض المميزات الشكلية واللونية بيد أن هذه المميزات تتغير بمرور الزمان وتتكيف من تأثير درجة حرارة المحيط والمنافع والطقس نسلاً بعد نسل ، عندما يتبدل عليها ذلك كما تتأثر نفسياً بالمحيط والتربية وفي جميعها تجد أجهزة البدن الأصلية والمستوى الفكري والنفسيات والروحيات ، وإن وجد فيها في الآونة الأولى بعض التبدلات البسيطة بسبب المحيط والتربية الطويلة الموروثة والمكتسبة ، بيد من حيث الأصل لا ترى مميزات فكرية مميزات في الأجهزة البدنية تخالف الواحدة الأرى سوى هذا اللون والشكل ، وكثيراً ما تجد المستوى الفكري بنفس التذبذب في جميعها

ويكاد يكون بتأثير المحيط والتربية والمناخ بنفس المستوى عند بقائه أو تغييره على جميع العناصر على حد سواء . إن الحالات الموروثة والمكتسبة فيهم جميعاً على نفس المستوى من التبدل والتغيير بتأثير التطورات الطبيعية وغير الطبيعية ، وبالنتيجة ليس لنا أن نميز عنصراً على عنصر لعلل أصلية ثابتة فيه إذ ربما وجدت من الأفراد في عنصر حامي تفوقاً من الناحية الاجتماعية والعقلية والمظهر البدني والفكري على العنصر الأري وبالعكس . ومثله بين العناصر الأخرى . وبقدر ما يشعر الفرد من الجماعة والأفراد تجاهه من الابتعاد والتقرب ويحس منهم أُلفة وحباً أو نفوراً وبغضاً يكيف نفسه بل تتكيف نفسه بالولاء والاخلاص لهم والعكس بالعكس .

إن التنابزات والتفاخرات من فرد أو جماعة على مثلها لا تخلف سوى مثلها من الانعكاسات تلك التي تحصل دائماً في المجتمعات الانسانية الجاهلة من الجهة الاجتماعية وتكثر في مجتمعات متدهورة خلقياً حيث تكثر الحزازات والمشاحنات ، وتكون تلك بسبب العنصرية كما تكون بسبب العقائد المارة . وما سيلي ذكره .

الواقع الذي يدليه المنطق والعقل السليم لا تجوز الفواصل إلاَّ على قدر المعرفة والخلق ودرجة الشعور الإنساني للخدمة العامة والخاصة في الفرد والجماعة .

الزي :

في اللباس وطرز التجمل في الرأس والوجه والبدن من الشعر والتقاطيع ، وإذا عدنا إلى ما اعتاد عليه الأفراد في مختلف الأقطار مما ذكرناه من اللباس في البلاد الأوروبية والصينية والهندية والعربية والإفريقية والاسيكيمو ، في المناطق الحارة والباردة والمعتدلة ، من ارتداء أنواع الأزياء أو مثلها طرز حلاقة الشعر أو إرساله أو تجميله أو تقصيره أو إهماله أو تزيينه في الرأس أو الوجه أو باقي نواحي البدن أو استعمال الآثار

الـدائمـة أو المؤقتـة في نـواحي البـدن ، من وشم وكي وثقب الأنـوف أو الآذان أو غيرها ، مما يترك أثراً دائماً أو مؤقتاً كالاصباغ وما شاكل .

نرى أن لكل جماعة آثاراً وعاداتٍ وعرفاً تتميز بها جمـاعةً وأفـراداً دون أُخـرىٰ ، ليست لها مـا يميزهـا تمييزاً آنيـاً إذا كانت آنيـة أو باقيـة على الفرد دون سـرايتها إلى نسله كمـا يفعلها في حـالة الـوشم والكي والثقب للأنـوف والآذان ، بغيـة التجميـل أو استعمـال الحلي ، هـذه كلهـا رغم كـونهـا من العادات التي يمكن إصلاحها وتبديلها فهي لا تكون في الواقع فـارقاً أسـاسياً للتمييـز العنصري الـذي يؤثر على سلوك الفـرد تجاه أخيـه الإنسان ، ويقـدر أن لا يعيـرها هـو أو غيره أهميـة ، والتي بنظر العقـلاء ليست أُموراً أسـاسيـة لحياة الفرد ، أو أثرها على الغيـر كالمعـاملات والسلوك والأخـلاق والسيرة . وهذه بالإمكـان وأخص منها اللبـاس تغييره حسب المحيط ومثلهـا التجملات البـدنية المؤقتـة المار ذكـرها ، فهي يمكن تـطورها حسب مـا هي في البيئـة وعنـدها لا تبقى فـروق مميزة ظـاهريـة أو باطنيـة . منها يحسب لهـا ما يـدل على تمييـز في الفـرد بين الأفـراد الأُخـرى ، يخـرجـه كعضـو ممـاثـل لتلك الجماعة . وربما كان اللبـاس الذي بـالإمكان في أي وقت تعـويضه وتبـديله أثـراً بالغـاً قويـاً للتمييز ومثله الهيكـل النـاشيء من طـرز الشعـر من إرسـالـه وقصه أو تجميله وأمثال ذلك ، طرز لباس المرأة في المحيط والـرجل ، أثـراً تحسب لهـا بعض الشعـوب حســابـاً يخــرج الفـرد من مــواطن إلى أجنبي ولنضـرب لذلـك أمثالاً ، كـالاستفـادة من لبـاس أوروبي في وسط الجـزيـرة العـربيـة كمكـة أو جـدة أو بـالعكس لبـاس العـربي في أوروبـا ، أو لبــاس الياباني أو الصيني في شمال افريقيـا أو الهندي في تـركية وأمثـالها . ومثلهـا طـرز اللحى . فترى للشعـوب الأوروبية طـرزاً خاصـاً تختلف عنه الشعـوب الصينيـة في شعر الـوجه والـرأس ، وتختلف عن كليهما الشعـوب العربيـة ، وعن جميعها الشعوب الهندية التي لا يجـوز لها أخص بعض المـذاهب منها قص الشعـر للرأس أو اللحى ، كمـا تـرى أُصـول الـزينـة للرجــال والنسـاء الأوروبيين تختلف عن الهنـدية والصينيـة والعربيـة والسود في أواسط افـريقيا

ومثلها ليس النساء وأُصول التستر للنساء والرجال في مختلف شعوب الأرض في الحل والترحال والإقامة والسفر وداخل البيوت والخارج ، وكثير أمثال تلك التي تميّز قطراً عن آخر وشعباً عن آخر، وجميع تلك يمكن خلال مدة قصيرة التطبع والسير عليها والقضاء على تلك الفواصل بحيث لا يبقى لها أثر يذكر ، سوى ما ظلّ منها باقياً كالثقب في الأُذنين والأنف عند الهنود وغيرهم وتشقق الخدود والعارضين عند بعض الزنوج والوشم عند شعوب أُخرى على الوجه أو الصدر أو اليدين تلك التي لا يمكن اخفاؤها . ومن الصعب محوها ، تبقى آثارها ومميزاتها في الفرد بيد أنها لا تنتقل كمميزات اللون في النسل .

فالزي له تأثير نفسي على الابتعاد والاقتراب بين الأفراد لما يحسون فيه من الموافقة والمخالفة لطباعهم وعاداتهم ، ويحسب لها البعض أثراً بليغاً في تمييز هذا عن غيره ، على الأخص أن تبع ذلك بعض مميزات أُخرى تفصله في اللون أو العقيدة أو السلوك أو ما شابه ، وأما إذا وجدها فتعود بنوعها وبعدها وقربها من عادات القوم .

التزاوج والتوالد والتقارب العائلي :

وللتزاوج أبعد الأثر في التقارب وقد قيل في النساء لسبب التزاوج أنهن يقربن البعيد ويبعدن القريب . فالزوجة شريكة الرجل في حياته المعنوية والمادية لا أقرب منها إليه ، فهي بقدر ما تحمله من قوى عقلية وإدارية تزداد تقرباً من زوجها حتى يبلغا كنفس واحدة تجمعهم كل المصالح والمنافع المشتركة ، أخص ان أخلصت وأكثر ان أنجبت الأولاد ـ إذ قبل انجابها الأولاد من السهل جداً قطع هذه الصلة والعودة إلى الحالة الأولى وتبديلها بغيرها ، بيد انه بعد انجاب الأولاد فقد جاءت حلقة رابطة محكمة تشتد بالولد الثاني بحلقة ثابتة الاستحكام ، وهكذا تزيد كلما زادت هذه الولادة . بيد انه يفوق كل ذلك الاقتران والموافقة الروحية بين الزوجين فوق كل رابطة .

ومـذ يحكم الـزواج بين شخصين نـراه يحكم الـرابــطة بين العـائلتين والقبيلتين بـرابطة سببيـة ، تبقى هذه الـرابـطة قـائمـة مـا دامت الـزوجـة في الحياة ، وإذا مات أحد الزوجين قام الأولاد المنجبون بـاحكام هـذه الرابـطة إلى الأبد بالتوالد .

وهـذا التـوالـد على أشـده بين الأبـوين وأولادهم ، فهم الفـرع الأول وبينهمـا وبين أبنـائهم ، فـالأبنـاء فيمـا بينهم أُخـوة أشقـاء ، وكلمـا تـوالـد وتبـاعدت الفـروع من أولاد فأحفـاد فأولاد أحفـاد ثم أحفـاد أحفـاد ، هكـذا دواليـك نرى القبيلة تتشكـل من فروع وفروع الفـروع حتى تصـل الأصـل ، وكلمـا قربـوا للأصـل كانت الـرابطة النفسيـة والمحبـة والعـلاقـة أشـد تلك بالنسبة للأحساب ، وهناك أصدقاء الآباء للأبناء وبالعكس .

ومـا يحصل من التـزاوج والتقارب بـربط العـوائل والقبـائـل والقـريـة والمدينة . فـابن القبيلة ينتمي إليها ولـه رابطة تـوالديـه ، وابن القريـة ينتمي لفريقه أو المدينة لمدينته والقطر لقطره . هذا التقارب العائلي له أثـره البالـغ في الافـراد والجماعـات البدويـة أكثـر فـأكثـر ويقـل بين الشعـوب المـدنيـة والمثقفـة ويقوم مقـامها حسن التفـاهم والتقارب الفكـري ، حتى قيـل (رب أخ لـك لم تلده أُمك) ، وهي حقيقـة واقعية حـاصلة من التقـارب الفكـري والـروحي بين فردين أو جمـاعة يحس الـواحد بـالآخـر من الحنـو والتقـارب أشدَّ بكثير مما يحسه بأقرب اخوته .

ولـطالما وجـدنا التقـارب بين صديقين والتعـاون بينهما أكثـر بكثير من أخيـه ، حتى قد يكـون هذا الصـديق من قريـة أو مدينـة أو قطر آخـر يتمايـز بكل الصفات عن هذا سوى الفكرة والعقيدة فحسب .

النشـــأة :

مرّ ذكرها في الوطن (الأرض).

المحل الذي ينشأ فيه الفـرد ويترعـرع والمحل الـذي يحمل من ذلـك

المكان ذكرياته الماضية التي تبقى عالقة في ذاكرته ، ممتـدة من أيام طفـولته وصباه وشرخ الشباب وعهد الشبـاب ، وبعده حتى الكهـولة والشيخـوخة مـع اقـرانه واخـوته وبين عـائلته ومحيط محلتـه ومـدرسته ومـركـز اللهـو واللعب والتجوال في افراحه وأتراحه ، ومن عطف عليـه وأعانـه ومن آذاه وأهانـه وما أبهجه وأسره ونكده وأضره .

تلك التي تبقى عالقة في ذهنـه وتجول في خيـاله وجنـانه تتـداعىٰ إليه خواطرها وتمر على ذاكـرته منـاظرهـا ، فيشتاقهـا ويهفو إلى آثـارها الـراسخة فتعج فيه كوامنها ، خاطفة ناطقة صارخة فيحن للمـاضي لو يعـود ويتمنى من اخلائه كل ودود .

لا يشـك أن المـرء إذا تنـوعت حيـاتـه وتبـدل محـل سكنـاه وتغيـرت محـلات إقامتـه فهو يهفـو لأعذبهـا صفاء وأخلصهـا وفاء وأقلهـا شقاء وعنـاء وأكثره أحبه وأقلها عداء .

ربمـا كان هـذا التنوع في السكنى في مـدن أو قرى أو أقـطار مختلفـة فهي جزء من حياته . فلمن ينتمي وأين هو ووطنـه ؟ أهو الـذي ولد فيـه وهو لا يـذكر منـه شيئاً؟ أم وطن آبـائه الأقـدمين أم الأقربين؟ أم الـذي نشأ فيـه؟ وأي من تلك التي نشـأ فيها؟ أهي الأطـول نشأة أم الألـذ والأعـظم منـه وإن قلّت مدتها وصغرت رقعتها؟ .

الخلقة والتقاطيع الجسمية :

خلق النـاس مختلفي الخلقـة والتقـاطيـع ففيهم الكبيـر الجسيم ، والصغيـر الـذميم والسمين والنحيف والقـوي والضعيف والجميـل المليـح والذميم القبيح . والأبيض والأسمر والأصفر والأحمـر . بيد اننـا نرى الأذواق فيما مرّ غير متساويـة في الانتخاب ولا سـواسية في الاختيـار ، فكم من ترك الأبيض واختار الأسمر وكم من تارك المعتدل القـويم إلى الطويـل الضخيم؟ قال الشاعر :

تعشقهـا شمـطاء بـاد عيـونهـا وللنـاس ممـا يعشقـون مـذاهب

ومنهم من لم يرقه الأبيض والأحمر والأصفر واختار الأسود فقال :

النــاس تعشق من خــال بــوجنتــه   فـكيـف بي وحـبـيـبـي كـلـه خــال

وقال مجنون ليلى :

يـقــولــون ليـلى ســودة حبـشـيــة   ولـولا سواد المسـك ما انبـاع غاليـا

والحسن وإن كان له حدود ومثله القبح بيـد هناك التقـارب في الأرواح والـطبـاع . فتتقـارب الأرواح لبعضهـا والـطيـور على أمثـالهـا تقـع فيتقـارب المتماثلون ويتباعد المتخالفـون ، ولطبيعـة الأرض وعادات وخلقـة الساكنين وتشابههم تجذب بعضهـا البعض ، ولكن هذا ليس بـدليل ، على أن الـذي يختلف خلقه إلى الحسن وكمال الخلقـة والجمال الـطبيعي فيهواه الأكثـرون ويستمزجه الأغلبون ، فهذا أيضـاً ليس دليلاً لتقـارب أهل المـدينة أو القـرية أو الـوطن الواحـد . والخلقـة لهـا خصـائصهـا في النفـوس ومـا ذكـرنـاه من الأشعـار إنمـا هي قيلت في الشـواذ ولا يقـاس على الأغلبيـة ، والأصـل أن الأغلبيـة تهوى تغـريد البلبـل وصداحـه ، والنادر من يهـوى نعيق الغـراب ، والأغلبيـة تتذوق الفـواكه الحلوة النـاضجـة ، والنـادر من يفضـل الحـامضـة الفجــة ومثلهــا من يفضــل الأســود على الأبيض والحــامي على الأري . وهكذا .

المختلطــة :

كاللغة المهنة ، أو الوظيفة والتربية ، النعرة والشعور .

اللغــة : كل لغة إنسـان فاللغـة وسيلة التفاهم والتعبيـر ، والتقارب لا يـدرك المـرء أثـر اللغـة في حيــاتـه إلاّ إذا ابتلى وتغـــرب في بـلاد لا يفهم لغتهـا ، أو صادف أن احتـاج إلى الكـلام مـع أفـراد أجـانب ، أو اضـطرتـه الحاجة للإصغاء إلى الحاكي والتلفزيـون أو غيره واستفهـام عرض أو شـريط أو أفلام أو رسالة أو كتاب .

واللغة واللهجة كلما كانت مماثلة بعثت في المتحادثين روح التقارب البلدي أو القروي أو الوطني ، وربما كانت المفهوم والدليل الأول لتعرف الشخص من أي بلدة وقطر، ودرجة ذكائه وعلمه وحكمته أو جهله وغباوته . لذا قيل : الكلام صفة المتكلم . وقيل أيضاً المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه ـ وربما يبقى المرء مجهولاً للغير حتى ينطق وعندها تعرفه من هو . ومن أين هو وكيف يجب أن تعامله أو تدانيه أو تباعده . فقد نقل عن الإمام الشافعي : انه دخل عليه رجل وكان الإمام وحده في غرفة الاستقبال ومادأ رجليه ، ومذ أقبل عليه ورأىٰ سيماه وبزته وهيكله ما يبين عليه الوقار والاحترام آنذاك ، ولما لم ينطق الرجل ، جمع الإمام رجليه ، وقابله بلطف واحترام ، وما أن جلس الزائر صبحه بالخير ، وبعدها سأله عن حاجته ، فقال : لي سؤال فقهي أحب أن تجيبني عليه . قال الإمام : تفضل وسل :

الزائر : متى يفطر الصائم؟
الإمام : متى غابت الشمس.
الزائر : وإن لم تغب؟
الإمام : إذن يمد الشافعي رجليه .

وقد ذهبت كلمة الإمام الشافعي هذه مثلاً على جاهل ذي هيكل أو بزة موقرة ، يجهل مواقع القوة والضعف في الكلام ، وكيف يسأل ويجيب ، وكيف يحاور ، أو تراه يصدقك ، وأنت تحدثه ما لا يليق ، أو يكذبك أو يخاصمك أمام الاستدلال والمنطق القوي في البديهيات ، لذا قيل :

كلم المرء بما لا يليق فإن صدق فلا عقل له . أو حدث المرء بما يليق فإن كذب فلا عقل له .

فاللغة تعرفك مرة المرء من أي بلد ، وأُخرىٰ مقدرته العقلية العلمية . بيد أنه لا تدل هذه اللغة مهما كانت متينة اللهجة لابن البلد

درجة وطنيته وتفانيه لتلك البلدة ذات اللغة، إذ ربما نشأ هذا الفرد بغية دراسة علمية أو معاملات تجارية أو شؤون اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها ، فأتقن اللغة وعبر عنها واستمالك ، وهو يبطن ويكن غير ما يظهر .

وربما وجدت آخر لا يحسن اللغة بدرجة من سبق لأنه تغرب لنفس الأغراض عن وطنه إلى بلدة أخرىٰ ، وعاد بعد حين وقد تأثرت لهجته ولغته من البلاد التي أقام فيها طويلاً ، وإذا بك لا ترى فيه ما تجده في الوطني وهو أشد حباً ووطنية من سابقه ، فاللغة ما هي إلاّ أداة أو وسيلة ، أو الأحرى مظهر من مظاهر ما يتجلىٰ بها ابن البلد بين بني وطنه ، وصفة محببه ومقربه له منهم للتفاهم والتعبير ، وليست وحدها الدليل القاطع والبرهان الواقع على ثبوت وطنيته ، وربما بدت للوهلة الأولى وأثبتت وطنيته أمام النعرات والتعصبات والمنابزات العائلية والقبائلية عند البعض الذين يحسبونها شرطاً من شروط الحياة والسلوك .

نحن نعرف حق المعرفة أن هناك كثيراً من الصفات القائمة بين بعض القبائل والفرق في مختلف أنحاء المعمورة ، أخص منها بين القبائل البدائية البدوية البعيدة عن الحضارة والثقافة العالية ، وما تحمله من الاعتداد بالنفس والعائلة والقبيلة ، رغم جهلها وفقرها ، حتى لتجد من العار أن تزوج بنتاً لها لرجل غريب مهما بلغ من الشرف الذاتي والدرجة العلمية وسمو الأخلاق ، وهذه تذكرني بقصة جرت للعلامة الفيروز آبادي صاحب قاموس اللغة العربية ، هذا العالم المحقق يصل قبيلة عربية ويتزوج إحدىٰ نسائها وهي تأبىٰ أن تتزوج إلاّ عربياً أصيلاً قريباً . ذات يوم مساء يخاطب زوجته قائلاً : اقتلي المصباح (يقصد بذاك اطفئي المصباح) فتستنكر منه هذه الجملة قائلة إنها عجمية . كان هذا نذيراً له بالشر والبدء للتحقيق عنه فيما إذا كان أعجمياً ، فأجابها إن للعرب قبائل وطوائف وأقطاراً ومدناً ولهجات شتىٰ لا يستطيع أن يتقنها عربي في ناحية

مـا ، وان جهلك بالكلمـة لا يدل أنهـا أعجمية ، وهنـاك الكثيـر من اللغـات التي تجهلينها وقد وضعت بأشعار وأمثال عربية . فقالت : اتلُ لي منها .

ففكـر وهو المحقق المتبحـر في اللغة العـربية وهـو ينتمي لفيروز آبـاد من بـلاد فارس ، ومـا نطق بـه أعلاه كـان حقيقة فهي وغيرهـا ربمـا جهلت الكثير من لغات العـرب ، بيد أنـه أراد أن يقدم لهـا كلاماً يقطع بجهلهـا به إلى السـاعة التي يستـطيع التخلص من المـأزق وترك القبيلة ، فـأتىٰ بأبيـات شعرية ضمنها كلمات فارسية قد صاغها صياغة عربية . قائلاً :

ان الأنـاكير سـازت بعـدمـا سبـزت   واشـرورنت بعدمـا كانت تـراشيشـا

والأنـاكير جمـع أنكور وهـو العنب بالفـارسية ، وسـازت تعني نضجت وسبـزت تعني اخضـرت ، واشـرورنت تعني حلت ، وتـراشيشـا تـعنـي حامضة . وفحواها ـ إن العنب نضـج بعد مـا كان أخضـراً وحلىٰ بعدمـا كان حامضاً . وقيل إنه بعدها ترك القبيلة هارباً .

منـه نستدل أن اللغـة كانت عنـد الأقوام البعيـدة أخص منهـا البـدويـة وأمثـالها رمـزاً ودليلاً على الـوطنية ، لكن اليـوم التي كثـرت فيهـا المعـارف ووسائل السفـر وتعلم اللغات والازدواج من الغـرباء والـدراسات في الأقـطار النائية ، لم يبق للغة ذلك الرمز الحصين والعلامة الوثيقة على الوطنية .

الحرفة والمهنة والوظيفة :

ذوو مختلف الأعمال والمشاغـل من شتىٰ أنواعهـا الفكريـة والبدنيـة ، بمـا فيهم من مهندسين وأطبـاء وإداريين وعمال وصنـاع على مختلف شعبهـا وأنواعها ، ومـا يتبع ذلـك من ذوي المكاسب التجـارية ومـزارعين ما لا يعـد ويحصىٰ .

قيـل سـابقـاً : عـدو المـرء من يعمـل عمله ، وربمـا تمـايـز هـذا في البيئات الجاهلة ، بيد اننا نـرى عكس ذلك اليـوم بسبب التطور العـالمي في

المواصلات ورفع المستوى العلمي والصناعي ، وبما نشأ من اتحاد وتعاون بين كل طبقة خاصة من عمال وزراع ومهندسين وأطباء يضم أصنافهم ويوحد قواهم في المدينة الواحدة والقطر الواحد ، حتى امتدت إلى ضمها في الأقطار الأخرى ، فترى دعوة الجمعيات الطبية في مختلف الدول لبعضها البعض ومثلها الجمعيات الأدبية والهندسية وشتىٰ الفروع العلمية والمهنية ، بما حصل من وسائل للتقارب هذه من تلك ، وإذا كان هناك تضاد اقتصادي في بلدة أو محلة بين أفراد من ذوي المصالح ، بيد انه في الوقت نفسه تجمعهم المصلحة وتوحد بينهم للدفاع عن حقوقهم وتشدهم رابطة مشتركة تجمع شملهم ، فمحيط ونادي ومؤتمر ونقابات وأصناف كل منهم تضم الأفراد من نفس الحرفة أو المهنة أو العمل ، لشد أواصرهم والبحث في مجالاتهم والاطلاع عمّا يعرفه الواحد للآخر ورفع النواقص ، وهي اليوم غيرها بالأمس فترى التقارب بسبب وسائل النقل والارتباطات والمواصلات السلكية وغير السلكية والراديو والتلفزيون والصحف وأمثالها تقترب لتوجد العناصر المماثلة لبعضها ، فتكون كتلاً ووحدات متشابهة مهما كانت بعيدة الثقة بيد انها قريبة الصلة ، واننا بعد أن كان كل فرد قائماً بنفسه ثم تقارب في المدينة ثم في القطر الواحد ، وأمست اليوم تتحد بين عدة أقطار سيأتي يوم تكون هذه كلها في جميع الكرة الأرضية ذات مهمة واحدة وغاية واحدة تعمل الواحدة للأخرى ، لا يميزها عن بعضها التخوم والحدود السياسية والاقتصادية ، وتربطهم رابطة وهدف واحد هي خدمة تلك المصلحة والمهنة والعمل .

ثم الاستفادة منه للجميع وإذا فازت في البدء المراحل الأدبية مثل اليونسكو ثم الطبية ، فسوف نراها تشمل كل الوحدات وسوف تشمل كل الحكومات والأقطار والأمم سوف تتقارب وتتقارب بعضها من بعض بحكم العلم والحكمة والمعرفة والتفاهم ، وتهيئة الوسائل في المواصلات والمفاهمات ، حتى تصبح يوماً ما حكومة عالمية واحدة تعمل لسعادة الإنسان حسب قدرته العلمية والعملية ولا تميّز بين أفراده إلاّ على أساس

خبرته وانتاجه الفكري والبدني وإخلاصه وسعيه . ﴿ وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعىٰ وإن سعيه سوف يُرىٰ ﴾ .

فترى مما مرّ تقارب التجار من التجار والبقال من البقال والمهندس من قرينه المهندس الكهربائي للكهربائي والمعماري من المعماري والطبيب للطبيب ، كل من صنفه وطبقته والسياسي للسياسي والاقتصادي لزميله والأديب للأديب والفيلسوف لمثله ، وهكذا بحكم الحاجة والضرورة والاستفادة ، والطيور على أمثالها تقع .

هذا هو قانون طبيعي وبديهي . وهناك من المهن ما تكمل الأُخرىٰ وتؤيدها وتحتاجها ، كحاجة الطبيب للصيدلاني وحاجته للمواد الكهربائية وحاجة علماء التغذية لعلماء الكيمياء ، وهذه أحياناً للأدوات الميكانيكية والكهربائية والمعماري والجميع للمزارع الذي يمدهم بالغذاء ، وقد كانت في الأزمنة القديمة قد يؤثر وضع الاقتصادي من بلدة مجاورة على أُخرى قريبة منها وتوسعت هذه حتى أصبح الوضع الزراعي والاقتصادي يتأثر من الجيران القريبين ، أما اليوم وقد أصبح العالم يتحسس من الشرق والغرب فهذه بنكلاديش وتلك افريقيا يتحسس بمجاعتهم وغضب الطبيعة عليها الشرق والغرب ، وإذا بالمساعدات تنهال من العالم كله لها من كندا والاقطار الأمريكية والأوروبية والآسيوية وغيرها .

فالحرف تتقرب لبعضها بقدر ما تماثلها وتشاكلها وتبتعد عنها بقدر ما يكون الفارق بين مصالحها وتعاونها بعيداً . بيد انه لا يمكن أبداً أن تقول انها لا حاجة بها بتلك مطلقاً .

هكذا تصبح المهنة والحرفة والعمل سبباً من أسباب التقارب والتعارف والأُلفة ، وعلى قدر أهمية صاحبها يهتم العالم بالفرد .

وقد يعتبر العالم كله أن فرداً خدم البشرية فرداً منه دون أن يميز بينه وبين المواطن ، وهكذا نرى بعض الشخصيات العالمية منذ القديم يفتخر

به العرب والعجم مثل الحكيم ابن سينا ، ففي الوقت الذي يحيي العرب ذكرىٰ ميلاده يقيم ذكرىٰ ميلاده الفرس والروم وغيرهم ، ولا نشك أن هذه الندرة لا يقاس عليها ، بيد أن من يخدم خدمة يتساوى النفع لأفراد العالم يحس نحوه العالم كله على قدر ما أسداه له من الخدمة ، أمثال باستور وأديسون وكل من اكتشف دواءاً ضد داء أو اخترع شيئاً يستفيد منه مجموع البشر ، وكلما زادت الثقافة الاجتماعية والعلوم الإنسانية في جماعة من البشر كالحكماء والفلاسفة والأدباء من ذوي الآراء والأنبياء والرسل ، من ذوي الأديان كانوا يدعون البشر لتقليل الفروق الاعتبارية المادية والعود إلى الفروق المعنوية من المعرفة والمعرفة والثروة العلمية والفضائل والقضاء على الجهل والفقر .

المحيط والتربية :

التربية المؤثرة في الافراد هي تربية العائلة والمدرسة . وبالإمكان الإضافة إليها ما يكتسبه من مجالس الاقران خارج المدرسة والبيت ، وما يجده من معاشرة الناس والمجالس التي يحضرها ، ومطالعة الصحف على اختلاف أنواعها واستماعه الراديو والتلفزيون ، ولكل قطر نهجه وسلوكه في جميع المجالات الأدبية والاجتماعية وما يكتسبه الفرد في مدارج سني حياته ، والأفراد الذين يعاشرهم يتحسس بالحنان والمحبة لهم من حسن معاشرتهم له ، أو البغض والنفور لسوء تلك، وتأثير تلك في ذاكرته ونفسه منه بهم ومنهم إليه من دواعي وبواعث الألفة أو النفور وخلق بذور العلاقة والارتباط لذلك المحيط والجماعة التي قضىٰ أمداً من حياته بينهم ، وهذا الأمد وطوله وقصره ونوعه وكيفيته مما اكتنفه وراق له واعتاد وتطبع عليه واشتاق لذكراه والأفراد الذين أثروا على نفسه ومال إليهم ويهوى لقائهم ، من مجموعة هذه وما تضمه من ذكريات لجماعة أو جماعات قضى ردحاً بين أحضانهم طفلاً وصبياً ويافعاً من آباء وأقارب وأصدقاء ومربين وزملاء المدرسة ، وما تلقاه منهم من تربية وتعليم وقصص وأحاديث وقضى معهم

أياماً ممتعة ومختلفاً من صور الحياة وأشكالها التي بقت عالقة كلما أوحت له الخواطر وتداعت الأفكار وحن للتقرب إلى بعض مما يقربه إلى تلك البقاع أو نفر من بعضهم فابتعد مما قاساه من البعض الآخر . وتكاد أن تكون التربية أخص منها منذ بدء الدراسة الابتدائية والثانوية ، وقبلها محيط العائلة والبيت ، هذه من أشد الدواعي والعلاقة النفسية بين الأفراد والمحيط الذي قامت فيه تلك التربية ويضاف لها مدة التربية وما لاقاه الفرد من الحياة الاجتماعية والاقتصادية من رغد العيش ونعيمها أو نكدها وجحيمها وحلاوة أو مرارة وسلام أو سؤام وحسن وقبيح وصفاء وعناء مما يقربه أو يبعده نفسياً وبدنياً أو يقضيه روحياً فيميل تارة لخيرها ويهواها ويفر أُخرى من شرها ويأباها ، فيصدق عليه قول الشاعر :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وقومي وإن شحّوا عليّ كرام

فيبتعد عنها لما لاقاه من جورها وجور بعض أهلها وفي القلب منها حب وهوى لبعض ما لاقى فيها من عذوبة ورغد ، وهو لا يبتعد إلاّ وقلبه يخفق حناناً ولا يترك إلاّ وفي نفسه هيجان يعاوده من حين إلى حين ويا للذكرى والخواطر ، وربما كان هذا الابتعاد من قرية لأُخرىٰ أو مدينة لأُخرىٰ أو قطر لآخر على قدر الصدمة وقدر ملقى الصدمة ونوعها وأشدها صدمة ترك مقر ولادته ونشئته ومحيط أقربائه وأقرانه وزملاء دراسته وإخوانه ، لعلل يطول سردها ويختلف نوعها ولا يهون شرحها سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو علمية أو عقائدية ، تارة مرغماً وأُخرىٰ شبه مرغم ، يضطر لسكنى بلاد أُخرى فيقصر أو يطول مقامه والعمر مراحل ، والتربية أحياناً هي مصدر الشقاء إذا كانت فاسدة أو مصدر السعادة إذا صالحه .

هكذا يكون للتربية أثرها على مجرى حياة الفرد سعادة وشقاء وحساً وشعوراً في الحياة ومع من ولمن وأين ولأي أمد ، في ظروف إرادية أو اختيارية أو قهرية ، إجبارية تصعب قيادتها طوراً وتسلس أُخرى فيشد

صاحبها في الأولى ويعود في الثانية كما يريد وله في الأولى أقارب وأخلاء ، وربما ترك في المقام الثاني من أصحاب وأولاد أو ارتبط في الأخيرة ارتباطات جديرة بالاهتمام كالزواج هو أو ولده أو أنجب بنين، وأصبحت في الأخيرة روابط نفسية قهرية تبقى عالقة في ذهنه ، فهو بين اثنين إن جاء هذه حن للأولى وإذا به معذب الهوى محير اللب . وإذا به حين يغادر من الثانية للأولى يقول في رسالته لا خلاء له في التالية :

قطعت الدرب مرحلة وأخرى ... على عجل لنلحق بالمسير
أحبه قد نزحنا قبل عنهم ... وافراخاً يحن لهم ضميري
وخلفنا عيوناً ذارفات ... أهاجت في الفؤاد لظى السعير
وضلَّ القلب مكتئباً ولولا الفراق لكان في أقصى السرور

تلك آثار من التربية والمحيط في الفرد ، وهل لك أن تقول لما جمعته بين هذا الحد وذاك بحكم القانون الطبيعي والذي يريد البشر تغييره بأنظمته ومقرراته الشخصية وأغراضه ونزعاته الآنية غير آبه بهذه القلوب وتلك الضمائر وهذا الحنان وتلك النزعات الثابتة المستقرة في النفوس والضمائر المتعطشة .

العادة :

لكل امرء من دهره ما تعود، والعادات قاهرات .

تختلف هذه العادات في الفرد ، فربما كانت عادات اجتماعية أو طبيعية ، أو في الطعام أو الشراب أو غيرها .

هذه العادات ربما كانت حسنة أو قبيحة مستهجنة ، فقد تكون مفيدة أو مضرة ، وقد يكون الفرد بعادته في المجتمع مكروهاً وغريباً ، أو يكون بها أهلاً وحبيباً .

فالاجتماعية إما انها مستحبة، كمجالسة نوادي الأدب والنوادي العلمية والمحاورات والمناظرات والمباحثات الأدبية والفلسفية والاقتصادية

والسياسية والمطالعات والتحرير والكتابة وتحري الراديو والتلفزيون لنفس الغايات والقيام بالخدمات الإنسانية للفرد والجماعة والبر والإحسان قولاً وفعلاً والنضال في سبيل الوعي العام والخدمة الخاصة والعامة وإقامة الحفلات وبذل مجهودات مالية وبدنية دائمة لنفس الغاية ، وأمثال تلك مما يعود عليه وعلى الفرد والمجتمع بالفائدة .

وأُخرىٰ مستقبحة مضرة له ولغيره ، كاعتياده وسهراته في مجالس القمار واستنفاد ما عنده أو كسب المكاسب المستقبحة وإقامة جمعيات مخلة بالشرف مضرة بالاجتماع بغية الحصول على الثروات غير المشروعة وكلما هو يخالف الأخلاق العامة والخاصة والقوانين من جمعيات سرية أو مستقبحة مذمومة مستحقرة تضره وتضر بالصالح الخاص والعام وتسبب قلقاً له ولغيره .

وعادات طبيعية فاضلة ، كالسباحة والاستحمام والرياضة والألعاب الأولومبية وركوب الخيل والنوم الطبيعي والجلوس المبكر وإقامة مظاهر الفروسية والنشاط البدني والروحي ، وأمثال تلك له ولغيره والإدامة على مراقبة العيون والأسنان والجهاز الهضمي وكلما يخص الإنسان ذاته .

وعادات مستقبحة مضرة ومخربة للفرد والمجتمع ، من الاستفادة غير المشروعة للأُمور الجنسية والعادة السرية بشتى أنواعها ، والاستفادة من شؤون طبيعية للتخريب والتجاوز والاعتداء على النفس والغير بالقهر والغلبة .

وهناك العادات في التغذية للأكل والشرب والتدخين والتزريق ، وهي أيضاً مستحسنة ومستقبحة ، فالاعتياد على خشونة العيش والطعام ، الطبيعي ، والاعتدال في الأكل والشرب على حد قول العربي : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » . هذه خير جملة ضحية جمعت طيها الصحة والعافية ، ويجب أن يضاف له : « ولا نأكل ما يضر ولا نستمر على شيء يضيرنا بعادته » .

فالمأكولات الطبيعية وأخص الطازجة والاعتدال في الأكل ، والاعتدال في التناول (دون إسراع) والاعتدال والتأني في المضغ وترك المواد المثيرة والمشهية من توابل وأمثالها والمشروبات المهيجة من كحولية وغيرها وغير الطبيعية كالمثلجات في غير فصل الشتاء .

والاعتياد على نظافة الفم والأسنان والأيدي ، والاعتياد على مضغ الطعام جيداً دون الإسراع ، والاعتياد على تناول اللقمة المعتدلة والابتعاد عن طعام شديد الحرارة أو البرودة والابتعاد عن طعام شديد القساوة ، وإن المثل الحكمي : إننا نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل ، عندئذٍ لا يكون همّنا بطننا بل الغاية منه للبقاء أولاً والتمتع المعتدل ثانياً ، والابتعاد عن الحرص والجشع في الأكل ، وبعكسها ينطبق المثل : من كان همه بطنه كانت قيمته ما يخرج منها .

أما العادات السيئة الأُخرىٰ فهي التي كدستها الحضارة المزيفة للإنسان فأعطته حلاوة مؤقتة ومرارة دائمة ، كالاعتياد على مأكولات ومشروبات ومدخنات وتزريقات أصبح لها رقاً وعبداً مملوكاً ، تفتك فيه وتسلب منه كل حرية وقرار وإرادة أمثال المواد المخدرة كالأُفيون ومركباته المرفين والهيروئين والكودائين والكوكائين ومركباته والمواد الكحولية من شديدها وخفيفها قليلها وكثيرها والتبغ وأنواعه واستعماله الأقل ضرراً الاعتياد على القهوة الشاي . وهناك الكثير من شديده إلى ضعيفه .

كل تلك عادات مستحكمة ، وهناك عادات كثيرة جداً وقد قيل : إن أحد السلاطين خَلِفَ أباه على العرش ، وكان شاباً ذكياً ، وكانت تأصلت فيه عادة مستقبحة منذ الطفولة وكان يخشى أن يعرفها أحد فندب طبيبه وأسر إليه : إني اعتدت منذ الطفولة أن آكل الطين ولما كان ذلك مستقبحاً اطلب منك باعتبارك أمين لسري أن تعمل لي دواء أستطيع به ترك ذلك ولتكن كتوماً ، ولما وجد الطبيب ساكتاً ، قال له : سأعطيك لذلك أمداً ، ثم أردف قائلاً : سأمهلك لذلك أُسبوعاً ، فأجابه الطبيب : على السمع والطاعة .

وفي الوقت المحدد ، حضر الطبيب في مجلس الملك فاستدعاه الملك ، وأجلسه إلى جنبه فرحاً ، وقال : هل وجدت الدواء؟ .

نعم يا مولاي ، رد الطبيب .

فبدا البشر على محيي الملك وابتدره بلهفة : وما هو؟

وإذا بالطبيب يلقي كلمة الفصل البالغة المليئة بالحكمة : نعم سيدي هي إرادة الملك .

آنذاك بدت على محيا الملك كل بوادر الإرادة مستحسناً كلمة الطبيب الحكيم ، وقال : قد نجح دواؤك عندها صمم وترك .

هناك عادات مهما كانت محكمة لا تفيد معها سوى قوة إرادة الشخص وتصميمه ، ولم تكن غايتنا هذه من البحث وإن جرنا البحث إلى هنا .

فالعادة في المرء تقربه إلى الأفراد والمجالس والمجتمعات والبيئات التي تكثر فيها أمثال تلك ، وتبعده عن سواها التي لا يجد فيها زملاءه وأقرانه من ذوي تلك العادات . فالعادة إذن من الأصول التي تقرب الأفراد وتبعدهم عن محيط وأفراد إلى أخرى يجد فيها وفيهم مبتغاه ، هذا إذا تجمعت فيه أصول أخرى من التي مرت فهي تقربه أكثر وأكثر على قدر ما تحويه من تلك الأصول المارة الذكر من معنوية ومادية ومختلطة .

الجنسية والوطنية عند الحيوانات :

في النحلة ، في النملة ، في الأرضة ، في الطيور ، في الحيوانات الوحشية وفي الحيوانات الأهلية والمتأهلة .

فالنحلة في خلاياها ، بما فيها من عامل ومحافظ ومستخدمين وممرضات وأميرات وملكة وغيرهم ، تكاد تكون ذات غريزة متأصلة في حياتها برابطتها الوثيقة في محل ولادتها ونشأتها ، والجماعة التي بدأت حياتها معهم وهي تعرف كل واحدة منها ، وهيهات أن تفارق الجماعة

والإمارة والخلايا أو ترك وظيفتها ، إلاّ إذا قدر لها الفناء أو طردت طرداً باتاً من ذلك في نهاية الوقت المحدد لكل فرقة . فهنا الذكور المرفهون والمجهزون بالخدم لإطعامهم ، دون أن تكون لهم وظيفة سوى الانتظار ليوم تلقيح الأميرة (مر تفصيل ذلك في كتابنا الحكومة العالمية المثلى) حتىٰ إذا جاء اليوم الموعود وخرج الكل مع الأميرة لتلقيحها وانتهىٰ التلقيح من لدن أحد الذكور ، وتم بإفراغ ما لديه من قوى لاقحة ، ثم خرّ صريعاً وعادت الأميرة وعادوا معها حتى إذا تأكدوا أن الأميرة تلقحت وان حملها صحيح وانها ستملأ البيوت والخلايا الجاهزة بالبنين بذلك كان انتهاء وظيفة الذكور جميعاً ولا حاجة بهم ، آنذاك يهملون دون طعام حتى الموت أو الطرد إلى خارج الخلايا هكذا يهملون أو يخرجون .

وهناك الأميرات المنتظرات يوم اللقاح وعدمه وعسى أن تحل واحدة محل الأميرة العجوز فيما إذا لم ينجح لقاحها ، حتى إذا تمّ أو لم يتم قامت احداها مقام الأم اليائسة العجوز واطمأن الجميع ، ثم حكم على باقي الأميرات بالقتل أو الطرد حيث انتهت المهمة المتوخاة منها .

وعسى ان الواحدة إذا حصل لها المحل الجاهز أن تقوم بدور الأميرة وتشكيل الأسرة سيان في نفس الخلية أو خلية أخرى . . والنحل كما نرى يسير طبق نواميس طبيعية في خلاياه ، وهذه النواميس تسير منذ ملايين السنين ولكل نحلة رمز وآثار ترتبط به بالخلايا الأولى ووطنها الأصلي ولا تحيد عنها إلاّ على الشاكلة المارة . في الخلايا تولد وتترعرع وتعمل وتحيى وتموت على ذلك المنهج والناموس الطبيعي ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعائلتها وإمارتها التي تعتبر كعائلة كبيرة تتميز فيها عن باقي الإمارات النحلية ، دون أن تستطيع أن تتركها وتختار غيرها ، فلا هي ترضىٰ ذلك الترك والالتحاق ولا الخلايا لأخرىٰ ترضاها أو تقبلها .

أما الأرضة فمن يدرس صفاتها يجدها أشد ارتباطاً بإمارتها الواسعة الدقيقة المتينة المنظمة ولا تغادرها إلاّ مأمورة وراء الطعام كالنحلة أو

مدافعة دفاع المستميت فادية نفسها لإمارتها وجماعتها ولا تعود ، أو منبوذة بحكم النواميس كل آونة تطرد أو تنفى أو تخرج مجموعات من الإمارة كأنها محكوم عليها بالفناء لسبب من الأسباب فتكون طعمة لغيرها وتلقى حتفها وبغير هذه الصورة فهي ذات علاقة وثيقة لمملكتها كالنحلة وأشد ولا تفارقها إلاّ مقهورة .

النملة :

تشذ النملة عن النحلة والأرضة بأنها ذات عائلة خاصة تنتمي إلى مملكة من النمل ذات بيوت متعددة وعوائل عديدة ، وتمتاز رغم تعدد العائلة وكونها تتعاون في المملكة وتميّز أفراد مملكتها وتعتز بهم .

وهناك أنواع من النمل يشذ عن هذه انها ذات طبائع متمايزة ومتجاوزة على غيرها وشاذة في طباعها وعاداتها ، ورغم ذلك فهي أيضاً ذات طابع اجتماعي وتعاوني بين أفرادها .

هذا التعاون والانتماء إلى القبيلة والصلة القوية بين الواحد والجماعة منها تعطيها صفة الجنسية الطبيعية الثابتة والعلاقة المتينة من الفرد للجماعة منها .

بيد هذه الميزة لا تعطيها التعاون والانتماء لأنواعها وإماراتها الأُخرىٰ للانضمام إلى بعضها ، بحيث تؤلف الكتل الكبيرة ، كما نرى ذلك مثلاً في صفة الجراد أو صفة بعض الطيور كالبط واللقلق والزرازير والعصافير ، على حد قول الشاعر أن الطيور على أشكالها تقع . فترى الطيور على أنواع مختلفة ، منها ما تعيش مع بعضها بصورة جماعات كبيرة وكلما جاء سرب أو أفراد انضمت إلى اختها ، وهي ذات مواطن شتائية وربيعية وخريفية وصيفية تهاجر إليها كلما تغير المناخ واختلف الطقس ، بخلاف أنواع أُخرى من الطيور التي لا تعرف الهجرة فهي مقيمة في أوكارها وأعشاشها ويختص كل ذكر وأُنثى معاً ، وكلما أنجبوا أولاداً بلغوا مبلغ

الطيران انطلقوا من محل الولادة إلى محلات أُخرى تنتخبها وربما غير الأبوان مقر سكناهما إذا وجدا من يزاحمها . هذا التغيير في المسكن عند المزاحمة ربما كانت ميزة حتى للنمل والنحل والأرضة ، بيد أن الفارق بين هذه وتلك إن إمارة النحل والأرضة تتبع كل منها الملكة الأُم أينما ذهبت ، وعلى هذا نجد الجنسية فيها جميعاً لا يخص مقراً أو موطناً إلاَّ متىٰ كان هذا الوطن أميناً على سلامتها ويخلو من المزاحمين والمعتدين والمتجاوزين ، وفي غير ذلك تركتها إلى حيث لها السلامة ومثلها الطيور المستقرة غير المهاجرة ، فهي باقية في مقرها الشهور أو السنين دون أن تهاجر وتنتقل إلاَّ إذا وجدت مزاحماً أو متجاوزاً كما مرّ . بخلاف المهاجرة التي تعتبر الهجرة ميزة خصيصة من خصائصها فالوطن إنما عندها المحل والمسكن الذي تقر سالمة أمينة فيه حتى إذا وجدت نفسها في مأزق أو معرض خطر عافته سالمة إلى محل آخر ، وإن لم تفعل فهي المقصرة منطقاً فكأن الغريزة أعطتها هذه الخصيصة العظيمة التي تقوم مقام العقل المدبر عند العقلاء ، حتى تعتبر بعض الشرائع كما سيأتي أن الخنوع والخشوع في محل يذل فيه الفرد ظلم من النفس تستحق عليه المجازاة الصارمة ، كما جاء في القرآن الكريم : **﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا: ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها ، أُولئك مأواهم جهنّمٌ وساءت مصيرا ﴾** [سورة النساء ، الآية : ٩٧] .

هكذا نرى كثيراً من الحيوانات كلما داهمتها الخطوب وألمت بها المخاطر في بيوتها استعاضت عن تلك بما فيه نجاتها . وكذلك كلما أحست بمناطق تتوفر بها غذاؤها وراحتها انتقلت إليها تاركة الأولى لتوفر لنفسها الراحة والسعادة للمأكل والمسكن الأمين ذلك ما وهبها الله من الغرائز التي تنطبق مع العقل ، لحفظ الحياة وإدامتها .

ربما قيل إن الإنسان يمتاز بعقله وذاكرته وتداعي الخواطر فهو بحكم

هـذه الـذاكـرة يحن إلى مسقط رأسـه ومحـل نشـأتـه وزمـلائـه في اللعب والمـدرسة والمجـالس الأدبية والمعـاملة والمحيط الذي عـاش فيه ، بيـد ان هناك جواباً قاطعاً لدفع ميزة الإنسان على الحيوانات .

فـالإنسان أولاً بحكم عقله ومنـطقه وذاكـرته الـدافعة لـه حنـان يقـابله الشعـور والميزة للمكـان الأنسب والأصلح لإدامـة بقيـة حيـاتـه إذا وجـد في الأولى مـا يتعس حياتـه لما لـه قـدرة للتكيف بحكم الضـرورة ، وبـإمكـانـه اختيار الأنسب والأحسن وعندها تتغير حياته إلى حياة أسعد وأصلح .

ومن جهـة ثانيـة ، عند مقـارنة الإنسـان مع الحيـوان فالحيـوان يحمل بحكم الغـريزة مميـزات تدفعـه إلى حيـاة أصلح وأسعـد لـه ، لـطعـام أوفـر وأجود ومناخ أكثر مناسبة له ولذويه ، ومقـام آهل بـأسباب الـراحة لـه ، وهذا مـا نجده في أنـواع الحيوانـات على اختلاف أنـواعها حتى الحشـرات وكما مرّ الطيور وغيرها .

فالغريزة الحيوانية مثلاً في الأرضة منذ مـلايين السنين قد جهّـزت هذه الحشـرة بمؤهـلات بـديعـة للمعيشـة بـانتخـاب البيئة الأصلح وتجهيـزهـا بالامكانيـات لتكوين مـا تحتاج إليـه من إصلاح مسـاكنها ومنـاخ المسكن من حـرارة ورطوبـة ونـظافتهـا والقـدرة على النفـوذ إلى أصعب المحـلات بغية الحصـول على بغيتها بحكم الغـريزة ، تلك الغـريزة التي طـالما قصـر عنهـا عقل الآدمي إلى هذا اليوم .

نـرى من مجموع مـا مرّ أن الـوطن لكافـة الحيـوانـات مفضـل مـا دام مستجمعاً لمـزايـا الحيـاة الهـادئـة والمعيشـة الـوافـرة ، ومتى ضـاقت عليـه الـوسائـل فالهجـرة حتمية إلى الأحسن والأنسب بحكم الغـريزة ، ولـلإنسان نفس ذلك بحكم العقل والغريزة . فـدواعي الحب والبغض والشوق والنفـور إنمـا هي مصالـح ذاتية تـوجهها الغـريـزة في الاحيـاء والغـريـزة والعقـل في الإنسـان لعمل الأنسب والأصلح لإدامـة الحياة والحيـاة السعيدة . وإذا قلنـا الحيـوانات ائتـلافها مـع بعضها أحيـاناً ، فـإنما تـأتلف الطيـور إلى طيور من

جنسها ومثيلاتها ، كالحمام مع الحمام والعصافير مع بعضها أو اللقالق مع أنواعها ، وهكذا الضواري المتشابهة والحشرات المتشابهة ، وربما اقترب الكلب إلى الذئب أو ابن آوىٰ وتزوجا لتقارب في حياتها ، ولكنك لا تستطيع أن تجد تآلف الضباء مع الضواري أو الاحياء المتخالفة في الطباع . والإنسان يعتبر صنفاً واحداً على اختلاف أجناسه في الدم والخلقة والعقل والمنطق والحركات والعضلات والأجهزة ، لولا ما طرأ له بسبب المناخ وسبل المعيشة على طول الأجيال المتمادية ، وما حصل بينهم من تطور في الحياة من شدة ورخاء وعلم وجهل وثروة وفقر .

فهل يجوز أن يلام بشر ان أوىٰ إلى بشر مثله في الخلقة ما دام يجانسه وما دام يماثله وما دامت سبل حياته لديه ميسرة؟ .

هل يجوز لبشر أن يتطاول على أخيه الإنسان وهما من عنصر واحد وجنس واحد ويضع فروقاً ماأنزل الله بها من سلطان ليميز هذا على ذاك لأمور غير طبيعية بل هي من تنابزات وعصبيات ولا يرتضيها العقل السليم والرأي السديد بعد أن سمعت (رب أخ لك لم تلده أمك)؟ .

وقد صحّ ذلك وبعد أن أدركنا أن الجهل منشأ الحزازات والتعصبات والمنابزات والخصومات ، وإن العلم والحكمة والعقل مبعث الوئام والسلام والخير والبركة ، وإن المرء يجب أن لا يظلم نفسه بقدر ما يجب أن لا يظلم غيره ، وطلب لها الخير والسعادة كما يجب عليه ذلك لبني جنسه الإنسان ، وهذه أقوال الحكماء والمصلحين والأنبياء وأئمة البشر .

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في العهد الذي كتبه لمالك الأشتر (واليه على مصر) :

« الناس إما أخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق » .

يريد بذلك أن في كليهما عليك مراعاة عواطفهم وإحساساتهم وتوفير السعادة والصلاح لهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجنسية والقانون الطبيعي في بدن الإنسان :

مرّ في كتابنا الحكومة العالمية المثلى أقرب مثل الحكومة الطبيعية المثلى في بدن الإنسان . أفرادها الحجيرات وإداراتها المهمة الأجهزة وفيها المراكز الأصلية التي لا يمكن إدامة حياتها بدونها كالمخ والمخيخ والقلب والكبد والجهاز الهضمي والرئتين الخ . .

وتليها الأجهزة المهمة التي يختل البدن بدونها وينقص كماله ، كالسمع والبصر والذائقة والحاسة اللامسة والشامة وغيرها .

ولكل من الأجهزة التي مرّ ذكرها والتي لم تذكر من الأعصاب والعضلات والغدد وغيرها ، لكل منها عمل خاص به ومناطق خاصة وأشكال تميّزها وصفات تغاير الأُخرىٰ . كما لكل منها وظائفها ولكل منها أهميتها في البدن على قدر ما تسديه من الخدمة لمجموع البدن أي لهذه الحكومة العالمية القائمة في الوجود ، ولكل جهاز حجيراتها المميزة الثابتة بنوعها ووظيفتها ومركزها ومدة حياتها تميّزها عن وظائف وأنواع ومخصصات حجيرات الجهاز الآخر في نفس البدن الواحد ؛ وكل هٰذه الحجيرات مستقرة ثابتة غير متنقلة من محل لآخر تتعاون مع بعضها ، وكل جهاز يتعاون مع باقي أجهزة البدن ، وجميعها تتميز باستقرارها من حيث الحجيرة الواحدة أو الجهاز الواحد كل في منطقته وهذه السيرة تميّز الحجيرة كفرد في جسم الإنسان الحي عن الفرد في المجتمع الإنساني ، الجهاز يتميز بمكانة وعمله واستقراره ودأبه على العمل الدائم في جسم الإنسان الحي عن جهاز من أجهزة الدولة التي بإمكانها الحركة والتنقل إلى محل ومكان آخر أصلح له ولِأفراده ومجموعة الأجهزة والأفراد في جسم الدولة العالمية المثلى .

بيد ان الإنسان استطاع أن يجرب فيما إذا فسدت منطقة أو قسم من جهاز لمجموعة من حجيرات قليلة أو كثيرة وبعض الأجهزة في الحال

الحاضر ، كالكلية أو عضلة أو جلد وحتى القلب أن يرمم القسم الذي تلف بعضلة أو جزء منه أو جهاز أو جزء منه ، يناظره بشروط تحفظية صحية دقيقة وبشرط المماثلة ، وعندها يستقر القسم الذي قام مقام القسم المتلوف بوظائفه السابقة ويستقر البدن ويستعيض بما فقد منه بهذا الجزء الجديد الوارد ، على شريطة المماثلة التامة ورعاية الدقة فيها وصحة وسلامة ما نقل وما نقل إليه ، وإذا لم تنجح عمليات أُخرى مماثلة أو مناظرة فالسبب في خلط أو اشتباه أو جهل من الطبيب الجراح لإجراء العملية كما يلزم .

وربما توقفت سلامة مجموع البدن على هذا الترميم ، وهذا العمل وهذا النقل ويكون بعنوان هجرة مجموعة من الحجيرات من مقرها الأصلي إلى مقر آخر مماثل لها من حكومة عالمية إلى أُخرى ، وكلما كان النقل جيداً والمنقول سالماً توافق الجنسان على إدامة الحياة بالتوافق الدائم الحسن ، وإن كان الأصل استقرار كل حجيرة وكل جهاز بعضاً وكلاً في محله ، بيد انه ربما استدعت الظروف الضرورية للمنقول والمنقول إليه لسلامة الطرفين لهذا النقل .

أما إذا نقل مجموعة حجيرات لكل أو بعض جهاز إلى غير مقره ومماثله ، أو دون حاجة ماسة كأن كان الجهاز تاماً أو المنقول معلولاً لم يحصل المطلوب من هذا العمل .

وقد يداهم البدن الإنساني خطوب وهذه الخطوب لا تعد ولا تحصى ، كأن يحصل للمرء دهس يقضي على أهم أجهزته في بدنه الحي كالكبد أو الرأس أو غيره ، وفي هذه الحالة تكون أجهزة هذا البدن لمدة ما سالمة من عين وأُذن وكلية وقلب وعضلات ، بينما هناك كثير من الأفراد بحاجة لبعض هذه الأجهزة ، كالقلب أو الكِلْيَة أو بعض العضلات ، وعندها يسرع الطبيب الجراح يرمم بهذه الأجهزة مما تلائمها بدقة وعناية جراحية وصحية فائقة ، وإذا بالأجهزة الجديدة استقرت في مثل مكانها من الجسم الجديد وبدأت عملها من جديد .

ذلك نوع من أنواع هجرة الحجيرات من بدن إلى بدن آخر وكلاهما ذات ميزة مستقرة وإن كانت حية ومتحركة في مكانها .

بيد أنه هناك حجيرات أُخرى في البدن داخل الجسم الحي منتقلة ومتحركة في ذلك العالم الجسماني ، الذي هو أشبه بالعالم الإنساني، كما قلنا افراده الحجيرات ومجموعة يمثل مجموع البشر والمتحرك هذه ما هي إلاّ الكرات الحمراء والبيضاء وغيرها داخل الدم المتنقلة بصورة دائمة ودائبة في حالة دورية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً من الأعلى للأسفل وبالعكس .

هذه أيضاً قد تنقل عند الضرورة والحاجة وسلامة إنسان من واحد إلى آخر . ونحن نعلم أن العلم أثبت إلى الآن أن هناك أنواعاً من الدم في البدن الإنساني ولا يجوز إلاّ نقل النوع المماثل ، فنرى هذا الدم الحامل لهذه الكرات والحجيرات ، كيف تقوم بترميم ما يحتاجه البدن الآخر الذي قلت أو نفذت كمية دمه ، فجاءت هذه الغريبة المماثلة ودخلته وأصبحت أهلاً ومنبعاً للحياة لهذا البدن ، كما أنها هي حافظت على سلامتها وعاودت حياتها من جديد .

هكذا ترى الهجرة والنقل والانتقال والتقارب جائز على شريطة المماثلة والدقة ، وان تكون هناك مصالح مشتركة وأسباب ضرورية تدعو لها .

وهناك قصاص واحد على الطرفين لعلل أُصولية وجزاء يتلقاه القادم المهاجر المنتقل والمنقول له ، موطن الهجرة ، إذا حصل خلاف ما من عدم المماثلة لمكان النقل وعدم الدقة في سلامة العضو أو الجهاز والحجيرات المنقولة أو المنقولة له أو وضعها في غير موضعها ، عندها الكارثة العظمى والقضاء المبرم على الاثنين وحرمانها من إدامة الحياة . وعلى قدر الخطأ والاشتباه تحصل الآلام والكوارث الناتجة من ذلك .

التاريخ القديم والجديد والجنسية :

قامت الدول القديمة منذ القديم بقيادة حكومات دكتاتورية وسلطة مطلقة في الشرق والغرب ، على رأسها ملك دكتاتور مطلق التصرف بإدارة الأمور ، جل غايته توسيع رقعة حكمة وإدامته وثباته واستبداده دون منازع ، تحدوه غريزة حب السلطة وكسب منافع أكثر وسيطرة أوسع وإظهار ما أمكنه من القدرة والسطوة ومد نفوذه في داخل قطاعه الأصلي ، الذي يمتاز باللغة والعقيدة والعادات والأخلاق والزي ، وخارج ذلك القطاع من البقاع التي ضمها إلى نفوذه وترك فيها ولاته أو أمراء القطاع منها تجبيها الخراج وتمده بالمعونة العسكرية للهجوم أو الدفاع ضد أعدائه ، وكل من هذه البقاع المضمومة لها ميزتها أيضاً في اللغة والعقيدة والزي والأخلاق والحدود . وربما اشتركت في العقيدة أو اللغة واختلفت الواحدة عن الأخرى بالسلالة والعنصر والجنس كالسامي والحامي والأري وغيره . أو الزي والعادات والعرف والأخلاق وكثيراً ما كانت العقيدة أو اللغة أو السلالة هي الوسيلة المميزة بعضها عن بعض للتبعيض في الحكم ورفع الأفراد والجماعات في الوضع السياسي والاجتماعي .

وظلّت هذه الفروق والمميزات في طبقات البشر في ذبذبات تعلو وتدنو فيها بمرور الزمان وظهور حوادث تؤثر على رفع ميزة دون أخرى وعقيدة دون أخرى ، كما ظهرت العقائد الفلسفية في اليونان وتضاربت السلطات في تأييد عقيدة على أخرى ، ومثلها في الرومان ، وقبلها في مصر وفي الصين أو بلاد فارس ، لظهور الدين اليهودي في مصر وفلسطين ، والمزدكية في بلاد فارس والمسيحية في روما وظهور الدين الإسلامي في الجزيرة العربية وظهور المذاهب والفرق قبلها وبعدها وتمييز كل على أخرى في المعاملة السياسية والاجتماعية وشمول هذه دون تلك بعطف السلطة الحاكمة التي يتبعها من يتبعها بالعقيدة ، والتي تعتبر أفرادها وجماعاتها هي قطب رحى قواها المعنوية والإدارية والسياسية فاتكأت عليها

وميزتها بمميزات دون غيرهـا من الرفـاه ، واكسبتها شـرفاً أرفـع ومقامـاً أجل وضلت هـذه المميـزات كمـا مـرّ حتى القـرون الأخيـرة ، حيث فـرضت في إحدىٰ قوانينهـا قوانين سمتهـا قانـوناً ، هـذا القانـون يقدم وثيقـة لمن شاءت السلطة وطبق شروط خاصة كالـولادة أو السكنى أو غيرهـا ، تختلف من قطر إلى قـطر ودولة ودولـة ، تسمى هذهِ الـوثيقة بـالجنسية أو شهـادة الجنسيـة ، وتم قسمتهـا إلى درجـات الجنسيـة الأصليـة والجنسيـة بالولادة أو الجنسيـة بإقامة مدة خمسة سنوات ، وأمثـال ذلك ثم حصلت أفـراد الدولـة الخاضعـة إلى سلطة تلك الحكـومة بـالتسجيـل والعـد والحصـر منـذ الـولادة ودخـول البلد، وتكميلاً لذلـك الحصر وضعت قـوانين سمتها جـوازات سفر ، وهـذه الجوازات أيضاً قسمتها إلى جوازات سياسية وغير سياسيـة وعامـة وخاصـة ، تعطى لحاملها حق الذهاب والإياب طبق شروط ومدد . بـالخروج والـدخول إلى ذلك القطر وفـرضت على غير ابن البلد أن يحمـل مثل ذلـك ولا يدخـل البلد إلاَّ بجواز خاص من السلطة وكل ذلك تحديداً لابناء البلد وضبطهم .

وقد كان البدء لهذا الوضع مثـل هذه القـوانين سياسيـة لتقويـة السلطة الحاكمة في الداخــل واعطاء ابن البلد ميزات أكثر من غيره ومنع التسربات عن الخارج .

وبلغت أحيـاناً كثيـرة إلى سجن مطلق وحصـر شامـل لقطر كـامـل من أقصاه إلى أقصاه ، أو قبـول أفراد لا يمتـون ولا يحرصـون الحرص الحقيقي لتلك الدولة لمحض موافقتهم للسياسـة وموافقـة السياسـة لهم ، أو نفي أبناء البلد بالولادة والإقامـة من آبـاء وأجـداد إلى خـارج بلدهم من نسـاء ورجـال وأطفال ، لمجرد مخالفة السلطة الحاكمة المسيـطرة ، وكثيراً مـا تجري تلك الأوامر لأغراض خاصة تشمل أفراداً يعدون بالأصـابع لا المصلحـة العامـة ، وكثيـراً ما تشمـل الآلاف وعشرات الآلاف ومئـات الآلاف الأجحـاف وهضم الحقـوق الثـابتـة والمكتسبـة ، وكثيـراً مـا يفــرض السجن من لـدن السلطة الحاكمة على كافة أبناء الوطن بعدم مغادرة البلاد ومنع الـواردين ، وكثيراً مـا

تتجاوز إلى حبس الأموال والتصرفات والممتلكات الفردية والجماعية ، وتوضع قوانين وتمدد وتوسع وتقلص طبق المقاصد والغايات التي تريدها تلك العصبة بغية أغراضها الشخصية وكثيراً ما تفرض ضرائب مالية على من يريد الخروج والدخول دون مبرر منطقي .

هكذا نرى التفرقة والانقسام بين أفراد البشر ، وربما كانت الأغراض السياسية أدت إلى انشطار الشعب الواحد والأمة الواحدة أو العقيدة الواحدة أو القبيلة الواحدة وحتى العائلة الواحدة لاكتساب جنسيات مختلفة ، كما نرى الشعب العربي وانقسامه إلى دول مختلفة والأمة الإسلامية وانقسامها إلى دول وإمارات في الشرق والغرب وجميعاً ذوو عقيدة واحدة ، وهناك كثير من القبائل والعوائل منقسمة بين الدول المجاورة قسم إلى هذه وقسم إلى تلك ، وقد نجد أن شعباً وأمة ذات لغة وعقيدة واحدة منشطرة إلى أقسام وربما كانت هذه تعمل ضد تلك ، وتجبر الأفراد الذين يشعرون شعوراً واحداً في كل شيء في بعد من التودد والتواصل والزيارة لبعضها أشهراً وسنيناً .

إن هذا الوضع غير الطبيعي الشاذ في الطبيعة منذ القديم والذي كلما مرّ عليه زمن زاد في الطين بلة وفي الطنبور نغمة وعلى الارهاق مضاعفات وأتعس حياة البشر بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، خلافاً لآراء الحكماء والفلاسفة وخلافاً للمنطق والعقل وخلافاً للأديان السماوية بل وخلافاً للطبيعة البشرية ، محكوم يوماً من الأيام بالزوال .

إن هذه الحكومات التي خلقها البشر أو خلقها الانتهازيون من البشر لتفريق قوى البشر العظمى إلى أقسام ، تناقض الواحدة الاخرى وتنهك هذه تلك وتسبب لهذا البشر نفسه القلق والتعاسة وتحول لأن يعيش حراً متكاتفاً متعاوناً . يجب أن يزول ولا بد للبشر أن يعيش إذا أراد أن يكون سعيداً طبق القانون الطبيعي متكاتفاً أفراده الواحد للآخر ويسانده ويعاونه كأعضاء من جسم واحد وأجزاء من بناية واحدة يشد بعضه بعضاً

ويحكمه . وما نراه من الشقاء والتعاسة في البشر ما هو إلاّ من التفرقة القائمة بين أجزائه وأفراده خلافاً للقانون الطبيعي ، وخلافاً لمقتضيات العقل بل اتباعاً للهوى والغرائز الشاذة من أهل الأغراض ومرضى العقول .

أهل الآراء وأهل الأديان :

ذكرنا في الفصول السابقة بحثاً عن أهل الآراء والأديان في نوع الحكومة الصالحة ، وحيث أن البشر مد يده وتطاول إلى شتى شؤون الحياة تحت تأثير أغراضه وأهوائه ، دون رعاية الصالح العام وكلما نظر في مورد وترك فيه حدوداً ونواميس وأنظمة وسماها قوانين ، ظهرت له موارد أخرى حاول شمولها بالقيود التي يشعر بها إرضاءً لشهواته من تحديد الفرد والجماعة قصداً للهجوم أو الدفاع أو تأمين مصالحة كوقاية ، وقد كانت كما تخالج الرؤساء والقواد والأمراء والملوك إثارة الحمية والعصبية القومية والمنابزات وإثارة العواطف النفسية في هؤلاء لتأييده نفسياً أو سوقهم قهراً عند الضرورة ، وإذا بهم يثيرون قضية الأحساب والأنساب وكل يشيد بسلالته وعنصره ، ويمدها بامتيازات وشروط لاعتدادها بمجموعة تؤيده دون سواها ودحضاً للأخرى التي تخاصمه ، فظهرت الفواصل باسم المنابزة العائلية والقبائلية واا مدينة والامارة والمملكة واعتداد بكل أفرادها وإبراز مفاخر ومآثر لهم خاصة دون سواهم ، وهذه وإن حصلت تلك العصبة أو ذلك الفرد منها مبتغاه ، بيد انه خلق المنافسات والخصومات والتجاوزات والاعتداءات والحروب الطاحنة بين أفراد البشر المنتمين إلى نفس الجنس والعنصر، والمتماثلين بالخلق والطبائع والخلقة والحس والشعور من الناحية العامة . فكانت القبيلة تخلق لأفراد قبيلتها ما يميزها على سواها في العدة والعدد والمآثر والمكاسب في شتى شؤون الحياة . وعوض أن يبحث الفرد والجماعة عن ينابيع البر والاحسان والخلق الفاضلة للوصول إلى السعادة والكمال الإنساني نراه على العكس كانت أفعاله تلك سبب إثارة الفتن والقلق في داخل البلاد وخارجها .

وإذا كانت القبيلة هي المثل المصغر ، فنجد اليوم اعتداد الشعوب بما فيها من دول وما تضمه من حدود مميزة وضعتها هي لنفسها ، وبما فيها من مبادىء وعقائد حزبية سياسية وفلسفية وأدبية ودينية ، كل منها يحرص على تأييد فرقة وجماعة ، ناسين أن الذوق واحد في هذا البشر وإن القبح والحسن من حيث الأساس المنطقي والعقلي سواء عند الجميع ، لو ضربنا العادات والعرف في الأمور المستهجنة ولو اتخذنا المنطق والفطرة البشرية في التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد يقال إن كل ذلك إنما هو نسبي فرب رذيلة عند قوم هي فضيلة عند أخرى . فأقول إن هناك عادات متخالفة عند الأقوام حسبوها من أصول الحياة الفطرية ، في حين أنها ليست كذلك وأما تلك الحقائق في القبيح والحسن والفضيلة والرذيلة تكاد تكون ثابتة بين جميع الشعوب المختلفة ، فمن يستطيع أن يفضل القذارة على النظافة ؟ ومن يفضل التقاطيع الحسنة الجميلة على المشوهة؟ ومن يفضل العليل على الصحيح؟ ومن يستطيع أن يغير الألوان وإن فضل بعضها حسب المناسبات لوناً على لون أو حامضاً على حلو؟ ولكن في الواقع أن الأكثرية تعرف الجمال البشري في الوجه والتقاطيع ، ولكن هناك من يخالف البعض من بعض الوجوه ويكاد يكون هذا شاذاً ، ولا قياس على الشذوذ ، فالمطلوب في الماء أن يكون عذباً معتدل البرودة ، فإذا كان جماعة من البشر اعتادوا أن يتناولوا المياه ذات الأملاح الحارة أو الباردة فلا يمكن الاعتداد بذلك، وإن الحقيقة أن البشر ذوو حواس محدودة في العين والسمع والبصر والشم وتحمل الحرارة والبرودة وغيرها ، وكلما تجاوز فيه الزيادة والنقصان كان غير متناسب بالسبة له ، وإن اعتياد البشر على شيء أو خصلة أو عادة ليست دليلاً على أن هذا هو الأصلح ، بل هناك حدود عقلية وفطرية يحددها الخبراء ذوو الخبرة والعلم في ناحية من الحياة ولهم وحدهم القول الفصل .

فما أراده المتنفذون من القواد والأمراء والملوك ووضعوه باسم قانون أو نظام وشرعوه ونفذوه على مجموعة من البشر ليس دليلاً قاطعاً على

حسن ذلك التشريع ، خصوصاً وقد برهنت التجارب والأخص التاريخية وما يقوم به البشر من أولي الأمر فيها بالتغيير والتبديل في هذه القوانين ، في حين نعلم أن القوانين إنما نقصد بها قانونا ان يكون ثابتاً غير متغير وله صلة متناسبة مع القوانين الأخرى مساعدة أو معاكسة ثابتة أيضاً ، وإن ما نجده من الاضطرابات في شؤوننا الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والصحية وغيرها إنما هي لأننا لا نطبق القانون الطبيعي اللازم في محله . أما جهلاً منا أو عناداً لإشباع غريزة من الغرائز تغلبت على المنطق السليم واجترأت على مخالفة الحقائق .

لذا نرى البشر اختلف في الحكم والتشريع . وإن المتحكمين على الأغلب في العالم منذ القديم وإلى اليوم لا زالوا في اغواء واصرار لبلوغ مأربهم باسم الصالح العام ، في حين انهم يقومون بما يفسد على هذا الصالح العام حياته وسعادته .

ومنذ القديم نرى وجود أقلية حكيمة مفكرة مستنتجة من وقائع الحياة وما تراه من التدهورات والمخاصمات والأضرار المادية والروحية الحاصلة للبشر بيد البشر نفسه ، من حروب مادية وحروب معنوية اقتصادية وسياسية منذ القديم وإلى اليوم ، تلك جميعاً يمكن إصلاحها دون ضرورة لمثل تلك الحروب .

ولنترك الماضي ومخازيه ونأتي إلى عصر النور ثم عصر الذرة وهذه الدول العظمى بما فيها ودون أن نذكر اسماً ، والجميع يرى ويسمع من هول ما تقوم به من المؤسسات العلمية وما تبذله بعضها في الحروب تجاه الأخرى، كما قامت الولايات المتحدة وغيرها في الحروب الأخيرة في حرب كوريا وفيتنام وما ذهبت فيها من ضحايا نفسية ونفقات مالية وما جرته على نفسها وعلى العالم من التضعضع والاضطراب وما لها من القوة والسطوة وكيف خرجت منها كما يعلم الجميع .

هل كانت نتيجتها عبرة رادعة لها ولا مثالها؟

كـلا . وألف كلاً. لم تكن هـذه بُدعـاً وجـديـداً ولا زال البشـر يكـرر مخازيه باسم الاصلاح وبـاسم التقدم ، أي تقـدم؟ فلو ان أمريكـا بذلت مـا بذلت من جهود علمية ومـاديـة ومعنويـة لمعونـة البشر لبلغت هي وغيـرها إلى غير ما هي والعالم عليه الآن .

هذه وأمثالها حدت بمفكري البشر وفلاسفته وحكمـائه من أهـل الآراء الجمـاعة الفـذة من قواد البشـر الروحيين ان يصـرخوا الصـرخـات المتتـاليـة ويضعـوا المناهـج والسير للحـد من شقاء البشـر وعلل ذلك الشقـاء والسبيل إلى سعادته . لهـذا وضع أفـلاطون جمهـوريته كمـا مر بعض المجمـل منها في رسالتنا المتقدمة ووضع الفارابي رسالته المدينة الفاضلة .

لم نجد في مدينة أفلاطون ما يوعز به لتحديد البشر وطـوائفه ودولـه أو حكوماته باسم الجنسية ، أو وضع جوازات للسفر للحـد من حركـة البشر من قطر إلى قطر وحبسه نفسه بنفسـه ، وكلما نـراه يشيد بـرعايـة الثقافـة العامـة وسيطرة الحكماء واعلم الأمة وأقدرها شجاعـة وعلماً وإدارة وعمـلاً وإحاطـة وتجـربة على شؤون الـدولة ، ويحـذر من حكومـة الرعـاع السفـاكين بـاسم الديمقراطية والعدالة أو غيرها .

فمن أين جاءت الحكومات بهذه الفواصل والحـدود والوثـائق المزيفـة لتشطر العائلة الواحدة والقبيلة الـواحدة ذات اللغـة الواحـدة والعقيدة والـدين الواحد والتالي العنصر الواحد لهذا البشر ذوي المصـالح المشتـركة والمنـافع المتبادلة في الشرق والغرب كمـا رأينا كلمـا أُصيبت جهة مـا في هذا العـالم أخص منها في عصرنـا هذا إنّ من ضـربته كـل أفراد هـذا البشر واضـطربت نفوسهم وأرواحهم؟ .

فما هذه المزعجات أيها الإنسان؟ أيهـا البشر ، أهكـذا يعمل الإنسـان بأخيه الإنسان من الفجائـع من القتل والتنكيـل والتعذيب في الحـروب ، في السجون ، خارج الدولة الـواحدة وداخـل الدولـة الواحـدة؟ من هو المسؤول ومن هو عليه المعول للإصلاح؟ .

أين الوعي العام؟ أين أبطال هذه الأجهزة المفكرة الناقدة من الشرق إلى الغرب ، في البلاد الشيوعية والبلاد الديمقراطية والبلاد الفاشية وبالتالي الدكتاتورية؟ .

ما ذنب الرجال العزل والنساء الثكالى والأطفال اليتامى؟ أتقتلون الآباء وتحرقون الأمصار وتزهقون الأرواح ثم تأتون بأطفالهم باسم الإنسانية وكسب الأجر؟ يا لبئس ما جنت أيديكم!

إلى متى وحتى متى؟ أنتم تتقدمون علمياً وتتأخرون وعياً ودركاً للحقائق وتزعمون وتموِّهون! ألسنا نحن البشر بحاجة إلى قوة خارقة تهدينا السبيل وتسيرنا قهراً إلى الوضع الطبيعي؟ أليست أصغر الحشرات كالنملة والأرضة والنحلة أحرى بالحياة منا؟ أليست الضواري والسباع أعدل وأسعد حظاً من البشر؟ وهي ان تجاوزت فلا تتجاوز إلاّ لإشباع بطونها الجائعة واكتفت باقتناص ما يشبعها وافراخها ثم عادت هادئة ، إلاّ هذا الإنسان الذي يخزن مال الله الذي يعلم أنه سيخلفه ويزول من عالم الوجود وهو لا يألو جهداً من جمعه بتحطيم وتدمير العُشرات بل المئات بل الأُلوف بل قل الملايين من أبناء جلدته موتاً وتعذيباً وترويعاً . تعساً وألف تعس لهذه العقول ! من أين جئتم بهذه الآراء؟ وتعساً وألف تعس بهذه النفوس النهمة ، والغرائز الشيطانية الرذيلة . كفى أيها الباغي التعس! كفاك تعاسة بإتعاس أخيك! خذ السعادة من سعادته والحضارة من الارفاق به وإشباعه وإرضائه وإبهاجه! .

الأديان :

مرّ ذكرها في الفصول السابقة من كتابنا هذا (الحكومة العالمية المثلى) وأشهرها السماوية ، وهي التي قامت في سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام من يهودية وكتابها التوراة ، والمسيحية وكتابها الإنجيل . وقد استأصلت التوراة الحكومات الدكتاتورية الغالبة مراراً ، حيث غزى

الآشـوريون بـلاد فلسـطين وقتلوا وذبحـوا وحـرقـوا وأسـروا ودمـروا الكتـاب المقـدس القـديم ، ولـم يبق لـه أثـر إلى يـوم تغلب الفرس على بـابـل ، وأطلقوا سراح الاسـرى اليهود فعـادوا بعد سبعين سنـة لتحريـر بعض ما بقي عالقاً بالأذهان ، ولكن سرعان ما عاد العاهل الروماني لغـزو فلسطين وتـدمير البقية الباقية وإزالة الآثار من الكتاب المقدس (التوراة) .

أمـا الإنجيـل فلم يكن لـلإنجيـل الأصلي (الـذي نـزل على سيـدنـا المسيح) أثر ، وما وضع منه وضعه بعض الحـواريين وأتباعهم بعـد عشرات السنين المتـطاولة أو الأغلب سبعين سنـة إلى مائـة وخمسين سنـة من ميـلاد السيد المسيح عليه السلام ومـا وضع منـه يفوق الثـلاثين إنجيلاً ، وكـل منها فيـه متناقضـات ، كما أن هنـاك التنـاقض بين واحـدة وأُخـرى ، وليس فيهـا تعاليم تشريعيـة سوى أخـلاقية ، فلم يبق من الكُتب السمـاوية سـوى القرآن وهـو كتاب الإسـلام . والقرآن حقـاً شرع دينـاً كامـلاً ووضع أُصـولاً جامعـة إنسـانية متنـاهية في المستـوى العقلي والمنطق ، وهـو يشيد بـالعلم والعلماء والحكمـة والحكماء والفضـائـل والمكـارم . ويمتـاز على أهـل الآراء وأهـل الأديان الأُخرى بما هو جدير بـالتقديـر وجديـر بالاستمـاع وجديـر بالاتبـاع ، فنحن كلمـا خضنا قضيـة تشريعيـة جزائيـة وحقـوقيـة واجتمـاعيـة وأخـلاقيـة وسيـاسية وطبيعيـة وجدنـاه عبر عنهـا بأقصـر وأجـود وأحكم أُسلوب ، ثم لم يكن القرآن الكتاب النظري كجمهوريـة أفلاطـون وغيرهـا والذي قبـل نظريـاً ثم بـانت فيـه نقـاط ضعف ، وأخـذ عليـه من بعض نـواحيـه حتى من لـدن مؤلفه (أفلاطون) الذي لم يسمح له القدر بتنقيحه ولا تطبيقه .

ولم يكن القرآن وقع عرضة لغارات فاستؤصلت شـأفته وأُبيـد من أصله أو حرف بعد عشـرات السنين الطويلة ، ولا هـو كالإنجيـل الذي ليس لأصله من وجـود ، بل وضعـه التابعـون من الحواريين ممـا بقت عـالقـة بـأذهـانهم وجادت به مذكرتهم وصاغته نفـوسهم ، ولو صـحَّ أن يكون هـو هو أو أقـرب إلى الـواقع لمـا تناقضت الأنـاجيل مـع بعضها ، ولا حصـول تناقض داخـل الإنجيل الواحد منها .

ثم ما هي الأُصول الفطرية والطبيعية والاجتماعية التي استفاده منها البشر باتباعه؟.

أما القرآن فهو بالغ في الآراء السديدة والمناهج الفطرية الطبيعية المنطقية الواقعية التي يقوم عليها أُسس السعادة للإنسانية جمعاء، والذي خدم أهل التوراة وكتابهم وأهل الإنجيل وإنجيلهم وأوضح الحق فيها، وقال عن السيد المسيح بما يتقبله العقل السليم، وفي أُمه ورسالته وشريعته بأحسن وأمتن وأبلغ ما جاء به الحواريون المؤسسون للنصرانية التي جاؤوا بها، والذين خبطوا بها خبط عشوائية فشوهوها تشويهاً هي أقرب للوثنية منها والهمجية، إلى الله مصدر الكمال والمنطق الأعلى.

اسمع لهذا القرآن العظيم حينما يقول:

﴿ وبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأُولئك هم أولو الألباب ﴾.

انظر كيف تفوح الحكمة من معانيه والتربية العالية الاجتماعية منه. وكيف يسوقك أن تتبع أحسن الكلام وتصغي لأحسن القول.

القرآن والجنسية:

تعال معي إلى الحكم البالغة في قوانين القرآن الأساسية للجنسية البشرية ومنع درجات الميزة والتفاضل لأبناء البشر وعلى أي مستوى ذلك المستوى الذي هو جدير بذوي الكفاءات أينما كانوا ومن كانوا وأنى كانوا أن يميزوا على غيرهم، وعلى أي أساس ذلك الذي وضع أساس القانون الطبيعي في حقوق الإنسان وكيف يجب أن يتحلىٰ ويتجنس. لا على أساس الحسب والنسب والسلالات القبائلية ولا اللون ولا الزي ولا المهنة ولا أي شيء سوى واحد يقره المنطق السليم والكمال المطلق. كما ورد في الآية ١٣ من سورة الحجرات، من القرآن الكريم، قوله تعالى:

﴿ يا أيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل

لتعارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقـاكـم إن الله عليم خبير ﴾ خيـر الكلام مـا قلّ ودلّ . ومن أحسن من الله حديثاً .

انـظر كيف جعل التقـوى وهي زبـدة الفضـائـل في الفـرد الإنسـاني ، الميزة الوحيدة للفضيلة والمحاسن للإنسان في اجتمـاعه في دنيـاه وآخرتـه . والآية ١٥ من السورة نفسها ، قوله تعالى :

﴿ إنمـا المؤمنون الـذين آمنوا بـالله ورسولـه ثم لم يرتـابوا وجـاهـدوا بـأموالهم وأنفسهم في سبيـل الله أولئك هم الصـادقون ﴾ فـالذي تعينـه الآية أنهـم هم المؤمنـون ، وتعال معي لـلآية ١٠ من نفس السـورة قولـه تعـالى : **﴿ إنمـا المؤمنـون اخـوة فـأصلحـوا بين أخـويكم واتقـوا الله لـعلّكـم تـرحمون ﴾** ، فـالمؤمنون هم الـذين وصفهم في الآية ١٥ من أي لـون ومن أي قبيلة أو مدينة أو قـطر في الشرق أو الغـرب من أسودهـا أو أبيضها ، كـل تلك لم تكن الميـزة المفرقـة بل التي ذكـرها في الآيـات المارة . ويؤيـدهـا بوصايا ثمينة على أثر معرفة ذلك فقد جاء في الآية ١١ منه .

﴿ يـا أيُّهـا الـذين آمنوا لا يسخـر قوم من قـوم عسىٰ أن يكونـوا خيـراً منهم ولا نسـاء من نسـاء عسىٰ أن يكن خيـراً منهن ولا تلمـزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسـوق بعد الإيمـان ومن لم يتب فأولئـك هم الـظالمـون ﴾ فـالمؤمن بـالله ومن يتصف بـالاخـلاص والتقـوى هـو وحـده المخاطب المندوب بعدم السخرية من بعضهم ، وهم المأمـورون بعدم لمـز بعضهم لبعض في جميع أنواع الألقاب المارة الذكر .

هنا قضىٰ الكتاب المجيـد (القرآن) كلمتـه القاطعـة من ترك الألقـاب والالماز بالأنفس ، لا تنسبـوا انفسكم بعد هـذا كما كـان في عهد الجـاهلية إلى قبيلتكم واحسـابكم وأنسـابكم ومـدينتكم وألـوانكم وأزيـائكم وأي شيء آخر أبداً ، فكل ذلك فسوق فلا جنسية مميزة لـلإنسان غيـر التقوى والإيمـان الجامعة لـلإخوة بين الأمـة بين النوع الإنسـاني من أقصاه إلى أقصـاه . ولقد أكّد ذلك حينما أتىٰ بالآية التالية :

﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

لمن خاطب القرآن؟ ألم يخاطب أهل الكتاب؟ ألم يخاطب أهل العقل والمنطق الموحدين الحنفاء ذوي الآراء الصائبة من البشر الذين لا يشكون بخالق الكون وعظمته وصمديته وإبداعه؟ .

وأنتم أيها القائلون بالجنسية والحدود والفواصل اسمعوه عز من قائل كيف يخاطب البشر جميعاً دون استثناء وكيف يريه طريق الصواب كي يكون سعيداً ، وكيف يحذره من الذل والهوان وصدمة الوجدان ، فهو كما نصحه بالبر والإحسان للغير وحرضه على جلب سعادة الغير ، فرض عليه أن يوفرها لنفسه ، وإذا قصر ورضى بما يستوجب اهانتها أو تعذيبها أو ظلمها كان عرضة لنقمة الله وسخطه ، أخص منها إذا شعر انه في بلدة مهان وان مدينة أو مقراً آخر أقر لسعادته بات عليه من الواجب المهاجرة إليها ، تخلصاً من الشقاء وطلباً للسعادة ، وإن لم يفعل فقد ظلم نفسه واستحق عذاب الله على ذلك .

قال تعالى في محكم كتابه : **﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً ﴾** .

ترى كيف أشار إلى من ظلم نفسه ، وأنه كيف يجري عليه العقاب الصارم جهنّم ويا لجهنم من سوء المصير ، نعم لأنهم ظلموا أنفسهم ولأنهم خضعوا واستكانوا مستضعفين ومهانين ، وتحملوا بل حملوا أنفسهم العار والنكبات وهو أشد العذاب تحملوه وضلوا صاغرين وقد ألقى عليهم الحجة لسوء عملهم ، فقال مخاطباً إياهم ـ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا؟ .

لم يخاطبهم بالصمود والاستكانة والتذلل لمحض التعصب الأعمى باسم الوطنية أو اسم الجنسية أو أي اسم ، وهكذا نرى رسول الله يحرض

المسلمين المضطهدين بالهجرة إلى الحبشة ، وبعدها الهجرة إلى المدينة وقد بقى في المدينة حتى بعد انتصاراته وهو القرشي . وقد جاء في نهج الفصاحة من الكلمات القصار لمحمد (ص) الكلمة ١١١٦ (البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم) .

ألم تجد أن رسول الله يقول لسلمان الفارسي وهو يخاطب المسلمين : لا تقولوا سلمان الفارسي بل قولوا سلمان المحمدي؟ ثم يقول سلمان منا أهل البيت .

ومن أين جاء سلمان حتى أصبح من أهل البيت وكيف أصبح سلمان المحمدي؟ ألم يكن سلمان فارسياً ومن أصل فارسي؟ ألم يكن أعجمياً؟ ألم يكن قبلها مملوكاً؟ ألم يختلف العنصران الفارسي والعربي؟ باللغة بالجنس والسلالة والدولة، والتبعية؟ فما هو الحادي برسول الله أن يطريه وأن يتقبله من أهل البيت إلى أقرب الأقربين ؟

نعم ما هو إلاّ الإيمان . الإخلاص في النية والعمل ، إلاّ التقوى والتقوى وحدها يجب أن تكون المميزة لرفع قيمة الإنسان وإكسابه القربىٰ . وهكذا نجد الإسلام يضع الحجر الأساس لحقوق الإنسان ويميزه بالعقيدة وأي عقيدة؟ نعم الإسلامية، الإيمان بالتوحيد وثبوت النية والجهاد لله أمام شرور النفس والجهاد لله للذب عن حياض المسلمين في الدفاع والهجوم والجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسمو بالخلق الفاضلة ، كل تلك الفضائل إنما منشؤها العقيدة الإسلامية الراسخة الصحيحة المتأصلة قلباً ويداً ولساناً ، وكل ما عداها باطل ، بل كل من تمسك بغير تلك كان تنابزاً بالألقاب ، من لغة ومكان وحسب ونسب وزي ولون وسلالة كلها ، وكلها خارجة عمّا أمر به الإسلام ، فالإسلام يعتبر الناس كلهم مهما اختلفوا لوناً ونسباً وزياً ولغة وبعد المسافة جميعاً من أصل واحد ، لا يميز بينهم غير التقوى وإن أكرمهم أتقاهم عند الله ، أكرمهم عند البارىء المصور القدير الأحد الصمد مالك السماوات والأرضين .

فمن أين جاءت هذه الجنسية؟ وكيف وضعت هذه الامتيازات لأفراد قبيلة على أُخرى أو مدينة أو قطر أو لغة أو لون أو زي على آخر؟ .

نعم هناك ميزات أُخرى لها بعد الإيمان الرفعة والتقدير ، كالعالم والجاهل والبريء والمجرم والمحسن والمسيء ، وهي من مراتب التقوى والإيمان عند الله ، فالعالم أشد رسوخاً في الإيمان من الجاهل وأشد إخلاصاً والبريء عن المساوىء والاجرام والقائم بالبر والإحسان ، هو الأتقى فترى كل ذلك إنما منشؤه الإيمان والتقوى ، درجات من درجات الإيمان ، ودرجات العقيدة هي الميزة الوحيدة في الإسلام والذي يجب أن يكون المميز الأصلي لرفع مقام الإنسان والإنسانية .

فالتقوى بنظر الإسلام هي كلمة تطلق على الفضائل الإنسانية ، ولها درجات ومراحل ، وهذه الدرجات هي الميزة والخصلة الوحيدة التي يعتد بها الدين الإسلامي لتقدير البشر وإعطائه المكانة على قدر تلك الدرجة .

والآن تعال معي لنرى وندرس هذه العقيدة من وجوه أُخرى . وانها كيف ترفع هذه العقيدة ذاتها الفرد مهما كان من الوضع الاجتماعي ومهما كان نسبه وحسبه ، فلا رافع له عند الله لا أب ولا أهل ولا مدينة ولا سلالة ولا مهنة ولا كل شيء ، سوى الإيمان وسوى درجة ذلك الإيمان ، أي درجة التقوى ، والتقوى سيد الأخلاق بنظر نبي الإسلام قال سبحانه عز وجلّ في سورة التحريم الآية ١٠ :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ .

وجاء في الآية ١١ منه **﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾** .

هذا الإيمان والصدق والاخلاص هي المبني لرفع الشخص . ونرى في سورة القلم الآية ٣٥ و٣٩ قوله تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ وقوله تعالى في سورة الجاثية الآية ٢٩ : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون؟ ﴾ وقوله تعالى في سورة الزخرف الآية ٦٧ : ﴿ الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض أعداء إلاَّ المتقين ﴾ .

هكذا يميز الله المتقين لعقيدتهم دائماً عن الجميع فكأن العقيدة بالإيمان بالتقوى بالفضائل بالتوحيد ، هي الميزة الوحيدة عند الله التي يلزم دوماً رفع المرء بها وانها وحدها التي تؤلف بين الافراد تأليفاً واقعياً دون سواها . فنرى بقوله تعالىٰ الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض أعداء إلاَّ المتقين . هنا ميّز عقيدة الإيمان عقيدة الإخلاص والتقوى من بين العقائد كلها ، من العقائد سواء السياسية وغير السياسية سوف تؤول للخلاف والعداء بين أفرادها إلاَّ المتقين .

ما أراد الإسلام بهذا؟ .

إن الحقيقة الواقعية لكل من تعمق ومحص عن الواقع يجد أن الإسلام ذهب مذهباً بعيداً ودقيقاً لهذه الزمرة من أهل العقائد ، وجعلهم الصفوة الدائمة بالصفاء والتعاون والفضائل بين كل المميزات التي تقرب وتبعد الأفراد حتى بين العقائد . وكلما ذكرنا من معنوية ومادية ومختلطة ، وكان في الحقيقة ان الميزة التي يجب تمييز الفرد بها عن سواه دائماً وأبداً ، إنما هي الفضائل وذوو الفضائل المتأصلة الراسخة الواقعية ، وما سواها فهي ليست ميزة يعتد بها ، بل هي صفات وعنعنات يمنعها الإسلام أن تكون فارقاً بين أفراد البشر كما جاء في الآية ١١ من سورة الحجرات المارة الذكر .

الآثار النفسية والروحية في التقارب والتباعد :

إحساس الفرد وشعوره بالمودة والحب والتقارب وبعدها الإخلاص في النية والقول والعمل ، إنما هي دوافع من مكنونات روحية نفسية استقرت ورسخت فيها بعد تهيؤ أسبابها من التوافق الروحي والتشابه النفسي والتناسق المنطقي والمنظر والمسمع والمذاق واللمس والإدراك الجميل للتقارب المتدرج في مراحله حتى ليشعر به الفرد أنه لاصق به بل انها أجزاء تكمل الواحد الأخرى ولا يجد القرار بدونه ، فهو مهوي النفس ومكمنها ومبتغاها في حالها ومستقبلها ، فالحرص عليه كالحرص على النفس ، والذب عنها كالذب عن النفس ، والإخلاص لها سلوة للضمير واقناع له ، والتحدث فيه يوافق الشعور الحي والنهج القويم .

تلك معنويات خالصة وعقائد زكية ترد النفس وتختلط بالروح من طريق الوحي الفكري والتسلط العقلي ، وهي المنتهى والغاية من الإيمان والبغية من العقيدة التي تغنىٰ في سبيلها كل الماديات في الجسم مستحيلة جميعها إلى معنويات متسامية نزيهة رفيعة زاكية تتجلى في صفوة الصفوة من المتقين الذين يصفهم القرآن ، والذين يريد التوصل إليهم والتقرب منهم أفلاطون عند بحثه لانتخاب رئيس جمهوريته والذين يبحث عنهم الحكماء والعرفاء .

وهناك العقائد الواردة ومن طرف آخرين هي المادية المار ذكرها في الجنس والزي والعادة على اختلاف أنواعها ما ذكر منها وما لم يذكر ومحل السكنى والنشأة والمحيط وأمثالها .

فهي ليس لها الأثر الفعّال إلاَّ متىٰ استحالت من ماديتها إلى المعنوية ، وبدا أثرها في النفوس وداخلتها واستقرت معنوية إلى جنب الأولى ، وهي ثابتة راسخة ما استحلت إلى الأولى ومذبذبة ما لم تلج الضمير وتستخرجها العقول الفذة الكاملة ، فتعود متضاربة متخالفة على

فحوى الآية الشريفة ٦٧ من سورة الزخرف ، قوله تعالى ﴿ **الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين** ﴾ .

فتبقى في النتيجة الحقيقة ناصعة جلية وتزول كل الشوائب الممزوجة بها من الماديات ، وتبطل كلما ألصق بالمعنوية من أراجيف ووصفت به من مهازل وأكاذيب. ويبدأ التباعد بين الاخلاء الماديين المشتتين البعيدين عن الواقع المرائين المنافقين الذين قال عنهم الإمام الحسين عليه السلام : (الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم) ، هكذا ترى دائماً الحقيقة واحدة وباقية بيد أنها موزعة في أفراد البشر بصورة نادرة ، ومتى وجدت لا تأتلف إلاّ مع أمثالها ونظائرها ، وهي العنصر الواقعي ، عنصر الخلوص ، عنصر النزاهة ، عنصر التقوى والإيمان الذي لا يمكن الحصول عليه إلاّ عند النخبة الفذة والصفوة الصفوة من أبناء البشر . وإذا قال الشاعر :

فما أكثر الاخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل

فإن الشاعر إنما يريد البحث عن الأفذاذ ذوي الضمائر الحية الزكية والحاملين لروح الإنسانية الواقعية الأقرب إلى المعنويات والخلق السامية .

نعود إلى الجنسية والمرمى المطلوب منه إنما هو مرمي موهوم مفرق منفور منعه الإسلام على الشاكلة التي وضعتها الأنظمة الحديثة وأحكمته بنظم وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا ارتضتها الطبيعة أبداً ، وهي من أسباب العداء والتباعد والمخاصمات في البشر ، ليس لها أساس مما أدلى به منها في هذه التعاليم ويتخبط بها كباقي أعماله الاجتماعية الوحشية في إيجاد النفور والبغضاء والتعاسة بين البشر ، التي يجب أن تزال من صفحات الكتب ، وانها ستزول حتماً آنفاً ، وإذا بقيت فهي أحد الأسباب للقضاء على البشرية جمعاء لما تحويه من أسباب الفساد والتخاصم والتنابز والعداء .

وها اني أصرح وأهيب بافراد البشر وجماعاته ودوله وحكوماته الامتناع والابتعاد عن كل ما يسبب العداء والنفور والتباعد بين أفراد البشر ويفرق بين أفراد هذا العنصر الواحد الموحد في أجزائه وصفاته ، وتفضيل واحد على الآخر بغير مكارم الأخلاق من تقوى وعلم وحكمة وتواضع ونكران الذات وبر وإحسان وأمثالها ، والابتعاد عن وضع حدود تجمع مساوىء الأخلاق من تنابز وتنافس وتناحر وجهل وعقائد ما أنزل الله بها من سلطان وعقائد غير فطرية وطبيعية ، والعمل على ما يسند ويربط ويعضد الإنسان إلى أخيه الإنسان ، مهما كان وأنى كان ومن أين كان . وبعد هذا كله فلا أرىٰ أبلغ وأعظم من القرآن وأصدق وأتقى من نبي الإسلام في قوله مما نزل عليه في الآية ١٣ من سورة الحجرات والآية ١١ منه المارة الذكر والتي نعيد ذكرها قوله عز من قائل .

﴿ يا أيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ و١١ منه : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ الحجرات : ١١ .

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله في الكلمة ١١١٦ لنهج الفصاحة : (البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم) .

وقال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في الجزء السادس من نهج البلاغة الكلمة ٤٣٤ (ليس بلد بأحق بك من بلد . خير البلاد من حملك) .

الكاتب في سطور

الاسم : جواد الخليلي حفيد الحاج مرزه حسين الحاج مرزه خليل أحد المراجع التقليدية الشهيرة .

ولادته : في النجف بتاريخ ١٩١٤/٦/٢٤ شمسية الموافقة سنة ١٢٨٢ هـ في النجف الأشرف .

أسرته : اشتهرت في النجف الأشرف بالفقه والأصول والطب ولهم آثار باقية مدارس علمية باسمهم في النجف .

نشأته : في العراق . اخص النجف .

دراسته : أدبية ـ علمية (في الطب والحقوق وعلم النفس) .

مسكنه وإقامته : العراق ـ إيران ـ ثم هاجر إلى كندا وأقام بها مع أهله وأولاده .

أعماله الإدارية : في الشؤون الطبية والقانون[١] .

هوايته : الشعر والمطالعة والكتابة .

نتاجه العلمي : ديوان شعره باللغة العربية في جزأين ، دائرة معارف الأم والطفل (في التربية والطب في خمسة أجزاء ، العلوم النفسية في علم

---

(١) اثنتا عشرة سنة في منصب طبي ، و٢٣ سنة قاضياً ، وبعدها محامياً ، وقبلها وبعدها مؤلفاً وكاتباً .

النفس والتنويم المغناطيسي وتحضير الأرواح جزء واحد ، الحكومة العالمية المثلى في ثلاثة أجزاء ، موسوعة المحاكمات في عشرة أجزاء ،. جزآن في حياة رسول الله محمد (ص) وجزآن في حياة علي (ع) وجزء عن أبي بكر (رض) وجزء عن عمر (رض) وجزء عن عثمان (رض) وجزء في الناكثين والمارقين والقاسطين ، وبعدها جزآن مفصلة وحوار فيما طرأ بسبب ما تقدم ونتج في الوضع الإسلامي والعلل والأسباب ومحاكمة المسببين وانقسام الأمة الإسلامية وتدهورها .

أولاده : ستة أولاد وثلاث بنات : دكتور باسم طبيب جراح ، دكتور عاصم استاذ جامعة في الهندسة الكهربائية . سالم في الهندسة المعمارية وحسين في الجامعة فرع العلوم في أتاوا وعلي طبيب من أتاوا وحسن في جامعة شربروك بكندا طالب في الصف الثالث ، وبنات ثلاث ذوات شهادات عالية ومتزوجات وذوات أولادهم سلوى وسهام وعصام .

زوجته : كل أولاده من زوجته الوحيدة الهاشمية العلوية الحسينية ومن خير سلالاتها من الأب والأم ولها اليد الطولى في تربية بنيها وأدبهم وتدرجهم على المبادىء الإسلامية الرفيعة والرقي العلمي ـ كما هي الساعد الأيمن في تهيئة الأجواء العلمية والأدبية والاجتماعية لزوجها ممزوجة بروح الاخلاص والتقوى والمودة . هي السيدة نجاة الحسيني بنت السيد أحمد الحسيني .

فهرست الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
تصدير	٥
المقدمة	٧
الحكومة العالمية المثلى	١١

الكتاب الأول

حكومة الطبيعة أو الحكومة الفطرية ـ حد القوانين الاجتماعية ـ حد الطبيعة	١٧
القواعد الاجتماعية	٢١
الغاية من تطبيق الشؤون الاجتماعية على الطبيعة	٢٢
الأسئلة الثمانية	٢٤

الجواب على الأسئلة :

١ ـ هل توافق القوانين الاجتماعية الطبيعية في جميع المراحل والشؤون	٢٧
صفات الإنسان	٣١
٢ ـ هل توافق القوانين الطبيعية جميعها أو بعضها المنطق؟	٣٦
٣ ـ هل توافق القوانين الاجتماعية جميعها المنطق والمعقول؟	٣٧
٤ ـ هل في القوانين الاجتماعية ما تخالف الطبيعة والفطرة؟	٣٨

٥ ــ كيف نفسر الحالة الطبيعية الفطرية في الحيوانات في حياة الضواري وانها تعيش على سلب حياة الأخرى؟ ٣٩

٦ ــ كيف تسيطر الواحدة على الأخرى ــ مرة الصغيرة على الكبيرة وبالعكس ــ مرة القوي على الضعيف وبالعكس ٤٠

٧ ــ هل ينطبق في الأرواح والأفكار والعقول ذلك التنازع وتتغلب على بعضها؟ ٤١

٨ ــ ما هو الجزاء لمن يخالف قانوناً طبيعياً؟ أو يخالف المنطق السليم؟ ٤٣

ماذا يحدث لو عملنا بما يوحيه العقل السليم وحسب؟ ٤٥

أ ــ هل يمكن أن نعتبر الفكر غريزة بشرية؟ ٤٩

ب ــ هل يمكن فصل العقل عن الفكر ؟ ٤٩

جـ ــ كيفية استحصال القوانين الاجتماعية من الطبيعية ؟ ٤٩

كيف نجري الاختبار؟ ٥٠

ما هي بواعث العلل الاجتماعية؟ إذن ما العمل؟ ٥١

الإنسان: (أبدع حكومة عالمية مثلى في جسم الإنسان) ٥٤

الدورة الدموية ٦١

الحسّ ٦٢

المقارنة ٦٦

نموذج من الكفاح الفطري في جسم الإنسان ٧٠

درجة حساسية المراكز . الترميم ٧١

الفوارق بين المجموعة البشرية وبين المجموعة البدنية ٧٣

الفروق بين الحجيرة والإنسان ٧٧

المتشابهات والمتناقضات وأثرها ــ المشابهات المعنوية ٧٩

الحل المعقول والحكم الفصل ــ الإرادة القوية ٨١

القانون الأساسي ٨٣

قانون الجزاء ٨٤

السـرطـان ٨٩
أدناه نورد بعض الأسئلة ٩٣

الكتاب الثاني

الأمثلة التطبيقية ٩٧
علم الأخلاق ١٠٠
١ ــ المنطق السليم ١٠٣
٢ ــ تعلموا الحياة من الطبيعة ١٠٤
٣ ــ إن الطيور على أمثالها تقع ١٠٥
٤ ــ الابتسامة ــ القصيدة ١٠٧
٥ ــ التاريخ يعيد نفسه ١١٠
٦ ــ المخدرات كما تقلل الشعور بالألم تقلل الشعور باللذة أحياناً ١١١
٧ ــ الناس معادن ١١١
٨ ــ الكرة تنفجر وتتفسخ ١١٣
٩ ــ العقـد ١١٧
١٠ ــ تداخل الخيوط ــ الرباعية ١١٨
١١ ــ التجربة خير دليل ١١٩
١٢ ــ طبائع البشر لجلب الخير مرة ودفع الشر أُخرى ١٢٠
١٣ ــ عرقلة صغيرة تجر وراءها عراقيل ١٢١
١٤ ــ انتقال طبيعة المأكول للآكل ١٢٣
١٥ ــ قابلية اكتساب البدن والروح لصفات الخير والشر ١٢٤
١٦ ــ درجة الاعتدال ــ الزائد كالناقص ١٢٥
١٧ ــ الظاهر دليل على الباطن ١٢٧
١٨ ــ كيف تنشأ الصدمات وكيف تزول ١٢٩
١٩ ــ درجة الاشباع في الماديات والمعنويات ١٣٠
٢٠ ــ اغلاط الحواس والتعود عليها لا تضيع الحقيقة ١٣١

٢١ ــ الانقلاب جمعه انقلابات ١٣١
٢٢ ــ من هو المرء المهذب (الحكيم) ١٣٣
٢٣ ــ روح المصاحبة والصفات المكتسبة ١٣٦
٢٤ ــ بلوغ الهدف ١٤٠
٢٥ ــ نظرية هل تصدق؟ العلاج بالنوم الطويل ١٤١
٢٦ ــ فرِّق تسد ١٤٢
الوقاية خير من العلاج ــ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ١٤٤

الكتاب الثالث

ذووالآراءوالأديان ١٤٧
المقدمة ١٤٩
الهند ــ البراهمة ــ البدرة ١٥٦
ذووالفكر ــ ذوو الروحانيات ١٥٧
المهاكلينية ١٥٨
الاكيواطرية ــ حكماء الهند ١٥٩
الودائية ــ البودائية ١٦٠
الفروق بين البودائية والإسلام ١٦٢
ما يؤخذ على بودا ١٦٣
مذهب جين ١٦٤
أساس العقيدة الجينية ١٦٥
العقائد الصينية ١٦٦
مذهب تا أو ١٦٧
كونفوشيوس ــ تعاليمه ١٦٩
الكتب المذهبية ــ ما يؤخذ عليه ١٧٠
مذهب شين تو في اليابان ١٧٣
مذهب زرتشت ــ المبادىء الزرتشتية ١٧٩

مذهب مهر ١٨١
مذهب ماني ١٨٢
الصابئة ١٨٤
الفلاسفة (الحكماء) ١٨٥
العرب قبل الإسلام ١٨٦
الديمقراطية ١٨٨
الشيوعية ـ الفاشستية ـ اليونان ١٨٩
أفلاطون وآراؤه وجمهوريته ١٩٢
النقد والإصلاح عنده ١٩٤
الحلول النفسية ١٩٥
الحلول العملية ١٩٦
الحل السياسي ١٩٧
منزلة المرأة عند أفلاطون ١٩٨
الحل الاجتماعي ١٩٩
تقسيم الحكومات عنده ٢٠٠
دين اليهود ٢٠٤
عقائدهم ٢٠٥
اليهود في الماضي والحاضر ٢٠٨
المسيحية ٢٠٩
الأقانيم ٢١٠
الكتب المقدسة عند المسيحيين ٢١٢
أصول العقائد عندهم ـ شراء الخطايا ٢١٣
المحبة ٢١٤
الجبر والاختيار الارثوذكس والنسطوريون ٢١٥
الآباء المسيحيون ـ الخطيئة ٢١٦
تمجيد الإسلام لاسفار الأديان السماوية وتنزيههما ٢١٩

المســلمـون ٢٢٤
الإســلام ٢٢٧
القرآن ٢٢٩
الواجبات ـ الصلاة ٢٣٠
الزكاة والخمس وحل المشاكل الاقتصادية ٢٣١
تقسيم العالم لثلاثة مكاتب أعدلها الإسلام ٢٣٣
الصوم ٢٣٥
الحج ٢٣٦
الجهاد ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٣٨
العقود ـ الأحوال الشخصية ـ الأطعمة والأشربة والصيد ـ
القضاء ـ واجب الاعتقاد ٢٣٩
المقارنة بين العقائد والآراء المارة ٢٤٦
لبلوغ الحكومة العالمية المثلى وإدراك السعادة ٢٥١
خير الحكومات ٢٥٣
١ ـ الرأسمالية ٢٥٤
٢ ـ الكتل الاشتراكية ٢٦٣
٣ ـ الدينيـــة ٢٦٥
التقوى ٢٨٠

الكتاب الرابع

المنظمات الحية ٢٨٩
النحل ٢٩١
الملكة ٢٩٢
مدى سلطان الأم ـ الأميرات ٢٩٣
الذكور ـ الطبقات الأخرىٰ ٢٩٤
المحافظون ـ اللاسعات ـ الاخصائيون بالبناء ٢٩٤

تنحي الملكة ـ مآل الذكور ٢٩٦
القضاء على الأميرات ٢٩٧
المقارنة بين حياتها وحياة البشر ٢٩٨
رمز الوحدة ٣٠١
صنع الخلايا ٣٠٦
النقد الموجه للنحل والإنسان ٣٠٧
حواس النحل ٣٠٨
بناء الخلايا ٣٠٩
نمو النحل وتعليماته ـ الطبيعة تكثر النحل ـ الاستثناءات ٣١٠
الختام ٣١١
النمل ٣١٥
العائلة النملية ٣١٧
طبقات النمل ـ النظام الجمهوري ٣١٩
خصائص النمل ـ التوالد ٣٢٠
عمر النمل ـ بيوت النمل ٣٢١
استراحة النمل ـ سكان الأشجار ـ بيوت النمل الاصطناعية ٣٢٣
النمل المحارب ـ فنون النمل الحربية ٣٢٤
الثورة على الأسياد ٣٢٥
الملكية عند النمل ـ عواقب الحرب والاحتلال الاجباري ٣٢٦
النمل الوحشي ـ روابط النمل ٣٢٧
الوعي عند النمل وتربية الدواجن ٣٢٩
يستفيد في الزراعة ـ النمل الحائك ٣٣٠
ذوات المذاخر ـ النمل يطفىء النار ـ اتقاؤها من ضرر الماء ـ
النمل الطفيلي ٣٣١
مقارنة الإنسان بها وبغيرها ٣٣٤
الأرضة ٣٣٧

ملكتها ٣٣٨
العمال ــ الجنود ٣٤٠
العائلة المالكة ــ التزاوج ٣٤٢
أضرارها للبشر ٣٤٤
القوة المبدعة ٣٤٥
امتيازات الأرضة على الإنسان ٣٥٠

الكتاب الخامس

الجنسية : (التابعية) ٣٥٣
المقدمة ٣٥٥
ما هي الجنسية ٣٥٨
أسباب التقارب والتباعد في البشر ٣٦٠
العقيدة ٣٦١
المعرفة ٣٦٢
المادية ــ الوطن ٣٦٥
اللــون ٣٦٨
الجنس والعنصر والدم ٣٦٩
الــزي ٣٧٠
التزاوج والتوالد والتقارب العائلي ٣٧٢
النشــأة ٣٧٣
الخلقة والتقاطيع الجسمية ٣٧٤
المختلطة ــ اللغة ٣٧٥
الحرفة والمهنة والوظيفة ٣٧٨
المحيط والتربية ٣٨١
العــادة ٣٨٣
الجنسية والوطنية عند الحيوانات ٣٨٦

الجنسية والقانون الطبيعي في بدن الإنسان ٣٩٢
التاريخ القديم والجديد والجنسية ٣٩٥
أهل الآراء وأهل الأديان ٣٩٨
القرآن والجنسية ٤٠٤
الآثار النفسية والروحية في التقارب والتباعد ٤١٠
الكاتب في سطور ٤١٣
الفهرس ٤١٥









